سياسة
صلاح الدين الأيوبي
في بلاد مصر والشام والجزيرة
٥٧٠ - ٥٨٩هـ / ١١٧٤-١١٩٣م

رسالة ماجستير قدمت الى جامعة بغداد
باشراف الاستاذ محمد توفيق حسين وقد
نالت درجة جيد جدا

دريد عبد القادر نوري
مدرس مساعد ـ قسم التاريخ
كلية الآداب ـ جامعة الموصل

ساعدت جامعة بغداد على طبعه

مطبعة الارشاد
بغداد ـ ١٩٧٦

سياسة صلاح الدين الأيوبي
دريد عبدال

THE POLICY OF SALADIN IN GREATER SYRIA, EGYPT AND AL-JAZEERA
570-589 A.H. / 1174-1193 A.D.

Athesis

Spbmitted to the Council of the College of Arts. Th
University of Baghdad in Partial Fulfilments of Maste
of Arts in Islamic History.

By
Dorayed Abdul Kader Noori

رقم تسلسل التعضيد (٨٦) للسنة الدراسية (١٩٧٥/١٩٧٦)

Baghdad — 1976

سعر النسخة (ديناران ونصف)

سياسة

صلاح الدين الأيوبي

في بلاد مصر والشام والجزيرة

٥٧٠ - ٥٨٩هـ / ١١٧٤ - ١١٩٣م

د. ريد عبد القادر نوري

ساعدت جامعة بغداد على طبعه

مطبعة الارشاد

بغداد - ١٩٧٦



الاهـــداء

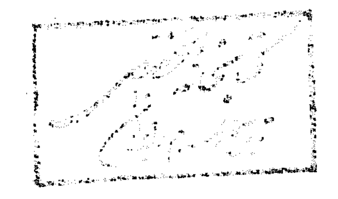
الى القادر القاهر ..

الذي هيأ لهذه الامة من وحّدها .. ومن قادها لتحرير اولى القبلتين وثاني المسجدين ، وثالث الحرمين ، ومعراج الرسول ومقر الانبياء (عليهم السلام)

اليه جل جلاله ..

واياه نسأل ، في محنة فلسطين هذه ، أن يهيىء لهذه الامة ما هيأ لها من قبل ، ويكتب لها النصر الذي كَتب .

اليه ترجع الامور ..



بسم الله الرحمن الرحيم

المُقـــدمَة

يشكلُ عصرُ الحروبِ الصليبيةِ ، بالنسبةِ للشرقِ والغربِ على السواءِ ، تجربةً خطيرةً مليئـةً بالحوادثِ والعظاتِ ما زالتْ تتطلبُ المزيدَ من الدراساتِ والابحاثِ . ويعتبرُ عصرُ صلاحِ الدينِ ، من اهمِ فتراتِ الحروبِ الصليبيةِ ، خاصةً بالنسبةِ للمشرقِ الاسلاميِّ ، لما نلاقيهِ اليومَ من مَخاطِر تمثلتْ بالهجماتِ الاستعماريةِ والصهيونيةِ ، على العالَمِ العربيِ واحتلال فَلسْطينَ . وممّا يجعَلُ دراسةَ مسيرةِ صلاحِ الدينِ وجهادِهِ وما واجهَـهُ من مُشكِلاتِ وما قـدّمَ من حُلولٍ ، أمراً مفيداً وملهماً لابناءِ امتِنا العربيةِ ، انّ صلاحَ الدينِ عاشَ في فترةٍ تشابهتْ ظروفُها وحوادثُها مع وضعِنا الراهنِ ، من نواحٍ عديدةٍ ، وأنّه تمكّن بفضلِ ما امتـازَ بـهِ من مقدرةٍ سياسيةٍ وعسكريةٍ أنْ يُعيدَ للمنطقةِ العربيةِ الاسلاميةِ حُرّيتَها وامنَها وأنْ يطردَ الغزاةَ من معظمِ ما استَولَوا عليهِ من البلادِ .

ورَغبـةً مني في مشاركةِ أُمتي في البحثِ عن حلولٍ لمشكلاتِها ومعايشةِ قضاياها المصيريةِ ، فقد أُخترتُ موضوعَ رسالتي التي توضحُ كيف تمكنَ صلاحُ الدينِ من توحيـدِ الامةِ وتحريرِ القدسِ علَّ ذلكَ يُفيدُ في تحريكِ ابناءِ الامةِ للعملِ من اجلِ التحريرِ والوحدةِ في الوقتِ الحاضرْ .

وما زالتِ المكتبةُ العربيةُ بحاجـةٍ الى كتابٍ يبحثُ في سياسةِ

صلاح الدين بحثاً كاملاً لأن اغلب المراجع العربية الحديثة تقريباً تقتصر على الجوانب العسكرية أو السياسية فقط في حياة صلاح الدين ، وربما أشارت الى ذلك عرضاً في سياق حديثها عن العلاقة بين الشرق والغرب ، أو عن الحروب الصليبية عامة . اما البحث عن سياسة صلاح الدين الداخلية والخارجية ، وموقفه من الصليبين والخلافة العباسية والحركة الاسماعيلية والاتابكة ، والنظم الاقتصادية والادارية ، التي كان له الاثر الكبير في تطويرها مع دراسة كل هذه الجوانب على حدة ، فما زال في مراحله الأولية . وهذا ما جرأني على المساهمة في بحث هذا الموضوع الخطير .

عاش صلاح الدين في البيئة الزنكية ، وتعلم من سلطان الشام نور الدين محمود بن زنكي الكثير من فنون الحرب والسياسة ، كما شاهد عدة معارك واشترك بها ضد الصليبيين الذين كانوا يغيرون على بعض مناطق الشام ، حتى أعجب به من رآه وتوقع له مستقبلاً زاهراً ، صحب عمه اسد الدين شيركوه الى مصر ثلاث مرات . وفي المرة الثالثة تقلد شيركوه منصب الوزارة لدى الخليفة الفاطمي . ولم يمض على تعيينه سوى بضعة أشهر حتى توفي ، فانتخب من بعده صلاح الدين ، وكان ذلك سنة ٥٦٤هـ/١١٦٩م . وبعد مضي ثلاث سنوات اسقط الخلافة الفاطمية ، ثم اعقب ذلك وفاة نورالدين محمود . وكان لوفاته اثر كبير في ابراز شخصية صلاح الدين وتحديد العلاقة بينه وبين القوى التي كانت تتنازع من اجل الاستيلاء على منطقة الشام وهي : الحركة الاسماعيلية

والزنكيون والصليبيون والخلافة العباسية .

في تلك الفترة كانت منطقة الشام والجزيرة مفككة الاوصال ، ولم يكن بين رجال البيت الزنكي من امكنه ان يصبح خلفاً لنور الدين محمود ، وان يحتل المكانة المرموقة التي تؤهله لقيادة الامة ، والتصدي للصليبيين ، الذين اصبح خطرهم يهدد أمن الشام وأهله .

وكان المشرق الاسلامي آنئذ ، يعيش استمرار ثورة فكرية ودينية وادبية ، تكونت استجابة للتحدي الذي أوجده الصليبيون إثر دخولهم الشام واحتلالهم البيت المقدس سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٩م وقتلهم وتشريدهم آلاف المسلمين . فكان جمهور المسلمين يثور ، بين الفترة والاخرى ، مطالباً حكامه بالتحرك السريع لازالة العدوان . غير ان ضعف الخلافة العباسية في بغداد ، وتفرق كلمة الامراء المسلمين واختلافاتهم الكثيرة ، من اجل الحفاظ على سلطانهم واماراتهم ، وتعاون بعضهم مع عدوهم ، اقتضى ظهور قائد قدير يتصدى للاوضاع الراهنة ويحتل مكانة نور الدين في مقاومة الاعداء .

وبفضل المواهب التي امتاز بها صلاح الدين ، تمكن أن يحتل مكانة نور الدين وان يستغل الظروف ، فقد استطاع ان يوحد بلاد مصر والشام والجزيرة ، وان يقود عساكر المناطق الموحدة لمحاربة الغزاة الصليبيين . ولم يمض سوى ثلاثة عشر عاماً من بدء كفاحه سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م حتى تمكن من تحرير القدس سنة

٥٨٣هـ/١١٨٧م ، ثم أجبر اعداءه ، بعد مضي خمس سنوات ، على توقيع معاهدة سلام والانسحاب من ارض الشام ، بعد فشل الحملة الصليبية الثالثة .

ومن المفيد ان اذكر ان دراسة عصر صلاح الدين ، لا تعني فقط دراسة جزء من تاريخ دويلة من الدويلات الاسلامية التي ظهرت في القرنين السادس والسابع الهجريين وهي الدولة الايوبية ، فحسب ، بل تعني دراسة قطاع من تاريخ الخلافة العباسية من جهة ، ودراسة تاريخ خاص لقائد من القواد المسلمين البارزين . ولعل اهمية عصر صلاح الدين لا تكمن في كونه عصراً من عصور تلك الدويلات التي ظهرت في العصور الوسطى ، ابان ضعف السلطة المركزية ، ولا مجرد كونه مركزاً هاماً من مراكز الاشعاع الثقافي ، بل لكونه من العصور التي تشابهت وظروف عصرنا ، من جوانب عديدة ، وهذا مما قد يساهم في فهم مشاكلنا المعاصرة ، ويدفع بنا الى التعرف على العوامل التي جعلت صلاح الدين وجنده ، يقفون سداً منيعاً بوجه الغزو الصليبي الذي كان يستهدف القضاء على الوجود الاسلامي في منطقة الشام .

تشمل الرسالة على خمسة فصول ، خصص الفصل الاول لدراسة احوال المسلمين السياسية في القرن السادس الهجري واسباب الحروب الصليبية ، والاساليب التي اتبعها الصليبيون في الاستيلاء على المناطق الاسلامية . والبحث عن اصل صلاح الدين ونشأته ودخوله مصر ، وتقلده منصب الوزارة الفاطمية ، ثم

سيطرته على مقاليد الامور في مصر حتى سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م ليكون هذا الفصل قاعدة الفصول الاخرى وركيزتها .

اما الفصل الثاني : فقد بحثت فيه سياسة صلاح الدين في إعادة الوحدة بين مصر والشام وبلاد الجزيرة في الفترة الواقعة ما بين سنتي ٥٧٠ و ٥٨٢هـ/١١٧٤ – ١١٨٦م . بعد أن اوضحت اضطراب الاحوال السياسية بعد وفاة نور الدين واسباب تقدم صلاح الدين الى الشام ، ثم تحليل موقف صلاح الدين من الموصليين والحلبيين واهالي سنجار وآمد .

وفي الفصل الثالث بحثت موقف صلاح الدين من القوى الصليبية ، وعن اسباب محاربتهم ، وحللت المعارك التي وقعت بين الجانبين ، وبينت اهميتها ، كمعركة حطين مثلاً سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م والتي كان فتح بيت المقدس من نتائجها . وقد وقفت قليلاً على احوال القدس قبل الفتح وبعده ، والاعمال التي قام بها صلاح الدين في القدس بعد فتحها ، وعن اول خطبة أُلقيت في المسجد الاقصى بعد تحريره . وقد اعقب ذلك الحديث عن موقف صلاح الدين من الحملة الصليبية الثالثة واسبابها ، وامكانيات صلاح الدين في صد هجماتها . وعن العلاقة بين ريتشارد وصلاح الدين واسباب عقد الصلح بين الجانبين واهمية ذلك الصلح .

اما الفصل الرابع : فقد خُصّص للبحث عن موقف صلاح الدين من الحركة الاسماعيلية والخلافة العباسية . وقد قدمت للفصل

بعدة صفحات عن تاريخ الاسماعيلية ليكون البحث وحدة متكاملة ، يستطيع القارئ بموجبها أن يتلمس الاسباب الخفية لظهور الحركة الاسماعيلية ، وماهية اهدافها ، والعوامل الحقيقية التي دفعتهم لمحاربة صلاح الدين .

وبحثت في الفصل الخامس والاخير النظم الحضارية ، وسياسة صلاح الدين الداخلية ، فتكلمت عن الكتابة والكُتّاب وعن القضاء وعن موارد الدولة ومصروفاتها . وعن اهتمام صلاح الدين بالمدارس والتعليم . وحللت العلاقة بين صلاح الدين وامرائه . وكيفية ادارته للمدن والقلاع . وينتهي الفصل بالحديث عن الجيش ونظم التعبئة والبحرية وانواع المراكب واهميتها .

ورغم انّ البحث مغرٍ ومفيد ، غير انه واجهتني عدة صعوبات كان من اهمها عدم معرفتي للغة الفرنسية ، التي كُتب بها العديد من الدراسات عن الحركة الصليبية الثالثة ، التي اشتركت فيها فرنسا ، وقد تغلبت على هذه المشكلة بالاستعانة بالعارفين باللغة الفرنسية على ترجمة النصوص المهمة .

اضف الى ذلك قلة ما وُجد في المصادر التاريخية من معلومات عن النُظم الحضارية في عهد صلاح الدين ، وربما ندرتها . لاهتمام المؤرخين بالجانب السياسي والعسكري لان عصر صلاح الدين شهد تبدلات عسكرية وسياسية خطيرة ، كسقوط الدولة الفاطمية ووفاة نورالدين ، وتبوء صلاح الدين قيادة المسلمين في مصر والشام وبلاد

الجـزيرةِ وغيرِ هـا من المناطقِ ، وسـقوطِ القدسِ ، وما حـدثَ من اصطدامات ٍ عسكريةٍ بين صلاحِ الدينِ وقادةِ الحملةِ الصليبيةِ الثالثة . كل ذلك دفعَ بالمؤرخين الى نسيانَ الجانبِ الحضاريِّ والثقافيِ ، أو الاقلالِ من شأنه .

وثَـمةَ ملاحظاتٌ لا غِـنى عن تِبيانِـها بصددِ الطريقةِ التي اتبعتُـها في البحثِ :

أولا :ـ اتخذتُ جانبَ التحفظِ عندما كنتُ أقتبسُ رأياً تاريخياً معيناً ، وكنتُ اتساءلُ هلْ تستطيعُ تلكَ المصادرُ ان توصِلَـني حقاً وبدقـةٍ الى ما اريـدُ ان أعْـلَمَـهُ ؟ وهل ان تلكَ المصـادرَ تُثْبتُ صِحةَ ما أردتُ كتابتَـه ؟

ثانيا :ـ لم اكتفِ بنقـلِ الرواياتِ التاريخيةِ من مصادرها ، بل كنتُ ابحثُ ايضاً عن المصادرِ التي نَقَلَ عنها المؤرخُ رواياتِـهِ . فمثلا نَقَلَ المؤرخُ ابو سامةَ (ت : ٦٦٥هـ) في حديثِـهِ عن صلاحِ الدينِ ، الـكثيرَ من الرواياتِ عن الاصـفهانيّ وابنِ الاثيرِ وابنِ ابي طيء . وهم مؤرخونَ لهم وُجُهَاتُ نظرٍ مختلفةٌ عن صلاحِ الدينِ .

فابنُ ابي طيءٍ شيعيُّ المذهبِ . ومن المحتملِ ان تكونَ له وجهةُ نظرٍ خاصةٌ عَنْ صلاحِ الدينِ الذي اسقطَ الدولةَ الفاطميةَ الشيعيةَ المذهبِ .

والاصفهانيُّ كانَ وزيرَ صلاحِ الدينِ وكاتِبَهُ . امـا

ابنُ الاثيرِ فقد كانَ موصليَّ البيئةِ • كما سنرى فيما بعدُ ـ وكان صلاحُ الدينِ قد حاصَرَ الموصلَ عدة مراتٍ • فهل يا ترى يُمكنُ لباحثٍ أن يَصِلَ الى حقيقةٍ تاريخيةٍ ، وهو يشيرُ فقط الى ابي شامَةَ كمصدرٍ لمعلوماتِهِ من دونِ ان يذكُرَ من اين استَقى ابُو شامَةَ رواياتِهِ ؟ ولذلكَ حاولتُ الرجوعَ الى المصادرِ التي إعتمدَ عليها المؤرخونَ اللاحقون •

ثالثا :ـ وعندما كنت ابحثُ عن الصيغةِ التي تجعلُنِي اَثِقُ بما كتبتُ ، كنتُ اتساءَلُ : كيف أتمكنُ ان أُثْبِتَ ما كَتَبْتُهُ ؟ ومن كلِّ ذلكَ توصلتُ الى حقيقةِ أنه متى استطاعَ المؤرخُ ان يعرفَ ليسَ فقط ما كتَبَ ، وانما لماذا كتبَ ، فإنه في طريقهِ ليكونَ مؤرخاً ناقداً اضافةً الى كونهِ مؤرخاً مدركاً • ولما كان لكلِّ مؤرخٍ ميولُهُ ونزعاتُهُ ، التي رُبما اثرتْ على كتابتِهِ • لذلكَ دفعني هذا مُسبقاً الى دراسةِ حياةِ كلِّ مؤرخٍ ، وخاصةً اولئكَ المعاصرينَ لصلاحِ الدينِ • لأَتلمَّسَ من ذلكَ موقفَهُ من صلاحِ الدينِ ، ولاكُونَ على حذرٍ عندما اقتبسُ روايتَهُ •

رابعا :ـ وردَ في البحثِ ذكرُ العديدِ من أسماءِ المعاركِ أو الحوادثِ التي لا تعتبرُ من صميمِ البحثِ وقد اشرتُ اليها اشارةً سريعةً ، واكتفيتُ بذكرٍ محددٍ من المصادر ذاتِ العلاقةِ في الهوامشِ لتكونَ دليلاً لمن أرادَ الاستزادةَ في البحثِ عنها •

وأخيراً يطيبُ لي أن أسجلَ شكري وعرفاني لاستاذي

محمد توفيق حسين الذي تمت هذه الرسالة تحت إشرافه ، ولمن بذل لي عوناً من اساتذة جامعتي بغداد والموصل .
وختاماً لا ادعي كمال بحثي هذا ، وارجو أن أكون قد وفقت ، ولو بعض التوفيق ، فيما سعيت من أجله . والله تعالى ولي التوفيق .

بغداد ــ محرم الحرام ١٣٩٦هـ

كانون الثاني ١٩٧٦م

دريد عبدالقادر

قسم التاريخ ــ كلية الآداب

جامعة الموصل

تحليل المصادر والمراجع

أ ـ المصادر العربية المعاصرة لصلاح‌الدين :

ادرك عصر صلاح‌الدين عدد من المؤرخين والرحالة ، وهم قسمان : قسم خصص قلمه للكتابة عن صلاح‌الدين وعصره وأشار اليه القسم الثاني في سياق تأريخيه للحوادث ، أو حين مروره في الشام • ونظرا لاهمية المؤرخين المعاصرين لصلاح‌الدين ، الذين هم الركيزة الاولى في كتابة هذه الرسالة ، رأيت ان اتناولهم بالنقد والتحليل وهم حسب سنوات وفاتهم :

١ ـ عمارة اليمني[١] (ت : ٥٦٩هـ)

شيعي المذهب ، تعاون مع اتباع الدولة الفاطمية للقضاء على صلاح‌الدين بعد اسقاط الخلافة الفاطمية • غير ان المؤامرة فشلت واعدم عمارة • قدم في كتابه « النكت العصرية في اخبار الوزارة المصرية » معلومات قيمة عن مصر قبل دخول الايوبيين اليها • وخاصة ما كان يدور بين الوزراء من نزعات للسيطرة على الوزارة ، فقد شاهد عمارة دخول صلاح‌الدين لمصر سنة ٥٦٤هـ وكيف أعاد الوزير شاور الى الوزارة • كما قدم معلومات جيدة في معرفة أسباب عودة صلاح‌الدين وعمه شيركوه الى الشام بعد وصولهم الى مصر ، وكان عمارة شاهد عيان لدخول صلاح‌الدين لمصر في المرة الثالثة ، وسجل كل ما شاهده بنفسه ، واثر تلك الحملة في ايقاف الاعمال التخريبية التي قام بها الصليبيون في مدينة بلبيس والفسطاط[٢] •

وبصورة عامة فعمارة لم يكن ممن ارخ لصلاح‌الدين تأريخا كاملا ،

---

(١) سوف اشير فقط الى شهرة المؤرخ ، تحاشيا للتكرار ، ونلفت النظر الى ان الاسم ورد كاملا في قائمة المصادر والمراجع •

(٢) انظر : تاريخ ابن الفرات (البصرة : ١٩٦٧) م ٤ : ١/٢٥ ؛ بيومي ، قيام الدولة الايوبية في مصر (القاهرة : ١٩٥٤) : ١٣١ •

انما ذكر شيئا من اخباره في سياق حديثه عن الوزارة والوزراء الفاطميين ، وقد اعتمدت على بعض ما كتبه فيما نقله الينا أبو شامة في الروضتين •

٢ ـ الرحالة بنيامين (ت : ٥٦٩هـ)

يهودي العقيدة ، زار منطقة الشـام وكتب ما شاهده في رحلته • وقـدم معلومات قيمـة عن احوال الشام السياسية والعسكرية قبل تسلم صلاح الدين زمام الامور فيها غير ان قيمة الرحلة تكمن في ما قدمته من معلومات نادرة اوضحت العلاقة الحقيقية بين الحركة الاسماعيلية واليهود ، فقد اوضح بنيامين ، وهو اليهودي العارف بأحوال اليهود أكثر من غيره ، بأن أربعة آلاف يهودي كانوا يعملون ضمن نطاق الحركة الاسماعيلية ، وانهم كانوا يتنقلون معهم في الجبال ، وان راس الجالوت ببغـداد كان يرسل العلماء اليهود لمساندة تلك الحركة[١] • وفي هذا ما يوضح القاعدة والاهداف التي كانت عليهـا الحـركة الاسماعيلية ، وأسـباب مقاومتهـا لصلاح الدين والخلافة العباسية ، وأسباب محاربة المسلمين السنيين لها •

٣ ـ ابن ابي طيء ولد سنة ٥٧٥هـ

يحيى ابن النجار ، كان والده من أعيان الشيعة في حلب[٢] • ارخ للسلطانين نورالدين وصلاح الدين ، وأعطى مدينة حلب قدرا ملحوظا من اهتمامه ، لـه عـدة مؤلفات[٣] ، وقـد اتبع طريقة الحوليات في الكتابة التاريخية • وقـد ظهرت ميوله واضحة في كتـابته ، وخاصة في تصوير

---

(١) رحلة بنيامين (بغداد : ١٩٥٤) : ١٥٣ ـ ١٥٤ •

(٢) أبو شامة ، شهاب الدين ، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية (القاهرة : ١٢٨٧هـ) : ١/١٧٤ •

(٣) للاطلاع على مؤلفات ابن ابى طيء التاريخية انظر :
Cahen, La Syrie du nord a lepoque des Croisades (Paris, 1940), P. 55.

مساندة الشيعة في حلب للملك الصالح بن نورالدين ، بأنها كانت معارضة تمثل أهالي حلب جميعا • بينما كانت الحقيقة بعيدة عن ذلك • اذ كان أهالي حلب السنيون ، وهم كثير ، مستبشرين بقدوم صلاح الدين كما سيتبين ذلك في الفصل الثاني •

غير ان ابن أبي طيء ، في المواقف الاخرى التي لا تمس الشيعة النزارية ، كان يقف موقفا معتدلا من صلاح الدين • فقد علل مثلا أسباب انسحاب صلاح الدين من حصار مصياف ـ مركز حصون الاسماعيلية في الشام ـ بانه كان لاسباب سياسية وعسكرية ، لهجوم الصليبيين على بعض مدن الشام الاسلامية[1] ، وهو تعليل معقول •

اما مصدر اعتمادي على روايات ابن أبي طيء : فكان كتاب الروضتين لابي شامة ومصادر أخرى •

٤ ـ أسامة بن منقذ (ت : ٥٨٤هـ)

قدم في كتابه « الاعتبار » الذي هو من كتب السيرة الذاتية والمذكرات ، ما كان يشاهده في حياته اليومية من أخلاق الصليبيين ومعاملتهم للمسلمين • وقد أشار الى صلاح الدين عرضا ، وامتدحه واعتبره محي سنة الخلفاء الراشدين ، وانه صلاح الدنيا والدين[2] • وفي هذا ما يوضح سياسة صلاح الدين وخلقه •

٥ ـ القاضي الفاضل (ت : ٥٩٦هـ)

محي الدين العسقلاني ، كان متولي ديوان المكاتبات في العهد الفاطمي ، ولما تولى صلاح الدين الامر بالقاهرة ، قربه اليه لحسن خلقه ومقدرته في الكتابة ، حتى أصبح وزيرا للسلطان يتنقل معه حيثما ذهب • وكان

---

(١) انظر : الروضتين : ١/٢٦١ •

(٢) كتاب الاعتبار (برنستون : ١٩٣٠) : ١٦٤ ، ١٦٥ •

صلاح الدين يستشيره حتى في الامور الشخصية[1] • ولهذا فان ما كتبه من رسائل ومنشورات وكتب تعتبر ذات قيمة تاريخية كبيرة •

اعتمدت على كثير من تلك الكتب والرسائل ، التي كان يرسلها للامراء بتوقيع صلاح الدين • وقد افادتني في معرفة الكثير من جوانب سياسة صلاح الدين وأهدافه العامة • وكان مصدر اعتمادي على ما دونه الفاضل ، فيما ورد من نصوص في كتاب الروضتين لابي شامة ، ووفيات الاعيان لابن خلكان وغيرهما •

٦ ـ ابن الجوزي (ت : ٥٩٧هـ)

قدم ابن الجوزي في كتابه « المنتظم في أخبار الملوك والامم » وهو من كتب التواريخ العامة ، معلومات مفيدة ، غير انها مختصرة • وربما القت بعض الاضواء على حقيقة العلاقة بين صلاح الدين ونور الدين وموقف صلاح الدين من الاسماعيلية •

٧ ـ الاصفهاني (ت : ٥٩٧هـ)

عبدالله محمد بن محمد كان من كتاب عصره المشهورين ، يتميز اسلوبه ، واسلوب القاضي الفاضل ، بالاسراف في المحسنات اللفظية والصياغة البديعية ، غير ان تأليفه كان يحوى الكثير من الروايات التاريخية المتازة التي تستحق العناية لان مؤلفها شاهد وعاصر الاحداث بنفسه ، ثم سجلها باسلوبه الادبي ، الذي أتعبني كثيرا في استخلاص الحقيقة من تحت ركام الصيغ الادبية والتفنن البياني •

ومن الخطأ أن نقول ان تأليف الاصفهاني عن صلاح الدين ـ على ما وجد فيها الكثير من المدح ـ كانت احدى وسائل الاعلام والدعاية

---

(١) انظر الروضتين : ٢/١٦٥ ، ١٩٣ ، ٢٠٥ •

للسلطان ليس الا • ذلك لان صلاح‌الدين باجماع المصادر ، كان رجل عصره وهو مثال القائد الذي حرك ابناء جيله نحو محاربة الغزاة ، ولذلك فان مدح الاصفهاني له كان نابعا من ايمانه العميق بوصف حقيقة ما كان عليه صلاح‌الدين ، وليس الدعاية له •

كان الاصفهاني من كتاب ووزراء نورالدين محمود • ولما توفي نورالدين سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م انتقل الاصفهاني الى خدمة صلاح‌الدين • والسبب في ذلك يكمن ـ كما ذكر الاصفهاني نفسه في البرق الشامي ـ انه « لما توفي نورالدين اختل أمري واعتلّ سري ، وفاض دمعي ، وغاص بحري وعلت حسّادي وبلغ مرادهم اضدادي »[١] وهذا ما يدفع الى ان نأخذ بتحفظ ما كتبه الاصفهاني عن الزنكيين بعد وفاة نورالدين •

وقد استخدم الاصفهاني في كتابته صيغة جمع المتكلم • فكان حينما يحدثنا عن حركات صلاح‌الدين العسكرية والتي كان الاصفهاني الى جانبه فيها يقول « واشرفنا على جبله » ، « ورحلنا ظهر يوم كذا »[٢] • وقد علل المستشرق جب أسباب استخدام صيغة الجمع فقال : « لا تجوز نسبة هذه الى الغرور والاعتداد بالنفس ، بل الى عادته الراسخة في استخدام عبارة رسائل الدواوين »[٣] • والحقيقة ان الاصفهاني عندما يحدثنا بتلك الصيغة ، لم يقصد بها الكلام عن ذاته ، انما كان يعني العسكر الايوبي ككل ، وهو أحد أفراده ، فاذا ما ذكر « واشرفنا » فالمراد بها صلاح‌الدين وجنده والاصفهاني • وليس في هذا ما يثير النقد • وقد الف الاصفهاني

---

(١) البنداري ، قوام‌الدين ، سنا البرق الشامي ، تحقيق رمضان ششن (بيروت : ١٩٧١) : ١/١٥٩ •

(٢) الاصفهاني ، عمادالدين ، الفت القسي في الفتح القدسي (ليدن : ١٨٨٨) : ١٣٦ ، ١٤٣ •

(٣) صلاح‌الدين الايوبي ، تحرير يوسف أيبش (بيروت : ١٩٧٣) : ١٠٥ •

خمسة كتب في التاريخ ، والذي يعنيني منهـا ما كان لـه علاقة بمـادة بحثي وهي :ـ

أ ـ كتاب البرق الشامي : تحدث فيه الاصفهاني عن نفسه ، وتاريخ نشـأته ورحلتـه من العـراق الى الشـام وخدمتـه السلطانين نورالدين وصلاحالدين وأسباب الانتقال الى خدمة صلاحالدين ، وحقيقة العلاقة بين الزنكيين والايوبيين • ويغلب على هـذا الكتـاب طـابع المذكـرات الشخصية • فقد وصف فيه ما شاهده بنفسه أثناء مصاحبته لصلاحالدين من طرقات واهرامات بالقاهرة ، وخاصة وصف هرم أبو الهول[١] • ويقع الكتاب في سبع مجلدات لا يوجد منها سوى الجزء الثالث الموجود الآن في مكتبة بودلين بجامعة اكسفورد رقم ١١ Bruce والجزء الخامس الموجود بنفس المكتبة تحت رقم ٤٢٥ Marsh [٢] •

وقد اعتمدت على مادة هـذا المصدر فيمـا نقله الينا أبو شـامة في الروضتين • بالاضـافة الى المختصر الذي الفـه البنداري (المتوفى سـنة ٦٤٣هـ) المحقق من قبل الدكتور رمضان ششن (بيروت ١٩٧١) والذي اطلق عليه اسم « سنا البرق الشامي » • وقد جمع هذا الكتاب الكثير من روايات البرق الشامي ، وافادني كثيرا في معرفة العلاقة بين صلاحالدين ونورالدين ، كما القى هـذا المختصر أضـواء كثيرة على بعض الجوانب الحضارية لعصر صلاحالدين •

ب ـ كتاب الفتح القسي في الفتح القدسي : وهـو المصدر الثاني المهـم الذي اعتمدت عليه • وقـد شرع الاصفهاني بتأليفه بعـد وفاة صلاحالدين سنة ٥٨٩هـ/١١٩٣م واقتصر فيه على ذكر فتوحات صلاحالدين

---

(١) انظر سنا البرق الشامي : ١/٢٣٦ ـ ٢٣٨ •

(2) Cahen, op. cit., P. 55.

مبتدء من سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م • وقد حوى هذا المصدر سجلا كاملا بأعمال صلاح الدين وتحركاته العسكرية والسياسية ، وأسباب استمراره بالحرب مع الصليبيين ، والاسباب التي دفعته لوقف القتال وعقد معاهدة السلام • كما افادني هذا المصدر في معرفة وسائل الصليبيين التي استخدموها في حرب المسلمين ، وخاصة استخدامهم الجنس كسلاح ثان الى جانب الاسلحة المادية[١] •

ج ـ خريدة القصر وجريدة العصر : وهو كتاب أدبي جمع الكثير من القصائد الشعرية وأسماء الشعراء الذين عاصروا صلاح الدين ومدحوه ، أو وصفوا أعماله شعرا • وقد افادتني تلك القصائد في معرفة موقف الشعب المصري من صلاح الدين بعد اسقاطه الخلافة الفاطمية وموقف أهالي دمشق من صلاح الدين بعد دخوله مدينتهم سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م • كما أفادتني تلك القصائد في معرفة الحركة الادبية التي تزعمها الشعراء لدفع الناس الى تحرير القدس[٢] •

٨ ـ ابن مماتي (ت : ٦٠٦هـ)

قدم ابن مماني في كتابه « قوانين الدواوين » مادة قيمة في معرفة النظم الاقتصادية وما كانت عليه أحوال مصر الزراعية والاقتصادية قبل استلام صلاح الدين للامر وبعد ذلك مما افادني في استنتاج دور صلاح الدين في تطوير تلك النظم • هذا بالاضافة الى ان الكتاب يعرّف الكثير من المصطلحات الاقتصادية مثل « مال الجوالي » ، « ضريبة المتجر » ••• الخ وفي الكتاب معلومات قيمة عن مقدار الضرائب التي كانت تؤخذ من

---

(١) انظر الفتح القسي (ليدن : ١٨٨٧م) : ٢٢٨ ـ ٢٢٩ •

(٢) انظر مثلا خريدة القصر وجريدة العصر (دمشق : ١٩٦٨) القسم الثالث : ١/٢٧٧ •

المزارعين والتجار الأجانب ونظرا لأن ابن مماتي كان يعمل في الدواوين المصرية ، لذلك فان المعلومات التي قدمها ثمينة لانها صادرة عن ذي خبرة وممارسة[1] •

٩ ـ ابن جبير (ت : ٦١٤هـ)

اندلسي المولد والنشأة ، غادر موطنه ثلاث مرات بطلب الرحلة • وقد كتب في رحلته مذكراته الشخصية التي دونها مما شاهده بنفسه • والرحلة غير مخصصة للكلام عن صلاح الدين • غير ان بعض صفحاتها كانت في الحديث عن الحيـاة الاجتماعية والاقتصادية لبعض المدن التي زارها في منطقة الشام والجزيرة على عهد صلاح الدين وقد عكست تلك الصفحات سياسة صلاح الدين العامة •

رحل ابن جبير الى الشام لزيارة القدس بعـد فتحها سنة **٥٨٣**هـ/ **١١٨٧**م وشاهد بعينه هيئة العسكر الاسلامي ، وبعض المعارك التي خاضها ضد الصليبيين ، وفي أثناء قيامه برحلته دخل عددا من الحصون الاسلامية التي كان الصليبيون قد استولوا عليها فوصفها ، ودوّن ما شاهده عن الحياة التي كان يعيشها الاسير المسلم وكيف كان يرسف بالقيود والاغلال • كما شاهد ابن جبير بعينه الاسرى الصليبيين الذين كانوا قد اغاروا على منطقة الحجاز وهددوا المدينة المنورة[2] •

١٠ ـ ابن شاهنشاه (ت : ٦١٧هـ)

من أقرباء صلاح الدين اذ كان والده ابن أخيه وكان اثيرا عنده ، حتى انه ولاه ادارة الكثير من المدن وكلفه تربية ولده الملك عثمان • وبعد وفـاة معين الدين والد ابن شاهنشاه ـ سنة **٥٨٧**هـ ابقى صلاح الدين ابن

---

(١) انظر مثلا : قوانين الدواوين : ٣٢٥ ـ ٣٢٦ ، ٣٥٤ •

(٢) انظر : رحلة ابن جبير : ٢٥٩ •

شاهنشاه على ولاية ما كان بيد والده من مناطق وهي : حماة والمعرة وسليمة ومنبج وقلعة نجم[1] • وفي مدة بقاء ابن شاهنشاه في حماة اشترك سياسيا وعسكريا في الحرب ضد الصليبيين والف كتاب « مضمار الحقائق وسر الخلائق » وقد بدأ فيه بذكر الاحداث منذ سنة ٥٧٥هـ حتى سنة ٥٨٢هـ •

يقدم الكتاب مادة تاريخية قيمة عن علاقة صلاح الدين بالصليبيين ، وعن علاقته بالبيت الزنكي وسبب محاصرته لكل من سنجار والموصل • وتكمن قيمة تلك الروايات في كون مؤرخها قد عاصر الاحداث بنفسه هو ووالده • ورغم قيمة المادة التاريخية وصدقها ، غير ان الكتاب لم يخل من بعض المبالغة ، فقد كان ابن شاهنشاه يمدح والده ويرجع سبب الانتصارات اليه ، حتى انه بلغ من شدة اعجابه بوالده ان صوّر صلاح الدين لا يقدم على عمل الا بمشورته[2] •

١١ ـ عبداللطيف البغدادي (ت : ٦٢٩هـ)

رحالة الف كتاب « الافادة والاعتبار في الامور المشاهدة والحوادث المعاينة من أرض مصر » • زار منطقة الشام في الوقت الذي كان فيه صلاح الدين في عز انتصاراته بعد معركة حطين سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م • ولما سمع باكرام صلاح الدين للعلماء ، وكان اذ ذاك بالموصل ، سافر الى دمشق ، ثم توجه الى فلسطين ، ودخل العسكر الاسلامي واختلط بالجيش الايوبي بظاهر مدينة عكا • وقد وصف لنا وصفا علميا دقيقا حالة السوق الذي كان يرافق العسكر وطرق التموين • كما نقل الينا صفة صلاح الدين

---

(١) انظر مقدمة المحقق الدكتور حسن حبشي صفحة رقم (و) ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب في اخبار بني أيوب ، تحقيق جمال الدين الشيال (القاهرة : ١٩٥٧) ٢/٣٧٩ •

(٢) انظر : مضمار الحقائق وسر الخلائق ، تحقيق حسن حبشي (القاهرة : ١٩٦٨) ١٩ ، ٢٥ ، ٢٧ •

بعد دخوله القدس وكيف كان العلماء والأمراء يجتمعون حوله ويتدارسون أمور المسلمين[1] • وكان مصدر اعتمادي على روايات البغدادي مما نقله المقريزي في كتابه السلوك وبعض المراجع الاخرى •

١٢ ـ عزالدين ابن الاثير (ت : ٦٣٠هـ)

يعتبر كتابه الكامل في التاريخ من كتب التواريخ العامة ، ذات القيمة الممتازة وقد ذكر فيه تاريخا كاملا للدولة الزنكية والايوبية • ونظرا لكونه موصلي البيئة ، ويعمل في الادارة الزنكية ، لذلك فان ما قدمته من معلومات عن الزنكيين كان كبيرا ودقيقا لم تشر الى بعضه المصادر الاخرى •

وفيما يخص الحديث عن صلاح الدين ، فان ابن الاثير لم يكن متجردا من العواطف الذاتية بالكلية فهو يلقي شيئا من الريبة والشك على سياسته التي اقتضت وحدة البلاد وانضمام اتابكة الجزيرة وسنجار وحلب اليه لمحاربة الصليبيين • ويشوه الى حد ما هـذه السياسة فقد علل كلا أسباب انسحاب صلاح الدين في حصار قلعة صياف لخوفه من مقدم الاسماعيلية سنان[2] • كما علل أسباب فتح صلاح الدين لليمن ، لاتخاذها ملجأ له في حالة محاربة نورالدين له • وفي الكلام عن اسقاط الخلافة الفاطمية يرى ابن الاثير ان صلاح الدين « كان يكره قطع الخطبة لهم خوفا من نورالدين فانه كان يخافه ان يدخل الى الديار المصرية يأخذها منه ، فكان يريد ان يكون العاضد معه ••• »[3] • ومعنى هذا ان العلاقة بين صلاح الدين ونورالدين كانت سيئة ، وان صلاح الدين لم يكن يرغب باسقاط الدولة الفاطمية ، وانما اجبر على ذلك • وتفسير ابن الاثير هذا

---

(١) انظر مثلا : السلوك (القاهرة : ١٩١٤) ق ١ : ١/٩٤ •
(٢) انظر : الكامل : ١١/٤٣٧ •
(٣) الكامل في التاريخ (بيروت ، ١٩٦٦) : ١١/٣٦٨ •

بعيد عن الحقيقة التاريخية لأن صلاح الدين سواء بحكم عقيدته السنية ، أو بدافع الرغبة في السيطرة والاستقلال ، كان يرغب في ازالة الدولة الفاطمية • وقد دلت أعماله على ذلك قبل اسقاطه للخلافة الفاطمية كما سوف يتبين ذلك في الفصل الاول •

وفي الحرب التي خاضها اتابك الموصل سيف الدين غازي ضد صلاح الدين سنة **٥٧١هـ/١١٧٥**م وانهزامه منها • يحاول ابن الاثير ان يتلمس الاعذار لجند الموصل واتابكهم ، فيضع تبعية الخسارة على عاهل القائد الزنكي (عزالدين زلفندار) فيتهمه بالجهل بتدبير أمور الحرب ، وبأنه وضع اعلام الموصليين في وهدة من الارض • ولما لم يرها الناس ظنوها انهزام القيادة الزنكية فانهزموا أمام العسكر الايوبي[1] • ولو تفحصنا الكامل لوجدنا ان ابن الاثير كان يكره زلفندار كثيرا ويتحايل عليه ، ولذلك وضع عليه تبعية الخسارة[2] •

وتظهر نزعة ابن الاثير الموصلية المتطرفة ، وتعصبه الواضح لها عندما يتحدث عن حصار صلاح الدين للموصل الاول سنة **٥٧٨هـ/١١٨٢** • حيث اضفى على أهالي البلاد نوعا من البطولة والقدرة العسكرية ، بحيث انهم كانوا يضربون قائد جند صلاح الدين من أعلى السور باللالكه (أسفل الحذاء) فيصيبوه بها • وما ذلك الا لاهانة العسكر الايوبي ، ثم يتمادى ابن الاثير بسرد قصة اللالكة وكأنه كان حاضرا في مجلس صلاح الدين فيقول : ذهب قائد جند صلاح الدين المدعو (جاولي الاسدي) الى صلاح الدين ورمى أمامه اللالكة ، وحلف انه لا يقاتل أهل الموصل أنفة

---

(١) انظر : الكامل : ٤٢٨/١١ •

(٢) للاطلاع على احكام ابن الاثير في زلفندار التي يستبان منها حقده عليه انظر : الكامل : ٤٠٧/١١ ، ٤١٥ ، ٤١٦ ، ٤٢١ ، ٤٢٧ •

حيث ضرب بهذه . علما بان ابن الأثير كان في تلك الأوقات محاصرا داخل الموصل . ثم يتحدث ابن الاثير عن المواصلة فيقول : كانوا ينصبون تسعة مجانيق أمام المنجنيق الايوبي الواحد ، وانهم استمروا في القتال ولم يرضوا بالتنازل حتى اضطر صلاح الدين الى فك الحصار . والحقيقة ان صلاح الدين ترك حصار البلد ، لانه فضل فتح سنجار أولا ثم العودة الى محاصرة الموصل ثانيا ، خاصة وان الخليفة العباسي لم يكن قد منحه تقليد الموصل بعد .

وفي حصار الموصل الثاني سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م كان ابن الاثير احد المشاركين في الدفاع عن المدينة ضد صلاح الدين . ولذلك فلا غرابة ان يهاجم ابن الأثير صلاح الدين بقلمه اذا كان يهاجمه بسلاحه . فيصور ضعف المواصلة في الدفاع عن مدينتهم ، وارسالهم النساء بالتوسط لدى صلاح الدين لاخذ الامان منه ، بأنه لم يكن بدافع الجبن والخوف من صلاح الدين ، انما لدفع الشر ليس الا . علما بان مجرد وصول العسكر الايوبي الى اسوار الموصل وعدم خروج المواصلة لحربهم ، وارسالهم الرسل الى بغداد للتوسط لدى صلاح الدين ... لهي أدلة عملية على عدم مقدرة المواصلة على مواجهة أعدائهم ، لعلمهم يقينا بأنهم الاضعف قوة والاقل جندا وناصرا[1] .

وتستبان مشاركة ابن الاثير عواطف أبناء الموصل تجاه صلاح الدين ، ان لم اقل تحامله عليه ، مما ذكره عن مرض صلاح الدين في رمضان من سنة ٥٨١هـ ، في وقت كان فيه صلاح الدين مصمما على استمرار حصار الموصل ، واجبارها للدخول في الوحدة لتحرير القدس ، فهو يقول : « فبينما الرسل تتردد في الصلح اذ مرض صلاح الدين فامنت الدنيا ،

---

(١) انظر : الكامل : ١١/٥١٢ ، ٢١٥ ـ ٥١٦ .

وسكنت الدهماء ، وانحسمت مادة الفتن »[1] • وكأن صلاح الدين هو السبب في كل ما كان يحصل من اضطرابات في منطقة الشام والجزيرة !!•

وفي تعليل دخول صلاح الدين لمدينة سنجار ، يصور ابن الاثير ان القوة الايوبية لم تستطع دخول البلد لولا تواطؤ بعض الامراء الاكراد من الداخل مع صلاح الدين ، وانه لو قاتل أمير سنجار صلاح الدين لاخرجه من البلد ، ولو امتنع بالقلعة لحفظها[2] • وابن الاثير في كل هذا واهم لان امير سنجار لم يمتنع بالبلد ، الا لان اعيان سنجار طلبوا الانضمام الى صلاح الدين ، حتى انهم خرجوا للقائه مستبشرين فأبقاهم في مناصبهم الادارية[3] • ثم لو امتنعوا عليه ، فانه لم يكن بمقدورهم مقاومة القوة الايوبية • هذا وان المؤرخ ابن شاهنشاه الذي كان من الامراء المحاصرين لسنجار ، لم يشر أية اشارة الى وجود تعاون بين أكراد سنجار وصلاح الدين[4] •

اما اسلوب ابن الاثير في الكتابة ، فقد كان سلسا بسيطا ، اتبع طريقة الحوليات وذكر الاحداث التي تقع بيوم وشهر بشهر وسنة بعد أخرى • غير انه استخدم أحيانا عبارات التعظيم للامر والتفخيم له ، مما يلبس على القارىء البسيط معرفة حقيقة الامر • فمثلا عندما يتحدث عن نجاة صلاح الدين من الاسماعيلية ، عندما أرادوا قتله سنة **٥٧١هـ/١١٧٥م** يقول ابن الاثير : « وركب صلاح الدين كالمذعور لا يصدق بنجاته »[5] • وعند

---

(١) الكامل : ١١/٥١٧ •

(٢) الكامل : ١١/٤٨٧ •

(٣) انظر : مضمار الحقائق وسر الخلائق : ١١١ •

(٤) نفس المصدر والمكان السابق •

(٥) الكامل : ١١/٤٧٠ •

انهزام سيف‌الدين غازي امام صلاح‌الدين يقول : « وسار الى الموصل وهو لا يصدق انه ينجو .... »[1] .

كما كان يستخدم حرف (لو) في اغلب تحليلاته للمواقف التاريخية ، وهذا مما يبعد صفة العلمية عن تلك التحليلات كان يقول : « ولو ان المسلمين لزموا القتال الى الليل لبلغوا ما أرادوه »[2] ، « ولو قاتل على تلك الناحية ... »[3] .

اما مصادره في الكتابة عن صلاح‌الدين ، فكانت ما يشاهده بنفسه ، أو ما يسمعه من معاصرين شهدوا الحوادث بانفسهم أو سمعوها ، وكثيرا ما كان يستخدم الاسناد المجهول كأن يقول : « بلغني من خبير باحوال صلاح‌الدين »[4] ، « وبلغني ان كذا »[5] ، « وهذا ما سمعته من اكثر من واحد »[6] ، « وحدثني من اثق به »[7] ، « وحكي لي بعض اصحابنا »[8] . وربما يذكر أحيانا مصدره فيقول : « فحكي لي عن الملك الافضل »[9] ، « حكي لي طبيب نورالدين الرحبي »[10] .

ومع كل ما وجد في كتاب الكامل من سلبيات ، فقد كان بالنسبة لي

---

(١) الكامل : ٤٢٨/١١ .
(٢) الكامل : ٣٥/١٢ .
(٣) الكامل : ٤٨٧/١١ ، وانظر الصفحات التالية من الجزء ٣٤/١٢ ، ٣٩ ، ٧٠ .
(٤) الكامل : ٥٢٤/١١ .
(٥) الكامل : ٣٦٢/١١ ، ٥١٨ .
(٦) الكامل : ٣٦٠/١١ .
(٧) الكامل : ٧٦/١٢ ، ٨٨ .
(٨) الكامل : ٨٢/١٢ .
(٩) الكامل : ٥٣٦/١١ .
(١٠) الكامل : ٤٠٢/١١ .

من المصادر المهمة والاولية التي اعتمدت عليها ، نظرا للمادة الغزيرة التي قدمها ، والتي كان من معاصريها • ونظـرا لكونها اعطت وجهـة النظر الزنكية المخالفة للوجهة الايوبية ، وخاصة فيما يخص العلاقة بين صلاح‌الدين والزنكيين • وهذا الاختلاف الحاصل في ايراد الروايات التاريخية يدفع الى المزيد من التحري عن الروايات الصادقة للوصول للحقيقة عن طريق نقدها ، ومعارضة بعضها ببعض • ولو لم يكتب لنا ابن الاثير (الكامل) لضاعت علينا حقائق كثيرة • ومن الجدير بالذكر ان ابن الاثير ميّز بين النصارى والفرنج • فاطلق اسم النصارى على كل من يدين بالنصرانية في المشرق الاسلامي • بينما اطلق اسم الفرنج على كل النصارى القادمين من الغرب لمساندة نصارى المشرق في حربهم للمسلمين[1] • وقـد اعتمدت تقسيم ابن الاثير هذا ، غير اني اطلقت اسم الصليبيين بدلا من الفرنج •

اما الكتاب الثاني الذي اعتمدت عليه فكان « الباهر في تاريخ الدولة الاتابكية » الذي الفه للاسرة الزنكية • وقد تحدث في هذا الكتاب ايضا عن صلاح‌الدين في خلال حديثه عن علاقة تلك الاسرة بالايوبيين • غير ان ابن الاثير لم يضف جديدا الى ما ذكره عن صلاح‌الدين في « الكامل » بل لقد اختصر كل ما يثبت انتصار صلاح‌الدين على الزنكيين وحاول ان يشير اليه عرضا • غير ان الكتاب قدّم معلومات كثيرة عن أفراد البيت الزنكي وتقييم كل واحد منهم •

١٣ ـ بهاءالدين يوسف ابن شداد (ت : ٦٣٢هـ)

موصلي البيئة ، غير انه يتخلف عن ابن الاثير في ان نزعته الموصلية لم تؤثر على كتابته • كان يعمل لدى اتابكة الموصل ، وقد كلفوه مهمة القيام بالسفارة الى صلاح‌الدين بعد فتح القدس سنة ٥٨٣هـ • ولما وصل

---

(١) انظر الكامل : ١١/٥٥٣ •

الى صلاح الدين ، اعجب به لدينه ، وصدقه ومقدرته في الكتابة ، فابقاه الى جانبه ، وكان ابن شداد نفسه قد مال الى صلاح الدين واحبه لحبه في الجهاد • فخدمه بصدق والف له كتابا في الجهاد وفنونه كما الف كتابا آخر بحث فيه سيرة صلاح الدين كاملة وبصورة مركزة أسماه « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » • وقد افادني كثيرا في معرفة الصورة الحقيقية لشخصية صلاح الدين وسياسته ، وما كان يهدف اليه • لان ابن شداد كان ملازما لصلاح الدين ومرافقا له • كما ان كتابته تميزت بالصدق والحياد • فلم يكن متحزبا للزنكيين أو لصلاح الدين ، ولم يكن يهمه سوى ذكر الحقيقة •

ومما هو جدير بالذكر ان للكتاب عدة طبعات ، وقد اعتمدت (طبعة القاهرة ١٩٦٤) لمحققها الدكتور جمال الدين الشيال ، نظرا لدقتها ووضوحها والهوامش العلمية الكثيرة التي زينها بها المحقق ، خاصة تلك التي أشار فيها المحقق الى اهمية النص التاريخي الذي اورده ابن شداد ، أو تلك التي تشير الى ان مصدرها كان سماعا أو مشاهدة أو مشاركة كأن يقول : « هذا النص يشير فيه المؤلف الى انه يروى عن مشاهده أو مشاركة »[١] • هذا بالاضافة الى ان المحقق شرح الكثير من الكلمات والمصطلحات التي كانت بحاجة الى الشرح والايضاح •

ب ـ المصادر الصليبية المعاصرة لصلاح الدين :

عاصر صلاح الدين عدد من المؤرخين الغربيين الذين كتبوا عنه ، خلال تأريخهم للحوادث الصليبية وكانت ايجابياتهم عن صلاح الدين ذات قيمة تأريخية كبيرة لان ما يثمن الحقيقة ويلفت النظر اليها ، انها صادرة

---

(١) انظر مثلا : النوادر السلطانية : صفحة (١٤) هامش (٥) ؛ صفحة (١٧) هامش (٣) ؛ صفحة (١٩) هامش (٢) •

من الاعداء • وقد اعتمدت على بعض اولئك المؤرخين بصورة غير مباشرة ، عن طريق اخذ بعض النصوص المهمة مما نقله الينا بعض المؤرخين المحدثين منهم ، كلود كاهن ، روزبلت ، شامبدور ، رنسيمان ، هارولد لامب ، سعيد عبدالفتاح عاشور ومن اولئك المؤرخين المعاصرين لصلاح‌الدين هم :ـ

١ ـ وليم الصورى : كان على عهد الملك بلدوين الرابع ملك بيت المقدس ، وقد عاصر صلاح‌الدين قبل معركة حطين ، وشهد سقوط القدس بيده ، وذهب لبعض الدول الاوربية لاستنفار رجالها في سبيل اعادة البيت المقدس للنفوذ الصليبي • وقد الف كتابا هو عبارة عن مذكرات شخصية اسـماه :

Historia Rerum in Iartibus Transmarinus Gestarum (١)

٢ ـ الشاعر امبروز : شـهد بعينه المعـارك الدائرة حول عكا بين صلاح‌الدين والصليبيين سنة ١١٨٦م وحديثه لا يخلو من صدق بعيد عن التعصب • فقد وصف لنا شعرا قوة العسكر الايوبي وتعاون أفراده وصلابة مقاومتهم ، رغم اختلاف قومياتهم وطول نفسهم في القتال ، بحيث لم يدعوا للصليبيين وقتا للراحة أو لتناول طعامهم ، وانهم كانوا يقاتلون ليل نهار • كما قدم معلومات قيمة عن أسباب الخلاف الذي وقع بين الصليبيين انفسهم ، وسبب تولي ريتشارد قيادة الصليبيين في الشام وانسحاب الافرنسيس الى فرنسا • وقد دوّن احداث الحرب الصليبية الثالثة في شعر منظوم عنوانه : L'Estoire de la Guerre Sainte (٢) •

---

(1) Look: Cahen, op. cit., PP. 7-17; Runciman, A History of the Crusades, 11, P. 379; Ency Britanica, Vol, 10 (Art. W. of Tyre) P. 667.

(١) انظر : هارولد لامب ، شعلة الاسلام ، ترجمة محمود عبدالله (بغداد : ١٩٦٧) : ١٥٦ ، ١٦٦ ، ١٦٧ •

ج ـ مفاضلة بين المصادر العربية المعاصرة لصلاح الدين :

من دراسة تحليل المصادر العربية السابقة ، يتبين انه ارخ لصلاح الدين ثلاثة من الرحالة وهم : ابن جبير والبغدادي وبنيامين • اشار الى صلاح الدين منهم اثنان اشارات عابرة • اما الثالث وهو بنيامين فقد توفي سنة ٥٦٩هـ قبل ان يصبح صلاح الدين سلطان الشام ومصر •

اما المؤرخون الذين كتبوا عن صلاح الدين وعاصروه ، من الذين اعتمدت عليهم ، فكانوا عشرة وهم : عمارة اليمني وابن ابي طيء واسامة بن منقذ والقاضي الفاضل وابن الجوزي والاصفهاني وابن مماتي وابن شاهنشاه وابن الاثير وابن شداد • خمسة منهم لم يختصوا بالكتابة عن صلاح الدين انما اشاروا اليه عرضا في سياق تاريخهم للحوادث المارين بذكرها وهم : عماره وابن أبي طيء وابن منقذ وابن مماتي • اما الخمسة الباقون فقد اختصوا بالكتابة عن صلاح الدين وكان جل اعتمادي عن ثلاثة منهم ، لغزارة المادة التاريخية التي قدموها ، وقلة ما عثر في المصادر الاخرى من روايات منقولة عن القاضي الفاضل ، واقتصار ابن شاهنشاه ، في كتابه الوحيد على فترة زمنية ضيقة ، مع اختصار في المادة التي يقدمها •

والمؤرخون الثلاثة الذين اعنيهم هم (ابن شداد والاصفهاني وابن الاثير) لاسيما وان ابن شداد احتل مركز الصدارة من بينهم لانه بدا لي أكثر صدقا ونزاهة في الكتابة عن علاقة صلاح الدين بالبيت الزنكي ، من كل من ابن الاثير الذي لا يخلو من ميل لأتابكة الموصل والاصفهاني الحاقد على البيت الزنكي بعد وفاة نورالدين بينما كان ابن شداد صديقا للزنكيين ورفيقا لصلاح الدين ، وقد انضم للعمل مع صلاح الدين في فترة كانت العلاقة بين الاتابكة والايوبيين قد تحسنت ، وأصبح الجميع يدا واحدة ضد عدوهم المشترك الصليبيين • ولذلك فان كتاب النوادر السلطانية لابن شداد

كان من أهم المصادر التي اعتمدتها في رسالتي هذه •

اما فيما يخص علاقــة صلاح الدين بالصليبيين ، وموقفه من الحملة الصليبية الثالثة ، فان المصادر الثلاثة المشار اليها آنفا ، كانت من أهــم المصادر التي اعتمدتها وكانت في أغلب الاحيان متقاربة في وجهات نظرها وفيما أوردته من مادة تاريخية •

د ـ المصادر العربية غير المعاصرة لصلاح الدين :

بالاضافة الى المصادر المعاصرة لصلاح الدين ، فهناك الكثير من المصادر التي اعتمدتها ، وكانت تأتي بالدرجة الثانية نسبة لاهميتها التاريخية ، لانها كانت تعتمد بالدرجة الاولى على المصادر الاولية • غير ان قيمتها العلميــة الكبيرة ، فقد حفظ بعضــها روايات تاريخيــة كثيرة من مصــادر معاصرة لصلاح الدين لم يمكننا الحصول عليها • كما ان بعضها تخصص في الكتابة عن سيرة صلاح الدين أو تاريخ مدينة من المدن أو امارة من الامارات ، ولذلك فان مادتها التاريخية كانت كبيرة ، لضيق الفترة أو لقصر الزمن الذي كانت تبحث فيه تلك المصادر ، وسوف اتطرق الى تحليل بعض تلك المصادر حسب مادة بحثها •

١ ـ التواريخ العامة :

وهي الكتب التي تناولت احداث التاريخ كله ، وربما اقتصرت على دراســة التاريخ الاسلاميّ ، أو بعض جوانبــه • ومن أهمها تاريخ ابن الفرات (ت : ٨٠٧هـ) الذي قدّم في أغلب الاحيان روايات تاريخية منقولة فقط عن مصادرهــا الاصلية ، وربمــا اقتصر احيــانا على بعض التعليق البســيط •

وابن الفرات من المتحمسين ضد الصليبيين ولهذا يذكر عبارة التنديد بهم عندما يتحدث عنهم كأن يقول مثلا « الفرنج لعنهم الله » أو « لعن الله

من مضى منهم ، وخذل من بقي فيهم »[1] • اما المصادر التي اعتمدها فهي : مؤلفات ابن الاثير وابن الجوزي والاصفهاني وكثيرا ما نقل آراء ابن الاثير التحزبية ، ضد صلاح الدين من دون نقد وتحليل • وأحيانا نقل من مصادر لم يمكن الحصول عليها كالكتاب المنصوري لمحمد بن نظيف الغساني •

وقد وجدت في المادة التي قدمها ابن الفرات ، بخصوص عصر صلاح الدين بعض النواقص ، وعدم ترتيب زماني كامل لمجريات الاحداث • وأحيانا يذكر حوادث سنة ٥٦٧هـ في حوادث سنة ٥٦٦هـ • وبعد ان يتكلم عن حوادث سنة ٥٦٧هـ ينتقل فجأة الى ذكر الحوادث الجارية حول أسوار عكا ، والحملة الالمانية ، وما كان يجرى من حوادث سنة ٥٨٣هـ • كما وجد في تاريخ ابن الفرات أيضا بعض الحوادث المبتورة غير الكاملة[2] •

اما كتاب السلوك في معرفة دول الملوك ، فان المقريزي (ت : ٨٤٥هـ) قد أفرد فيه فصلا كاملا عن صلاح الدين ، غير ان ما جاء به ليس جديدا • وكان جل اعتماده على الاصفهاني وابن الاثير والرحالة البغدادي ، الذي نقل بعض رواياته المهمة عن العسكر الايوبي وطرق التموين • وقد اتبع المقريزي طريقة الحوليات •

اا ابن الوردي (ت : ٧٤٩هـ) وابن كثير (ت : ٧٧٤هـ) وابن خلدون (ت : ٨٠٨هـ) وابن الشحنة (ت : ٩٢١هـ) فلا تكاد تجد في مؤلفاتهم جديدا • وقد اتبعوا طريقة الحوليات أيضا • غير ان ابن كثير كان ظاهر الميل الى صلاح الدين لتيقنه ان أهدافه كانت صادقة ، وانه انما قصد الجهاد في سبيل الله • ولذلك نجده يؤيد صلاح الدين فيما سعى اليه • ويتهم

---

(١) تاريخ ابن الفرات : م ٤ : ١٩/١ •

(٢) انظر : تاريخ ابن الفرات ، م ٤ : ٦٩/١ — ٧٠ ، وقارن ما بين صفحة رقم (١٨٤) وصفحة رقم (٢٠٩) من نفس المصدر •

الزنكيين بعد وفاة نورالدين ، بالفسوق وتعاطي المحرمات[1] • اما ابن خلدون ، فكما يبدو من سرده ، للاحداث أنه اعتمد روايات ابن الاثير عموما • وكثيرا ما كان يذكر بعد ان يسرد روايته « هكذا قال ابن الاثير »[2] •

هذا وقد اعتمدت على كتب التواريخ العامة المختصرة ككتاب تاريخ مختصر الدول لابن العبري (ت : ٦٨٥هـ) وكتاب مختصر التاريخ من أول الزمان الى منتهى دولة بني العباس ، لابن الكازروني (ت : ٦٩٧هـ) وكتاب المختصر في أخبار البشر لابي الفدا (ت : ٧٣٢هـ) • غير ان مادة هذه الكتب لا جديد فيها • وهي لا تذكر مصادرها الا قليلا ، والذي ظهر ان ابن العبري ، لما كان لا يعنيه امر انتصارات صلاح الدين ، لذلك لم يهتم بالحديث عنها ، واشار اليها اشارات عابرة وسريعة جدا ، واكتفى بنقل روايات ابن الاثير فيما يخص العلاقة بين صلاح الدين واتابكة الموصل •

٢ ـ تواريخ الدول والامارات :

تناولت هذه التواريخ الكلام عن الدولة الايوبية ، والدول ذات العلاقة بها • كالدولة الزنكية أو الخلافة العباسية وموقف كل من تلك الدول من الامارات الصليبية • وكان من أهم تلك المصادر كتاب « الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية » لابي شامة (ت : ٦٦٥هـ) ، وكتاب « مفرج الكروب في أخبار بني أيوب » لابن واصل الحموي (ت : ٦٩٧هـ) •

وقد قدّم أبو شامة مادة تاريخية قيمة عن سياسة صلاح الدين وعلاقته بالصليبيين والاتابكة والخلافة العباسية والحركة الاسماعيلية • وقد استقى معلوماته من مصادر معاصرة ومهمة لم يمكنني الحصول عليها • وكان في

---

(١) انظر مثلا البداية والنهاية : ١٢/٢٩٠ ـ ٢٩١ •

(٢) تاريخ ابن خلدون : ٥/٧٠٧ •

أغلب الاحوال يعمد الى نقدها وتحليلها • كالرد على مزاعم ابن أبي طيء القائلة بوجود وحشة بين صلاح الدين ونورالدين • وقد رد أبو شامة على تلك المزاعم بالقول ان ابن ابي طيء كان رجلا شيعيا وكان والده من أعيان الشيعة فلا غرابة اذا عمد الى تشويه تاريخ العلاقة بين صلاح الدين ونورالدين[١] •

وقد حفظ أبو شامة كثيرا من روايات البرق الشامي للعماد الاصفهاني ، المفقود أغلب أجزائه • وروايات المؤرخ ابن ابي طيء ، والكتب والمناشير التي كان يصدرها القاضي الفاضل بتوقيع صلاح الدين[٢] • وكان يذكر مصادره دائما فيقول : « قال ابن أبي طيء »[٣] ، « وذكر الامير اسامة بن منقذ في الاعتبار »[٤] ، « وقال الرئيس أبو يعلى »[٥] ، « اخبرني أبو الفتوح »[٦] ، « وذكر ابن الدبيثي في تاريخه »[٧] ، « قرأت في ديوان ابن منير »[٨] ، « وقال العماد في البرق الشامي »[٩] ، « وذكر محمد بن القادسي في تاريخه »[١٠] •

اما ابن واصل ، فقد قدّم في الجزء الثاني من مفرج الكروب ، معلومات كثيرة عن حياة صلاح الدين منذ ولادته حتى وفاته • وفي الكتاب

---

(١) انظر : الروضتين : ١/١٧٤ •
(٢) انظر مثلا : الروضتين : ١/١٧٣ ـ ١٧٤ ، ٢٣٤ ، ٢٥٤ •
(٣) الروضتين : ١/١٠٠ ، ١٧٣ •
(٤) الروضتين : ١/٩٧ •
(٥) الروضتين : ١/١٩٣ •
(٦) الروضتين : ١/١٩٤ •
(٧) الروضتين : ١/١٩٣ •
(٨) الروضتين : ١/١٠١ •
(٩) الروضتين : ١/٧٥ •
(١٠) الروضتين : ١/١٠٧ •

اشارات مهمة عن موقف صلاح الدين من الخلافة العباسية ، وأسباب سوء التفاهم الذي وقع بين الخليفة العباسي الناصر لدين الله وصلاح الدين ، هذا بالاضافة الى النصوص المهمة التي قدمها عن الاعمال العمرانية التي انجزت في القاهرة ، والضرائب التي الغيب في عهد صلاح الدين •

وقد اعتمد ابن واصل على من سبقه من المؤرخين المعاصرين أيضا • فنقل العديد من روايات القاضي الفاضل وابن شداد وابن الاثير • وكان كثيرا ما يقول : « ذكر عماد الدين الكاتب »[1] ، « قال ابن الاثير ما ذكره العماد في البرق »[2] • « وحكى القاضي بهاء الدين ابن شداد »[3] •

ومما يؤخذ على ابن واصل انه لم يميّز بين « الفتح » و « الاستيلاء » • فكان يصف دخول صلاح الدين لبعض المدن الاسلامية التي احتلها الصليبيون ، أو المدن التي كان يوليها لاحد أقاربه بأنه « استيلاء » • وكمثال على ذلك عند تولية صلاح الدين لاخيه سيف الاسلام طغتكين بلاد اليمن يقول : « ذكر استيلاء سيف الاسلام على بلاد اليمن »[4] • وعند تولية سيف الدين ــ اتابك الموصل ــ أخاه عز الدين صلفا من بعده على ولاية الموصل اثر مرضه يقول ابن واصل « ذكر استيلاء عز الدين مسعود بن مودود على الموصل »[5] •

٣ ـ تواريخ المدن :

تناولت هذه التواريخ عرضا كاملا لبعض مدن الشام والجزيرة كحلب ودمشق مثلا • وكانت فيما قدمته من معلومات كثيرة عن تلك المدن ،

---

(١) مفرج الكروب : ٢/٩ ، ٤٣ •
(٢) مفرج الكروب : ٢/٤٠ •
(٣) مفرج الكروب : ٢/٥٩ •
(٤) مفرج الكروب : ٢/١٠٥ •
(٥) مفرج الكروب : ٢/٩٣ •

قد تطرقت في الحديث عن صلاح الدين والفترة الزمنية التي حكم بها تلك المدن وكيف دخلها، ومدى علاقة تلك المدن بالمدن الاخرى في عهد صلاح الدين • ومن بين تلك التواريخ التي اعتمدتها (ذيل تاريخ دمشق) لابن القلانسي (ت : ٥٥٥) الذي قدم معلومات وافية عن الامارات الصليبية في منطقة الشام ، قبل ظهور صلاح الدين ، وعن الجرائم التي ارتكبوها داخل البيت المقدس بعد احتلاله •

كما قدم ابن العديم (ت : ٦٦٠هـ) في زبدة الحلب معلومات قيمة وكثيرة عن صلاح الدين • وعلاقته بالاسماعيلية • والاغتيالات التي قاموا بها ضد الامراء المسلمين وأسباب انتقال الملك الصالح بن نورالدين من دمشق الى حلب • وموقف صلاح الدين من كل تلك التحركات •

غير ان ابن العديم كان متحيزا للحلبيين ضد صلاح الدين ، ومرددا لمزاعم ابن الاثير التحزبية • ففي الحديث عن أسباب انهزام الموصليين والحلبيين أمام صلاح الدين في الحرب الدائرة بين الجانبين سنة ٥٧١هـ/ ١١٧٥م يدعي ابن العديم ان مقدم العسكر الموصلي (عزالدين زلفندار) كان هو السبب في تلك الهزيمة[١] • وعن حصار صلاح الدين لمدينة حلب سنة ٥٧١هـ ، يعمد ابن العديم الى التمجيد بعوامل الحلبيين ، ويدعي انهم دافعوا عن حلب كثيرا ، حتى ان صلاح الدين كان يرسل رسله اليهم للتفاوض معهم • غير انهم كانوا يرفضون ويلاحقون الرسل ويضربونهم بالحجارة حتى يصلوا الى قرب مخيمات العسكر الايوبي[٢] • ومثل هذا

---

(١) زبدة الحلب في تاريخ حلب ، تحقيق سامي الدهان (بيروت : ١٩٦٨) ٣/٢٧ •

(٢) زبدة الحليب : ٣/٣٠ ـ ٣١ وانظر أيضا عن حصار صلاح الدين لحلب الثاني سنة ٥٧٩هـ ـ ٣/٦٣ ـ ٧٠ •

غير منطقي فأين كانت القوة الايوبية اذن • وهل كانت بمثل ذلك الضعف ، بحيث لا تقدر ان تدافع عن رسلها ؟

وفي المادة التي قدمها ابن العديم ، عن عصر صلاح الدين ، بعض الخلط والخطأ التاريخي الذي فات حتى على المحقق الدكتور سامي الدهان • ومن ذلك القصة المروية عن حصار صلاح الدين لبلد الاسماعيلية (مصياف) وانسحابه منه بعد توسط خاله شهاب الدين سنة ٥٧١هـ يقول ابن العديم مباشرة « ثم صالحهم ••• وسار بعساكره الى مصر • وكان من شروط الصلح ان يطلق عزالدين جورديك وشمس الدين على ابن الداية وأخوه سابق الدين وبدرالدين »[1] • وهذا ليس من شروط الصلح مع الاسماعيلية • انما كان من شروط الصلح مع الموصليين والحلبيين الذين احتجزوا اولئك الرهائن لصداقتهم لصلاح الدين[2] •

كذلك يعمد ابن العديم الى نقل الحوار الذي وقع بين عمادالدين زنكي امير سنجار مع جنده سنة ٥٧٩هـ عندما كان صلاح الدين محاصرا لحلب ، وينسبه لصلاح الدين ليوهم القاري ان العسكر الايوبي لم يسأم مقاتلة الحلبيين أو دخول حلب فيقول : « فجد الملك الناصر على محاصرة حلب ••• واجتمع اليه الاجناد من العساكر والرجال ، وطلبوا منه قرارهم فمطلهم • فقالوا : (ذهبت اخبازنا ونحتاج لغلاء الاسعار الى ما لابد منه) فقال لهم : (انتم تعلمون حالي وقلة مالي) ••• »[3] وهذا الكلام والمحاورة ليس من كلام صلاح الدين كما يظهر من الاسترسال بقراءة النص • انما هو قول عمادالدين الذي ماطله جنده حتى اضطر الى تسليم حلب الى

---

(١) زبدة الحلب : ٣/٣١ •
(٢) انظر : البنداري ، سنا البرق الشامي : ١/١٦٨ •
(٣) زبدة الحلب : ٣/٦٣ ـ ٦٥ •

صلاح الدين بعد ان كان قد اخذ رهائن من حلب ، خوفا ان يسلموا البلد الى صلاح الدين •

اما تاريخ القدس وما تمتعت به من فضائل ومزايا شريفة في الاسلام ، فان العليمي (ت : ٩٢٧هـ) قدم معلومات كبيرة في كتابه « الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل » عن تلك النواحي • وقد بحث العليمي في الاسباب التي دفعت صلاح الدين لتحرير القدس ، والعوامل التي مكنته من التحرير • اضف الى ذلك ان برهان الدين قدّم في مخطوطته « منتخب في فضائل بيت المقدس » معلومات وافية عن أهمية القدس الدينية وذكر العديد من الآيات القرآنية الكريمة والاحاديث النبوية الشريفة التي تدل على تلك الفضائل التي تمتعت بها القدس غير انه من الجدير بالذكر ان العليمي والشيخ برهان الدين جمعا الكثير من الاحاديث النبوية الموضوعة والاسرائيليات وعددا من الآراء التي قيلت في فضائل القدس والمستقاة من تفسير بعض الآيات القرآنية • تفسيرا بعيدا عن مدلولها الظاهر[١] •

٤ ـ **كتب الجغرافيا والخطط :**

قدمت هذه المجموعة من الكتب معلومات قيمة عن الجوانب الحضارية والسياسية والعسكرية ، عند ذكرها للخطط والاقاليم الجغرافية فالروايات الكثيرة التي كانت تتطرق الى ذكر خطط الفاطميين والزنكيين والايوبيين ، كانت من غير شك ، تقدم تحليلا موجزا للنواحي الاخرى في المجتمع • وكثيرا ما كانت تقدم ايضا شرحا موسعا لمعظم المصطلحات الجغرافية والادارية والعمرانية • اضف الى ذلك ما كانت تقدمه من نصوص عن

---

(١) انظر : العليمي ، الانس الجليل (النجف : ١٩٦٨) : ١/٢٢٧ ؛ منتخب في فضائل بيت المقدس (مخطوط في مكتبة المتحف ، بغداد الرقم ١٠٢٣) ورقة ٥ ، ١١ •

التجارة والصناعة لبعض المدن ، التي كانت ضمن حدود الحكم الأيوبي ، والتي كانت تعكس ، في أغلب الاحيان ، ما كانت عليه المدن الاخرى • ومن الاطلاع على مجموعة من تلك المدن ، يتبين بوضوح البنى الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع الاسلامي في العصر الايوبي •

ومن كتب الجغرافيا التي اعتمدتها كتاب « معجم البلدان لياقوت الحموي (ت : ٦٢٦هـ) الذي قدم تعريفات كاملة لكل ما صادفته من مصطلحات جغرافية ، اعانتني في تحديد مواقعها ، ومن ثم في تحديد اهميتها • ولم يكن ما قدمه ابن عبدالحق (ت : ٧٣٩) في كتابه « مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع » يزيد على ما جاء به ياقوت • اما ابن حوقل (ت : ق ٤هـ) فقد قدم في كتابه « صورة الارض » معلومات كثيرة عن منطقة الشام وتحديد موقعها ، والدول التي تشتمل عليها •

اما أهم كتب الخطط التي اعتمدتها فكان « كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك » للظاهري (ت : ٨٧٣هـ) • وعلى الرغم مما جاء به الظاهري من روايات قيمة ، الا انه نقل في كتابه العديد من الروايات غير المنطقية وغير التاريخية ومنها الروايات الكثيرة التي نقلها عن فضائل بيت المقدس ، وأسباب فتح صلاح‌الدين للقدس ، من دون ان يعمد الى تحليل تلك الروايات[1] •

اما ما قدمه المقريزي في الخطط ، فقد كان كبيرا وقيما ، لانه عمد الى ذكر مفصل الروايات عن النظم الحضارية في عهد صلاح‌الدين والضرائب التي الغاها ، ودور العلم والخوانق التي انشأها • والى جانبه يمكن ان نضع كتاب « صبح الاعشى للقلقشندي » (ت : ٨٢١هـ) الذي جاء فيه عدد كبير من نصوص التولية والمناشير والرسائل التي كان يرسلها

---

(١) انظر : كتاب الزبدة (باريس : ١٨٩٣م) : ١٩ ــ ٢٠ •

صلاح الدين الى الخلافة العباسية ببغداد ، والى امرائه واخوته • وقد افادت تلك الكتب الرسمية عموما في معرفة الصورة الحقيقية لسياسة صلاح الدين •

٥ ـ كتب التراجم :

قدمت هذه الكتب ، خلال ترجمتها للاشخاص ، المزيد من المعلومات عن سياسة الشخص والاعمال التي قام بها • اضف الى ذلك انها تطرقت احيانا الى ذكر الجوانب الفكرية والحضارية للعصر الذي يعيش فيه ذلك الشخص • ومن دراسة تراجم الاشخاص ذوي الاهمية الذين عاصروا صلاح الدين ، يتبين بوضوح العلاقات السياسية السائدة آنذاك بين الاطراف المعنيـة •

وأهم كتب التراجم التي اعتمدها كتاب « وفيات الاعيـان » (ت : ٦٨١هـ) لابن خلكان « وشذرات الذهب في اخبار من ذهب » لابن العماد (ت : ١٠٨٩هـ) • والحقيقة ان ما قدمه ابن خلكان ، على الاغلب ، لم يكن جديدا ، وقد اعتمد على ابن الاثير وابن شداد كثيرا ، غير ان اهميته تبدو في كونه تتبع أصل صلاح الدين ونسبه الى الأكراد •

٦ ـ كتب العقائد :

قدمت هذه المجموعة معلومات كثيرة عن العقائد التي انتشرت في عصر صلاح الدين • ومن دراسة الاختلافات الموجودة بين تلك الكتب ، الحاصلة من رد احـداها على الاخرى ، نستنتج ما كانت عليـه الحياة السياسية والفكرية في الفترة موضوع البحث • وبالذات فان المعلومات التي قدمتها المصادر عن الحركة الاسماعيلية ، كانت كبيرة • فقـد اعطت الصـورة الواضحة عن الاسباب الداعية للنزاع مثلا بين الخلافة العباسية والخلافة الفاطمية ، والحركة الاسماعيلية وصلاح الدين •

وفي مقدمة تلك الكتب كان كتاب « فضائح الباطنية » للغزالي (ت : ٥٥٥هـ) الذي بحث فيه تاريخ الاسماعيلية وخطرها على تاريخ المسلمين ، وتنظيماتها ووسائلها في الدعوة ، ثم يأتي بعده كتاب الملل والنحلل للشهرستاني (ت : ٥٤٨هـ) و « الافحام لافئدة الباطنية الطغام » للعلوي (ت : ٧٤٥هـ) وقد اعطت هذه المصادر وجهة النظر السنية المناقضة للوجهة الاسماعيلية •

٧ ـ دواوين الشعر :

رغم ان الشعر لا يعتمد عليه مصدرا أوليا في الكتابة التاريخية ، في أغلب الاحيان ، الا انه قد يفيد في توضيح الجوانب الثقافية والسياسية للعصر الذي كتب فيه • وقد عاصر صلاح الدين عدد من الشعراء ، لازمه كثير منهم ، لاكرامه لهم واهتمامه بالعلم والعلماء ومن بين اولئك الشعراء ابن الدهان الموصلي (ت : ٥٨١هـ) ، وابن الساعاتي (ت : ٦٠٤هـ) ، وابن سناء الملك (ت : ٦٠٨هـ) ولكل من هؤلاء ديوان شعر باسمه ، جمع فيه العديد من القصائد التي قيلت في مدح عمل من أعمال صلاح الدين كتخريبه لحصن بيت الاحزان مثلا أو لفتحه القدس ، أو لالغائه الضرائب والمكوس غير الشرعية • وبذلك أصبحت تلك القصائد سجلا تاريخيا لتلك الحوادث •

هـ ـ المراجع العربية والاجنبية الحديثة والدوريات :

نظرا لاهمية صلاح الدين ، والدور الكبير الذي قام به خاصة في تحريره للقدس « التي لا تزال تعاني اليوم مما كانت تعانيه من قبل من الصليبيين » ، لذلك عمد الكثير من الكتاب والمؤرخين الى الكتابة عنه • غير ان بعضهم استخدم الاسلوب الادبي العاطفي ، أو القصصي لاثارة الناس ، ودفعهم لتحرير القدس • كما ان بعض المؤرخين اهتم بالجوانب العسكرية

في حياة صلاح الدين فقط ، ولم يتطرق الى تبيان الجوانب الأخرى اضف الى ذلك ان بعضهم تحدث عن صلاح الدين في سياق حديثه عن الحروب الصليبية عامة ، ولم يعمد الى تحليل موقفه من القوى الاسلامية ، تحليلا علميا كاملا .

ثم ان الذين بحثوا عن صلاح الدين خاصة ، لم يعمدوا الى التفريق بين مختلف القوى ذات العلاقه بصلاح الدين . فكان الباحث فيهم عندما يتحدث عن موقف صلاح الدين من الصليبيين يتطرق بنفس الفصل الى الكلام عن موقف صلاح الدين من الاسماعيلية مثلا . وكيف ارادت ان تغتاله . من دون ان يوضح ما هي الحركة الاسماعيلية ، ولماذا وقفت من صلاح الدين موقفا سلبيا ، ومن دون ان يخصص للاسماعيلية وعلاقتها بصلاح الدين فصلا خاصا بها . مما يضيّع على القارىء معرفة موقف صلاح الدين من تلك الحركة معرفة كاملة ، حتى يضطر الى قراءة الكتاب كله وتتبع ما له صلة بالموضوع . وفي هذا لا تختلف المراجع الحديثة عن المصادر القديمة في استخدام طريقة الحوليات في الكتابة التاريخية .

هذا وان بعض المراجع الحديثة اتخذت من سياسة صلاح الدين وسيلة لنشر آراء اجتماعية وسياسية لم تكن من مفاهيم عصر صلاح الدين . وكمثال على ذلك ما جاء به الاستاذ قدري قلعجي ، الذي استخدم الاسلوب الادبي القصصي في الكتابة عن صلاح الدين . كما انه تحدث عن مقاصد صلاح الدين من غير ان يعتمد في ذلك على برهان فعندما يتحدث عن وفاة نورالدين يقول ان صلاح الدين كان ينوي تشكيل امبراطورية كبيرة تضاهي امبراطورية بغداد . وكأن بغداد كان لها شأن في تلك الفترة في القوة الدولية . وكأن أهداف صلاح الدين كانت دنيوية . اضف الى ذلك انه كان يعمد الى تفسير أقوال صلاح الدين الدالة على توحيد الامة

الاسلامية ، بمختلف قومياتها التي تسكن أرض الشام ومصر والجزيرة ، وخدمة أهدافها ، تفسيرا لم يكن معروفا في عصر صلاح الدين[1] .

وقد تحامل بعض المؤرخين المحدثين على صلاح الدين ، تحت تأثير الآراء الحديثة والنزعات الوطنية والاقليمية الضيقة ودون تعمق لظروف عصر صلاح الدين فوصفوه بأنه كان رجلا متعصبا قاسيا استخدم الخديعة والقوة ضد خصمه ، وكانوا أحيانا يصفون الدولة الفاطمية بانها الدولة الوطنية التي كانت تخدم مصالح مصر والمصريين . وان سقوطها معناه اعادة مصر ولاية تابعة لامراء وقادة أجانب[2] .

ورغم وجود تلك النواقص في بعض المراجع ، غير ان الكثير منها قدّم معلومات قيمة عن بعض جوانب حياة صلاح الدين . ومن أهم المراجع التي تحدثت عن الجوانب العسكرية كانت مؤلفات سعيد عبدالفتاح عاشور والعريني وسعداوي[3] الذين تحدثوا عن الحروب الصليبية . بينما اقتصرت أهمية مؤلفات طرخان (النظم الاقطاعية) وربيع (النظم المالية) في بحثها للنظم الاقتصادية في عصر صلاح الدين وقد قدما معلومات عن الضرائب وطرق جمعها ، وعن مصروفات الدولة ، وعن كيفية ادارة المدن والقلاع ، اما المراجع التي قدمت معلومات عن علاقة صلاح الدين بالدولة الفاطمية والحركة الاسماعيلية فكان من اهمها : كتاب الفاطميون في مصر لحسن ابراهيم حسن و « طائفة الاسماعيلية » لمحمد كامل حسين و « دولة

---

(١) انظر صلاح الدين الايوبي ، دار الكتاب العربي (لم يذكر السنة) : ٢٢٨ ، ٢٣٢ .

(٢) انظر مثلا : عبدالمنعم ماجد ، ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر : ٤٨٨ ـ ٤٨٩ .

(٣) للاطلاع على عناوين بحوث المؤرخين الواردة اسماؤهم أعلاه ، راجع قائمة المصادر والمراجع .

النزارية » لطـه شرف و « اعـلام الاسماعيلية » لمصطفى غالب ومؤلفات الدكتور عبدالمنعم ماجد التالية : ظهور خلافة الفاطميين في مصر وسقوطها ؛ ونظم الفاطميين ورسومهم •

اما أهم المراجع الاجنبية التي اعتمدتها بشكل واسع النطاق ، وخاصة فيما يتعلق بعلاقة صلاح‌الدين بالصليبيين • فكانت مؤلفات كل من المؤرخين التالية أسماؤهم : شامبدور وكاهين وروزبلت ولين بول وغروسيه • ورغم ما قدمت تلك المراجع من معلومات قيمة ، خاصة في نقلها لوجهة النظر الغربية المعاصرة ، واللاتينية القديمة ، غـير ان بعضها كان متعصبا ضـد المسلمين ومتحيزا لجانب الصليبيين فقد اتهم مثلا المؤرخ الفرنسي شامبدور صلاح‌الدين بأنـه كان يريد ان يرمي بمسيحي الشـرق في البحـر[١]

"Saladin Veut rejetre les chrétiens dórient alamar"

علما بان شامبدور لم يكن يحلل موقف صلاح‌الدين من نصارى الشرق ، بل كان يتحدث في فصـله السابق ، عن فتح صلاح‌الدين لشمال الشـام وموقفه من الصليبيين ، فاطلق كلمة المسيحيين الشرقين عموما على الصليبيين وفي هذا خطأ تاريخي ومنطقي يرفضه حتى المستشرقون الغربيون انفسهم امثال برنارد لويس[٢] • اضف الى ذلك ان شامبدور لا يذكر مصادره مما يضيع على الباحث فرصة تتبع رواياته ومن ثم تدقيقها ، وبصورة عامة فان المراجع الاجنبية أفادت من حيث انها اوردت مادة مستقاة من مصادر اوربية معاصرة للحروب الصليبية ، كما ان بعضها قدم تحليلا للمصادر الاولية العربية والغربية ، افاد في استخلاص وجهات نظـر قيمة وربما اوضحت بعض أبعاد الموضوع •

---

(1) Saladin le plus purheros de L'Islam, p. 193.

(٢) انظر الفصل الاول صفحة رقم (٥٧) •

وأخيرا فان ما قدمته دوائر المعارف كان كبيرا وأخص منهـا دائرة المعارف الاسلامية ودائرة معارف الحضارة العربية ، قسم المشرق ، وقد قدمت هـذه الدوريات مادة علميـة جيـدة عن كل من المـواد التالية : صلاح الدين ، الحشاشين ، آلمـوت ، الحسن ابن الصباح ، راشد الدين سنان ، الحروب الصليبية . وقد جاء كل منها مادة تاريخية مركزة أفادتني في معرفة الخطوط العامة للبحث .

الفصل الاول
نشأة الدولة الايوبية

أحوال المسلمين السياسية
في القرن السادس الهجري / ١٢م

ثمة حقيقة ظاهرة في القرنين الخامس والسادس الهجريين (١١-١٢م) هي ان المجتمع الاسلامي ، قبيل ظهور صلاح الدين ، كان يسوده جو من التعقيد الذي اكتنف وضعه السياسي والاقتصادي والديني .

فقد كانت تحكمه قوى مختلفة ومتناقضة فيما بينها ، وكثيرا ما كان الصراع سمة ذلك التناقض ، من أجل البقاء أو السيطرة على البلاد المجاورة . ففي مصر كانت الخلافة الفاطمية شيعية ، وفي بغداد كانت الخلافة العباسية سنية . واضافة الى ما كان يدور بين تلك القوتين من منازعات لاختلافات مذهبية وسياسية ، كانت كل قوة تحمل عوامل ضعفها في نفسها ، لما يدور بينها وبين القوى المحلية الاخرى من منازعات ، ففي بغداد مثلا كانت الخلافة العباسية تناضل من اجل الابقاء على كيانها ضد السلاجقة الاتراك وكانت تخوض حتى سنة ٥٥٥هـ صراعا عنيفا حفاظا على سلطانها واحياء لمعالمها المفقودة[١] .

في الوقت الذي كانت فيه قوى الصليبيين[٢] تنتهز الفرص الملائمة

---

(١) لمعرفة المزيد عن دور الخلافة العباسية في هذه الفترة ومحاولاتها المتعددة لاستعادة حقوقها من السلاجقة الاتراك انظر .

القزاز ، محمد صالح ، الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الاخير (النجف : ١٩٧١) : ٤٠ ـ ٧٧ .

(٢) اطلقت المصادر التاريخية على القوى الاجنبية التي قدمت من الغرب الاوربي لغزو الشرق الاسلامي تسميات عديدة منها (الصليبيون ، الفرنج ، المسيحيون) . وقد اعتمدت التسمية الاولى ، نظرا لان كلمة (المسيحيون) تطلق على كل من يدين بالنصرانية ، وهي كلمة شاملة لكل لمسيحي سواء اشترك في الحروب ضد الشرق الاسلامي أو لم يشترك ، وسواء أكان في الشرق العربي الاسلامي ، أو في الغرب كما ان هذه الكلمة

لتوقع بالخصم ، ومن ثم لتؤسس لها ملكا على انقاض ذلك البنيان •

كان الشام[1] مسرحا لتلك الصراعات نظرا لاهميته السياسية والدينية

ذات مدلول ديني فقط • بينما لا يخفى على أحد بأن تلك الحروب تمثلت فيها — الى جانب الدين — المصالح الاقتصادية والسياسية ضف الى ذلك ان كلمة « المسيحيون » حديثة الاستعمال في اللغة العربية • وان المصادر الاسلامية تذكر النصارى • وهكذا وردت في القرآن الكريم ، الذي لم يرد فيه « المسيحيون » •

اما كلمة فرنجة ، فاني اعتقد بأنها يمكن ان تطلق على جماعة معينة فقط من الامم النصرانية وربما فقط على اولئك الذين أسسوا الدولة الجرمانية جنوبي فرنسا في القرن الثاني الميلادي والذين اعتنقوا النصرانية الغربية سنة ٤٩٦م على المذهب الكاثوليكي ، وقد اطلقها المؤرخون العرب ، كابن تغري بردى مثلا ، على كل محارب مسيحي غير عربي ، واطلقها Sivan على المسيحيين الغربيين لا على الروم • بينما وجدت بان كلمة (الصليبيون) اقرب التسميات لواقع الحركة السابقة ، لانها ظهرت في العصور الوسطى سنة ٤٩٠هـ/١٠٩٦ في بدء الحرب الصليبية الاولى • وان هذه التسمية ارتبطت فعلا بالحروب التي شنتها اوربا المسيحية على المشرق الاسلامي ، بعد ان وضع المحاربون شارة الصليب المصنوعة من القماش الاحمر على اكتافهم •

انظر التسميات التي اطلقها المؤرخون العرب : أبو شامة ، الروضتين ١ : ٣٢ ؛ ابن تغري بردى ، النجوم الزاهرة ٥ : ١٤٦ ؛ الدويهي ، تاريخ الازمنة ص ٦ ؛ عبدالمنعم ماجد ، ظهور خلافة الفاطميين في مصر ، ص ٤٤٨ ؛ رانسيمان ، المدينة البيزنطية ، ص ٢١٠ ؛

Emmanuel Sivan, L' Islam et la Croisade (Paris, 1968), P. 25.

(١) اطلق اسم الشام على كل ما يقع وراء نهر الفرات وهو الاقليم الذي يحده البحر المتوسط غربا والبادية من ايلة الى الفرات ، ثم من الفرات الى حدود آسيا الصغرى شرقا ، وبلاد الروم حتى الثغور شمالا وصحراء سيناء حتى رفح جنوبا انظر :

١ — ابن حوقل ، صورة الارض (ليدن ، ١٩٣٨) : ١٥٤ •

والاقتصادية بالنسبة للقوى المتصارعة • فقد كانت الخلافة العباسية في بغداد تريد الحفاظ على الشام كجزء من ممتلكاتها •

وكان الفاطميون في مصر يرون في الشام امتدادا طبيعيا لمصر ، وقاعدة عسكرية يستطيعون بها ان يؤمنوا حدود مصر الشرقية ضد الروم والعباسيين[1] ، وليجعلوا منها قاعدة لدعوتهم الشيعية[2] •

اما الصليبيون ، فقد توجهت انظارهم نحو الشام لكسب مغانم مختلفة ، منها انهم وجدوا في فلسطين مركزا رفيعا لتحقيق مكاسب دينية وسياسية ، لان فلسطين كانت تمثل بالنسبة لهم بلد التوراة ومهد السيد المسيح ومنبت النصرانية[3] • كما كانت منطقة الشام ــ بما فيها انطاكية ــ تمثل الطريق التجاري المهم الدي يربط الدول المسيحية في اوربا بالعالم الشرقي[4] • اضافة الى ان الشام كان بالنسبة للغزاة بلد الغنى والجمال

---

٢ ــ القلقشندي ، ضوء الصبح المسفر (القاهرة ، ١٩٠٦) : ١/٢٧٩ــ٢٨١ •

٣ ــ فتحي عثمان ، الحدود الاسلامية البيزنطية ، الكتاب الاول (القاهرة ، د : ت) ١٦٠ ؛ فيصل السامر ، الدولة الحمدانية (بغداد : ١٩٧٣) ٢/٧ •

(١) المناوي ، محمد حمدي ، الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي (القاهرة ، ١٩٧٠) : ١٨٧ •

(٢) العريني ، السيد الباز ، مصر في عصر الايوبيين ، سلسلة الالف كتاب العدد ٢٦٩ ، القاهرة ، (د : ت) : ٧ ولمعرفة المزيد عن أحوال الفاطميون في الشام والاسباب التي دفعتهم لاحتلاله ، والمقاومة المحلية التي جوبهوا بها انظر ، جب ، هاملتون أ• ر ، صلاح الدين (بيروت ، ١٩٧٣) ٤٦ ــ ٤٨ •

(٣) بنيامين ، رحلة بنيامين ، انظر مقدمة الكتاب ، ترجمة عزرا حداد (بغداد ، ١٩٤٥) : ٢٠ •

(٤) عقد هربرت فيشر فصلا كاملا عن أسباب نمو المدن في العصور الوسطى ، موضحا اثر طرق المواصلات في نشاط التجارة وبالتالي نمو

الذي يحقق للكثيرين من الفقراء والاقطاعيين في اوربا ـ على السواء ـ مغانم كثيرة[1] •

ولا يخفى على أحد ما كان لانتصار المسلمين من الافراك في معركة ملاذكرد[2] سنة ١٠٧٢م على الدولة البيزنطية وتهديدهم عاصمتها (القسطنطينية) وأسر الامبراطور البيزنطي (رومانوس ديوجنيس) ، من أثر في اثارة روح التحدي لدى العالم المسيحي ضد العالم الاسلامي • مما دفع الكثيرين ـ خوفا على ممتلكاتهم ـ القيام باعداد الحملات العسكرية وتعبئتها لوقف التحدي السلجوقي •

هكذا دفعت العوامل السابقة حركة الحروب الصليبية للتوجه نحو المشرق الاسلامي ، لكسب مغانم دينية واقتصادية • فقد ذهب البعض لاعلاء

المدن ، وقد ارفق الفصل بخارطة توضح أهم طرق المواصلات المعتمدة والتي كان من بينها الطريق الواصل من غرب اوربا والبحر المتوسط الى انطاكيا في الشام فجنوب شرقي آسيا • انظر تاريخ اوربا في العصور الوسطى : ٢٢٢/١ •

(١) تحدث شامبدور عن الدوافع الدنيوية التي دفعت بعض الصليبيين للتوجه نحو الشام ، وبخاصة دمشق • وذكر بانهم كانوا أثناء توجههم اليها يحلمون بأرض الجنة التي كانوا يعتقدون بانها تحفة الشرق
Damas Spmbolisont lorient

انظر :
Champdor, Salodin Le Plus pur heros-de Islam (France, 1956), P. 28.

(٢) ملاذكرد : معركة حدثت في مدخل آسيا الصغرى بين حوالي ٢٠٠،٠٠٠ بيزنطي والسلاجقة الاتراك بقيادة ألب ارسلان ، وانتهت بانهزام الجيش البيزنطي ، وتعد أكبر نكبة في تاريخ الامبراطورية البيزنطية • انظر حسين أمين ، تاريخ العراق في العصر السلجوقي (بغداد ، ١٩٦٥) : ٢٥٠ ، ٢٥١ •

كلمة الرب ، وذهب آخرون لكسب مغانم الدنيا ، بينما تقدم آخرون فرارا من رتابة حياتهم اليومية ، أو حبا بالمغامرة والمخاطرة ، أو لتأسيس امارات جديدة في الشرق[1] .

ومهمـا كانت الاسـباب الداعيـة للحـروب الصليبية فان الروايات التاريخية ـ على اختلافها ـ تشير الى ان اوربا رفعت راية الصليب ونادت في حربها ضد المسلمين بشعار (هذه ارادة الله)[2] ، وان رجال حربهم تجمعوا تحت زعامة رجال الدين الذين كانوا يثيرونهم بالخطب الحماسية ضد المسلمين الكفار على حد قولهم !!

ومن أمثلة تلك الاجتماعات ، ذلك المجتمع الذي عقده سانت برنارد Saint Bernard [3] في كليرفو والذي لخص فيـه ، بخطبة حماسة ، شعور المسيحيين بالعودة الى النصر فقال : « ان الله يدعوكم للعودة للحرب ،

---

(١) رينتز ، جورج ، دراسات اسلامية ، ترجم باشراف نقولا زيادة (بيروت ، ١٩٦٠) ١٠٢ ـ ١٠٣ ولمعرفة المزيد عن أسباب الحروب الصليبية انظر : ارنست باركر ، الحروب الصليبية (بيروت ، لم يذكر السنة) ، ص ١٤ ـ ٢٥ .

(٢) Larousse Universel, Vol, 2 (Paris, 1922) Article Croisades P. 570.

(٣) ولد سانت برنارد في منطقة ديجون Dijon سنة ١٠٩٠ ، ومنذ سنة ١١١٢م دخل حياة الرهبنة واسس دير كليرفو سنة ١١١٥ ، واشتهر بالعلوم اللاهوتية وقد كلفه البابا هوجين الثالث في المجمع الذي عقد في بورج Bourges رئيسا لاعداد الحملة الصليبية الثانية ولمعرفة المزيد عنه انظر الكتاب المحقق عنه والذي استقينا معلوماتنا منه وهو : Saint Bernard, Et l'esprit Cistericien-Dom Jean le clercq (Paris, 1966) P. 5, 7.

واعادة الأرض المقدسة من الذين انتهكوا حرماتنا ... فماذا تترقبون لتأدبوا هؤلاء ـ !! مأساة للذي لم يضح بدمه من أجل المعركة »[١] .

ومن جهة ثانية فان المسلمين أيضا رفعوا راية « الجهاد في سبيل الله »[٢] اذ لم تكن هناك قضية تحرك الناس مثل الدين ، خاصة وانهم وجدوا في ذلك الشعار اسلوبا عمليا وجديا يستطيعون به جمع الكلمة ورص الصف ومن ثم ضرب الغزاة والانتصار عليهم .

وقد اوضح شامبدور هذا المفهوم عندما علل أسباب نجاح الحملة الصليبية الاولى ، وفشل الحملة الصليبية الثانية ، فذكر بأنه في الحرب الصليبية الثانية كان المسلمون متحدين تحت قادة نورالدين الذي دفعه ايمانه وحميته الدينية الى انقاذ سوريا ، فقد احيا الجهاد وبذلك حلت لدى المسلمين عقلية جديدة محل العقلية السابقة التي كان معها المسلمون متفرقين[٣] .

وهكذا اذن ، رفع كلا الطرفين المتنازعين في منطقة الشام شعار (الجهاد في سبيل الله) ما دام ذلك الشعار يحقق لهم الاهداف التي يصبون اليها خاصة وان الدين كان الاطار العام للحياة في جميع مظاهرها

---

(١)
Champdor, Saladin Le plus pur herose delslam (Paris, 1956). P. 27.

(٢) للاطلاع على معنى الجهاد عند المسلمين ، وضرورة التمسك به لانقاذ القدس ، ومضار التخلي عنه . انظر النص العربي المنقول عن كتاب الجهاد ، لعلي بن طاهر السلمي في المجلة الفرنسية التالية :
Journal Asiatique, Fascicule n. 2 (Paris, 1966), P. 211-212.

الدهلوي ، الشيخ أحمد ، حجةالله البالغة ، تحقيق السيد سابق ، مطبعة الاستقلال ، لم يذكر السنة) : ٢/٧٨٤ ـ ٨٠٤ .

(٣) Champdor, Saladin, P. 30.

في العصور الوسطى[1] . فقد اكتسب بفضله القادة العسكريون كثيرا من العون المادي والمعنوي[2] .

ونتيجة لما سبق تقدم الصليبيون نحو بلاد الشام بعد ان استخدموا ضد المسلمين كل ألوان الكذب ، لاشعال شعور الشعوب المسيحية ضدهم لكي يبذل الصليبيون في حربهم النفس والمال[3] . ووصلوا اليها في ١٥ آب ١٠٩٦م/٤٨٩هـ ، وكانت آنئذ ، اوصالا مفككة بين قوى الفاطميين والاتابكة وغيرهما من القوى المحلية الاخرى[4] .

---

(١) كويلرينج ت. ، الشرق الادنى مجتمعه وثقافته ، ترجمة د. عبدالرحمن محمد أيوب ، (القاهرة دون تاريخ) : ١٦٦ .

(٢) تلقى نورالدين ، ومن بعده صلاح‌الدين بفضل رفعه لشعار (الجهاد في سبيل الله) مساعدات كبيرة بالعدّة والعدد من اغلب العالم الاسلامي ، وسوف نوضح ذلك في الفصل القادم . كما توحدت كلمة العالم المسيحي بفضل نفس الشعار ، رغم الانشقاق الذي كان بينها « ففي أواخر القرن ١١م وجه امبراطور الدولة الشرقية دعوة الى البابا ليدعو امم الغرب من فرنجه والمان وانكليز الى نصرة الصليب ، وتخليص بيت المقدس من أعدائه المسلمين ، فوجه البابا دعوته الى اوربا ... فما الذي جعل البابا يقبل هذه الدعوة رغم الخلافات والانقطاع بين الطرفين ؟ وما الذي جعل اوربا تستجيب لدعوة البابا بهذه الحماسة ؟ رغم ما كان بين روما والقسطنطينية من منافسة منذ قرون » انظر : أبو حديد ، صلاح‌الدين ، ١٠ ـ ١١ .

(٣) لمعرفة الصورة الواضحة التي كانت تصور فيها اوربا المسيحية الشرق الاسلامي في العصور الوسطى . وعقيدته التي كانت تراها عقيدة الكفر والضلال . والعلاقات المسيحية الاسلامية في فترة الحروب الصليبية انظر :

Norman Daniel, Islam and the West (The Making of an Image), Edinburgh, 1966, P. 79, 195, 314-315.

(١) كان في منطقة الشام ـ كما اوضح جب ـ ست قوى مميزة

وفي سنة ٤٩١هـ/١٠٩٧م تمكن الصليبيون من الاستيلاء على طرسوس والرها وحاصروا انطاكية ثم ملكوها سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٩م ، وفي ٢٣ شعبان من نفس السنة استولوا على القدس واعملوا في أهله الذبح والقتل بالجملة[1] ، حتى ليقال انهم ذبحوا سبعين الفا من المسلمين طبقا لما ورد في المصادر العربية والاوربية على السواء[2] .

واضافة الى السياسة العسكرية ـ سياسة الارهاب والقوة التي استخدمها الصليبيون للاستيلاء على البلاد الاسلامية ، فقد استخدموا سياسة أخرى ، يمكن ان تكون أول تطبيق لسياسة الاستعمار الاستيطاني باسلوب ديني مرموق .

كان الصليبيون يختارون لهم مواقع ذات سيطرة مهمة في البلاد

ومشتبكة في نزاع الواحدة منها مع الاخرى وهي : الفاطميون ، القبائل العربية المحلية ، الامراء التركمان السلاجقة ، القادة العسكريون الاتراك ، القبائل التركمانية المستقلة غير السلجوقية ثم أخيرا الهيئة العامة من السكان . انظر : جب ، صلاح الدين الايوبي ، تحرير يوسف ايبش (القاهرة : ١٩٧٣) : ٤٥ ـ ٦٠ .

(٢) الدويهي ، تاريخ الازمنة ، منشور على أصوله في مجلة المشرق (بيروت ، ١٩٥١) ٦ ـ ٧ ، انظر سيد أمير علي ، مختصر تاريخ العرب : ٢٨٥ ـ ٢٨٨ تجد فيه وصفا موجزا للمذبحة البشعة التي قام بها الصليبيون ضد المسلمين العزل والمستسلمين في الحرب من الذين لا يجوز الغدر بهم لدى كل الشرائع والقوانين .

(٣) انظر : ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق (بيروت ، ١٩٠٨) : ١٣٦ ـ ١٣٧ ؛ عبدالعزيز سالم ، دراسة في تاريخ مدينة صيدا : ٩١ ؛ نورالدين حاطوم ، العصر الوسيط في اوربا (دمشق ، ١٩٦٧) : ٨٤٧/١ و ٨٤٩ ـ ٨٥٠ ؛

Champdor, op. cit., P. 176; Runciman, A History of the Crusodes, 1, P. 287.

الأسلامية على أطراف الشـام ومصـر ، وينشؤون لهم عليها كنيسة ، ثم يبدأون بتحصينها ، ومن ثم توسيعها ، حتى تكون قلعة حصينة ويقومون بعدها باستدعاء العساكر من اوربا الى تلك الحصون لحمايتها ، ومن ثم لشن الغارات منهـا على المواقع الاسلامية المجاورة أو لقطع الطـرق على التجار والحجاج المسلمين والاستيلاء على بضائعهم وأمتعتهم ، وبخاصـة اولئك القادمين من شمال افريقيا • حتى انه كان من جملة أسباب معركة حطـين سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م ـ والتي سأتطرق الى شرحهـا في الفصول القادمة ـ استيلاء البرنس ارناط صاحب الكرك على احدى القوافل التجارية القادمة من مصر الى الشام • وكان حصن الكرك من الحصون التي أسست بتلك الطريقة اضافة الى حصن عجلون في الاردن والشوبك على اطراف الشـام[1] •

كذلك استخدم الصليبيون وسيلة أخرى للاستيلاء على المواقع المهمة ، وهي انهم كانوا يدخلون الحصون الاسلامية بوعـود الامان ، ثم ينكلون بأهلها ويعذبونهم حتى يضطروا الى مغادرة أراضيهم ، كما فعلوا بحصن جبيل سنة ٤٩٧هـ • فقد شدد الصليبيون الحصار عليه ، عندما استولوا على حصن طرابلس ، حتى فتحوه بالامان ، ثم غدروا بأهله وابتزوا أموالهم بأنواع العقوبات ، ولم يفوا بما بذلوه لهم من الامان[2] •

وقد نتج عن تلك الاعمال العدوانية اثارة الشك ، واساءة العلاقة بين

---

(١) ابن شداد ، الاعلام الخطيرة بذكر امراء الشام والجزيرة ، ج ٢ ، ق ٢ : ٦٩ ـ ٧٠ و ٨٦ ـ ٨٧ ؛ انظـر : ابن الاثير الكامل : ٥٢٨/١١ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب (تحقيق جمال‌الدين الشيال) : ١٨٥/٢ •

(٢) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق : ١٤٣ ؛ ابن شداد المصدر السابق : ١٩٦ •

المسلمين والعرب النصارى ، كما أدى الى اثارة روح التحدي لدى العالم الاسلامي وقد اوضح هذا المفهوم برنارد لويس بقوله : « جاء الصليبيون يحملون معهم تراثا ضخما من الشك والتعصب آثروا بـه على العـرب المسيحيين بجيرانهم المسلمين واضعفوا الوثيق من الصلات التي كانت قائمة قبل قيام الحروب الصليبية »[1] .

ومن الجدير بالملاحظة ان الصليبيين لم يتمكنوا من اقامة اماراتهـم الرئيسة الاربع في الشام ، الا لضعف المسلمين وتفرقهم ، رغم قلة موارد تلك الامارات من الرجال والمال . الا ان تلك الاحوال لم تدم بفضل يقظة العالم الاسلامي وما تمخضت عنـه المنطقة من ظهور قادة مخلصين اكفـاء تمكنوا من استغلال الظروف السياسية التي كانت تسـود المنطقة في مدة لا تتجاوز نصف قرن ، وكان من اولئك الرجال عمادالدين زنكي ونورالدين محمود ، وأخـيرا صلاح‌الدين الذي تمكن من توحيد الشـام والجزيرة ومصر ، والذي امتدت سلطنته من نهر دجلة الى النيل[2] .

ويكفي ان أقول ان ظهور مثل اولئك القادة كان طبيعيا ، بل حتميا استجابة للتحدي الذي أصاب المشرق الاسلامي حتى انه « من المعقول جدا ان يتوقع المـرء ان ينهض المسلمون ويتحدوا ليصدوا الهجوم الموجه الى ديار المسلمين »[3] .

وكان من المألوف أيضا ان يصل الى أعلى الرتب « رجال من عامة الناس ، بل من الارقاء ممن فهموا روح العصر الذي يعيشون فيه ومبادئه

---

(١) برنارد لويس ، الغرب والشرق الاوسط ، ترجمه نبيل صبحي (لاغوس : ١٩٧٥) : ٢٢ و ٣٩ .

(٢) هربرت فيشر ، تاريخ اوربا في العصور الوسطى : ١/١٨٨ ؛ بروكلمان ، تاريخ الشعوب الاسلامية (بيروت ، ١٩٦٥) ٣٤٧ ـ ٣٤٨ .

(٣) رينتز ، دراسات اسلامية : ١٠٣ .

السائدة ، وأرادوا ان يفيدوا منها »[1] • وما البيت الزنكي والأيوبي الا دليل على صحة ذلك الافتراض •

وقد خلق استيلاء الصليبيين على القدس توترا في العالم الاسلامي ، قاد زعامته الفكرية الشعراء والكتاب والعلماء ، الذين جردوا حملة اعلامية لاثارة الناس ودفعهم لتحرير الارض المقدسة •

ومن تلك الفترة بدأنا نقرأ تفاسير جديدة للقرآن الكريم ، وأحاديث لم تسمع من قبل تمجد القدس ، وتغالي في فضائله وتسهب في تعدادها • ومن جملة تلك الادبيات ما ألفه الشيخ برهان‌الدين في « منتخب فضائل بيت المقدس » ، وقد اوضح في تأليفه أهمية بيت المقدس مبالغا فقال : « ان أرض بيت المقدس هي أول أرض بارك الله فيها ، ومن تحت قبة الصخرة تخرج كل المياه العذبة »[2] •

كما ذكر الظاهري تفسيرا لبعض الآيات القرآنية التي اوضح فيها أهمية القدس وشجع الناس على استعادتها فذكر ان أرض الله هي القدس وفسر قوله تعالى « ان الارض يرثها عبادي الصالحون[*] هي الارض المقدسة » ، وان الرسول (ص) قال : « من زار بيت المقدس محتسبا أعطاه الله ثواب ألف شهيد »[3] •

---

(١) علي بيومي ، قيام الدولة الايوبية في مصر (القاهرة ، ١٩٥٢) : ٢٩ •

(٢) الشيخ برهان‌الدين ، منتخب في فضائل بيت المقدس ، مخطوط في مكتبة المتحف بغداد ، رقم ١٠٢٣ ورقة ٥ و ١١ •

(*) انظر : القرآن الكريم : ٢١/١٠٥ •

(٣) الظاهري ، كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك (باريس ، ١٨٩٣) ١٧ ؛ انظر العليمي ، الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل (النجف ١٩٦٨) ١/٢٢٧ •

وقد نقل المؤرخ عبدالرحمن العليمي أيضا عدة أحاديث يبدو عليها الوضع لتثبيت فضائل القدس انقل منها ما يلي : عن كعيب الاحبار قال : « قال الله تعالى لبيت المقدس انت جنتي وقدسي وصفوتي من بلادي من يسكنك فبرحمة مني ومن خرج منك فبسخط مني عليه »(١) وعن عبادة بن الصامت قال : « قال رسول الله (ص) صخرة بيت المقدس على نخلة والنخلة على نهر من أنهار الجنة وتحت النخلة آسية امرأة فرعون ومريم ابنة عمران ينظمان سموط اهل الجنة الى يوم القيامة »(٢) • وقد نقل العليمي كثيرا من تلك الاحاديث ، والقصد من نشرها اثارة حمية المسلمين ودفع السلاطين والخلفاء الى العمل من أجل تحرير القدس من أيدي الصليبيين والاقلال من شأن الخلفاء الذين لا يسعون للجهاد ، فقد ذكر العليمي نقلا عن أبي عمرو الشيباني قوله : « ليس يعد من الخلفاء الا من ملك المسجدين ، المسجد الحرام ومسجد بيت المقدس الشريف »(٣) •

ولما كانت القدس بيد الصليبيين ، فقد دفعت تلك الاحاديث كلها الكثير من الناس المؤمنين الى العمل على تحرير القدس ليتسنى لهم زيارتها احتسابها لله تعالى ، وبالتالي ليكون لهم اجر عظيم يعادل اجر الف شهيد !

ومن جهة ثانية أخذ الشعراء يفدون على الخلفاء والامراء يحثونهم على العمل في سبيل تحرير القدس ، حتى قيل ان من أسباب فتح صلاح‌الدين القدس أبياتا من الشعر ارسلت اليه من القدس المحتلة ، بطلب الاستغاثة(٤) •

---

(١) الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل : ١/٢٢٨ •
(٢) نفس المصدر السابق : ١/٢٣٦ •
(٣) نفس المصدر السابق : ١/٣٤١ •
(٤) سوف نتطرق الى تبيان أسباب تحرير صلاح‌الدين للقدس ، ونبين ضعف أثر تلك الابيات الشعرية في دفع صلاح‌الدين لتحرير القدس في النقطة الثالثة من الفصل الثالث •

ولو تصفحنا كتب التاريخ والأدب لوجدنا الكثير من تلك الأشعار تحث على تحرير القدس[1] • ومن جملتها ، ما ذكره الشاعر علي بن هبة الله[2] الذي اوضح للسلطان نورالدين محمود زنكي بأن أفضل الاعمال التي يجب ان يقوم بها هي تحريره لبيت المقدس فقال :

فالجد والجد مقرونان في قرن ... والحزم في العزم والادراك في الطلب
وطهر المسجد الاقصى وحوزته ... من النجاسات والاشراك والصلب
عساك تظفر في الدنيا بحسن ثنا ... وفي القيامة تلقى حسن منقلب[3]

ومن الواضح ان حديث فتح القدس وتحريرها من أيدي الصليبيين كان حديث الساعة وموضع الامثال • وكان الانسان اذا ما أراد ان يخجل انسانا آخر ذكره باستيلاء الصليبيين على القدس وعدم تمكنهم من تحريرها • ففي احدى مجالس صلاح الدين كان حاضرا عنده الحكيم الاديب عبدالمنعم مظفر الغساني الجلياني ، فأراد كاتب صلاح الدين الفاضل البيساني ان يغض من نسب الجلياني فقال له : « يا أبا الفضل ، كم بين جليانة وغرناطة ؟ فقال : الذي بين بيسان والقدس • فخجل الفاضل وظهر ذلك في وجهه »[4] •

---

(١) انظر مثلا : الاصفهاني ، خريد القصر ، ق ٣ ، ج ٣/٤٤ ؛ تاريخ ابن الوردي : ٢/١٦ ؛
Champdor, op. cit., 26.

(٢) هو الشاعر أبو القاسم علي بن الحسن بن هبةالله ، المتوفى سنة ٥٧١هـ بدمشق وقد صلى عليه صلاح‌الدين الايوبي صلاة الميت • وكان حسن الشعر • انظر : ابن خلكان ، وفيات الاعيان : ١/٣٣٥ •

(٣) الاصفهاني ، خريدة القصر وجريدة العصر (دمشق ، ١٩٦٨) القسم الثالث ١/٢٧٧ •

(٤) ابن سعيد ، ابن الحسن الاندلسي ، الغصون الياسعة ، تحقيق ابراهيم الابياري (القاهرة ، د : ت) ١٠٧ ـ ١٠٨ •

ونتيجة لذلك تجمهر الناس في المحلات العامة في دمشق وحلب وديار بكر والموصل ودحض الكثير منهم ـ بقيادة علماء الدين ـ المساجد واخذوا يدعون للحرب ، وبسرعة ، ضد الصليبيين[1] .

ففي سنة ٥٠٥هـ « كثر الضجيج والبكاء وبطلت الجمعة ، وأخذوا الخليفة في الاهبة وتهيأ السلطان الى الغزو ، فلم يتم ذلك لضعف عساكر العراق »[2] ، وفي سنة ٥٣٢هـ ـ العام الذي ولد فيه يوسف صلاح الدين ـ خرج أهالي حلب وبزاعة من النساء والصبيان والرجال في مظاهرة كبيرة ، دخلوا بها المساجد ومنعوا الناس من اقامة الصلاة ، ودفعوهم لقتال الاعداء ، واضطروا لكسر المنابر[3] ! .

وهكذا استفاق الزنكيون ، ومن بعدهم الايوبيون بقيادة صلاح الدين ، وأخذوا العبر بمآسي احتلال القدس ، وكانوا يخرجون بجيوشهم لتحقيق امنية الشعب في تحرير القدس بعد ان كانت خلافة بغداد قد فقدت سلطانها ، وباتت تتخبط في جو من الفوضى والانحلال بعد ان ازدادت السيطرة الدخيلة عليها ، وضعف الخلفاء ، الذين لم يبق لهم سوى الاسم[4] .

في هذه الظروف التي اكتنفها التعقيد السياسي الذي « كاد يصل الى شفير الفوضى تقريبا »[5] برز صلاح الدين ، ولذلك يشكل عهده أكثر من

---

(١) Champdor, op. cit., P. 27.

(٢) الدويهي ، اسطفانوس انظر مجلة المشرق (بيروت ، ١٩٥١) : ٢١ .

(٣) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان في تاريخ الاعيان (حيدر آباد الدكن) ق ١ : ٨/١٦٣ .

(٤) انظر : القزاز ، الحياة السياسية : ١٣ ـ ٤٠ .

(٥) جب ، صلاح الدين : ٤٥ .

حادثة عابرة في تاريخ العصور الوسطى « فهو يمثل احدى تلك اللحظات النادرة والمثيرة في التاريخ البشري »[1] • واذا أردت الوصول الى معرفة حقيقة تلك اللحظات المثيرة ، فلابد لي من دراسة لشخصية صلاح الدين وعصره الذي نشأ فيه ، ليمكنني ان أتلمس الجواب الكامن في معرفة هل ان الظروف السائدة هي التي خلقت صلاح الدين ؟ ام ان طموحه الشخصي وحبه للفتح هو الذي دفعه للجهاد ؟ وهل كانت سياسته نابعة من عقيدته ؟ ام املتها عليه الظروف المواتية ؟ وهل كان صلاح الدين في سياسته مقلدا لنور الدين ، ام مبتكرا ؟ واذا كان مبتكرا ، فما هي الابتكارات التي جاء بها ؟ وللاجابة على تلك الاسئلة نستعرض حياة صلاح الدين الايوبي من مولده حتى اسقاطه الخلافة الفاطمية في مصر وتوجهه نحو الشام سنة ٥٧٠هـ موضحا الاحوال السياسية العامة في مصر •

المولد والنشأة :

ينتسب صلاح الدين للاسرة الايوبية ، وكما هو ظاهر من تسميتها تعود الى أيوب بن مروان بن شادي من بلد دوين[2] • وهي بلدة في آخر عمل اذربيجان[3] •

ويختلف المؤرخون في أصل هذه الاسرة ، فمن قائل بانها من الاكراد الروادية[*] كابن الاثير وأبي شامة وابن أبي طيء

(١) جب ، صلاح الدين : ١١٨ •

(٢) ابن الاثير ، الكامل : ٣٤١/١١ ؛ اليافعي ، مرآة الجنان : ٣٩٩/٣ _ ٣٤٠ •

(٣) ابن خلكان ، الوفيات : ١٤٠/٦ ؛ أبو شامة ، الروضتين : ١٢٩/١ •

(*) الروادية : هي بطن من بطون الهذبانية ، انتشرت حول منطقة جنزه الواقعة بين شروان واذربيجان والتي تسميها العامة كنجه • ياقوت الحموي ، معجم البلدان : ١٥١/٣ •

وغيرهم[1] • ومنهم من يرى بأن لعائلته أصلا في الجماعات الايرانية والقفقاسية وان جذورهم ترجع الى عهد الانبعاث الايراني بين نهاية السيطرة العربية وبداية الغزوات التركية • وقد اوضح هذا الرأي منورسكي Minorska الذي اعتقد بأن صلاح الدين يعتبر – الى حد ما – من أبناء العوائل التي استعادت فيه القبائل الايرانية العديد من مراكزها المفقودة[2] • كذلك فان ابن تغري بردى عندما عدد جملة الآراء التي قيلت في أصل صلاح الدين ذكر من جملتها بأن أصله يعود الى بلدة صغيرة في العجم[3] ، وهي منطقة فارسية • وقد اوضح المقريزي الشيء نفسه فذكر ان نسب أحد أجداده كان (علي بن أحمد الخراساني)[4] بينما اعتقد فريق ثالث بنسبتهم الى بني امية • وقد اورد ابن تغري بردى رأيا لم يرجحه فقال : « صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادى بن مروان ويقال ان مروان من خلفاء بني امية »[5] • ويرى العصامي ان الذي انتسب هذه النسبة ادعاء هو سيف الاسلام بن طغتكين – أخو صلاح الدين – لما ادعى لنفسه الخلافة

---

(1) ابن الاثير ، الكامل : ١١/٣٤١ ؛ ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب : ٤/٢٩٨ ، ابن اياس ، محمد بن أحمد ، بدائع الزهور في وقائع الدهور (القاهرة ١٣١١) : ١/٦٩ •

(2) Minorsky, Studies in Coucasian History (London, 1953), P. 109.

(3) انظر : النجوم الزاهرة في اخبار ملوك مصر والقاهرة (القاهرة ١٩٣٥) : ٦/٤ ؛ انظر الزركلي ، خيرالدين الاعلام (مطبعة كوستاتسوماس ١٩٥٦) : ٩/٢٩١ •

(4) المقريزي ، تقي الدين ، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك (القاهرة : ١٩٣٤) ق ١ : ١/٤١ •

(5) النجوم الزاهرة : ٦/٣ •

باليمن . وهو نسب ليس بصحيح ، ولا يستند اليه[١] . بينما اعتقد المقريزي ان الذين اظهروا هذا النسب هم أهل المصالح ، ومن يريد التقرب لدى السلطان ونيل « الحظوة لديهم ، لما صار الملك اليهم »[٢] .

والارجح ان نسبهم يعود الى الاكراد ، وانه لم يعرف بالضبط احد بعد شادى[٣] . ومما يؤيد ذلك النسب ما ذكره ابن أبي طيء وابن خلكان من انهما تتبعا نسب صلاح الدين فلم يجدا احدا ذكر بعد شادى أبا آخر[٤] . وان شادى هذا ينتسب الى الروادية التي ينحدر منها الايوبيون ، وهي من اشرف القبائل الكردية . رغم ما حاوله البعض من ارجاع أصلهم الى بني امية . لان امثال تلك المحاولة « لا ترضي الا العقول التي تأبى الا ان تربط بين المجد الباذخ والاصول الملكية السامقة »[٥] .

ومهما يكن من امر اصل الايوبيين فالمهم هو ان اسرتهم دخلت كنف الحياة الاسلامية في بغداد وتكريت وبعلبك ودمشق وترعرعت بينها ، وتثقفت بالثقافة العربية الاسلامية في وقت ، كان شعار الحياة العامة (الدين الاسلامي) الذي يجمع بين القوميات المختلفة برباط أخوي « ان اكرمكم

---

(١) العصامي المكي ، سمط النجوم العوالي في أبناء الاوائل والتوالي (القاهرة ، د : ت) : ٨/٤ .

(٢) المقريزي ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار (القاهرة : ١٣٢٤هـ) : ٣٧٨/٣ (وسوف نرمز له : المقريزي ، الخطط) .

(٣) ذكر ابن كثير بدلا من شادى (شارى) بينما اوردها ابن الاثير (شاذى) والارجح بانها شادى لتواردها في أغلب المصادر . انظر : ابن كثير ، البداية والنهاية : ٢١٣/١٢ ؛ ابن الاثير ، الكامل : ٣٤١/١١ .

(٤) أبو شامة ، الروضتين : ٢٦/١ ، ١٢٩ ؛ ابن خلكان ، الوفيات ١٤٠/٦ .

(٥) بيومي ، قيام الدولة الايوبية في مصر : ٥٦ ؛ انظر العصامي ، سمط النجوم العوالي : ٨/٤ .

عند الله اتقاكم »[1] ولا فضل لعربي على اعجمي الا بالتقوى ، وان تلك الاسرة كانت قد نالت ثقة السلطات العليا التي لم تضع امامها العقبات في سبيل الوصول الى القيادة كتلك المجتمعات التي توجد فيها فوارق اجتماعية[2] .

اما نقطة البداية في مساهمة هذه الاسرة في حوادث التاريخ الاسلامي بعد مفارقتهم بلدة دوين ، الموطن الاصلي ، فهي أيضا موضع خلاف بين المؤرخين قيل ان شادي جدّ الاسرة كان صديقا لمجاهدالدين بهروز شحنة بغداد ، الذي استدعاه اليه ومنحه قلعة تكريت اكراما لصداقتهما[3] . وقيل ان أسدالدين ونجم‌الدين أيوب ابنيّ شادي قدما الى العراق وخدما بهروز ، فولى نجم‌الدين ــ والد صلاح‌الدين ــ مستحفظا لقلعة تكريت لانه الاكبر سنا والارجح عقلا[4] .

بينما أدلى ابن أبي طيء برأي ثالث خلاصته ان أيوب خدم السلطان محمد ابن ملكشاه الذي اقطعه قلعة تكريت اكراما له لامانته . ولما ولي السلطان مسعود السلجوقي السلطنة في بغداد ، منح تكريت لبهروز شحنة بغداد . وقد ابقى بهروز هذا نجم‌الدين أيوب مستحفظا لتكريت ، واضاف

---

(١) القرآن الكريم : ١٤/٤٩ .

(٢) كنت قد اوضحت بأنه نتيجة لسوء الاحوال السياسية واضطرابها ، فانه كان يصل الى القيادة كل من يستشف طريق النصر ، ويعرف أسبابه ، ويفهم معنى القيادة ولو كان من عامة الناس ، انظر صفحة رقم (٤٩) .

(٣) بيومي ، المصدر السابق : ٥٩ ــ ٦٠ ؛ وجدى ، دائرة المعارف القرن العشرين ، ٥٤٢/٥ .

(٤) ابن الاثير ، المصدر السابق : ٣٤١/١١ ؛ ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات م ٤ : ٥١/١ .

اليه جميع الولاية المتاخمة لها[1] .

ومهما كانت الاسباب الداعية لقدوم الايوبيين الى بغداد ، فالذي يهمنا في هذا المجال هو ان نجم‌الدين أصبح حاكما لقلعة تكريت قبيل سنة ٥٢٥هـ/١١٣٠م ، وانه أحسن التصرف فيها . الا ان أموره اضطربت بعد حوالي سنتين من توليته قلعة تكريت ، ذلك لان زنكي اتابك الموصل ظاهر السلطان مسعود السلجوقي ضد الخليفة العباسي المسترشد سنة ٥٢٦هـ/١١٣١م[2] بجيش قدم به الى بغداد ، ولكنه هزم وفر عائدا الى بلاده ، وأثناء عودته من تكريت ساعده نجم‌الدين وأسدالدين شيركوه في عبور نهر دجلة وقدما له بعض المساعدات التي كان لها اثار خطيرة[3] ، لانها اغضبت عليهما بهروز الذي اعتبر مساعدتهما لزنكي عصيانا للسلطة في بغداد .

كما حصل بنفس الوقت ان قتل أسدالدين شيركوه أحد مماليك بهروز فخاف هو وأخوه نجم‌الدين وخرجا موليين شطر

---

(١) الروضتين : ١/٢١٠ ـ ٢١١ .

(٢) وكان السبب في ذلك الهجوم على بغداد هو ان زنكي عاضد السلطان السلجوقي مسعود ضد السلطان داود الذي خلف والده السلطان محمود بن محمد ابن ملكشاه سنة ٥٢٥هـ/١١٣٠م وطلب مسعود من الخليفة المسترشد ان يخطب له ببغداد ، فلما رفض الخليفة هجم مسعود على بغداد بمساعدة عمادالدين زنكي لنيل السلطنة بالقوة . انظر بخصوص ذلك الهجوم وفشله : ابن الفرات ، التاريخ ، م ٤ ، ج ١ : ٥١ ـ ٢٥ ؛ الروضتين ، ١/٢١٠ ؛ المقريزي السلوك ١/٣٥ ؛ سعيد عبدالفتاح عاشور ، الناصر صلاح‌الدين : ٦٥ ـ ٦٨ ؛ عبدالمنعم ماجد ، الناصر صلاح‌الدين : ٤٥ ـ ٤٦ .

(٣) الشيال : تاريخ مصر الاسلامية : ١١ ؛
Lanepool, Saladin, P. 5.

الموصل[1] ، حيث يقيم زنكي الذي أكرم مثواهما عرفانا بالجميل الذي اسدياه له كما جاء آنفا •

وفي الليلة التي غادر فيها نجم‌الدين أيوب تكريت ولد لـه يوسف صلاح‌الدين[2] • وقد حمله معه الى الموصل سنة ٥٣٢هـ/١١٣٨م[3] •

ولما فتح اتابك زنكي بعلبك سنة ٥٣٤هـ ولي عليها نجم‌الدين أيوب • وفي بعلبك قضى يوسف صلاح‌الدين طفولته الاولى • وكان يشاهد ، أو يسمع ـ بين الفترة والاخرى ـ اعتداءات الصليبيين على البلاد العربية الاسلامية • ففي سنة ٥٤٦هـ مثلا أغار الصليبيون على سهل البقاع المجاور لبعلبك فتصدى لهم نجم‌الدين أيوب[4] ، وكان يوسف صلاح‌الدين آنئذ في الرابعة عشرة من عمره ومن المحتمل جدا ان يوسف كان قد شارك مع والده في تنفيذ الخطط الدفاعية ، أو شاهد عن كثب المعارك الدائرة ، وعلى أقل احتمال فان يوسف صلاح‌الدين كان قد شاهد نتائج التخريب الذي قام به الغزاة على أطراف بعلبك ، وانها ـ دون شك ـ قد اثرت في نفسه •

---

(١) ابن الاثير : ١١/٣٤١ ، أبو شامة : ١/٢١٠ ـ ٢١١ ؛ ابن العماد ، شذرات الذهب : ٤/٢٣٦ ؛ السلوك : ١/٤٢ •

(٢) ابن الفرات ، المصدر السابق ، م ٤ : ١/٥٥ •

(٣) ابن شداد ، سيرة صلاح‌الدين : ٦ ؛ الدواداري ، كنز الدرر : ٦/٥١٤ ؛
Lanepool, A History of Egypt, P. 191.

(٤) وكذلك ارسل ريموند امير انطاكية قواته العسكرية ، الى القلاع الاسلامية ، فاغارت على حماة وحلب • وتصدى لها أسدالدين شيركوه بالعسكر الحلبي وهزمها واستنفذ أسارى منهم • انظـر : أبو شامة ، الروضتين : ١/٤٨ •

وفي نفس العام فارق صلاح الدين والده وعمل في خدمة عمه أسدالدين شيركوه في حلب • وقد كان أسدالدين هذا مرافقا لنورالدين ، الذي تولى قيادة الزنكيين بعد مقتل والده زنكي « فقدمه بين يدي نورالدين فقبله واقطعه اقطاعا حسنا »[1] • ومن تلك اللحظة أصبحت ليوسف صلاح الدين مكانة خاصة ومرموقة لدى المؤرخين والشعراء والاوساط العامة وبدأنا نسمع عنه الحديث في كتب التاريخ من انه كان عزيز الجانب لدى السلطان نورالدين ، في الوقت الذي تقلد فيه أبوه نجم الدين حاكمية دمشق سنة ٥٤٩هـ/١١٥٤م[2] • وانه كثيرا ما كان صلاح الدين حلقة الوصل بين السلطان نورالدين وعمه شيركوه • فقد كان نورالدين يرسله الى عمه شيركوه لاستشارته في أمور الدولة وابطال المكوس والضمانات لان نورالدين « كان لا يفعل شيئا الا بمشورته »[3] ومن جملة من اوضح لنا هذا الدور ابن مخرمة الذي ذكر بأن صلاح الدين كان يتردد على بلاط نورالدين في دمشق[4] •

وفي هذه الفترة وبعد تولي والده أيوب ولاية بعلبك ، تلقى صلاح الدين العلوم الاسلامية ، وفنون القتال « وانه لقي من الرعاية والاهتمام ، باعتباره ابن والي المدينة ما لا يلقاه أبناء أواسط الناس ، فدرس القرآن والحديث والفقه ••• فضلا عن فنون لعب الكرة والفروسية وغيرها من فنون أبناء الطبقات الحاكمة »[5] • ومن الادلة على ذلك مرافقته

---

(١) نفس المصدر السابق : ١/٨٤ •

(٢) Lanepool, Saladin, P. 67-68.

(٣) ابن قاضي شهبة ، الكواكب الدرية : ٤٢ ـ ٤٣ •

(٤) ابن مخرمة ، قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر ، م ٢ : ٢/٧٧٢ ؛ سعداوي التاريخ الحربي المصري : ٦ •

(٥) العريني ، مصر في عصر الايوبيين : ٢٤ •

لنورالدين[1] ، ودراسته على أيدي العلماء كالشيخ الامام قطب الدين النيسابوري[2] ، الذي قال عنه المقريزي بأنه جمع لصلاح الدين عقيدة تحوي جميع ما يحتاج اليه ، وانه من شدة حرصه عليها كان يعلمها صغار أولاده[3] . واضافة الى تعلقه بلعبة الجوكان[4] . المفضلة لدى نورالدين .

وبذلك يمكن ان يقال بأن صلاح الدين تربى على أيدي كبار اساتذة منطقة الشام والجزيرة في القرن السادس الهجري . فهو اضافة الى تردده على دور العلم والشيوخ ، فقد تلقى الدروس العلمية على أيدي والده نجم الدين أيوب وعمه أسد الدين شيركوه ، والسلطان نورالدين محمود بن زنكي ، الذين كانوا ممن تحدث عنهم التاريخ بفخر واعتزاز[5] .

ومما يدل على ذلك ما ذكره ابن الفرات بقوله :

« ولم يزل صلاح الدين في كنف أبيه حتى ترعرع . فلما ملك الملك

---

(١) الروضتين : ١/١٠٠ ؛ جب صلاح الدين : ١١٨ ؛
Ency of Arabic Civilization, the Arab East (London, 1966), P. 459.

(٢) هو أبو المعالي مسعود بن محمد الفقيه الشافعي . قدم دمشق سنة ٥٤٠هـ بعد ان كان قد درس القرآن في المدرسة النظامية بنيسابور نيابة عن الجويني ، كما درس بالمدرسة المجاهدية ببغداد . وكان عالما صالحا ، جمع لصلاح الدين عقيدة تجمع جميع ما يحتاج اليه في أمور دينه . وتوفي سنة ٥٧٨هـ بدمشق . ابن خلكان ، وفيات الاعيان : ٥/١٩٦ ـ ١٩٧ .

(٣) المقريزي ، السلوك : ١/٤٢ ـ ٤٣ .

(٤) الجوكان : وهي لعبة البولو الرياضية الشرقية الاصل . كان يمارسها اللاعبون على ظهور الخيل ، فيتقاذفون كرة من الخشب بمضارب طويلة . انظر : جب ، صلاح الدين : ١١٨ .

(٥) أبو بكر جلال طه ، صلاح الدين أسد القارتين (بغداد ١٩٦٧) : ٢١ ـ ٢٢ .

العادل نورالدين دمشق لازم الامير نجم‌الدين أيوب وولده يوسف خدمته • وكانت مخايل السعادة على صلاح‌الدين يوسف لائحة ، واستجابة تقدمه من حال الى حال ، والملك العادل يرى له ويأمره ، ومنه تعلم صلاح‌الدين طريق الخير ، وفعل المعروف والاجتهاد في أمور الجهاد • حتى ظهر للسير مع عمه أسدالدين شيركوه الى الديار المصرية ••• ولم يزل أسدالدين آمرا وناهيا بالديار المصرية ، وابن أخيه صلاح‌الدين يباشر الامور بنفسه مقررا لها لمكان كفايته وحسن رأيه ، وسياسته »[1] •

ورغم ان صلاح‌الدين قد أخذ الكثير مما تعلمه في سياسته من الرجال السابقين ، الا انه لم يكن مقلدا لهم تقليدا كاملا ، كما انه لم يكن مبدعا كل الابداع • بل جمع بين الاصالة والتقليد ، باسلوب فذ جديد يتلائم وعصره الجديد وأهدافه • ولو لم يكن تعبيره صادقا ، ومتماشيا مع روح عصره ، لما تمكن من الوصول للقيادة واكتساب النصر على الاعداء • ولهذا فلا ريب اذا امتدح صلاح‌الدين الشعراء ، وعدوه حلفا لواحد من اولئك الرجال ، وعلى الاخص نورالدين •

في سنة ٥٦٠هـ/١١٦٥م كان صلاح‌الدين متوليا لرئاسة شرطة دمشق ، نائبا لواليها تبعا لذلك ، وكانت مهمة النائب فيها قيادة العساكر والمحافظة على النظام والسهر على جباية الخراج[2] • فاظهر السياسة واحكم الامور فيها • فامتدحه الشعراء ثناء على استقامته ومنهم الشاعر عرقلة الكلبي المتوفى سنة ٥٦٧هـ بقوله :

رويدكم يا لصوص الشام فانـــي لكم ناصح في مقالي
واياكم من سمي النبي يوسف رب الحجا والجمال

(١) تاريخ ابن الفرات ، م ٤ : ١/٥٥ •
(٢) Elisseeff, Nur Ad-Din, Vol, 111, P. 788.

فـذاك مقطـع أيدي النسـاء   وهذا مقطع أيدي الرجال[1]

وهذا يدلنا على شهرة صلاح الدين بقوته وعدله قبل توليته رئاسة الشرطة بدمشق بحيث ان الشاعر كان يحذر منه اللصوص ، وينبههم الى قطع الايدي الذي كان حكما شرعيا للصوص كقاعدة اسلامية .

وفي دمشق كان رفيق صلاح الدين ومساعده في ادارة شؤون الشرطة « الصفي ابن القابض » الذي كان يمده بالاموال ، ويقدم لـه المشـورة والمساعدات[2] . كما كان صلاح الدين ، في دمشق أيضا ، يتردد على الفقيه العـالم ابن عساكر الدمشقي[3] . وبذلك جمع صلاح الدين بين أساتذة الفقه والتاريخ ، والحديث والسياسة وقادة العساكر . فتخرج على أيدي اولئك الاساتذة والقادة سلطانا للمسلمين ، بعد ان ساعدته ظروف البلاد السيئة ، وبعد ان عرف كيف يستغل تلك الظروف فلم ينازعه أحد القيادة البته مدة عشرين عاما تقريبا .

وعلى الرغم من الادلة التي اثبتت استقامة صلاح الدين في شبابه ، فقد وردت بعض النصوص القليلة التي قالت بعدم تقيده ببعض أحكام النهج الاسلامي واتهمته بشرب الخمر وتعاطي المحرمات حتى توليه الوزارة في مصر لدى الخلفاء الفاطميين سنة ٥٦٤هـ . يقول ابن ابي طيء : « ولمـا استقر صلاح الدين أمره بالوزارة والرياسة قـام في الرعية مقـام من قام

---

(١) الاصفهاني ، خريدة القصر وجريدة العصر ، ق ٣/ : ١/٢٢٢ ؛ سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان في تاريخ الاعيان ، ق ١ : ٨/٢٥٢ .

(٢) سبط ابن الجوزي ، المصدر السابق ، ق ١ : ٨/٤١٣ .

(٣) هو الحافظ أبو القاسم علي بن محمد ، كان محدثا وفقيها . ولد سنة ٤٩٩هـ وتوفى سنة ٥٧١هـ . وحضر صلاح الدين حفل تأبينه مع شيخه قطب الدين النيسابوري وصلى عليه صـلاة الميت . انظـر : ابن خلكان ، وفيات الاعيان : ٣/ ٣٠٩ ـ ٣١١ .

بالشريعة والسياسة ، وقرب اليه أهل الفضل والاحباب وتاب عن شرب الخمر وعدل عن اللهو وتقمص بلباس الدين وحفظ ناموس الشرع المبين »[1] . ونظرا لانفراد هذه الرواية تقريبا وانحصارها في مصادر غير موثوقة بالنسبة لصلاح‌الدين للاختلاف المذهبي بين الراوي وصلاح‌الدين اولا . وسكوت المصادر الاصلية المعاصرة كابن شداد مثلا عن هذه الرواية ثانيا فانني ارجح ضعفها ، ازاء كثرة الروايات القائلة باستقامته . اذ يستبعد ان يتولى منصب رئاسة الشرطة ـ وهو المنصب الذي يكون من اختصاص صاحبه محاربة المحرمات ـ رجل يعاقر الخمرة ويحب اللهو ، كما يستبعد ايضا ان يقع هذا في حكومة نورالدين الذي عرف عنه الخير والصلاح ، والامر بالمعروف واختيار اصلح الناس لتولي ادارة شؤون بلاده[2] . علما بأنه عرف عن صلاح‌الدين انه كان ناسكا وفقيها أكثر منه محاربا في شبابه[3] . حتى انه امتنع من الذهاب الى مصر[4] وفضل السلامة في الشام لمجالسته أهل العلم والدين كالشيخ قطب‌الدين النيسابوري سابق الذكر .

---

(١) ابو شامة ، الروضتين : ١/١٧٣ ، انظر أيضا أبو الفدا ، المختصر في اخبار البشر : ٥/٦٥ تجد فيه نفس الرأي ، بنفس الاسلوب تقريبا وهذا يدلنا على انه ربما اقتبس الرواية من ابن ابي طيء .

(٢) ذكر العماد الاصفهاني ـ كاتب نورالدين ـ في معرض كلامه عند تفويض اشراف الديوان اليه من قبل نورالدين بأنه « كان ذكيا المعيا لا تخفى عليه الاحوال ، ولا تتبهرج لديه الرجال » انظر : البنداري سنا البرق الشامي : ١/١٢١ . ولمعرفة المزيد عن خلق نورالدين وعدله انظر : ابن الجوزي ، المنتظم في تاريخ الملوك والامم : ١٠/٢٤٩ ؛ ابن الاثير ، الكامل : ١١/٤٠٢ ؛ مؤنس ، حسين ، نورالدين (القاهرة ، ١٩٥٩) ، ٢٦١ ـ ٢٦٢ و ٣٩٣ و ٣٩٦ ـ ٣٩٧ .

(٣) هارولد لامب ، شعلة الاسلام : ٥٧ .

(٤) وبالرغم من الحياة الهادئة التي عاشها صلاح‌الدين في الشام والتي فضل معها حياة العلم والدين . فقد تطلع الى حياة السلطنة والسيطرة

دخول صلاح الدين مصر وتقلده الوزارة الفاطمية سنة ٥٦٤هـ/١١٦٩م :

قبل ان يتولى صلاح الدين مسؤولياته الجسام ، كان يعيش في الشام ، وينظر عن كثب الى التطورات العسكرية التي كانت تحدث في المنطقة ، كالهجوم الصليبي على دمشق وبعلبك آنف الذكر ، وتصدى نورالدين لها بمساعدة كل من والده أيوب وعمه شيركوه[١] • وكان صلاح الدين يتأثر بتلك الاجواء ، ويشارك في الاحداث ، ويعدّ نفسه للمستقبل •

وفي تلك الاثناء حدث في مصر من الظروف ما حدد مستقبل صلاح الدين ودفعه للمسير اليها طوعا وكرها[٢] • ففي سنة ٥٥٨هـ/١١٦٣م اتخذ أموري الاول حاكم بيت المقدس الصليبي مسألة عدم دفع الجزية التي كان مقدارها ١٦٫٠٠٠ دينار والمقرر استلامها من الفاطميين • ذريعة لغزو مصر مستغلا ظروفها القلقلة ، حيث المشكلات الداخلية ، والصراع بين الوزراء ، وضعف الخليفة الفاطمي[٣] • فقد سيطر الحاجب ضرغام

على مصر • لان توتر الحياة السياسية والعسكرية في المنطقة كان يحدو بكل انسان التفكير بالقوة والقيادة لانقاذ الاوضاع • وكان صلاح الدين أيضا من اولئك الشباب الذين فكروا بانقاذ الامة وكان انقاذ الامة مرتبطا بوحدتها • ومعنى وحدتها ان تكون مصر ـ في كل الاحوال ـ تابعة للشام ، أو للقيادة العليـا •

(١) Look: Lanepool, A History of Egypt, P. 191.

(٢) ذهب صلاح الدين طوعا الى مصر في المـرة الاولى سنة ٥٥٩هـ والثانية سنة ٥٦٢هـ وكرها في المرة الثالثة سنة ٥٦٤هـ بامر من نورالدين• انظر : ابن الاثير ، الكامل ٣٣٦/١١ ، أبو شامة ، الروضتين : ١٥٤/١ •

(٣) كان وزير الخلافة الفاطمية آنئذ هو شاور ، وكانت أخلاقه في وزارته الاولى هذه مستورة باستمرار السلامة والطاعة ، الا انه قتل الناصر ابن الصالح بن رزيك الوزير السابق • وعمد الى الاستيلاء على كل أموال الوزير ابن رزيك • ورغم ما تمتع به شاور من كرم وشجاعة ، فان صراعه مع الامراء الآخرين من اجل الوصول الى الوزارة اضعف قواه وابعده عن

على الوزارة وابعد عنها شاور ، مما دفع الاخير للمسير الى دمشق لطلب العون من نورالدين[1] ، لاعادته للوزارة في مصر .

رحب نورالدين بالعرض ، الذي يتفق وطموحاته في مصر ويخدم أهدافه في توحيد الجبهة الاسلامية ضد الخطر الصليبي الذي ما فتىء قادته يتدخلون في شؤون مصر ، ويستحصلون منها أموالا سنوية[1] . بالاضافة الى كل ذلك وجد نورالدين في مصر مصدرا مهما من المصادر التي يمكن ان تزوده بالطاقة البشرية والموارد الاقتصادية[3] . وكان عرض الفاطميين يحمل وعدا بالحصول على ثلث الايرادات المصرية وربما قصد أيضا اكتشاف أحوال مصر وسبر غورها[4] ، لانه كان يعتقد باهميتها في الجهاد

منصبه ، نتيجة سيطرة ضرغام — الملك المنصور — عليها ، والذي تولى منصب الوزارة تسعة أشهر حتى ابعد عنها بفضل سياسة شاور الذي استدعى الاتراك من دمشق ، مما دفع بضرغام للاستنجاد بالصليبيين ، وهكذا ازدادت قوة الصراع في مصر بين الوزراء ، فبعد ان كانت بين شاور وضرغام أصبحت الآن بين قوتين كبيرتين هما الاتراك من جهة والصليبيون وضرغام من جهة أخرى ، وكانت النتيجة النهائية لذلك الصراع مقتل ضرغام وشاور وسيطرة الايوبيين على الوزارة الفاطمية ثم على كل مصر بعد اسقاط الخلافة الفاطمية . انظر : عمارة اليمني ، كتاب النكت العصرية في أخبار الوزارة المصرية (شالون ١٨٩٧م) ٦٧ — ٦٨ و٧٣ و٧٥ و٧٧ ؛ محمد جمال الدين سرور ، مصر في عصر الدولة الفاطمية (القاهرة ، ١٩٦٠) : ٩٣ — ١٠٥ .

(١) ابن الفرات ، التاريخ م ٤ : ٥٣/١ ؛ زيادة ، حملة لويس التاسع على مصر : ١٢ الشيال ، تاريخ مصر الاسلامية : ١٣/٢ ؛ العريني ، مصر في عصر الايوبيين ٢٥ — ٢٦ .

(٢) Stevenson (W.B.), The Cruseders in the East (Cambrdge, 1907), P. 286.

(٣) Champdor, Saladin, P. 30.

(٤) وجدي ، دائرة معارف القرن العشرين : ٥٤٣/٥ .

ضد الصليبيين[1] وهكذا دفع اليها جيشا كبيرا بقيادة أحد أصحابه المقربين ، وهو شيركوه ، وبرفقته ابن أخيه صلاح الدين[2] . الذي كان شابا يناهز السابعة والعشرين من عمره .

ولما خرجت الحملة النورية من الشام سمع بقدومها الوزير الفاطمي ضرغام فأرسل على الفور يطلب العون من أموري حاكم بيت المقدس ، ليدفع به شيركوه عن مصر . الا ان شيركوه سبق قدوم الصليبيين اليها ، وتقدم نحو القاهرة ، والتقى بقوات ضرغام عند أسوار القاهرة . وانتهت المعركة بهزيمة ضرغام واعادة شاور للوزارة الفاطمية[3] . ولم يتمكن الصليبيون من انقاذ ضرغام ، بسبب اغارة نورالدين على ممتلكاتهم في الشام[4] .

وقد كان صلاح الدين في هذه الحملة قائدا لمقدمة العسكر[5] . فاظهر من المقدرة ما لفت الانظار اليه ، وما جعل الناس يتوقعون منه خيرا ويؤملون له مستقبلا . وقد ذكر السيوطي قوله : « وقد وقع في النفس ان صلاح الدين سيملك الديار المصرية »[6] ، وترجى الشاعر عرقلة من الله ان يملك مصر ليوسف صلاح الدين ، كما ملكها ليوسف النبي عليه السلام[7] .

---

(1) Stevenson, op. cit., P. 187.

(2) ابن خلدون ، التاريخ : ٥/٤٤٦ ـ ٤٤٨ .

(3) Oumara du Yemen, op. cit., 11, P, 298, 299.

(4) ابن واصل ، مفرج الكروب : ١/١٠٣ .

(5) ابن خلكان ، الوفيات : ٢/٣٧٨ .

(6) السيوطي ، حسن المحاضرة في اخبار مصر (القاهرة ١٣٢١هـ) : ٢/١٨ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية : ١٢/٢٥٢ .

(7) بيومي ، قيام الدولة الايوبية : ١٠٦ .

اما نتائج الحملة فقد كانت ايجابية بصورة عامة ، الا ان شاور خان العهد ، وطلب من شيركوه العودة الى الشام دون ان يعطيه ما وعد ببذله لنورالدين[1] . ولم يكن يتوقع من شيركوه الاستسلام لاوامر شاور ، بل تقدم الى بلبيس واحتلها ، بناء على نصيحة تقدم بها اليه صلاح الدين ، وجعلها مقرا لعمله وكان يغير منها على القاهرة بين الفترة والاخرى[2] .

وقد اظهر صلاح الدين في هذه الفترة من الحزم العسكري ما جعل عمه اسدالدين شيركوه يعتمد عليه ، فعندما وصلت بعض القوات الصليبية الى القاهرة بطلب من شاور[3] ، إنضمت اليها العساكر الفاطمية ، وتقدما الى بلبيس وحاصراها مدة ثلاثة أشهر . وكانت نتيجة الحصار الفشل نظرا للمجهود الذي بذله صلاح الدين وعمه ، في الوقت الذي هجمت فيه قوات نورالدين على الصليبيين في الشام ، واعادت حارم وبانياس الى أيدي المسلمين[4] . ولما علم الصليبيون في مصر بما جرى في الشام ، عرضوا الصلح على شيركوه ، وعادوا ادراجهم الى الشام .

وخلال هذه الحملة تطلع صلاح الدين وعمه سيركوه الى السيطرة على مصر ، بعد ان تعرفا على أحوالها ، وبعد ان تميزت وتجلت قابلية صلاح الدين العسكرية ، عندما دافع عن بلبيس . ولذلك ما ان عادا الى الشام حتى أخذا يحرضان نورالدين للسيطرة على مصر ، وتطلع شيركوه

---

(١) كتاب النكت العصرية ، المصدر السابق : ٧٨ ــ ٧٩ ، زيادة : حملة لويس ١٣ ــ ١٤ ؛ وجدي ، دائرة معارف القرن العشرين : ٥٤٣/٥ ، العريني ، مصر في عصر الايوبيين : ٢٧ ، عمارة اليمني ، المصدر السابق : ٧٩ .

(٢) Lanepool: Saladin, P. 42.

(٣) Look: Oumara de Yémen, op. cit., PP. 312-313.

(٤) أبو شامة الروضتين : ١٦٧/١ ؛ ابن الاثير ، الكامل : ١٣٤/١١ .

للقيام بحملة جديدة عليها[1] ، بل كان من غير شك يتجهز للقيام بتلك الحملة[2] .

وقد اوضح المؤرخ أبو شامة ذلك الهدف بقوله : « وقد كان بعد رجوعه من مصر لا يزال يحدث نفسه بقصدها ... يتحدث به مع كل من يثق اليه ، وكان مما يهيجه على العودة زيادة حقده على شاور »[3] .

وهكذا خرجت الحملة الثانية الى مصر سنة ٥٦٢هـ/١١٦٦م ومعها صلاح الدين أيضا . وقد اضطربت الاحوال في مصر سياسيا وحقد شيركوه على شاور ووصلت جحافل الصليبيين الى مصر ، وقد ساعدهم الفاطميون ، فتصرفوا في بعض البلاد ، فخاف شيركوه ان تقع بأيديهم[4] . ويضيف سبط ابن الجوزي سببا آخر وهو ان العاضد ، الخليفة الفاطمي ، هو الذي أرسل الى نورالدين يطلب مساعدته للحد من نفوذ شاور فقال : « ان العاضد كتب الى نورالدين محمود يستنجده على شاور وانه قد اشتد الامر وظلم وسفك الدماء ... وان شاور قد أعطى الفرنج الاموال واقطعهم الاقطاعات »[5] .

تقدم شيركوه بألفي فارس الى مصر واستولى على الفسطاط (الجيزة) فتعاضد شاور مع الصليبيين ، والتقى الطرفان عند منطقة البابين جنوب المينا

---

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب : ١/٩٠ ـ ٩٤ ، ابن خلكان ، الوفيات : ٢/٣٧٩ .

(٢) حسن ابراهيم حسن ، الفاطميون في مصر : ٣٠٣ .

(٣) الروضتين : ١/١٤٣ .

(٤) ابن كثير ، البداية والنهاية : ١٢/٢٥٢ ولمعرفة المزيد عن مسير هذه الحملة انظر : ابن الوردي ، التاريخ : ٢/١٠٢ ـ ١٠٣ ، الروضتين : ١ : ١٤٣ ، الاصفهاني خريدة القصر وجريدة العصر ، ق ٣ : ١/٦٢ـ٦٣ .

(٥) مرآة الزمان ، ق ١ : ٨/٢٦٨ ؛ انظر : باشا ، تقويم النيل : ١/١٢٥ ـ ١٢٧ .

الحالية ، وكانت النتيجة انتصار شيركوه • وكان لمهارة صلاح الدين أثر في ذلك النصر الذي نجا فيه أموري الصليبي باعجوبة من المعركة[1] • اذ كان صلاح الدين يقود قلب الجيش • ومن الطبيعي عادة ان يكون تركيز العدو في المعركة على القلب ، لانه يحمل ـ عادة ـ القائد والامراء • ومع ذلك تمكن صلاح الدين من احراز الانتصار على العدو حتى ان أبا شامة صرح تعظيما لذلك الانتصار بقوله : « وكان هذا من اعجب ما يؤرخ ان الفي فارس تهزم عساكر مصر وفرنج الساحل »[2] •

وبعد هـذا الانتصار تقدم صلاح الدين الى الاسكندرية ، التي كان عمه أسدالدين شيركوه قد ملكها بالامان وسلمه امر ولايتها[3] • وسار هو الى الصعيد واستولى عليه • وبعد ان استحصل أموال كبيرة منها لينفقها في مهمـة الدفاع عن الاسكندرية والصعيد ضـد الصليبين والقوى المضادة

---

(١) الكامل : ١١/١٤٦ ـ ١٤٧ ؛ ابن الوردي ، التاريخ : ٢/١٠٢ ؛ ماجد ، نظم الفاطميين في مصر : ٢/١٢٤ ؛ ماجد ، الناصر لصلاح الدين ، ٥٣ ـ ٥٤ ؛

Lanepool: Ahistory of ᵃgpyt, 177-179.

(٢) الروضتين : ١/١٤٣ •

(٣) قيل ان أهالي الاسكندرية سلموه المدينة خوفا عليها من ان تقع بيد الصليبيين • انظر : أبو شامة ، الروضتين ١ : ١٤٣ وقيل ان أهالي الاسكندرية كانوا يدينون بمذهب السنة ، ويكرهون التشيع وانها كانت ملجأ لكل ثائر مصري على الخلافة الفاطمية • وفي السجلات المستنصرية ما يدل على ذلك • انظر : زيادة ، حملة لويس التاسع على مصر : ١٧ ، ماجد ، الناصر صلاح الدين : ٥٤ • واقرب الاراء ان المذهب الشافعي كان منتشرا في الاسكندرية ، وكان أبي الحجاج يوسف بن عبدالعزيز الميورقي (ت ٥٢٣هـ) يدرس الشافعية فيها (محمد كامل حسين ، في أدب مصر الفاطمية (القاهرة ، ١٩٦٣) : ١٢٧ ولما كان صلاح الدين شافعيا ، لذلك حدث ذلك التعاون بين الطرفين •

الاخرى[1] . في الوقت الذي أعاد فيه شاور والصليبيون تنظيم قواتهم العسكرية وهجموا على صلاح الدين الذي تحصن بقلاع الاسكندرية ، وضربوا عليه حصارا دام تسعين يوما ، وقيل خمسة وسبعين يوما[2] .

وبالرغم من شدة الحصار ، فقد اثبت صلاح الدين خبرة ومقدرة في الدفاع عن المدينة خسر معها راحته وصحته ، حتى ان ذلك الحصار ولد صدمة في نفسه عبّر عنها بامتناعه عن الذهاب الى مصر في الحملة الثالثة معلنا : « والله لو اعطيت ملك مصر ما سرت اليه ، فلقد قاسيت بالاسكندرية وغيرها ما لا انساه »[3] .

ولما فشل شاور والصليبيون في القضاء على صلاح الدين بالاسكندرية ـ نتيجة لمقدرته وتعاون أهالي الاسكندرية معه ، والدور الايجابي الذي قام به شيركوه في جمع الرجال والاموال ، والتقدم صوب الاسكندرية لضرب المحاصرين[4] ـ فقد جنحوا لطلب الصلح[5] ، فوافق عليه

---

(1) سبط ابن الجوزي ، المصدر السابق ، ق ١ : ٨/٢٦٩ .

(2) انظر الروضتين : ١/١٤٣ ؛
Stevenson, op. cit., P. 191.

(3) الكامل : ١١/٢٣٠ ؛ الوفيات : ٦/١٤٨ ـ ١٤٩ .

(4) حسن ابراهيم ، الفاطميون في مصر : ٣٠٥ .

(5) قيل ان الصليبيين راسلوا أهالي الاسكندرية ووعدوهم برفع الضرائب عن رؤوسهم وأسواقهم شريطة تسليم صلاح الدين اليهم ، الا انهم رفضوا التعاون معهم ، وهذا يدل على صدق أهالي الاسكندرية وعدل صلاح الدين واستقامته في ادارة الاسكندرية كما يدل على ان الصليبيين استخدموا مختلف الطرق للقضاء على صلاح الدين ولم يفلحوا وان طلبهم للصلح كان اضطرارا وللاطلاع على مراسلة الصليبيين أهالي الاسكندرية انظر : نظير حسان سعداوي ، التاريخ الحربي المصري : ١٢ ؛ ماجد الناصر صلاح الدين : ٥٤ ـ ٥٥ .

صلاح الدين ، بعد ان لاحظ على أهالي الاسكندرية شيئا من الضعف ، نتيجة للحصار الشديد المضروب عليهم ، وقلة الارزاق والمؤن[١] .

وتقضي الاتفاقية « ان الفرنج لا يقيمون بمصر ، ولا يستلمون منها أيـة قرية واحـدة ، وان الاسكندرية تعـاد الى المصريين »[٢] . وعـاد صلاح الدين الى الشام الا ان الصليبيين لم ينسحبوا من مصر الا بعد ان اتفقوا مع شاور بأن يكون لهم بالقاهرة شحنة ، وتكون أبوابها بيد فرسانهم ، ويكون للفرنج من وارد مصر كل سنة مائة ألف دينار[٣] .

والملاحظ ان الاتفاق الاخير كان فيه مخاطر كبيرة على مستقبل مصر وأمنها الداخلي ، قاست نتائجه السلبية في الحملة الصليبية الثالثة عليها سنة ٥٦٤هـ/١١٦٨م فقد كان من جملة تلك النتائج احراق مدينة الفسطاط . والسؤال الذي يمكن ان يطرح : هل علم الخليفة الفاطمي بتلك الاتفاقية التي وقعت بين شاور والصليبيين ؟ وهل رضي ببنودها ام لا ؟ .

في الواقع ان سلطة العاضد كانت ضعيفة ، الا انها مع ضعفها كانت ذات تأثير مهم في السياسة العامة ، لانه كان مصدر السلطات والاحكام ، وكانت قضايا الدولة لا تصدر الا باسمه وكان لابد ان يوقعها قبل اصدارها ، ومعنى هذا اطلاعه على بنودها . وفيما يخص الاتفاقية السابقة ، فقد قيل بأن رسولين من الملك اموري دخلا على العاضد لتوثيق الاتفاقية وهما : هيو حاكم قيصرية ، وجود فرى رئيس طائفة الداوية[٤] ، وقابلا العاضد

---

(١) العريني ، المرجع السابق : ٣٠ .

(٢) الروضتين : ١/١٤٣ ؛ سبط ابن الجوزي ، المصدر السابق ، ق ١ : ٨/٢٨٦ ـ ٢٦٩ .

(٣) الروضتين : ١/١٤٤ ؛ البداية والنهاية : ١٢/٢٥٢ ـ ٢٥٣ .

(٤) الداوية : Templers منظمة عسكرية دينية تطلق على جماعة فرسان المعبد . وقد اسس هذه الجمعية (Hugh de Payns) سـنة

الذي وافق على المعاهدة مصافحة بالايدي[1] • وبمعنى آخر لقد وافق العاضد على ابقاء القوات الصليبية وتحكمها في مصر ، وتعاون مع شاور ضد شيركوه •

والظاهر ان العاضد وقع تحت تأثير شاور ، لصغر سنه ، وربما لضعفه ولم يكفر عن عمله هذا ، الا بما قام به سنة ٥٦٤هـ/١١٦٨م حيث استنجد بنورالدين ليخلصه من الفرنج وظلم شاور • وموافقته صلاح‌الدين في القبض على شاور والامر بقتله •

ورغم انسحاب صلاح‌الدين وأموري حاكم بيت المقدس من مصر الا ان كلا منهما خلف له اثرا فيها • فصلاح‌الدين كان قد كسب شعبية أهالي الاسكندرية ومحبتهم ، اما اموري فقد ترك له حامية عسكرية في القاهرة • وهي التي أخذت تتحكم وتظلم ، وتراسل أموري بطلب العودة الى مصر والاستيلاء عليها • يقول ابن الاثير « تمكن الفرنج من البلاد المصرية ••• وحكموا على المسلمين حكما جائرا ••• وأرسلوا الى ملك الفرنج بالشام ••• يستدعونه ليملكها ، واعلموه خلوها من ممانع »[2] •

١١١٩م لحماية طريق الحجاج المسيحيين بين يافا وبيت المقدس ثم تحولت بعد ذلك الى هيئة حربية ، كان لرؤسائها وفرسانها شأن كبير في تاريخ الامارات الصليبية في منطقة الشام • اما اعداد هذه الطائفة فغير معروف وقد اشترك من هذه الطائفة حوالي ٣٠٠ فارس في معركة حطين ضد صلاح‌الدين • ولمعرفة المزيد عن هذه الطائفة انظر :

King, The kinght Hospitallers in the Holy land (London, 1931), P. 1-5, 7-33.

رينتز ، دراسات اسلامية : ١٠٨ ــ ١٠٩ ؛ يوسف ، العرب والروم : ٩٠ •

(١) زيادة ، المرجع السابق : ١٦ ؛ زكي محمد حسن ، كنوز الفاطميين في مصر : ١٧ •

(٢) الكامل : ١١/٣٣٦ •

وقد اشار ابن كثير أيضا الى ضعف المسلمين في مصر وتواطؤ شاور معهم فقال : « وفيها طغت الفرنج بالديار المصرية ، وذلك انهم جعلوا شاور شحنة لهم فيها ، وتحكموا في أموالها ومساكنها أفواجا أفواجاً ، ولم يبق شيء من ان يستحوذوا عليها ويخرجوا منها اهلها من المسلمين »[١] .

ونتيجة لكل ذلك تقدم الصليبيون الى مصر للمرة الثالثة في سنة ٥٦٤هـ/١١٦٨م بعد ان طلبوا مساعدة الامبراطور البيزنطي . اذ ارسل اموري حاكم بيت المقدس وليم الصوري على رأس وفد لتبرير رغبتهم في فتح مصر ، وتشجيع الامبراطور مانويل على تقديم بعض المساعدات . وقد نجح الوفد في تحقيق مسعاه . الا ان الحملة الصليبية الثالثة الى مصر لم تنتظر وصول امدادات القسطنطينية بل تقدمت مسرعة نتيجة لضغط الصليبيين على اموري وحثه على فتح مصر قبل ان يحتلها نورالدين[٢] . ووصلوا الى بلبيس ونهبوها واحرقوها وسبوا اهلها[٣] .

وقد صور وليم الصوري المؤرخ الصليبي ـ ما قام به الصليبيون من أعمال تخريبية واجرامية في بلبيس فقال : « ان الصليبيين خرجوا وسلاحهم بايديهم وأخذوا يقتلون كل من وجدوه من الرجال والنساء والشيوخ . ثم انهم اقتحموا البيوت فأجهزوا على من احتمى فيها ، وسلبوا كل ما عثرت به ايديهم »[٤] . وقد خاف المصريون على انفسهم ، نتيجة تلك الاعمال القاسية « وتداخلهم منهم الرعب والخوف »[٥] .

---

(١) البداية والنهاية : ١٢/٢٥٥ ، ابن خلدون ، العبر : ٥/٢٤٧ .

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب : ١/١٥٥ ـ ١٥٦ ، ١٥٩ .

(٣) ابن الاثير : ١١/٣٣٦ ، انظر : سبط ابن الجوزي ، المصدر السابق ، ق ١ : ٨/٢٧٥ ؛ تاريخ ابن الفرات ، م ٤ : ١/١٩ ـ ٢٠ .

(٤) بيومي ، المصدر السابق : ١٣١ .

(٥) ابن الفرات ، المصدر السابق ، م ٤ : ١/٢٤ .

ولما تيقن شاور قصد الصليبيين له بالقاهرة بعد احتلال بلبيس امر باحرق الفسطاط لسوء تدبير منه[1] • حيث فرق على المدينة عشرين الف قارورة نفط وعشرة آلاف مشعل نار واحرقها في تاسع صفر قبل نزول الصليبيين عليها بيوم واحد[2] • وكان لحرقها صدى بالغ الاهمية في نفوس المصريين عامة ، واهالي الفسطاط خاصة • فقد اعلنوا حزنهم عليها كثيرا وخرجوا منها مهاجرين الى القاهرة ـ كما يقول المقريزي ـ كأنهم خارجون من قبورهم يوم الحشر لا يلتفت احد الى احد[3] •

ولما وصل أموري الفسطاط هاله منظرها المخيف ، حيث وجد النار فيها مشتعلة فتقدم صوب القاهرة بعسكره ونزلوا مما يلي باب البرقية ، نزولا قارب القاهرة على بعد فرسخين منها[4] • وضاق الامر على شاور ، وقرر استخدام الحيلة في ارجاعهم عن القاهرة فشرع بمراسلتهم ، وذكرهم بما كان بينهم من مودة ، وطلب منهم عقد صلح يضمن مصالح الطرفين ، وتكفل ببذل مال لهم قدره مليون دينار مصري يعجل بعضه ، ويؤخر البعض • فوافق الصليبيون على العرض بعد ان عجل لهم شاور بمبلغ مائة ألف دينار ، وسألهم الرحيل كي يتمكن من جمع باقي الأموال[5] • فانسحبوا فرسخا عن القاهرة • ويقال انهم انسحبوا بعد ان علموا بتقدم

---

(١) الجبرتي ، مظهر التقديس بذهاب دولة الافرنسيس : ١٨ •

(٢) انظر : الروضتين : ١/١٥٤ ؛ مفرج الكروب : ١/١٥٨ ، الخطط : ٢/١٤٣ •

(٣) الخطط : ٢/١٤٣ ؛ انظر : السيوطي ، حسن المحاضرة : ٢/١٨ ـ ١٩ •

(٤) تاريخ ابن الفرات ، م ٤ : ١/٢٤ •

(٥) أبو شامة ، الروضتين : ١/١٥٤ ؛ ابن خلكان ، الوفيات : ٦/١٤٨ ؛ ابن أيوب ، منتخبات من كتاب التاريخ لصاحب حماة : ٢٦ •

الحملة النورية الثالثة الى مصر وخافوا على انفسهم الحصار[١] .

وفعلا شرع شاور بجمع الاموال التي قرر ان يدفع بها عن القاهرة الدمار وظن بأن هذه الحملة سوف تنتهي بمبلغ من المال كما انتهت اليه سابقتاها ، الا انه لم يتمكن من جمع أكثر من خمسة آلاف دينار ، وهي لا تفي بالقدر المطلوب وقد علل ابن الفرات أسباب قلة الاموال فقال . « ان أهل مصر [الفسطاط] كانوا قد احترقت دورهم وما فيها ، وما سلم نهب ، وهم لا يقدرون على الاقوات فضلا عن الانبساط ، واما أهل القاهرة ، فالاغلب على اهلها الجند وغلمانهم ، ولهذا تعذرت عليهم الاموال »[٢] . وهكذا كان مع تعذرها تقدم الصليبيين لاحتلال القاهرة . مما دفع بالخليفة الفاطمي العاضد ان يكاتب نورالدين ويطلب منه العون لدفع خطر الصليبيين عن مصر ، بعد ان ارسل في كتاب الاستغاثة شعور نسائه وقال له : « هذه شعور نسائي من قصري يستغثن بك لتنقذهن »[٣] .

وبذلك كان للحملة الصليبية الثالثة على مصر اثر في استدعاء الحملة النورية الثالثة وبالتالي قيام الدولة الايوبية في مصر ، كما كان للقسوة الصليبية في بلبيس أيضا اثر ايجابي في تمكين الحكم الايوبي منها ، اذ دفع بالمصريين الى الالتفاف حول شيركوه وصلاح‌الدين باعتبارهما المنقذين اللذين قدما من الشام لانقاذ القاهرة من الدمار الذي يمكن ان يصيبها لو دخلها الصليبيون كما دخلوا بلبيس[٤] .

---

(١) انظر سعداوي ، المصدر السابق : ١٤ .

(٢) ابن الفرات ، المصدر السابق ، م ٤ : ١/٢٥ .

(٣) الكامل : ١١/٣٣٦ – ٣٣٧ ؛ راجع أيضا : الروضتين : ١/١٥٤ ؛ أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر : ٥/٦٢ – ٦٤ .

(٤) كان شاهد عيان للحملة النورية الثالثة الى مصر الشاعر عمارة اليمني الذي ذكر بان قدوم الصليبيين الى بلبيس وقتلهم واسرهم من كان

وهكذا اذن اضطر الخليفة الفاطمي الى الاستغاثة بنورالدين رغم الاختلاف العقائدي بين الجانبين بدافع المصلحة • فلبى نورالدين النداء ، لانه كان يترقب الفرص منذ أيام الحملة النورية الاولى سنة ٥٥٨هـ لضم مصر الى الشام • اذ جاءته الدعوة بعد مضي ست سنوات تشده اليها شدا وبرضاء تام من قبل العاضد الذي طلب بكتاب الاستغاثة « ان يكون اسدالدين شيركوه مقيما بها [أي مصر] عندهم والتزم لـه باقطاعات زائدة على الثلث »[1] •

ولم يكن استيلاء الصليبيين على بلبيس ومحاصرتهم القاهرة ، وطلب العاضد الاستغاثة من نورالدين الدافع الوحيد للحملة النورية الثالثة للقدوم الى مصر بل كان الى جانب ذلك أسباب أخرى تتعلق بشؤون مصر الداخلية ونظم الحكم الفاطمي ، والتي كانت غير مستحبة عند المسلمين السنيين عامة ونورالدين خاصة • وقد اجمل صلاح‌الدين تلك الاسباب بكتاب أرسله للخليفـة العباسي الناصر لدين‌الله بعـد سقوط الخلافة الفاطمية فقـال : « وكانت أخبار مصر تتصل بنا بما عليه الاحوال من سوء التدبير ••• وان النظام قد فسد • والاسلام بها قد ضعف ••• والفرنج قد احتاج من يدبرها الى ان يقاطعهم بأموال كثيرة ، لها مقادير خطيرة ، وان كلمـة السنة وان كانت مجموعة فانها كانت مقموعة ••• وكاتبنا المسلمون من

فيها ، ثم احراق الفسطاط هو الذي دفع الى مكاتبة نورالدين « وانجاده كلمة الاسلام بأسدالدين ومن معه من المسلمين الذين قلت فيهم وقد ربط الافرنج الطريق عليهم :

اخـذتم على الافرنج كل ثنيـة	وقلتم لايدي الخيل مرّى على مرّى
لئن نصبوا في البر جسرا فانكم	عبرتم ببحر من حديد على الجسـر

انظر كتاب النكت العصرية ، المصدر السابق : ٨٠ •

(١) ابن كثير ، المصدر السابق : ١٢/٢٥٥ •

مصر ... ولقد كان قصر الخلافة مملوء بالمنكرات والبدع وبها [القاهرة] عسكر من الارمن باقون على النصرانية موضوعة عنهم الجزية كانت لهم شوكة »[1] .

اضف الى ذلك ان نورالدين كان يعلم بأن الخلافـة الفاطمية قـد ضعفت ، وان ضعفها هذا لابد ان يشكل اغراء يدفع الصليبيين لغزو مصر . لذلك ارسل اليها حملته الثالثة في الوقت المناسب لتحقيق ثلاثة أهـداف رئيسة هي قلب الخلافة الفاطمية الشيعية ، وتوحيد سوريا ومصر ومتابعة الحرب ضد الصليبيين حتى النهاية[2] .

ونتيجة للعوامل السابقة مجتمعة استدعى نورالدين قائده العسكري المعتمد من حمص لارساله الى مصر « فساق في ليلة واحدة من حمص الى حلب واجتمع بنورالدين »[3] . ولقد كان لهذه الخطة التعبوية الجيـدة التي اتبعها شيركوه أثرها في تكوين سياسة صلاح الدين . لانه اتبع نفس الاسلوب كمـا سيتبين في الفصول القادمة . وبعـد ذلك الاجتماع امر نورالدين شيركوه بالتوجه الى مصر وجهزه بما يحتاج اليه من العـدد والعدّة ويقال انه اعطاه مائتي ألف دينار سوى الثياب والدواب والاسلحة . وجعله قائدا عاما لتلك الحملة . كما جهزه بستة آلاف فارس ، اختار منهم الفين بنفسه وأعطى نورالدين لكل واحد منهم عشرين دينارا معونة غير محسوبة ، واضاف اليه جماعة من الامراء والمماليك منهم عزالدين جورديك وغرس الدين قليج وشرف الدين بزغش وعين الدولة الياروقي وصلاح الدين

---

(١) القلقشندي ، أبو العباس أحمد ، صبح الاعشى في صناعـة الانشا : ١٣/٨٣ ـ ٨٤ .

(٢) حتي ؛ فيليب ، لبنان في التاريخ : ٣٦٤ .

(٣) أبو شامة ، الروضتين : ١/١٥٥ .

الايوبي الذي ذهب على كره منه[1] . فقد الزمه نورالدين بالذهاب الى مصر صحبة عمه بعد ان ازاح علله واعطاه ما يحتاج اليه وربما كان بعض اولئك الامراء الذين صحبوا الحملة النورية الثالثة الى مصـر عيونا على شيركوه واتباعه في الباطن ، لرصد تحركاتهم ، وفي الظاهر عوناً لهم[2] ، كما سيبدو - فيما بعد من تصرفات الامير الياروقي وجرديك وشرف‌الدين بزغش .

وفي منتصف ربيع الاول سنة ٥٦٤هـ/١١٦٨م وصلت الحملة حدود مصر . ولما علم الصليبيون بقدومها رحلوا عن مصر خائبين دون ان يحققوا شيئا من أهدافهم ، ودون ان يستلموا من شاور الاموال التي وعدهم بها . وبذلك صفا الجو لشيركوه وتقدم بأمان الى القاهرة ودخلها في ١٧ جمادى الآخرة ٥٦٤هـ/١١٦٩م[3] ونظرا لما تمخض عنه ذلك الدخول من النتائج الايجابية على مستقبل مصر خاصة والعالم الاسلامي عامـة ، فقد عـده المؤرخون « فتحا جديدا لمصر وحفظا لسائر بلاد الشام وغيرها »[4] . وقد استقبل المصريون الحملة النورية بالترحاب وخرج العاضد للقاء شيركوه

---

(١) الكامل : ٣٣٨/١١ ؛ الروضتين : ١٥٥/١ ؛ ابن شداد ، النوادر : ٣١ - ٣٢ ابن واصل ، مفرج الكروب : ١٦٠/١ - ١٦٥ ؛ البنداري ، سنا البرق الشامي ٧٧/١ ؛ ابن كثير ، المصدر السابق : ٢٥٥/١٢ ؛ ابن خلكان ، الوفيات ١٤٨/٦ - ١٤٩ أبو الفدا ، المختصر في اخبار البشر : ٦٢/٥ - ٦٣ ؛ جب صلاح‌الدين : ١٥٤ ؛ عاشور الناصر صلاح‌الدين : ٦٩ - ٧٠ .

(٢) بيومي ، المصدر السابق : ١٣٤ .

(٣) ابن الاثير ، الباهـر : ١٤٠ ؛ ابن العـديم ، زبدة الحلب : ٣٢٧/٢ ؛ ابن تغري بردى ، النجوم الزاهرة ٥ : ٣٥١ - ٣٥٢ ، سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ق ١ : ٢٧٧/٨ .

(٤) ابن الاثير ، الكامل ٣٣٩/١١ .

ويقال انـه اجتمع به « متنكرا واسّر اليه امورا مهمة منهـا قتل الوزير شاور »[1] .

ولا عجب ان يطلب العاضد قتل شاور لسوء تدابيره . الا ان هـذا الطلب (مقتل شاور) لم يكن السبب الوحيد الذي يدعو شيركوه لقتله بل لمماطلته اياه في دفع ما كان قد وعـد من أموال واقطاعات للعساكر . وأخيرا لم يكن بد من الموافقة على قتله بعد ان كشفه صلاح الدين وهو يدبر مؤامرة لقتل شيركوه[2] . وهذا ما عجل بالقضاء عليه ، حيث قبض عليه صلاح الدين عند ذهابه الى قبر الامام الشافعي[3] في القاهرة وقتله بعد موافقة العاضد وشيركوه[4] .

وبمقتل شاور بدأ فصل جديد في العلاقات الايوبية الفاطمية ، لان العاضد اتخذ شيركوه وزيرا له ولقبه بالملك المنصور أمير الجيوش وقلده أمور الدولة وجاء في أمر تعيينه « وقلدك أمير المؤمنين امر وزارته وتدبير

---

(١) ابن كثير ، المصدر السابق : ١٢/٢٥٦ .

(٢) انظر الروضتين : ١/١٥٧ .

(٣) الشافعي : أبو عبدالله محمد بن ادريس بن العباس ، كان كثير المناقب ، جم المفاخر ، اجتمعت فيه العلوم بكتاب الله وسنة رسوله (ص) وكلام الصحابة وآثارهم ، كمـا اشتهر بمعرفته باللغـة العربيـة والشـعر . (القنوجي ، أبي الطيب ، التاج المكلل (القاهـرة ١٩٦٣) : ١٠٢ ـ ١٠٥) وكان مولده بغزة سنة ١٥٠هـ وتلقى العلوم على يد شيوخ من المدينة ومكة والعراق منهم انس بن مالك والاوزاعي والقداح والعطار وسفيان بن عيينه ، واشهر مؤلفاته الام والرسالة . (ابو زهرة ، الشافعي (القاهرة ، ١٩٤٨) : ١٤ و ٤٥) وقد انتشر مذهب الشافعي في مصر كثيرا وكذلك في العراق وخراسان وقاسم الحنفية في الفتوى والتدريس . وبعد ملك صلاح الدين لمصر عمل على نشره هناك بشكل منظم وواسع . (ابن خلدون ، المقدمة (القاهرة ، مطبعة مصطفى محمد) : ٤٤٨ ـ ٤٤٩ .

(٤) ابن ايوب ، منتخبات من كتاب التاريخ لصاحب حماة : ٢٥٧ .

مملكته ... وكفالة قضاة المسلمين »[1] . وقد أظهر السياسة وكسب محبة المصريين والتف الناس حوله لان سياسة الارهاب التي اتبعها الوزراء الفاطميون في مصر ، والمطاليب المالية الكثيرة التي ارهقوا بها الشعب ، كانت هي النتيجة في ترحيب الشعب باخلاص من الظلم[2] . وقد مدحه العماد الكاتب بقصيدة جاء في مطلعها :

بالجد أدركت ما أدركت لا اللعب   كم راحة جنيت من دوحة التعب[3]

ولم يمكث شيركوه في الوزارة الفاطمية سوى شهرين وخمسة أيام ، فقد توفي يوم السبت ٢٢ جمادى الآخرة ٥٦٤هـ (٢٣ آذار ١١٦٩م) وحل محله في منصب الوزارة صلاح الدين[4] ويمكن ان نجمل الاسباب التي

---

(١) مجموعة الوثائق الفاطمية ، جمعها وحققها جمال الدين الشيال (القاهرة ، ١٩٥٨) ص ١٧٢ .

(٢) انظر : أبو الفدا ، التاريخ المختصر : ٦٣/٥ : الكامل : ٣٤١/١١ ؛ ابن الوردي : التاريخ : ١٠٦/٢ .

(٣) اوضح العماد في قصيدته السابقة لشيركوه بان فتحه لمصر سيكون ميسرا لفتح بيت المقدس ، ودفعه لفتح بقية البلاد وازالة الشرك الموجود فيها . ودعا له بالخير واعتبره ابا للمصريين لانه انقذهم من الوزير الفاطمي شاور الذي اطمع الصليبيين في بلاد الاسلام وحثهم على المسير الى مصر وتخريبها . ثم اعتبر دخوله لمصر بداية لعصر جديد فيه حلت النعمة في مصر بدل النقمة والنور عوض الظلام وقد ختم القصيدة بالبيت التالي تشجيعا له للقضاء على الفاطميين والصليبيين قضاء تاما فقال :

لا تقطعن ذنب الافعى وترسلها   فالحزم عندي قطع الرأس كالذنب

انظر : أبو شامة ، الروضتين : ١٥٩/١ ـ ١٦٠ .

(٤) خيل ان اسدالدين شيركوه توفي بمرض الخوانيق لشدة مواظبته على تناول اللحوم الغليظة ، فتوافر عليه التخم حتى ارداه قتيلا انظر : (النوادر السلطانية : ص ٤٠ الروضتين : ١٦٠/١) بعد مضي تسعة أسابيع من توليته منصب الوزارة ، وكان صلاح الدين خليفته الطبيعي

دفعت الخليفة الفاطمي لاختيار صلاح الدين لمنصب الوزارة بما يلي :

عندما توفي شيركوه لم يكن صلاح الدين يتجاوز الثانية والثلاثين من عمره ، وقد ثار النزاع بين جماعة الامراء النورية الذين كانوا بمصر وطلبوا التقدم على العساكر وولاية الوزارة العاضدية كالياروقي وبزغش وعزالدين جورديك المنوه عنهم سابقا . وقد جمع كل منهم أصحابه ليغالب عليها الآخرين . وكانت النتيجة النهائية ميلهم جميعا الى صلاح الدين بفضل ما قام به الفقيه الهكاري من تمهيد الامور لصالح صلاح الدين فقد ذكر الحارمي بعامل القربى وقال له : « هذا صلاح الدين ابن اختك وعزه وملكه لك »[1] . ثم اجتمع الهكاري مع كل واحد من الامراء على جهة واقنعهم جميعا ما عدا الياروقي « فانه قال : انا لا اخدم يوسف وعاد الى نورالدين بالشام »[2] غير ان نورالدين لم يعجبه مخالفة الياروقي لصلاح الدين ولامه على فعله[3] . وهذا يدلنا على حسن العلاقة بين الطرفين خلال هذه الفترة ورغبة نورالدين في ان يكون صلاح الدين خلفا لعمه شيركوه في الوزارة .

ولما رأى العاضد اجماع الكلمة على صلاح الدين بعث اليه بخلع الوزارة خاصة « وان شيركوه كان قد خلّف خمسمائة مملوك ، وهم الاسدية (نسبة الى اسمه أسد الدين) فمالوا كلهم الى صلاح الدين يوسف »[4] . وربما كان السبب في هذا الميكل اختلاط صلاح الدين بهم

(جب ، صلاح الدين ص ١١٩) وقد دفن في مصر ثم نقل جثمانه الى المدينة المنورة لتشريفه (السخاوي ، التحف اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة (القاهرة : ١٩٥٧) : ٢/٢٨٥) .

(١) الكامل ١١/٣٤٤ .

(٢) نفس المصدر السابق : ٣٤٤ .

(٣) ابن كثير ، المصدر السابق : ١٢/٢٥٧ .

(٤) ابن الفرات ، التاريخ ، م ٤ : ١/٥٦ .

ومشاركته اياهم الحروب العديدة التي خاضوها ضد الصليبيين وعسكر شاور وضرغام من قبل على حدود القاهرة والاسكندرية وبلبيس ... الخ وربما كان صلاح الدين يخطط لمثل هذا اليوم فكان يستميلهم اليه . اضف الى ذلك ان صلاح الدين كان قد كسب محبة العاضد ووقع منه ، كما يقول ابن أبي طيء « بموقع اعجبه عقله وسداد رأيه وشجاعته واقدامه على شاور في موكبه وانه قتله حين جاءه امره ولم يتربص ولا توقف »[1] .

تلك هي الاسباب المعقولة التي كانت وراء تولية صلاح الدين منصب الوزارة الجديد ، رغم ما اثير حولها من بعض الشكوك كالتي ذكرها العماد الكاتب في البرق الشامي من ان الامراء النوريين اجتمعت كلمتهم على صلاح الدين ، وانهم الزموا العاضد بتوليته الوزارة[2] . وهو امر بعيد الاحتمال لان العاضد هو الذي اختار صلاح الدين ، وقد تبين الدليل من قبل ، كما ذكر ابن الاثير رأيا آخر ، اقتبسه منه المؤرخون من بعده ، مفاده

ان العاضد اختار صلاح الدين للوزارة لضعفه وصغر سنه وانه قد اجتمع باصحابه فقالوا : « ليس في الجماعة اضعف ولا أصغر سنا من يوسف ، والرأي ان يولي ، فانه لا يخرج من تحت حكمنا ، ثم نضع على العساكر من يستميلهم الينا فيصير عندنا من الجنود من نمنع بهم البلاد »[3] ثم نطرد بعد ذلك كل من يخالفنا . وقد ورد في الصفحات السابقة ما يدل على

---

(١) الروضتين : ١/١٧٣ .

(٢) ابن الفرات ، المصدر السابق ، م ٤ : ١/٦٢ ــ ٦٣ .

(٣) الكامل ١١ : ٣٤٣ ، اخذ عنه الرأي ابن الفرات ، المصدر السابق م ٤ : ١/٥٦ وكثير من المراجع منها : البيومي ، قيام الدولة الايوبية : ١٥٢ ــ ١٥٣ ؛ أبو حديد صلاح الدين : ٦٧ ؛ محمد جمال الدين سرور ، مصر في عصر الدولة الفاطمية : ١١٠ ؛ تاريخ مصر الاسلامية ٢/٢١ ؛ المناوي ، الوزارة : ١٦٦ .

شجاعة صلاح الدين .

ثم من قال ان رجلا يناهز عمره الثانية والثلاثين صغير !! اضافة الى ان اليسيف الفرنسي اورد رأيا ثالثا يناقض الرأي الثاني جاء فيه ان صلاح الدين هو الذي سيطر على الوزارة بعد ان كسب الامراء الى جانبه[1] .

مما سبق يبدو ان وصول صلاح الدين للوزارة كان لاسباب عديدة يمكن اجمالها في اجماع الكلمة عليه وميل الاسدية اليه ومساندتهم له ، وهذا من أهم العوامل ، اضافة الى رغبة العاضد في ان يكون صلاح الدين وزيره . وان عامل الضعف ، أو الفرض بالقوة أو السيطرة التي جاء بها ابن الاثير والعماد الاصفهاني والكاتب الفرنسي اليسيف ، هي عوامل متناقضة اضافة الى انها تؤدي الى نتائج عكسية . اذ لو فرض صلاح الدين ، أو سيطر بالقوة على الوزارة الفاطمية لاثار غضب العاضد والامراء النوريين ، ولدفعهم ذلك الى محاربته والايقاع به .

كما ان الامراء النوريين هم الذين اختاروا صلاح الدين واجمعوا عليه ثم انه لو كان صلاح الدين ضعيفا لخرجت الوزارة من يده لابسط مشكلة حدثت في مصر ، وهذا ما لم يحصل علما بان منشور تولية صلاح الدين الوزارة ليدل دلالة واضحة على ان العاضد اختار صلاح الدين لشجاعته وانه ينوي الاعتماد عليه .

وقد أورد ابن خلكان وابن الفرات وغيرهما نص منشور الوزارة الصادر باسم الخليفة الفاطمي ، وبرفقته خلعة الوزارة التي كانت ثمينة للغاية

---

(١) Elisseeff, Nur Ad-Din 1118-1174 (Damas, 1967), 11, P. 724.

الى صلاح الدين[1] • بعد ان اسماه بالملك الناصر وكان ذلك يوم الاثنين ٢٥ جمادى الآخرة ٥٦٤ (٢٦ آذار ١١٦٩م) وخلاصة المنشور ما يلي :ـ

أولا ـ اعتبر العاضد نفسه أمير المؤمنين ، وان الله آثره بالمقام في عصره لوحده ، بعد ان رفع قدره وجعل الامامة محفوظة في عقبه • وان صلاح الدين ، انما بعثه الله للعاضد ليعضد به الحق ، وينجد به الامة ووصفه بقوله : « صلاح الدين كافل قضاة المسلمين ، وهادي دعاة المؤمنين ، ابي المظفر يوسف بن أيوب العاضدي عضد به الدولة ••• » •

ثانيا ـ ان اختيار صلاح الدين كان اختيارا من العاضد بنور الله ، ليقوم بخدمة الدولة وتقدمه الجيوش ، وان ذلك الاختيار كان موفقا بحيث غدا صلاح الدين كما ذكر المنشور : « ورمى بك فأصاب ، وسقى بك فصاب ••• وسددك سهما وجردك شهما ••• وآثرك على آثر ولده امامة في التدبير وحربا وكنت في السلم لسانه ••• وفي الحرب سنانه ••• »[2] • ومن ذلك نرى بأن العاضد كان قد أحب

---

(١) يقول ابن ابي طيء : « وكانت خلعة الوزارة عمامة بيضاء نيسدي بطراز ذهب وثوب دبيقي بطراز ذهب وجبة تحتها سقلاطون بطراز ذهب وطيلسان دبيقي بطراز دقيق ذهب ، وعقد جوهر قيمته عشرة آلاف دينار وسيف محلي مجوهر قيمته خمسة آلاف دينار وفرس حجر صفراء من مراكب العاضد قيمتها ثمانية آلاف دينار لم يكن بالديار المصرية اسبق منها وطوق وتخت وسرفسار ذهب مجوهر ••• ومع الخلعة عدّة بقج وعدة من الخيل وأشياء اخر ومنشور الوزارة ملفوف بثوب اطلس أبيض وكان ذلك يوم الاثنين الخامس والعشرين من جمادى الآخرة سنة اربع وستين وخمسمائة » الروضتين : ١٧٣/١ ؛ البداية والنهاية : ٢٢٧/١٢ •

(٢) انظر نص منشور تولية صلاح الدين الوزارة في : تاريخ ابن الفرات : م٤ ج ١ : ٥٧ ـ ٦٥ ، وقد اقتبست منه النصوص الواردة أعلاه •

صلاح الدين وقرّبه اليه لانه وجد فيه الخير ، وانه سوف يقوّم الباطل ويعضد العاضد .

وذكر في المنشور بخصوص الاختيار على لسان العاضد قوله :

« ولقد سبق (أمير المؤمنين) الى اختيارك قبل قول لسانه بضمير قلبه ، وذكر فيك قول ربه (والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه) وقلدك لانك سيف من سيوف الله تعالى يحق به التقلد ، وله التقليد ، واصطفاك على علم بأنك واحد منتظم في معنى العديد ... » .

ثالثا — ان الخليفة العاضد كان قد فوض لصلاح الدين امر القضاة والدعاة وجعلهم بين « كفالتك وهديك ، والتصريف على امرك ونهيك » ، كما فوض اليه امر الجهاد والتصرف بالاموال ، وحثه للاستيلاء على البلاد المجاورة لزيادة الاستثمار فقال له : « فقدم للبلاد الاستعمار ، تقدم لك الاستثمار » وربما كان مقصده الاستيلاء على البلاد الشرقية بما فيها الحجاز والشام ، لانها كانت تحت سيطرة بغداد ، أو خاضعة لنفوذ الصليبين[1] .

وقد تقبل صلاح الدين المنشور بقبول حسن وزرع له في القلوب الفضل والاحسان مما دفع بالمصريين الى محبته ، اذ أصبح صلاح الدين بعد ذلك المنشور وزيرا لخليفة شيعي ، ونائبا لملك سني ، وأصبح يدعى له في المساجد كل يوم جمعة باسمه المزدوج المثالي « الملك الناصر صلاح الدين »[2] وكون صلاح الدين ، السني المذهب ، وزيرا لخليفة شيعي لم يكن فيه شيء من الغرابة « لانه طيلة قرن تقريبا كان هناك وزراء سنيون على فترات

---

(١) انظر النصوص الواردة أعلاه في تاريخ ابن الفرات ، م ٤ ، ج ١ (٥٧ — ٦٢) .

(٢) Lanepool, A. History of Egypt, P. 191.

متعطعة في مصر »[1] • اضف الى ذلك العدد الكبير من علماء مذاهب السنة الذين كانوا يعيشون في أنحاء مختلفة من مصر ، ويلقون تعاليمهم على جمهور المستمعين • منهم القاضي الشافعي أبو الفضل محمد بن أحمد البغدادي ، نزيل مصر والمتوفى فيها سنة ٤٤٧هـ ، وأبو الفتح سلطان بن ابراهيم القدسي المتوفى سنة ٥١٨هـ وغيرهم[2] •

ورغم ذلك التقارب بين الوزير والخليفة لم يكن صلاح الدين ليرضى بتلك النتائج الاولية التي حصل عليها • لان هدفه كان يكمن في القضاء على الخلافة الفاطمية • لانه « كان ملزما بمبادئه في ارجاع مصر الى الولاء العباسي • لكن الضرورة دعت الى تمهيد السبيل امام التغيير »[3] •

رابعا ـ سياسة صلاح الدين العامة منذ توليته الوزارة حتى سنة ٥٧٠هـ/ ١١٧٤م :

لما استقر صلاح الدين بمنصب الوزارة في مصر قام بتنفيذ أعمال عديدة يمكن من خلالها ان نقول : لقد كان صلاح الدين يعد نفسه للقيام بانقلاب شامل وعاجل داخل مصر في الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية • وكان اولى تلك الاعمال تثبيت مركزه في مصر بعد ان « رأى النظر في حق أعوانه ، وأوليائه اولى وسد خللهم واغناهم احرى ، فاقطع الاجناد البلاد واعطى الامراء والاصحاب من القرى نفائسها »[4] • كما أرسل الى أبيه واخوته يستدعيهم الى مصر للتعويض عن مكان الضباط المشكوك في ولائهم للدولة[5] • وقد استجاب نورالدين لطلب صلاح الدين وجهز والده

---

(١) جب ، صلاح الدين : ١٢٠ •
(٢) حسين ، في أدب مصر الفاطمية : ١٢٧ •
(٣) جب ، نفس المصدر والمكان السابق •
(٤) ابن الفرات ، المصدر السابق ، م ٤ : ١/٦٧ •
(٥) Lonepool, A History of Egypt, P. 192.

واخوته ، وسير معهم عسكرا لحمايتهم[1] • وقد خرج معهم خلق كثير من التجار ، ليأمنوا على انفسهم ومتاعهم • وقد خاف نورالدين عليهم فخرج معهم يوصلهم حتى وصل الكرك[*] فحاصره ليشاغل به الصليبيين ، كي تصل القافلة مصر بسلام ، وكان قد اوصاهم بالسمع والطاعة لصلاح‌الدين[2] وهذا يدلنا على ثقة نورالدين بصلاح‌الدين واطمئنانه الى ولاء أيوب •

وقد مدح الشاعر عمارة اليمني[**] صلاح‌الدين بقصيدة بمناسبة قدوم والده واخوته الى مصر جاء فيها :

---

(١) يذكر الاصفهاني بأن أيوب هو الذي استأذن من نورالدين بالذهاب الى مصر (انظر : سنا البرق الشامي : ١/٨٩ — ٩٠) بينما ذكر ابن أبي طيء بان نورالدين هو الذي ارسل أيوب الى مصر ، بعد الحاح الخليفة العباسي عليه بقطع الخطبة الفاطمية وعدم تأخيرها فاضطر الى تكليف أيوب مهمة ابلاغ ولده صلاح‌الدين بامر الخليفة وارسله الى مصر • (الروضتين : ١/١٨٣ — ١٨٤) •

(*) حصن الكرك : حصن منيع ، له ربض وعليه سور ، وبين الربض والقلعة خندق عميق استولى عليه الرهبان ووسعوه على حساب المناطق المجاورة • واستدعوا اليه طائفة من الصليبيين المجاورين لهم • وجعلوا يشنون منه الغارات على القرى الاسلامية المجاورة ، الى ان أجلوا عنها أهاليها وصيروها عملا لهم تحميها سيوفهم • وقد حاصر صلاح‌الدين هذا الحصن عدة مرات ، ولم يتمكن من فتحه حتى سنة ٥٨٤هـ • (ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة بذكر امراء الشام والجزيرة ، ق ٢ : ٢/٦٩—٧٣) •

(٢) الكامل : ١١/٣٥٢ ؛ الروضتين : ١/١٨٣ ؛ النوادر السلطانية : ٤٤ ؛ ابن العديم ، الزبدة : ٢/٣٢٩ ؛ سبط ابن الجوزي ، النجوم الزاهرة : ٦/٦ — ٧ ؛ ابن كثير ، البداية : ١٢/٢١٦ ؛ باشا ، تقويم النيل : ١/١٢٧ •

(**) عمارة اليمني : هو عمارة بن زيدان أبو محمد اليمني • ولد في تهامة اليمن ، كان شافعي المذهب ، الى انه تحول الى المذهب الشيعي بعد استقراره في مصر حيث كانت الدولة الفاطمية والمذهب الشيعي • وقد عمل لدى كل من الوزير الفاطمي طلائع بك زريك وضرغام وشاور • (ذو

صحت بــه مصر وكانت قبله تشكو سقاما لم يعن بطبيب
عجبــا لمعجــزة أتت في عصره والدهــر ولاد لكــل عجيب
رد الاله به قضية يوسف نسقا على ضرب من التقريب
جاءتــه اخوتــه ووالده الى مصر على التدريج والترتيب
فاســعد باكرم قادم وبدولة قد ساعدتك رياحها بهبوب[1]

وبالاضافة الى ما سبق قام صلاح الدين بتفقد عام للقوات العسكرية الموجودة في مصر ، وعكف على التخلص من الامراء المصريين والعــربان والارمن والسودان لانه اعتقد بأن بقاءهم في القوات العسكرية يشكل خطرا على سياسته الهادفة الى اقامة الدولة الجديدة[2] . علما بان الفرقة الاسدية التي انشأها أسدالدين شيركوه والامراء الاكراد الذين كانوا بمصر انضموا جميعا الى صلاح الدين ، ولم تنقض سنة على توليته الوزارة الا وكان « قد شكل فرقــة خاصة من الحرس تدعى الصــلاحية »[3] . كمــا اســتعان صلاح الدين بالمماليك الاتراك لانه وجد مسيس الحاجة الى من يشدّ ازره وينصره على أعدائه عند الازمات[4] . وبذلك سيطر صلاح الدين على أهم

النون المصري ، عمارة اليمني (القاهرة ١٩٦٦) : انظر صفحة ٢٦ ، ٢٩ ، ٤٩ ، ٥٨ ، ٦٧ ، ١٠٠) وبعد ان اسقط صلاح الدين الدولة الفاطمية ، تعاون عمارة مع اتباع الدولة الفاطمية للقضاء على الدولة الايوبية ، والف عدة قصائد في ذم صلاح الدين ، وقيل في الزندقة لذلك امر صلاح الدين بقتله ، فقتل انظر : أبو شامة ، الروضتين : ١/٢١٩ ـ ٢٢٤ ؛ المصري ، المصدر السابق : ٦٠ ـ ٦٣ ؛ حسين ، في أدب مصر الفاطمية ٢٥٤ ـ ٢٥٨ .

(١) الروضتين : ١/١٨٣ .

(٢) Elisseeff, ou. cit., 11, P. 724.

(٣) جب ، المصدر السابق : ١٥٥ .

(٤) المصري ، حسين مجيد ، صلات بين العرب والفرس والفرس والترك (القاهرة ، ١٩٧١) : ٣٠٤ .

جزء من القطاع العسكري ، ومن ثم توجه الى القطاع المدني ، الى عامة الشعب المصري ، ووجد في حل مشاكلهم الاقتصادية خير وسيلة لكسبهم فابطـل المكوس والمظـالم التي كانت الدولة تجبي منهـا سنويا مائتي الف دينـار[1] .

وكان من الطبيعي ان يثور على هذه السياسة كل المتضررين أو الذين خشوا على مناصبهم ان تزول كرجال القصر الفاطمي والجند السودانيين . لذلك كله دبّر جوهر بن عبدالله مؤتمن الخلافة[*] والجند من السودان بالاشتراك مع كبار رجال القصر الفاطمي مؤامرة ضد صلاح الدين مستندين الى الجند السودان ، وبالتعاون مع الصليبيين[2] . مؤامرة خطيرة قضت بهجوم الصليبيين على مصر ، وعندما يخرج صلاح الدين لصدهم ، يكون الفاطميون في مصر قد ثاروا على صلاح الدين في الداخل وقبضوا على اعوانه واستلموا الحكم منه[3] .

وقد رحب الصليبيون بالعرض لانه يخدم أهدافهم القاضية بتحطيم الوحدة القائمـة بين مصـر والشام والتي تعرض دولتهم في فلسطين الى المخاطر[4] .

---

(١) الروضتين ، المصدر السابق : ١/١٧٤ .

(*) كان جوهر مؤتمن الخلافة استاذ الدار عند الفاطميين بمصر وكان خصـيا . وكان الفاطميون يطلقـون لقائد القـواد العسكرية لقب (استاذ الدار) انظر : البنداري سـنا البرق الشامي : ١/٨٢ ؛ أبو شامة : ١/١٧٨ ؛ القلقشندي ٣/٤٧٧ .

(٢) البنداري ، سنا البرق : ١/٨٢ ــ ٨٥ ؛ الشيال ، تاريخ مصر الاسلامية : ٢/٢١ ــ ٢٢ ؛ بيومي ، المصدر السابق : ١٦٣ .

(٣) الروضتين ، المصدر السابق : ١/١٧٨ ؛ المقريزي ، السلوك : ٢/٤ .

(٤) Grousset, Histoire des Croisades, 11, P. 539.

وقد اوضح ابن شداد هذا المفهوم بقوله : « لما علم الافرنج ما جرى من المسلمين وعساكرهم ، وما تم للسلطان من استقامة الامر في الديار المصرية ، علموا بأنه يملك بلادهم ويخرب ديارهم »[1] ٠

وكانت نقطة البداية بين المتآمرين ، مراسلة الطواشي مؤتمن الخلافة الفاطمية للصليبيين يدعوهم الى القدوم الى مصر ٠ الا ان المؤامرة اكتشفت والقي القبض على المشتركين فيها واعدم قائدهم جوهر بأمر من صلاح الدين[2] ٠

وبمقتل جوهر ثار الجند السودان واجتمعوا لحرب الايوبيين وكانوا زهاء خمسين الفا ٠ ودارت بين الفريقين حرب شديدة انتهت بانتصار صلاح الدين وهزيمة السودان الذين أُحرق حيّهم المعروف بالمنصورة قرب باب زويلة واخرجهم تورانشاه أخو صلاح الدين من القاهرة واسكنهم الجيزة بعد ان وضع فيهم السيف وقتل معظمهم[3] ٠

وفي الوقت الذي كانت فيه مؤامرة السودان تحاك ضد صلاح الدين

---

(١) النوادر السلطانية : ٤١ ٠

(٢) يقال ان كاتب الرسالة كان يهوديا من الرهط ، ولما قبض عليه صلاح الدين ليعاقبه قدم التلفظ بالشهاتين ، واعترف بما جناه لذلك ارسل صلاح الدين الى مؤتمن الخلافة من قتله وكان بقصره المعروف بالحرقانية لا يبعد عنه مسافة لانه استشعر ان أمره قد كشف ٠ وكان مقتله يوم الاربعاء ٢٥ ذي القعدة سنة ٥٦٤هـ البنداري سنا البرق الشامي : ١/٨٢ ، ٨٣ وقد اكتشف المؤامرة رجل تركماني وجد بيد رجل بالي الثياب نعلين جديدين ثمينين ، انكرهما عليه ونظر في احدهما فاذا كتاب المؤامرة فقبض عليه وقدمه الى صلاح الدين ٠ الروضتين : ١/١٧٨ ؛ البداية والنهاية : ١٢/٢٥٨ ٠

(٣) البداية والنهاية : ١٢/٢٥٨ وسوف نتطرق الى هجوم الصليبيين على الاسكندرية في الفصل الثالث ٠

في مصر ، كان الصليبيون في الشام يخططون مؤامرة أخرى تقضي باحتلال دمياط والتوجه منها الى القاهرة والاستيلاء عليها • بعد ان أخذوا موافقة الدولة البيزنطية ، وتلقوا منها مساعدات حربية كبيرة[1] •

ففي صفر سنة ٥٦٥هـ تقدموا نحو دمياط بقوات كبيرة قدرت بألف ومائة مركب ما بين شيني[2] وطريدة[3] • مما اوقع على من بداخل دمياط من المسلمين اليأس وقنطت النفوس ، فارسل اليها صلاح‌الدين على السرعة بعض العون العسكري والمادي وسمح للامراء الايوبيين بالذهاب اليها ، كالامير تقي‌الدين ابن اخي صلاح‌الدين وشهاب‌الدين خاله • كما ارسل الى نورالدين يعرفه ما جرت عليه الاحوال على دمياط • فأرسل اليه

---

(١) البنداري ، المصدر السابق ١ : ٨٧ ــ ٨٨ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب : ١/١٧٩ ــ ١٨٢ ؛ ابن كثير : ١٢/٢٦٠ ؛ عاشور ، الحركة الصليبية : ٢/٧١٨ ــ ٧٢٠ ؛ ابن الوردي : ٢/١١١ •

(٢) الشيني أو الشاني أو الشونة ، والجمع شواني : وهي السفينة الحربية الكبيرة ، وتعتبر أهم القطع العسكرية البحرية التي يتكون منها الاسطول في الدولة الاسلامية وهذه السفينة من أصل مصري ، وكانت تسير بمائة وأربعين مجدافا ، وتقدر حمولتها بمائة وخمسين جنديا • ابن شداد في النوادر السلطانية ، (تحقيق الشيال) : ٤٨ هامش رقم (٢) ، ابن الفرات ، التاريخ (تحققق حسن محمد الشماع) ١ : ٨٣ هامش ٢٥١ ويبدو ان هذا النوع من السفن كانت تقام فيه الابراج والقلاع للدفاع عنه ، كما كانت ترمي منه النار والنفط على العدو • ابن واصل ، مفرج الكروب (تحقيق الشيال) ٢ : ١٣ هامش رقم (١) •

(٣) الطريدة أو الطّرادة والجمع طرايد : وهي سفينة حربية تستخدم لنقل الخيل وأكثر ما يحمل فيها أربعون فرسا • وكانت هذه السفن أكثر شبها بالبراميل ، وربما استخدمت هذه السفن لركوب الناس أيضا • ابن شداد ، المصدر السابق : ٤٨ ، هامش رقم (٣) ؛ ابن واصل ، السابق : ٢/١٢ هامش رقم (٣) ؛ ابن الفرات ، السابق : ١/٨٣ هامش رقم (٢٥٢) •

نورالدين العساكر يتلو بعضها بعضا • كما تقدم هو بنفسه الى بعض قلاع الصليبيين في الشام واستولى عليها • مما دفع بالصليبيين الى الانسحاب عن دمياط ، خاصة وانهم وجدوا أنفسهم غير قادرين على الاستيلاء عليها ـ رغم الحصار الشديد الذي دام خمسين يوما ـ والذي كانت فيه الحامية الصلاحية قد برهنت على شجاعة في تصديها للعدو رغم قلة المنجنيقات ولعدة والعدد[1] •

ويبدو ان صلاح الدين ظهر للمصريين على انه المنقذ بعد ذلك الانتصار الذي حققه على دمياط مما ساعد على التفاف المصريين حوله ، وعدم قيامهم بثورات ضد حكمه في فترة كان بالامكان استغلالها للوثوب عليه ، بل أخذوا يساندونه في حربه ضد الصليبيين ويسيرون معه لمحاصرة قلاعهم في الشام ، بعد ان لاحقهم هناك • ففي سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م هاجم غزة وتقدم لحصار الداروم ، فاستنجد صاحبه بالملك اموري حاكم بيت المقدس ؛ فاضطر صلاح الدين الى الانسحاب من الداروم[2] ، على أمل العودة الى ديارهم مرة أخرى • وقد هاجم فعلا ايلة وفتحها في ربيع الآخر من نفس السنة[3] ، بعد ان كان قد اغار على الرملة وعسقلان[4] •

وكان لاستخدام صلاح الدين الخيول في تلك الغزوة ، اثره المهم في النتائج الايجابية التي حققها • لان استخدام الخيل معناه السرعة في المعركة

---

(١) الروضتين : ١/١٨٠ ـ ١٨١ ؛ النجوم الزاهرة : ٥/٧ ؛ مؤنس ، نورالدين ٣٢٦ ـ ٣٢٧ •

(٢) Lanepool, Saladin, P. 106.

(٣) تاريخ ابن الفرات ، م ٤ : ١/١٢٥ ـ ١٢٦ ؛ تاريخ الازمنة : ٧٠ •

(٤) عسقلان : مدينة في فلسطين على ساحل البحر وتقع شمال غزة ـ معجم البلدان ٤/٢٠٢ •

ضد الأعداء • وكان صلاح الدين ينوي نفس الهدف ، لأنه أراد ، أيضا ، تطهير المنطقة الواقعة بين مصر والشام من التجمعات الصليبية التي كانت تنتهز الفرص لتوقع بكل القوافل المارة من مصر الى الشام أو بالعكس ، سواء كانت تلك القوافل تحمل الحجاج ، أو قوافل تجارية[1] •

وربما قصد صلاح الدين من تلك السياسة تسهيل اتصاله بالشام ليتسنى له في المستقبل التوجه اليها بكل يسر • ومما يدل على صدق صلاح الدين في تنفيذ تلك السياسة ، هجومه المتكرر على تجمعات الاعراب[*] ، في نفس المنطقة ، حتى لا يكونوا وسيلة من وسائل الهدم يستخدمها أعداؤه ضده في وقت الازمات •

ففي سنة **٥٦٨هـ** مثلا خرج الى تجمعاتهم القريبة من الكرك والشوبك ودمرها • وقد اوضح سبط ابن الجوزي دوافع الغزوة فقال : « وكان جماعة من العرب نازلين بأرض الكرك ينقلون الاخبار الى الفرنج ، واذا اغاروا على البلاد دلوهم على المسلمين »[٢] •

ولم يكتف صلاح الدين بتخريب تجمعات العربان فحسب ، بل سيرهم الى الشام أملا منه بالوصول الى حل للمشكلة حلا جذريا ، يمكن

---

(١) ابن شداد ، النوادر : ٤٥

(٢) Lanepool, A History of Egypt, P. 192.

(*) كان اولئك الاعراب مسلمين ، غير انه لم يكن يوجد فيهم من يعرف قواعد الاسلام وأصوله ، بل لم يكن احدهم يعرف حتى الصلاة ، واذا صلى احدهم ، فانه لا يصلي الاوقات الخمسة على الترتيب ، بل كلما خطر بباله الصلاة (نعوم بك شقير ، تاريخ سينا القديم والحديث (القاهرة ١٩١٦) : ٦٥٢ وهذا يدل على ان هؤلاء الاعراب كانوا مستعدين للتعاون مع الصليبيين ، ولم يكن عندهم الوازع الديني الذي يمنعهم من الخيانة ، كما سيتبين ذلك فيما بعد •

(٣) مرآة الزمان ، المصدر السابق ، ق ١ : ٢٩٣/٨ •

معه القضاء على عودتهم مرة أخرى . فقد كتب الى نورالدين يرغّبه بمنحهم الاراضي ليستقروا عليها . وقد حفظ لنا العماد الاصفهاني في البرق الشامي نص الكتاب الذي أرسله صلاح الدين الى نورالدين بخصوص حل المشكلة وهو بالانشاء الفاضلي جاء فيه : « واكبر الاسباب المعينة على ما يرومه من هذه المصلحة [وهي محاربة الصليبيين] ان لا يبقى في بلادهم من العربان ، وان ينتقلوا من ذل الكفار الى عز الايمان . ومما اجتهد فيه غاية الاجتهاد ... ترحيل كثير من انفارهم ، والحرص في تبديل ديارهم ... ولو كان هؤلاء العربان يرغبون في الديار المصرية لكان يجعل كلّهم ويسوق كلّهم . ولكن هواهم في الشام ... ولو ان المولى خلى لهم اقليما واقطعهم اقطاعا عظيما ليقطعهم عن الكفر وبلاده ، ويبعدهم عن تكثير سواده ، لكان في ذلك قد أحسن فعلا وحمل عن المسلمين ثقلا ... »[1] .

وبعد ان نجح صلاح الدين في تنفيذ سياسته السابقة ، وكسب محبة المصريين وميلهم اليه ، تقدم بتنفيذ الاوامر التي كانت تصدر اليه من نورالدين باسقاط الخلافة الفاطمية سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م وقد مهد لها صلاح الدين ببعض الاعمال فعزل قضاة مصر من الشيعة وقطع أرزاقهم . واستناب على سائر البلاد قضاة شافعية ، كما عين العالم الشافعي صدرالدين ابن عبدالملك بن درباس قاضيا للقضاة الشافعية ووزيرا للديار المصرية . وبنى دار العدل مدرسة للشافعية[2] . وازال أصول المذهب الشيعي ، مثل الاذان بحيّ على خير العمل واثار قضية التشكيك بنسب الفاطميين ، وانهم من نسل المجوس ، وان زعموا انهم علويون[3] . وكان صلاح الدين قبل

---

(١) البنداري ، المصدر السابق : ١/١٢٥ – ١٢٦ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل : ١١/٣٦٦ ؛ ابن الاثير ، البداية : ١٢/٣٦٣ ؛ ابن الفرات ، التاريخ م ٤ : ١/١٢٥ .

(٣) من جملة التشكيك الذي اثير ضد النسب الفاطمي ما ذكره

ذلك قد أجهز على قوة الخلافة الفاطمية العسكرية وقضى على امراء القصر والجند السودانيين كما تبين من قبل • حتى « اندرس مذهب الاسماعيلية بالكلية وانمحى أثره ، ولم يبق أحد من أهل البلاد يمكنه التظاهر بـه »[1] •

كانت سياسة صلاح الدين ، في تنفيذ مخططه السابق ، حكيمة لدرجة كبيرة فقد أراد الاجهاز على الخلافة الفاطمية دون تقديم أية ضحايا ، ومن غير اثارة المصريين عليه • حيث وضع على كل امير فاطمي جماعة من أمراء الشام واجنادهم • وتجهز الامراء تحت جناح الليل ، ولبسوا سلاحهم ، واحاط كل واحد منهم ببيت أمير من أمراء مصر الفاطميين المشكوك في امرهم • فلما أصبح الصباح وخرجوا على عادتهم • أحاط بهم الامراء والجنـد الايوبيين من كل جانب وقبضـوا عليهم واستولوا على دورهـم وذخائرهم • ولما علم الخليفة العاضد بما جرت عليه الحال اوضح لـه صلاح الدين بأنهم امراء عاصون ، وانه انما قصد تعويضه بأحسن منهم[2] •

ومن جهة ثانية فقد كان صلاح الدين يتمهل في القضاء على الخلافة الفاطمية حتى يمهد لذلك الانقلاب ويعدّ لـه لئلا يعصف ذلك العمـل

أبو شامة بقوله : « ذكر جمـاعة من أكابر العلمـاء ان الفاطميين ليس نسبهم صحيحا ، بل المعروف عنهم أنهم بنو عبيد وكان والد عبيد من نسل القداح الملحد المجوسي ، وقيل يهوديا من سليمة بالشام ••• وقد كشف حالهم الامام أبو القسم عبدالرحمن بن نصر الشاسي في كتاب الرد على الباطنية وذكر قبائح ما كانوا عليه من الكفر والمنكرات ••• ومن ذلك قصيدة سماها الايضاح أولها :

حي على مصر الى خلع الرسن   فثم تعطيل فروض وسنن)

انظر : الروضتين ، المصدر السابق : ٢٠٢/١ •

(١) ابن الفرات ، المصدر السابق م ٤ : ١٢٥/١ •

(٢) نفس المصدر السابق م ٤ : ١٣٠/١ •

بمصالحه ومصالح اسرته وقد نجح في مسعاه بحيث ان الأنقلاب تم « دون ان ينتطح فيها عنزان »[1] . ومع ذلك فان ابن الاثير يتهم صلاحالدين بأنه كان يريد بقاء الخلافة الفاطمية خوفا من نورالدين « فانه كان يخافه ان يدخل الى الديار المصرية يأخذها منه ، فكان يريد ان يكون العاضد معه ، حتى اذا قصده نورالدين امتنع به وبأهل مصر عليه »[2] .

ان ملاحظة الاعمال التي قام بها صلاحالدين من عزل القضاة الفاطمية ، وازالة الاذان بحيّ على خير العمل ، والقبض على امراء القصر الفاطمي لدليل على ضعف اتهام ابن الاثير ، ذلك الاتهام الذي اضعفه أيضا ما ذكره في تاريخ الدولة الاتابكية بقوله : « لما ثبت قدمه في مصر [أي صلاحالدين] ... كتب اليه الملك العادل نورالدين يأمره بقطع الخطبة العاضدية ... فاعتذر صلاحالدين بالخوف من وثوب أهل مصر ... »[3]. ومعنى الخوف (الحذر) ومن ثم التخطيط بحزم وهو ما كان يقوم بتنفيذه صلاحالدين ، فتأخر عن قطع الخطبة الفاطمية حتى لم يبق له معارض في مصر . علما بان ابن الاثير يمثل وجهة النظر النورية ، وكتاباته لا تخل من تحيز ضد صلاحالدين . وقد ذكر نفس الاتهام عندما اوضح الدوافع التي كانت وراء فتح اليمن[4] .

ومن جهة ثانية فان صلاحالدين ــ سواء بحكم عقيدته السنية التي كان يحملها أو بدافع حبه في السيطرة والاستقلال ــ كان يرغب في ازالة الخلافة الفاطمية ليكوّن لنفسه ولاسرته دولة فيها ، وهذا لا يتأتى ، الا اذا سقطت الدولة القائمة ولذلك فان هدف نورالدين وصلاحالدين كان

---

(١) ابن الاثير ، الكامل : ١١/٣٦٩ .
(٢) نفس المصدر السابق : ١١/٣٦٨ .
(٣) الباهر في تاريخ الدولة الاتابكية : ١٥٦ .
(٤) الكامل : ١١/٣٩٦ .

واحدا ، غير ان اسلوبيهما في ازالة الدولة الفاطمية كانا مختلفين .

وما ان وجد صلاح الدين ان اهبته قد تمت ، وانه قادر على القيام بانقلابه قطع الخطبة بمصر للعاضد الفاطمي واقامها للمستضيء العباسي في محرم سنة ٥٦٧هـ – ايلول ١١٧١م[١] ، وبذلك أعيدت الوحدة بين مصر والشام من جديد مذهبيا واقليميا وأصبحت الخلافة العباسية هي الوحيدة التي يدين لها جميع المسلمين في الولاء فنشأت طاقة مادية وبشرية سنرى ظهور اثارها فيما بعد[٢] . بعد ان كانت الوحدة قد قطعت مدة حكم الفاطميين مصر لحوالي مائتين وثمانين سنة . وقد امتدح الشعراء ذلك الانقلاب واعلن احدهم بقوله :

اصبح الملك بعد آل علي	مشرقا بالملوك من آل شادي
وغدا الشرق يحسد الغر	ب للقوم فمصر تزهو على بغداد[٣]

وتجمهر المصريون من أهل السنة تعبيرا عن فرحتهم بالانقلاب ، واستطالوا على الفاطميين « وتتبعوهم واذلوهم وصاروا لا يقدرون على الظهور من دورهم »[٤] وبذلك يمكن القول بأنه رغم المدة الطويلة التي حكم فيها الفاطميون مصر ، الا ان حكمهم كان شكليا ، وانهم لم يؤثروا على نفوس المصريين ، ولم يتمكنوا من كسب ولائهم الحقيقي .

---

(١) ابن شداد ، النوادر : ٤٥ ؛ الباهر في تاريخ الدولة الاتابكية : ١٥٧ ؛ البنداري ، سنا البرق الشامي : ١/١١١١ – ١١١٤ ؛ ابن الوردي ، التاريخ : ٢/١١٣ ؛ اليافعي ، مرآة الجنان : ٣/٣٧٩ ؛ القلقشندي ، مآثر الاناقة : ٢/٥١ .

(٢) القزاز ، الحياة السياسية ، المصدر السابق : ٢٥٠ .

(٣) ابن كثير ، البداية ١٢ : ٢٦٧ .

(٤) الروضتين : ١/١٩٧ ؛ الاصفهاني ، خريدة القصر ق ٣ : ١/٢٠٣ .

وتسلم صلاح الدين بعد ذلك القصر الفاطمي وما حواه من دخائر وقبض على أولاد العاضد وحبسهم في مكان واحد من القصر ، بعد ان اجرى عليهم ما يمونهم[1] • وكان العاضد أثناء ذلك مريضا ، فلم يعلمه احد من اصحابه بما جرت عليه الاحوال ، ثم توفي في العاشر من محرم سنة ٥٦٧هـ وكان عمره اذ ذاك ثلاثا وعشرين سنة[2] •

وكان لسقوط الخلافة الفاطمية صدى بالغ الاثر في نفوس المصريين خاصة والعالم الاسلامي عامة • صحبتها هزة فرح عمت أوساط المذهب السني ، وكانت البشائر التي كتبها العماد الاصفهاني تقرأ في كل مدينة وقرية حتى وصل حاملها الى بغداد • ولما انتهى الخبر الى نورالدين ارسل الى الخليفة يعلمه بذلك مع ابن ابي عصرون « فزينت بغداد وغلقت الاسواق ، وعملت القباب وفرح المسلمون فرحا شديدا »[3] • وارسل الخليفة العباسي الخلع الثمينة الى كل من نورالدين وصلاح الدين ، كان من بينها سيفان احدهما قلّد المستضيء به الشام لنورالدين والثاني مصر لصلاح الدين على ان يكون صلاح الدين نائبه فيها[4] •

---

(١) ابن تغري بردى ، النجوم الزاهرة : ٣٤١/٥ ؛ ابن قاضي شهبه ، الكواكب الدرية : ٢٠٠ •

(٢) وكان مولده سنة ٥٤٤هـ وبويع الخلافة سنة ٥٥٥هـ ، وقيل في سبب موته إنه تفكر في أموره فرآها في ادبار فأصابه ذرب مات عنه ، وقيل لما خطب لبني العباس بلغه ذلك فاغتم ومات • وقيل كان في يده خاتم له فص مسموم فمصه فمات على اثر علمه بزوال ملكه • انظر : سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ق ١ ، ج ٨ ، ص ٢٩٠ ؛ ابن كثير : ٢٦٤/١٢ ـ ٢٦٥ ؛ ابن خلكان ، الوفيات ٦ : ١٥٦ ـ ١٥٧ الدويهي ، تاريخ الازمنة : ٧١ •

(٣) ابن كثير ، البداية : ٢٦٤/١٢ ؛ المقريزي ، السلوك : ٤٤/١ •

(٤) النجوم الزاهرة : ٦٤/٦ •

ومن جهة ثانية فقد نصب صلاح الدين الأعلام السود على منابر الجوامع المصرية وقرأ من عليها نسخة سجل باسقاط المكوس وبشارات أخرى . اعلن فيها صلاح الدين بان عهد الظلم انتهى وان عهد دولته هو عهد البشارات التي سوف يتبع بعضها بعضا وانه تقرر ما يلي :

أولا ـ رفع المكوس الديوانية بمصر والقاهرة . وعدم استلام أية ضريبة من الشعب المصري ، أو التجار الاجانب ، ثوابا للانتصار واحتساب اجرها من الله .

ثانيا ـ تكون التجارة حرة ، وسوف لن يتعرض لاي تاجر يتردد الى مصر أو الى ساحل المقسم المنيا . سواء كانت التجارة من الصادرات أو الواردات ، وسواء كانت التجارة بحرية أو برية .

ثالثا ـ جعل صلاح الدين عقوبة المخالفين للاحكام الصادرة أعلاه الاعدام .

رابعا ـ على كافة القواد العسكريين ورؤساء الدواوين والكتاب ، ومن قرأ المنشور أو قرىء عليه تطبيق ما جاء فيه .

وفي نص المنشور الذي أصدره صلاح الدين للشعب المصري من على المنابر في ٣ صفر سنة ٥٦٧هـ ما يدل على ذلك : « فانا نحمد الله سبحانه على ما مكن لنا في الارض وحسنه عندنا من اداء كل نافلة وفرض ونصبنا له من ازالة النصب عن عباده ... فالبشائر في أيامنا تترى شفعا ووترا والمسار كنظام الجوهر تتبع الواحدة منها الاخرى والمسامحات قد ملأت المسامع والمطامع ... ولما تقلدنا أمور الرعية رأينا المكوس الديوانية بمصر والقاهرة اولى ما نقلناها من ان تكون لنا في الدنيا الى ان تكون لنا في الآخرة وان نتجرد منها ... ونطهر منها مكاسبنا ... ونعيدها اليوم كأمس الذاهب ونضعها فلا ترفعها من بعد يد حاسب ولا قلم كاتب ... وخرج امرنا بكتب هذا المنشور بمسامحة أهل القاهرة ومصر وجميع التجار

المترددين اليهما والى ساحل المقسم المينا بأبواب المكوس صادرها وواردها فيرد التاجر ويسفر ... ويقارض ويتجر براً أو بحراً مركبا وظهرا سرا أو جهرا لا يحل ما شده ولا يحاول ما عنده ، ولا يكشف ما ستره ... ولا يستوقف في طريقه ... ولا يستباح له حرمه ... والذي اشتملت عليه المسامحة في السنة من العين مائة ألف دينار مسامحة لا يشوبها تأويل ... من عارضهاردت احكامه ومن ناقضها نقض ذمامه ومن ازالها زلت قدمه ومن احالها حل دمه ... فمن قرأه أو قرىء عليه من كافة ولاة الامر من صاحب سيف وقلم ومشارف أو ناظر فليمتثل ما مثل من الامر ... »[1] .

اما علاقة صلاح‌الدين مع نورالدين بعد اسقاط الخلافة الفاطمية سنة **٥٦٧**هـ فالظاهر انها كانت حسنة ، خاصة وان صلاح‌الدين قام بتنفيذ الاوامر الصادرة اليه من نورالدين بوجوب الدعوة للخلافة العباسية . ومع ذلك فقد أشارت بعض المصادر الى وجود وحشة بين الطرفين . وقد تتبعت مصدرها ، فوجدت ان أول من قال بهذا الرأي هو ابن الاثير ، وابن أبي طيء وعنهما نقل كثير من المؤرخين قصة الوحشة . والذي يدل على ذلك ان تلك المصادر متأخرة عن المصدرين الاولين ، ثم اتفاقها في كثير من الاحيان في اللفظ مع اختلاف في الايجاز والاطناب .

وفيما يلي قصة الوحشة بين صلاح‌الدين ونورالدين منذ بدايتها كما اوردها المؤرخون : يعتقد ابن أبي طيء بأن نورالدين اقلق وظهرت منه الكراهية عندما علم بوزارة اسدالدين شيركوه ومن بعده صلاح‌الدين لدى الخلافة الفاطمية لاسباب كان منها استبدادهم بمصر وحصول صلاح‌الدين

---

(١) أبو شامة ، الروضتين : ١/٢٠٥ ؛ انظر : ابن كثير ، البداية : ٢٦٨/١٢ .

على خزائن الفاطميين • واستنتج ابن أبي طيء تلك الوحشة بين الطرفين من كتاب ارسله نورالدين الى العاضد يطلب فيه اعادة شيركوه وجنده الى الشام ليضرب بهم اعداؤه وجاء في الكتاب « ولقد افتقر العبد [أي نورالدين] الى بعثته واعوز عسكره ••• واشتد حزب الضلال على المسلمين لغيبته لانه ما يزال يرمي به شياطين الضلال بشهابه الثاقب »[1] •

ونظرة عميقة لكتاب نورالدين لتدل بوضوح على محبة نورالدين لصلاح‌الدين وعمه ، وانه كان مفتقرا اليهم ، ويطلب عونهم ليضرب الصليبيين وقد علق أبو شامة على تفسير ابن أبي طي للنص السابق ورفضه وقال : « ربما الذي اقلق نورالدين كون اسدالدين وزر للعاضد فخاف من ميله للقوم والى مذهبهم ••• هذا ان صح ما نقله ابن ابي طيء والله علم »[2] • علما بان كل ما أورده أبو شامة وابن أبي طيء انما كان ظنا واعتقادا ، وهو ليس مما صرح به نورالدين •

وربما كان تفسير أبو شامة أقرب للصواب ، ومع هذا فهو لا يعدو ان يكون رأيا وهو ليس التاريخ ، حتى ان أبا شامة نفسه لم يثبت رأيه فقد بدأ قوله بـ « ربما » وانهاه بكلمة « والله اعلم » •

ومما يرفض ادعاء ابن أبي طيء القائل بأن صلاح‌الدين استولى على أموال مصر ما ذكره الاصفهاني ، كاتب نورالدين ، بأن صلاح‌الدين لم يستلم شيئا من تلك الاموال وانه وزعها جميعا على العساكر ، بعد ان ارسل الثمين منها الى نورالدين[3] • ثم ان صلاح‌الدين لم ينتقل من بيته ، بيت الوزارة ، وأعطى قصور الخلافة الفاطمية لضباط الجيش[4] •

---

(١) الروضتين : ١/١٧٢ •

(٢) الروضتين : ١/١٧٢ •

(٣) البنداري ، سنا البرق الشامي : ١/١٢٣ •

(٤) Lanepool, A History of Egypt, P. 193.

ثم لا ننسى ما كان لطبيعة ابن أبي طيء وعلاقته بالشيعة من أثر في اثارة الشكوك بين نورالدين وصلاح‌الدين . فقد ذكر أبو شامة قوله : « ان ابن أبي طيء متهم فيما ينسبه الى نورالدين مما لا يلكق به ، فان نورالدين رحمه الله كان قد اذل الشيعة بحلب وابطل مشاعرهم ... وكان والد ابن أبي طيء من رؤوس الشيعة فنفاه من حلب »[1] ثم ان نورالدين لم يكن بحاجة الى أموال مصر ليسيء علاقته بسببها مع صلاح‌الدين . لانه لما وصلته بعض الهدايا من صلاح‌الدين قال بعد ان شكر همته : « ما كانت بنا حاجة الى هذا المال . ولا نسد بها خلّة الاقلال . فهم يعلم انا ما انفقنا الذهب في ملك مصر وبنا فقر الى الذهب ؟ ... فاستنزره وما استغزره »[2]. ولو تفحصنا قول نورالدين على ضوء الكمية الكبيرة والتحف الجليلة التي وردت اليه من صلاح‌الدين[3] لتبين لنا زهده ، بحيث انه استنزر الاموال ولم يستغزرها ، ومع ذلك فان بعض المحدثين من الكتاب يتخذ من الرواية السابقة ومن شكر نورالدين لصلاح‌الدين سببا من أسباب الوحشة بين الطرفين بعد ان يعكس مفهوم الرواية امثال الاستاذ بيومي[4] .

---

(١) الروضتين ، المصدر السابق : ١/١٧٤ .

(٢) البنداري ، سنا البرق : ١/١٢٣ – ١٢٤ .

(٣) انظر عن مقدار الكمية الكبيرة من التحف والهدايا المرسلة الى نورالدين : المصدر السابق : ١/١٢٣ .

(٤) يرى الاستاذ بيومي ، ان مما يدل على الوحشة بين نورالدين وصلاح‌الدين ، هو قول نورالدين لرسول صلاح‌الدين عندما قدم اليه بعض الهدايا التي جلبها اليه من مصر « ما كانت بنا حاجة الى هذا المال ... النص المذكور أعلاه » حيث فسر النص بغير ما قصده نورالدين . واعتبر المقولة صدرت من نورالدين احتقارا لصلاح‌الدين . بينما هي تدل على زهده وعدم اهتمامه بالاموال لانها كانت كثيرة ، وان نورالدين كان رجلا زاهدا . انظر : قيام الدولة الايوبية : ١٨٢ .

اما تكملة قصة الوحشة فقد ذكرها ابن الاثير وملخصها ان صلاح الدين خرج من مصر في صفر سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م ونازل حصن الشوبك وكاد ان يفتحه ، ولما سمع بقدوم نورالدين لنجدته انسحب عن الشوبك عائدا الى مصر خوفا من استلام نورالدين السلطة من يديه . وكتب اليه يعتذر باختلال الاحوال في مصر وعزم بعض الشيعة القيام بثورة ضد حكمه ، ثم تستطرد رواية ابن الاثير فتقول بأن نورالدين لم يقبل العذر ، وعزم على التقدم الى مصر لاخذها من صلاح الدين . الا ان الاخير اخبر بالامر وجمع امراءه وأصحابه وقرروا مقاومة نورالدين وعدم السماح له بدخول مصر . ثم انهم فكروا بفتح اليمن لتكون لهم ملجئا اذا ما دخل نورالدين مصر . الا ان نجم الدين أيوب ، والد صلاح الدين ، رفض مقاومة نورالدين واعلن امام المجتمعين بأنه والايوبيين انما هم مماليك نورالدين . ثم اختلى بصلاح الدين وقال له « والله لو أراد نورالدين قصبة من قصب السكر لقاتلته أنا عليه حتى امنعه أو اقتل »[1] . واعلن نجم الدين كما ذكر ابن الاثير بأن الذي ادعاه امام الامراء انما كان سياسة نستطيع بها اشغال نورالدين عن مقصدنا فيشتغل بغيرنا[2] . وقد نقلت هذه الرواية عن ابن الاثير في مصادر كثيرة متأخرة عنه ، وعدت من أسباب الوحشة بين الطرفين[3] .

---

(١) ابن الاثير ، الكامل : ١١/٣٧٢ ـ ٣٧٣ .

(٢) نفس المصدر السابق : ١١/٣٧٣ .

(٣) ابن الفرات ، التاريخ ج ٤ : ١/١٨٤ ـ ١٨٦ ؛ ابن قاضي شهبه ، الكواكب الدرية : ٢١٢ ـ ٢١٤ .

ابن تغري بردى ، النجوم : ٦/٢١ ـ ٢٢ ؛ ابن خلدون : ٥/٥٥٨ ـ ٥٥٩ ؛ أبو الفدا ، المختصر : ٥/٧٠ ـ ٧١ ؛ ابن الوردي ، التاريخ : ٣/١١٤ ـ ١١٥ ؛ ابن خلكان ، الوفيات : ٦/١٦٢ ـ ١٦٣ ؛ ابن كثير ، البداية : ١٢/٢٦٨ ـ ٢٦٩ ؛ الدويهي ، تاريخ الازمنة : ٧٢ .

وفي سنة ٥٦٨هـ/١١٧٢م يكمل ابن الاثير قصة الوحشة ويدعي بأن صلاح‌الدين قام بنفس الدور وانسحب من الاستمرار بحصار الكرك خوفا من الاجتماع بنورالدين بحجة ان والده نجم‌الدين كان مريضا وانه خاف على مصر من ان تضيع من ايديهم وهو بعيد عنها ٠ ولم يقبل نورالدين عذره في الباطن وعزم على اخذ مصر منه الا انه صرح بقوله : « حفظ مصر أهم عندنا من غيرها »[1] ٠

في الحقيقة ان رواية ابن الاثير فيها كثير من المبالغة وسوء الظن بصلاح‌الدين لانه فعلا في سنة ٥٦٧هـ حدثت في مصر ثورة السودان وخاف صلاح‌الدين العاقبة وضياع الامور من يديه فقرر تركيزحكمه داخل مصر فقط وترك الشوبك وكانت سياسته حكيمة ٠ ثم اذا كانت مصر مهمة أكثر من غيرها لدى نورالدين فمن اين جاء بالوحشة اذن !! واذا كان نجم‌الدين أيوب قد اختلى بابنه صلاح‌الدين واسرّ اليه أمرا فكيف علم ابن الاثير بما دار بين الابن ووالده ؟ وهل كان صلاح‌الدين من السذاجة بمكان بحيث يذيع أسرار أبيه ؟ واذا كانت تلك الاسرار قد وصلت فعلا مسامع نورالدين ، التي تتهم نجم‌الدين أيوب بالنفاق والخيانة ، فلماذا لم يعلنها نورالدين حربا ظاهرة على الايوبيين ؟ واذا كانت الوحشة باطنا كما زعم ابن الاثير[2] فكيف اذن اكتشفها ؟ هـذا بالاضافة الى ما قيل حول ابن الاثير من انـه متهم في بعض ما كتبه عن صلاح‌الدين لانـه يتلمس المناسبات أحيانا لغمز صلاح‌الدين ونقده ٠ وقد يعود سبب ذلك لنشأته في

---

(١) يعطي العماد الاصفهاني سببا جديدا لانسحاب صلاح‌الدين عن حصار الكرك فيقول : « لقي في تلك السفرة شدة وعدم خيلا وظهرا وعده وآب الى القاهرة » انظر : البنداري ــ سنا البرق : ١١٨/١ ٠

(٢) الكامل : ٣٧١/١١ ٠

الموصل موطن نورالدين[1] .

اما ما قيل من اعتذار صلاحالدين في المرة الثانية سنة **٥٦٨هـ/١١٧٢م** بحجة ان والده كان مريضا . فان تلك الحجة كانت صحيحة ، ولم تكن كاذبة ليجعلها ابن الاثير دليلا للوحشة بين الطرفين . فقد عاد صلاحالدين الى مصر بنفس الاسبوع « فوجد أباه قد قضى نحبه »[2] .

وقد دل على حسن العلاقة بين الجانبين أيضا الكتاب المرسل الى صلاحالدين سنة **٥٦٩هـ/١١٧٣م** بخط الاصفهاني وتوقيع الملك الصالح حيث خوطب فيه صلاحالدين بالسيد الاجل ولفتت انظاره الى مخاطر الصليبيين ، ودعي الى مقاومتهم باعتباره المكلف بهذا الامر من قبل نورالدين . وقد جاء بنص الكتاب ما يلي : « فما كان اعتماد مولانا السعيد الملك العادل [أي نورالدين] الا عليه وسكونه اليه الا لمثل هذا الحادث الكارث فقد أدخره كلف أنياب النوائب ... وآمله ليومه وغده ورجاه لنفسه وولده »[3] . ولو لم يعلم الاصفهاني والملك الصالح بان علاقة نورالدين كانت حسنة بصلاحالدين ، لما كوتب بتلك الكلمات ، ولما كلف بمقاومة الصليبيين باعتباره الخلف الاول لنورالدين .

ومما سبق تبين بأن وجود وحشة بين نورالدين وصلاحالدين وصلت لاستعداد الاول بالمسير الى مصر واستلامها من الثاني ، انما كانت روايات مبالغا في تفسيرها وذكرت لخدمة أغراض شخصية تبناها كل من ابن الاثير الموصلي وابن أبي طيء الشيعي المذهب ، وأخذها عنهما الكثير من المؤرخين والكتاب دون تمحيص حتى ان بعض الكتاب المحدثين غالى كثيرا في

---

(١) الشيال ، تاريخ مصر الاسلامية : ٢/٣١ .
(٢) ابن الاثير ، الكامل : ١١/٣٩٣ .
(٣) البنداري ، المصدر السابق : ١/١٥٥ .

تعليلاته لقصة الوحشة ونتائجها • منهـا : ان صلاحالدين كان عازما على القضاء على نورالدين[1] • ومنها انـه لو كان صلاحالدين مخلصا لسيده نورالدين لكانت الامارات الصليبية قد اسقطت بيد نورالدين في حياته[2] •

وصفوة القول اذا كان بين صلاحالدين ونورالدين ما يلفت النظر ، فثمة تفسير واحد يمكن قوله وهو ان نورالدين فتح البلاد المصرية ليفيد من مواردها الطبيعية والبشرية في أوقات الازمات • ولما سقطت الخلافـة الفاطمية سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م كان نورالدين يلح على صلاحالدين باستخدام كل قوى مصر لمساندة الشام في الحرب ضد الصليبيين • ولم يكن يعلم أغوار مصر وأحوالها كصلاحالدين الذي اعتقـد بأن تثبيت كيان الدولة الجديدة في مصر اولى من الانشغال بمسائل الشام • ولذلك كان يتساهل قليلا مع سيده حتى لا تضيع مصر من أيديهم بثورة مضادة « وانه كان أكثر وعيا من نورالدين للاخطار الناجمة عن عداء القوات الفاطمية السابقة ، واستعدادها للانضمام الى جانب الفرنجة • لذا فان واجبه الاول ، بنظره ، كان في بناء جيش جديد ذي قوة تكفي للاحتفاظ بمصر في جميع الظروف الطارئة »[3] •

ومهما يكن من امر العلاقة بين الطرفين فان وفاة نورالدين[4] يوم

---

(١) Champdor, Saladin, P. 60.

(٢) رينتز ، دراسات اسلامية : ١١٨ •

(٣) جب ، صلاحالدين : ١٢١ •

(٤) نشـأ نورالدين في كنف والده عمادالدين صـاحب الموصل ، وتقدم الى دمشق فافتتحها سـنة ٥٤٩هـ • وكان فقيهـا على مذهب أبي حنيفة • وقد جاهد الصليبيين كثيرا • وكان يتدين بطاعة الخلافة العباسية • مرض في أعياد طهور ابنه الملك الصالح ثم توفي سنة ٥٦٩هـ • انظـر : البنداري ، سنا البرق : ١/١٥٠ ـ ١٥٤ ؛ ابن الجوزي ، المنتظم : ١/٢٤٨

الاربعاء ١١ شـوال ٥٦٩هـ (١٥ مايو ١١٧٤م) خلقت لصلاح الدين ظروفا جديدة أصبح معها سلطانا للمسلمين على مصر والشام وأعالي العراق حتى الموصل بعد ان خاض حربا شديدة ضد النوريين مدة عشر سنوات • بعد ان ركز حكمه في مصر وفتح كل من برقة وبلاد النوبة[1] سنة ٥٦٨هـ • كما تمكن صلاح الدين من فتح اليمن[2] سنة ٥٦٩هـ ، وبذلك جهز نفسه

ـ ٢٤٩ ؛ ابن كثـير ، البداية ٢٧٧/١٢ ـ ٢٧٩ ؛ المقـريزي ، السلوك : ٥٥/١ ـ ٥٦ ،

Ency of Arabic Civilization, The Arab East, P. 460.

(١) البنداري ، المصدر السابق : ١٣٧/١ •

(٢) اوضح صلاح الدين سبب فتح اليمن بكتاب الى الخليفة العباسي الناصر لدين الله جاء فيه : « وكان باليمن ما علم من ابن مهدي الضال ، وله آثار في الاسلام ••• وكان ببدعة دعا الى قبر ابيه وسماه الكعبة ، واخذ أموال الرعايا ••• واحل الفروج المحرمة واباحها ، فانهضنا اليه اخـانا بعسكرز بعد ان تكلفنا له بنفقات واسعة واسلحة رائعة ••• والكلمة هناك بمشيئة الله الى الهند سارية » القلقشندي ، صبح الاعشى ١٣ : ٨٦ وقيل بان اليمن فتحت لان اهلها على دين الباطنية وان ملك اليمن علي بن المهدي كان قد اباح المحرمات وشرب الخمور • انظر : أبو شـامة ، الروضتين ١ : ١٢٦ ؛ الاصفهاني ، خريدة القصر وجريدة العصر ، ق ٣ ، ج ٣ : ٢٧٦ هامش ٢ •

وقيل ان صلاح الدين فتح اليمن ليتخذها له ملجأ اذا ما فتح نورالدين مصر • وهو رأي اورده ابن الاثير • انظـر : الكامل : ٣٩٦/١١ • وقد ناقشنا من قبل الدوافع لمثل هذه الآراء • ومما يدل على ضعف هذا الرأي ان صلاح الدين استأذن نورالدين بفتح اليمن • وقد أذن له نورالدين بعد ان اخذ موافقة بغداد • انظر : البنداري ، سنا البرق الشامي : ١٤٢/١

ولمعرفة المزيد عن تاريخ اليمن في العصر الايوبي وأسباب فتحهـا انظر : اليماني ، تاج الدين عبدالباقي ، تاريخ اليمن ، تحقيق مصطفى حجازي (اليمن ، ١٩٦٥) : ٧٥ ـ ٧٨ ، ٨٢ ـ ٨٥ ؛ محمود ، حسن

للدخول بالمرحلة الثانية التي يمكن ان نطلق عليها بالفترة السورية بعد ان انهى الفترة المصرية تبعا لدوره الرئيس في العمل والدفاع[1] .

سليمان ، تاريخ اليمن السياسي في العصر الاسلامي (بغداد ، ١٩٦٩) : ٢٤٦ ـ ٢٤٧ ، ٢٤٩ ـ ٢٥٠ .

(1) Lanepool, A History of Egypt, P. 194.

الفصل الثاني

سياسة صلاح الدين الايوبي في اعادة الوحدة بين مصر والشام وبلاد الجزيرة

من صلاح الدين الى الخليفة العباسي المستضيء بامر الله :

« الخادم ينهي ان الذي يفتتحه من البلاد ويتسلمه ••• انما يعدّد طريقا الى الاستنفار الى بلاد الكفار ••• ولا نختار الا ان تغدو جيوش المسلمين متحاشدة على عدّوها لا متحاسدة بعتوها ، ••• وانما امور الحرب لا تحتمل في التدبير الا الوحدة ، فاذا صح التدبير لم يحتمل في اللقاء الا العـدّة » •

أبو شامة ، الروضتين : ٢/٤٨

٥٧١هـ/١١٧٥م

أولا : اضطراب الاحوال السياسية بعد وفاة نورالدين والاسباب الموجبة لتقدم صلاحالدين نحو الشام سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م

كان لوفاة نورالدين في ١١ شوال سنة ٥٦٩ (١٥ أيار (مايو) سنة ١١٧٤م) أثر كبير في ابراز شخصية صلاح الدين ، وتحديد العلاقة الحقيقية بينه وبين القوى الاسلامية في منطقة الشام والجزيرة • ففي حياة نورالدين كان صلاحالدين يركز دعائم حكمه في مصر ويقضي على الثورات الداخلية ، ويموت نورالدين يبدأ الاستعداد للدخول في الفترة السورية الثانية التي امتدت من سنة ٥٧٠ هـ حتى سنة ٥٨٢ هـ (١١٧٤ – ١١٨٦م)[1] •

ولم يكن بين رجال البيت الزنكي من يشار اليه بأنه يصلح أن يكون خلفا لنور الدين الذي لم يترك سوى ابن طفل في الحادية عشرة من عمره اسمه اسماعيل ، وابنة صغيرة وزوجة هي عصمة الدين خاتون ابنة معين الدين أنر[2] •

ولم يكن بين الاخوين الزنكيين : سيفالدين غازي ، امير الموصل،

---

(١) قسم لين بول فترات حكم صلاحالدين الى ثلاثة أقسام اطلق عليها الفترة المصرية التي تبدأ من دخوله مصر حتى سنة ١١٧٤/٥٧٠هـ • والفترة السورية وتبدأ من تحركه بالمسير نحو الشام سنة ٥٧٠هـ حتى سنة ١١٨٦/٥٨٢هـ حيث تمت سيطرته على كافة الامراء المسلمين • ثم الفترة الفلسطينية التي اوقفت تماما للحرب ضد الصليبيين وانتهت بعقد الصلح مع ريتشاد قلب الاسد سنة ١١٩٣/٥٨٩هـ •

Ency. Britanica, Vol, 19 (Art. Saladin) P. 194; Lanepool, A History of Egypt, P. 194;

(٢) المنتظم : ٢٤٨/١٠ ـ ٢٤٩ ؛ سنا البرق الشامي : ١٥٢/١ ـ ١٥٤ ؛ السلوك : ٥٥/١ ـ ٥٦ ؛ البداية والنهاية : ٢٢٣/١٢ ـ ٢٢٥ ، وفيات الاعيان : ٢٩/٢ •

وعماد الدين امير سنجار[١] ، وفاق • فقد كان كل واحد منهما لا يرى في طاعة الثاني مصلحة له • اضافة الى ان سيف الدين كان لا يغض الطرف عن اخطاء عماد الدين فكان يحصل الخلاف ويطمع الاعداء[٢] •

لذلك لم يكن من المتوقع ان يحتل احد هذين الاخوين مكانة عمه نورالدين في قيادة المسلمين ، كما لم يكن من المنتظر ان تبقى منطقة الشام والجزيرة – التي كانت تحت حكم نورالدين – محافظة على وحدتها وقوتها في مثل تلك الظروف خاصة وان الامراء الزنكيين ، والضبـاط الكبار في جيش نورالدين دخلوا فورا ، بعد وفاة سيدهم ، في تنافس على وصاية ابنه الصغير الملك الصالح اسماعيل[٣] •

علما بأن الخطر الصليبي غدا ، من غير شك ، ذا تأثير كبير في تطور الحياة السياسية في منطقة الشام • ولم يكن بمقدرة الملك الصالح اسماعيل ، ولا سيف الدين غازي ، ولا السلطان السلجوقي في آسيا الصغرى – وهي انذاك القوى السياسية الاسلامية الثلاث في منطقة الشام والجزيرة – ان تجابه الخطر الصليبي على انفراد[٤] • خاصة وان الامدادات الاوربية لم تنقطع عن قوى الصليبيين في المنطقة • لذلك اصبح واضحا ان يتقدم احد أمراء نورالدين الاقوياء ليملأ الفراغ ويوحد الكلمة ويجمع الصف •

---

(١) سيف الدين غازي وعمادالدين ، هما ابنا قطب الدين مودود بن زنكي • ابني أخي نورالدين محمود بن زنكي • توفي الاول سنة ٥٧٦هـ • وتوفي الثاني سنة ٥٩٤هـ • ولمعرفة المزيد عنهم انظر : ابن الاثير ، الكامل : ٣٥٥/١١ ، ٣٦٢ – ٤٠٦ ، ٤٦٢ و ١٣٢/١٢ •

(٢) الكامل (ط• القاهرة : ١٣٠١هـ) ١١ : ١٦٣ •

(٣) جب ، صلاح الدين : ١٢٢ ؛

Sivan, E., l'Islam et la Croisad (Paris, 1969) P. 193.

(٤) Lanepool, A History of Egypt, P. 199.

وكان صلاح الدين غداة وفاة نورالدين يملك قوة كبيرة من العدد والعدة • فهو أمير لمصر الغنية القوية الواسعة ، وقائد لعدة فرق عسكرية متكونة من الاكراد والاتراك الذين قدموا معه الى مصر ، اضافة الى القوات المصرية التي انضمت اليه بدافع المحبة ، أو كرها بالحكم الفاطمي[1] •

لذلك كله احسّ صلاح الدين بأنه الوارث الحقيقي للدولة الزنكية وان من واجبه اعادة بناء الدولة وتوحيد الكلمة ، ومواصلة السياسة التي بدأها نورالدين محمود زنكي[2] •

وقد بدأ صلاح الدين بحسم الامور ، غير انه اعترضه أمران تسببا في تأخيره بعض الوقت : الاول المشكلات التي آثارها ضده الكنز باسوان ، بمساعدة السودان وبقايا الفاطميين في مصر لاعادة الخلافة الفاطمية[3] •

---

(١) ذهب الى مصر في الحملة النورية الثالثة ثمانية آلاف فارس : من التركمان الفان منهم انتقاهم شيركوه عم صلاح الدين ، وستة آلاف استؤجروا ، اضافة الى العساكر التي كانت تابعة لصلاح الدين وعمه شيركوه • انظر : جب ، صلاح الدين ١٥٤ ــ ١٥٥ •

(٢) العريني ، مصر في عصر الايوبيين ، ص ٤٢ ــ ٤٣ ، انظر :
Ency of Arabic Civilization (The Arab East) P. 460.

(٣) كان الكنز من مقدمي الدولة الفاطمية ، ذهب الى منطقة اسوان بعد سقوط الدولة الفاطمية وأخذ يجمع حوله السودان والناقمين على صلاح الدين من الشيعة • ولما أصبح له عدد لا بأس به من الاتباع ، ثار ضد صلاح الدين وقصد قومص واعمالها وقتل كل من وجده من أهالي السنة منهم أخو الامير حسام الدين أبو الهيجا • فجهز صلاح الدين حملة عسكرية لحربه بقيادة أخيه الملك العادل ، وقد تمكن العادل من قتله في ٧ صفر سنة ٥٧٠هـ وبذلك فشلت حركتهم وتوطد مركز صلاح الدين في مصر • انظر : ابن أيوب ، المنتخبات : ٢٦٩ ، مفرج الكروب : ٢/١٧ ؛ سنا البرق الشامي : ١/١٧٦ ؛ السلوك : ١/٥٧ ــ ٥٨ ؛ البداية والنهاية : ١٢/٢٨٧ ــ ٢٨٨ ؛ كنز الدرر : ٧/٥٨ ؛ النجوم الزاهرة : ٦/٢٤ ؛ تاريخ ابن الوردي : ٢/١١٩ ؛ سعد ، الاسلام والنوبة في العصور الوسطى : ١٣٥ و ١٣٦ •

والثاني : هجوم اسطول صقلية على مدينة الاسكندرية ومحاولته احتلال المدينة بالقوة • غير ان صلاح الدين تصدى للهجوم بحزم ـ كما سيتبين ذلك في الفصل الثالث ـ واضطر ان يمكث في مصر لتثبيت مركزه فيها • وليرقب عن كثب ما يحصل في منطقة الشام من تطورات سياسية وعسكرية • وفي تلك الاثناء حدثت في كل من منطقة الجزيرة ومدينتي دمشق وحلب من الحوادث ما كان فرصة مناسبة دعت الى مسير صلاح الدين الى الشام وحددت موقفه من الملك الصالح بن نورالدين •

فقد بدأ بعد وفاة نورالدين مباشرة صراع بين الامراء على السلطان، وقد وصف العماد الأصفهاني ، كاتب نورالدين ومرافقه ، هذا الصراع وأوضح إضطراب الاحوال السياسية والتناحر بين الامراء بقوله : « كانوا لضعف وثوق بعضهم ببعض يتبعون ما أبرموه أمس في يومهم بنقض • ولهم كل يوم قسم جديد على قسم حدّدوه ، ويمين يمين الحالف بها لا محالة بما شرطوه فيها من المحال واكدوه ، وكم وعقدوا ما حلوه وحلوا ما عقدوه »[1] •

وقد اجمع الامراء بدمشق ، بعد اخذ وعطاء وحجاج وصراع على ولد نورالدين الطفل الملك الصالح اسماعيل الذى لم يكن قد بلغ بعد الثانية عشرة من عمره واجلسوه مكان ابيه بالقلعة في دمشق وحلفوا له باجتماع كل من الامير شمس الدين محمد ابن المقدم والطوائي(*) جمال الدين ريحان ، وهو اكبر الخدم ، والعدل شهاب الدين ابو صالح بن العجمي والشيخ اسماعيل خازن بيت المال بحضور القاضي كمال الدين

---

(١) سنا البرق الشامي : ١/١٥٩ ـ ١٦٠ •

(*) الطواشي كلمة تركية مرادفة لكلمة (المخصي) •

الشهرزور[1] . على ان تكون ايديهم واحدة ، وانهم لا يختلفون ، بعد ان وضعوا قيادة العساكر واتابكية[2] الملك الصالح بيد ابن المقدم[3] .

ثم تقدموا بانشاء كتب التعزية بوفاة نورالدين والتهنئة بتولية الملك الصالح ، لاعلام الامراء ذوي العلاقة لخارج منطقة دمشق باقامة الخطبة باسم الملك الصالح ومن تلك الكتب ما أرسل الى صلاح الدين بمصر بتوقيع الملك الصالح ومما جاء فيه : « اطال الله بقاء مجلس سيدنا الملك الناصر السيد الاجل ... وعظم أجرنا واجره في والدنا السعيد الملك العادل ... [ونظرا لرغبة الملك الصالح بأخذ العهد من صلاح الدين فقد قال له :] واجتمع امراء الحضرة .. على البيعة المؤكدة والايمان

---

(١) هو أبو الفضل محمد بن أبي عبدالله الشهرزوري ، ينتسب الى بيت من بيوت العلم والدين ، وقد عمل لدى سيف الدين غازي الاول منذ نشأته ، ثم انتقل الى خدمة أخيه قطب الدين مودود . وبعدها اشتغل لدى نورالدين ونال لديه حظوظا ، وأصبحت له مكانة كبيرة في بلاطه . وقد ظل مخلصا لولده الملك الصالح بعد وفاته وقد كانت له علاقات حسنة مع صلاح الدين . انظر : وفيات الاعيان : ١/٤٧٢ - ٤٧٣ ؛ البداية والنهاية : ٢٩٦/١٢ ؛ النجوم الزاهرة : ٦/٧٩ - ٨٠ ، شذرات الذهب : ٤/٢٤٣ .

(٢) تعني كلمة « اتابك » في اللغة التركية المنصب الذي يطلق على مربي الامراء والملوك الصغار والكلمة تتألف من لفظين هما : (أتا) بمعنى أب و (بك) بمعنى أمير أو سيد ، وأول من لقب بهذا اللقب هو الوزير نظام الملك من قبل الملك السلجوقي ملكشاه حين فوض اليه امر تدبير المملكة سنة ٤٦٥هـ ولقبه بألقاب منها (اتابك) . انظر : ابن خلكان ، الوفيات : ٦/٣١٦ ، القلقشندي ، صبح الاعشى : ٤/١٨ ، البستاني ، دائرة المعارف (بيروت د : ت) ٢/٤٢٩ ؛
Ency of Islam, vol, 1 (Art. Atabak), PP. 731-732.

(٣) الكامل : ١١/٤٠٥ ؛ مفرج الكروب : ٢/٢ ؛ سنا البرق الشامي : ١/١٥٤ ؛ مرآة الزمان ، القسم الاول : ٨/٣٢٤ .

المغلطة ... [ثم اوضح له هدف الجميع في دمشق] وما هاهنا ما يشغل السر غير شغل الفرنج خذلهم الله »[1] . وجاء في نص الكتاب ايضا ـ كما قال العماد الاصفهاني ـ « فما كان اعتماد مولانا السيد الملك العادل رضى عنه [أى نورالدين] الا عليه [اى على صلاح‌الدين] وسكونه اليه الا لمثل هذا الحادث الكارث ... »[2] .

وربما دل النص السابق على الاختلاف الذى كان بين الامراء . اذ لما سيطر ابن المقدم على وصاية الملك الصالح ، علم ـ هو واتباعه ـ بـأن ذلك الامر لن يرضى صلاح‌الدين ، فارسلوا اليه الكتاب السابق ، موضحين له بأن مهمته انما هي قيادة العساكر ضد الصليبيين ، وان تلك المهمة انما كانت من تكليف سيده نورالدين الذى كان يعده لمثل تلك الملمات . ومما يدل على ذلك ما أشار به القاضي الشهرزوري ـ آنف الذكر ـ الى الامراء المحيطين بالملك الصالح ، موضحا لهم ضرورة الانقياد لصلاح الدين او التعاون معه فقال : « قد علمتم ان صلاح‌الدين صاحب مصر هو من مماليك نورالدين[3] والمصلحة ان يشاور في الذى نفعله ، ولا نخرجه من بينا ، فيخرج عن طاعتنا ويجعل ذلك حجة علينا ، وهو اقوى منا لانفراده بملك مصر »[4] . الا ان مشورة الشهرزورى لم تجد نفعا ، فقد خاف الامراء على مصالحهم ، وظنوا ان صلاح الدين اذا دخل البلاد اخرجهم منها[5] .

---

(١) البنداري ، سنا البرق الشامي : ١/١٥٥ .

(٢) نفس المصدر والمكان السابق ؛ مفرج الكروب : ٢/٢ .

(٣) أشار الى النص الوارد أعلاه ابن واصل أيضا ، غير انه اختلف مع ابن الاثير بقوله : « ان صلاح‌الدين هو من أصحاب نورالدين » بدلا من مماليك نورالدين انظر : مفرج الكروب : ٢/٣ وهذا يدل على اعتقاد ابن الاثير بان صلاح‌الدين ليس الا مملوكا نوريا لا غير !

(٤) الكامل : ١١/٤٠٥ .

(٥) نفس المصدر والمكان السابق .

ولما وصل كتاب الملك الصالح الى صلاح الدين معزيا اياه بوالده نورالدين جلس للعزاء ثلاثة ايام • وفي اليوم الثالث امر فاقيمت الخطبة بالديار المصرية للملك الصالح ، وضربت السكة باسمه • كما ارسل صلاح الدين للملك الصالح كتابا جوابا على كتابه السابق ، بالانشاء الفاضلي، تضمن اسلوب التعزية بوفاة نورالدين والتهنئة لاستلامه مهام الامور بعد والده • كان الكتاب بحوالي ١٥٠ كلمة اظهر فيها صلاح الدين حزنه وتأسفه على نورالدين ، واعلن استمرار وفائه واخلاصه للملك الصالح من بعد أبيه[1] • وارسل له مع الكتاب دنانير مصرية عليها اسمه ليعرفه بأن الخطبة والطاعة له كما كانت لابيه[2] •

ولما سمع سيف الدين غازى بن مودود بن زنكي نائب نورالدين على الموصل بوفاة عمه نورالدين ، تقدم لاحتلال منطقة الجزيرة ، وكان قد خرج من الموصل لمساعدة عمه في غزواته ضد الصليبيين[3] • وكان على مقدمة جيوشه سعدالدين كمشتكين الذى هرب ، من مقدمة العسكر ، حال سماعه بنعي نورالدين ، الى حلب والتقى بالامير شمس الدين بن الداية

(١) البنداري ، سنا البرق الشامي : ١/١٥٦ — ١٥٩ •

(٢) الكامل : ١١/٤٠٥ ؛ الباهر : ١٦٢ — ١٦٣ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب : ٣/٩ •

(٣) وقيل كان قد خرج لمساعدة عمه نورالدين لقصد مصر واستلامها من صلاح الدين • وقد اوضحت فيما سبق مبالغة المصادر في تشويه العلاقة الحقيقية بين نورالدين وصلاح الدين وربما كان هروب كمشتكين الى ابن الدايه — صديق صلاح الدين — دليلا على ان عسكر الموصل لم يكن يقصد بخروجه الذهاب لاستلام مصر من صلاح الدين • ولو كان كذلك لهرب كمشتكين منذ البداية ، الا انه بقي مع العسكر حتى علم بوفاة نورالدين وسوء نية سيف الدين الذي برهن عليها باحتلاله لبلاد الجزيرة •

صديق صلاح الدين[1] .

وسار سيف الدين غازى بعد ذلك الحادث الى نصيبين وملكها ، وأرسل الشحن الى الخابور فملكه واقطعه ، ثم سار الى حران فحصرها عدة ايام الى ان ملكها بعد ان استسلم له حاكمها قايماز الحرّاني مملوك نورالدين . كما حاصر الرها وملكها ايضا وكان بها خادم خصي لنورالدين. ثم بعث سيف الدين غازى الى الرقة من تسلمها وكذلك الى سروج والى جميع بلاد الجزيرة ، ما عدا قلعة جعبر التي كانت شديدة الحصانة ، ورأس العين التي كانت لقطب الدين صاحب ماردين ابن خاله ، فلم يتعرض لهما[2] .

ولم يكتف سيف الدين غازى بما احتله من البلاد ، بل أمر باعادة المكوس[3] والسماح بشرب الخمور وازالة المحظور . وذكر العماد الاصفهاني بأن سيف الدين ما ان وصله نبأ وفاة عمه نورالدين حتى نودى « في الموصل يوم ورود الخبر بالفسحة في الشرب جهارا ، وزال العرف

---

(1) مرآة الزمان ، ق ١ : ٨/٣٢٥ ؛ مفرج الكروب : ٢/٥٠٤ ؛ البنداري : ١/١٦١ – ١٦٢ .

(2) الكامل : ١١/٤٠٧ ؛ البنداري : ١/١٦٧ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب : ٢/٥٠٤ ابن العديم : ٣/١١ – ١٢ ؛ ابن العبري ، التاريخ المختصر : ٢١٦ ؛ مرآة الزمان ، ق ١ : ٨/٣٢٥ .

(3) المكوس : واحدها مكس وهي كل ما يستحصل من الاموال لصالح دوان السلطان أو لاصحاب الاقطاعات من غير الضرائب الشرعية . انظر القلقشندي ، صبح الاعشى ٣/٤٦٨ – ٤٧٠ ، سنا البرق الشامي : ١/١٦٢ هامش رقم (١) . واعتقد بان المكوس هو كل رسم يؤخذ على المنتوج الوطني لصالح الدولة . انظر : القلشندي ، صبح الاعشى ٣ : ٤٦٨ – ٤٧٠ ؛ سنا البرق الشامي ١ : ١٦٢ .

وعـاد المنكر وانشد قول ابن هاني (أبو نواس)[1] « فلا تسقني سرا فقد امكن الجهر »[2] .

وصحيح ان سيف‌الدين غازي وصف في المصادر التاريخية بعـدم استقامته[3] الا انني ارى ان ازالة العرف والمناداة جهارا بشرب الخمـور امور مبالغ فيها اريد الصاقها به لتبرير تقدم صلاح‌الدين نحو الموصل .

ولما ورد الخبر الى صلاح‌الدين بملـك سيف‌الدين غـازي بـلاد الجزيرة ارسل الى الملك الصالح يعاتبه حيث لم يعلمه قصد سيف‌الديـن بلاده واخذها ليحضر في خدمته سيف‌الدين عـن مقصـده . وكتب الى الامير كمال الدين والامراء يقول : « لو ان نورالدين يعلم ان فيكم مـن يقوم مقامي ، او يثق به مثل ثقته بي لسلم اليه مصر التي هي اعظم ممالكه وولاياته ، ولو لم يعجل عليه الموت لم يعهد الى احد بتربية ولده والقيام بخدمته غيري ، واراكم قد تفردتم بمولاي وابن مولاي دوني ، وسـوف اصل الى خدمته واجازي انعام والده بخدمة يظهر أثرها ، واجازي كـلا منكم على سوء صنيعه في ترك الذب عن بلاده »[4] .

---

(١) لمعرفة المزيد عن الشاعر ابن هانيء المتوفى سنة ١٩٦هـ انظر : وفيات الاعيان : ١ : ٣٧٣ ـ ٣٧٦ .

(٢) سنا البرق الشامي ١ : ١٦١ ـ ١٦٢ ، عاشور ، الحـركة الصليبية ٢ : ٧٣٨ ، وقيل بأن سيف‌الدين امر مناديه بدعوة الناس الى اللعب واللهو وشرب الخمور وكان المنادي يسير في الشوارع وبيد باطيه خمر وقدح وهو يشرب وتحقق قوال الشاعر :
الا فاسقني خمرا وقل لي هي الخمر ولا تسقني سرا فقد امكن الجهر
ابن كثير : ٢٨٥/١٢ ؛ سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ق ١ : ٣٢٥/٨ .

(٣) انظر مثلا : سـنا البرق الشامي ١ : ١٦١ ـ ١٦٢ ؛ مرآة الزمان ، نفس المصدر والمكان السابق ؛ البداية والنهاية : ٢٨٥/٢ ؛ الحركة الصليبية : ٧٣٨/٢ .

(٤) الكامل : ٤٠٥/١١ ـ ٤٠٦ .

وكان الصليبيون قد انتهزوا ـ في تلك الفترة ـ فرصة وفاة نورالدين واضطراب الاحوال السياسية في منطقة الشام ، فهجموا على بانياس وحاصروها في آخر شوال سنة ٥٦٩هـ/مايو ١١٧٤م فخرج اليهم ابن المقدم وهادنهم على ان يؤدى اليهم مبلغا ضخما وان يطلق سراح اسراهم[١] . ويرى رانسيمان بأن ابن المقدم هو الذى راسل الصليبيين واستنجد بهم بهم لدفع خطر صلاح الدين عنه وطلب مساعدتهم فأجابوه[٢] . ويؤكد ذلك المؤرخ الصليبي وليم الصورى الذى اوضح بأن الصليبيين اتفقوا مع ابن المقدم على « ان يعقد الطرفان في المستقبل محالفة لمناهضة صلاح الدين »[٣] .

وقد استنكر صلاح الدين المعاهدة التي أبرمها ابن المقدم مع الصليبيين، وكتب في الحال الى القاضي شرف الدين ابن ابي عصرون يقول :« لما بلغني وفاة المرحوم خرجت من مصر لقصد الجهاد وتطهير البلاد من اهل الكفر والعناد فبلغني حديث الهدنة المؤذنة بذل الاسلام وشين شريعة المصطفى (ص) . وسيدنا الشيخ اولى من جرد لسانه في انكار هذا الامر فان بلسانه تغمد السيوف وتتجرد الحقوق »[٤] . وهكذا يمكن ان نتبين بأن صلاح الدين ـ في كتابه السابق ـ يدين الامراء النوريين بدمشق بدمشق لمبادرتهم بعقد الهدنة مع الصليبيين ، لانه قد خرج منذ ان علم

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب : ٣/١٢ ، انظر :
Stevenson, The Crusaders, P. 213.

(٢) Runciman, A History of the Crusads, 11, PP. 398-399.

(٣) Runicman, op. cit., P. 399.

(٤) مرآة الزمان ، ق ١ : ٨/٣٢٤ ؛ الروضتين : ١/٢٣٣ .

بوفاة نورالدين للجهاد ، الذى يعنى مساندة الامراء النوريين ضد العدو الخارجي ، والقضاء على اولئك الامراء الذين خانوا الامانة واذلوا الاسلام بتهادنهم مع الاعداء • والظاهر ان الامراء بدمشق لم يطمئنوا لمساعدة صلاح الدين لهم ، لذلك لم ينقضوا المعاهدة التي عقدوها مع الصليبيين فعمد صلاح الدين الى تحريك الرأي العام ضد اولئك الامراء واستخدم علماء الدين لذلك الغرض فارسل الى الشيخ ابن ابي عصرون يطلب منه القيام بتنبيه المسلمين لاستنكار عمل الامراء النوريين • وربما قصد صلاح الدين بتلك الحملة الاعلامية تبريرا لتوجهه صوب الشام • ولما كان لرجال الدين اثر كبير في اثارة الناس ، لذلك اعتمد صلاح الدين على احد الشيوخ المؤثرين دفعا للحرب التى لم يكن ينوى القيام بها ضد النوريين كما اوضح قوله السابق « فان بلسانه تغمد السيوف » •

وفي حلب تمكن حاكم قلعتها شادبخت ، وشمس الدين ابن المقدم بالتعاون مع الامراء الذين نقلوا الملك الصالح من دمشق الى حلب ، بتدبير مؤامرة سيطروا فيها على وصاية الملك الصالح ، والقوا القبض على شمس الدين ابن الداية واخيه مجد الدين ــ اصدقاء صلاح الدين ــ واودعوهما السجن[1] •

وقد ذكر العماد الاصفهاني ، في البرق الشامي ، ان اخوة مجد الدين كانوا من اعيان الدولة ، وانه لما توفي نورالدين ، لم يشكوا في انهم

---

(١) ذكر العماد الاصفهاني ان مجد الدين أبا بكر كان صديقا لصلاح الدين ورضيعا لنورالدين وقد تربى معه ، وانه كان يسكن حلب مع أخيه ابن الداية • اما القلاع والحصون التي كانت تابعة لحلب فقد كانت شيزر بيد شمس الدين علي ، وجعبر وتل باشر بيد الاخ الثالث سابق الدين عثمان • اما بقية الحصون كعين تاب وعزاز ••• فبيد نواب ابن الداية ، انظر : البنداري ، سنا البرق الشامي ١٦٢/١ ، ابن العديم ، زبدة الحلب : ٩/٣ •

سيكلفون ولده الملك الصالح اسماعيل[1] . ولما علم علي بن الداية ماجرى بدمشق من اتفاق ذوي الاطماع أرسل أخاه (سابق الدين عثمان) رسولا ونائبا الى دمشق لاستدعاء الملك الصالح الى حلب ، وكان هذا الاخير رجلا بعيدا عن الدهاء « يحمل كل قول على الصدق ، ولا يتصور في ذهنه أمرا سوى الحق ، وهو كما يقال (ساذج سليم القلب) ... »[2] . ولما وصل الى دمشق تلقوه بالترحاب وبيتوا له ولاخوته أمرا ، واجابوه الى طلبه[3] .

وقد اكتشف العماد الاصفهاني مؤامرة الامراء بدمشق للسيطرة على حلب وتدبير امور الملك الصالح ، وابعاد بني ابن الداية عن وصاية الملك الصالح بعد القبض عليهم . فخرج مع سابق الدين عثمان - رسول حلب - الى خارج دمشق بحجة انه يريد توديعه ، وهو ينوى اخباره بالمؤامرة الا ان الرسول لم يلتفت الى كلام الاصفهاني فوصفه بقوله : « وخلوت به وقلت : (احترزوا من الكيد قبل ان تقعوا في القيد كالصيد) وصرحت له بالامر وخوفته من الغدر ... وحسبته لا تخفى عليه الاشارة فاذا هو هو اعجمي لا توقظه العبارة »[4] .

---

(١) سنا البرق الشامي : ١/١٦٣ ؛ زبدة الحلب : ٣/١١ ؛ مفرج الكروب : ٢/٦ .

(٢) سنا البرق الشامي : ١/١٦٣ .

(٣) يرى ابن واصل بان امراء دمشق امتنعوا عن ارسال الملك الصالح الى حلب . خوفا من ان يغلبهم ابن الداية لانه كان من أكبر الامراء النورية ، وبيده حلب وعساكرها . (مفرج الكروب ٢ : ٦) بينما يرى ابن الشحنة بان ابن الداية استدعى الملك الصالح من دمشق الى حلب مع سعدالدين كمشتكين فأجابه الامراء الى طلبه . ولما استقر كمشتكين بحلب قبض على ابن الداية واخوته وسجنهم . (روض المناظر : ٢٣٦) .

(٤) انظر : سنا البرق الشامي : ١/١٦٣ .

فقد مال سابق الدين عثمان الى العدل ابي صالح بن العجمي - رسول دمشق وانخدع بكلامه لانه تظاهر له بالميل شمس الدين بن الداية والمثول في خدمته • واستقر الامر بين الطرفين على ان يحمل الملك الصالح الى قلعة حلب • ويكون شمس الدين بن الداية أتابكه لان حلب ام البلاد[1] • وكان الامراء طوال الطريق بين دمشق وحلب يستعطفون سابق الدين عثمان حتى وصلوا قريبا من تل السلطان[2] وكان ابن الداية راقدا بالقلعة لا علم له بقدومهم ، فخرج اخوه بدرالدين الحسن ليتلقاهم فبغتوه وقبضوا عليه ، واتهموا سابق الدين بنقض العقد وقبضوا عليه ايضا واستصحبوهما مسجونين حتى دخلوا قلعة حلب ، وكان واليها شاذبخت[3] متفقا مع امراء دمشق في الباطن ومطلعا على سر المؤامرة ، فدخلوا جميعا على شمس الدين ابن الداية وقبضوا عليه ، بعد ان ضربوه بالايدي والارجل[4] • وبذلك اعتقل الاخوة الثلاثة واودعوا السجن ، مما اثار غضب صلاح الدين • وقد وصف العماد الاصفهاني - في البرق الشامي - تأثير ذلك الاعتقال فقال : « وشعثوا » القلوب بما جنوه ، فعادت غير معمورة ••• وتطاير من

---

(١) كان من جملة ما اتفق عليه ان يصحب الملك الصالح الى حلب سعدالدين كمشتكين والعدل أبو صالح ابن العجمي وولي الدين اسماعيل الخازن برفقة سابق الدين عثمان ، الذي بيت له الامراء خفية المكروه • انظر ابن العديم ، الزبدة : ٣/١٤ •

(٢) منزل يقع جنوب حلب على طريق حماة • انظر معجم البلدان ٢ : ٤٢ ؛ النجوم الزاهرة ٦/٢٦ •

(٣) جمال الدين شاذبخت ، الخادم الهندي عتيق نورالدين ، كان متولي قلعة حلب بأمر من نورالدين • ولما بلغه وفاة سيده اعلن حالة الطوارىء بحلب وامر بضرب الابواق والصنوج واخذ البيعة للملك الصالح وهو الذي بنى المدرسة الشاذبختية الحنيفية • انظر : ابن العديم ، الزبدة : ٣/٩ ، سنا البرق الشامي (تحقيق رمضان ششن) ١/١٦٥ هامش (٣) •

(٤) انظر : البنداري ، المصدر السابق : ١/١٦٥ - ١٦٦ ، ابن العديم ، المصدر السابق : ٣/١٤ - ١٥ •

حلب الى مصر من نارهم الشرر »[1] .

وربما كان سبب المؤامرة سياسيا بحتا لاختلاف وجهة النظر في كيفية قيادة النوريين عن طريق كفالة الملك الصالح . فقد اراد ابن المقدم العمل السياسي ضمن دائرة الشام ، وتحت امرة الاتراك من الاتابكة الزنكيين . بينما اراد ابن الداية العمل تحت امرة صلاح الدين بعد ضم مصر الى الشام والتعاون بين الاكراد ـ الذى ينتمي اليهم صلاح الدين ـ وبين الاتراك الذين ينتمي اليهم الامراء النوريون . والدليل على تقارب وجهة النظر بين صلاح الدين وابن الداية ما ذكره العماد الاصفهاني من ان صلاح الدين غضب لما علم بحادثة القبض على ابن الداية الذى توقع بان « ولد نورالدين يتولاه بعده اخوة مجدالدين وهم اصدقاؤه وخلصاؤه »[2] . ولما لم يتم ذلك قال : « انا احق برعي العهود والسعي المحمود فانه ان استمرت ولاية هؤلاء تفرقت الكلمة المجتمعة... وانفردت مصر عن الشام وطمع اهل الكفر في بلاد الاسلام »[3] .

وهذا يدلنا على رغبة صلاح الدين بالحفاظ على وحدة مصر والشام. فقد رضي بولاية ابن الداية واخوته ، اذ ببقائهم تستمر الوحدة لانهم اصدقاؤه وخلصاؤه وبابعادهم عن الولاية تنقطع الوحدة ولذلك قرر المسير الى الشام لاعادة الحكم اليهم فكان من جملة الاسباب الموجبة لتقدمه نحو الشام .

اما نتائج المؤامرة التي حيكت في حلب فكانت بالاضافة الى سيطرة المعادين لصلاح الدين على الملك الصالح وقيادة شؤون النوريين بما يوافق

---

(١) البنداري ، المصدر السابق : ١٦٥/١ ـ ١٦٦ .
(٢) البنداري ، المصدر السابق : ١٦٨/١ .
(٣) أبو شامة ، الروضتين : ٢٣٤/١ .

اهواءهم والقبض على بني ابن الداية ، فان المؤامرة ، حددت مستقبل العلاقة بين صلاح الدين والملك الصالح اسماعيل بن نورالدين ، كما احدثت هذه المؤامرة انشقاقا كبيرا بين السنة والشيعة بحلب . فقد كان اهل السنة موالين لبني ابن الداية ضد ابن الخشاب الذى تولى قيادة الشيعة . وكان سبب الانشقاق سياسيا واقتصاديا غايته السيطرة على حلب وقد استغله امراء دمشق ليستقيم امرهم بحلب[1] ، و « طلب الفقراء دور الاغنياء فنهبت دار ابي جعفر بن المنذر بالعقبة »[2] ، وانتهت الفتنة باختفاء ابن الخشاب بعد ان ملكت داره . ثم قبض عليه بعد ايام وقتل[3] .

وقد استنكر صلاح الدين الاعمال التي قام بها ابن المقدم وزملاؤه من الامراء بحلب ، والمشكلات التي اثاروها ، وبعث اليهم منذرا ومخبرا اياهم بقدومه نحو الشام بحجة كفالة الملك الصالح اسماعيل وحفظ البلاد من خطر الصليبيين[4] . الا انهم كتبوا اليه يسيئون الادب عليه[5] ، وراسلوا أتابك الموصل سيف الدين غازى وطلبوا منه الحضور الى دمشق ليملكوه عليهم ، قبل ان يملكها صلاح الدين[6] الا انه لم يفعل وظنها مكيدة منهم له ، وآثر توطيد مكاسبه في منطقة الجزيرة[7] . وربما خاف من المسير الى دمشق ، لان سعدالدين كمشتكين كان قد هرب من عسكره اليها اثر سماعه بوفاة نورالدين الذى كان قد وضعه عينا على سيف الدين

---

(١) انظر : ابن العديم ، الزبدة : ٣/١٥ ـ ١٦ .
(٢) نفس المصدر السابق : ٣/١٦ .
(٣) الروضتين : ١/٢٣٣ .
(٤) Ency. Britanica, vol, 19 (Art. Saladin) P. 864.
(٥) ابن كثير ، البداية والنهاية : ١٢/٢٨٦ .
(٦) ابن شداد ، النوادر السلطانية : ٥٠ .
(٧) Runciman, op. cit., vol, 11, P.P. 403-404

غازي وحافظا له من تعاطي ما لا يليق من الفواحش والمنكرات ، فظن ان كمشتكين قد دبرّ له مكيدة[1] .

وقد انتقد ابن الاثير سيف‌الدين غازي لعدم تقدمه نحو دمشق واحتلالها واعتبر تهاونه السابق سببا من اسباب ملك صلاح‌الدين دمشق واتهمه بالجبن ، ووصفه ببيت من الشعر جاء فيه :

يرى الجبناء ان الجبن حزم   وتلك طبيعة الرجل الجبان[2]

كما علق ابن خلدون على الحادث واضاف بأن سيف‌الدين غازى لم يكتف بعدم سيره الى دمشق بل أرسل زيادة على ذلك الى ابن المقدم يفاوضه على اقرار ما بيده وانتهت المفاوضة بالموافقة وحصل كل طرف على ما بيده[3] .

الا ان اهالي دمشق الحوا على ابن المقدم وطلبوا منه دعوة صلاح‌الدين لنجدتهم والسير اليهم خوفا من سعدالدين كمشتكين الذى استولى على حلب ، فخافوا ان يسير الى دمشق ويستولى عليها[4] . كما ان تهديدات الصليبيين كانت من جملة الاسباب الموجبة لذلك الالحاح[5] . وهذا يدلنا على ان صلاح‌الدين اصبح في هذه الفترة ، معقد آمال المسلمين ، ومحط انظارهم في منطقة الشام والمنقذ من الاخطار المهددة في الداخل والخارج .

وعلى كل حال فان صلاح‌الدين لبى النداء وتقدم نحو سوريا ، وكان وراء تقدمه اسباب كثيرة . ورغم اتخاذ صلاح‌الدين من الوصاية على الملك

---

(١) ابن كثير ، المصدر السابق : ١٢/٢٨٥ .
(٢) الكامل : ١١/٤١٦ .
(٣) تاريخ ابن خلدون : ٥/٢٧٩ .
(٤) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة : ٦/٢٤ ـ ٢٥ .
(٥) Champdor, Saladin, P. 77.

الصالح ، وهجوم الصليبيين على بانياس ، واضطراب الأحوال بدمشق ، وسيلة لتحقيق اهدافه في وحدة مصر والشام . فان الوثائق التاريخية أشارت الى وجود دوافع اخرى كانت وراء مسيرة نحو الشام . وقبل البت فيها نتساءل : هل كان صلاح الدين يحب السيطرة والغزو ، وبالتالي سفك الدماء من اجل مصالحه الشخصية ؟ وهل كان يهمه امر اعادة وحدة مصر والشام وبالتالي اخراج الغزاة منها ؟ ام ان تلك الاسباب كانت تخفي وراءها مطامح اخرى ؟

يقول هارولد لامب : ان صلاح الدين لم يمتط صهوة جواده ليحارب المسلمين الا انه كان لا يتوانى عن محاربتهم اذا ما خابت الوسائل السلمية. حتى انه كان قد أوصى أحد ابنائه ـ في احدى رسائله ـ بالابتعاد عن سفك الدماء التي لا ضرورة لسفكها ، لان سفك الدماء لا يولد الا الحرب[1] .

وقد اوضح صلاح الدين سياسته تجاه النوريين بالكتاب الفاضلي الذي ارسله الى خليفة بغداد سنة ٥٨١ هـ والذي جاء في بعضه : « وما كنا بشهادة الله في قتال المذكورين [المواصلة خاصة والنوريين عامة] الا كقاطع كفه ليسلم سائر جسمه وكراكب حد السنان مضطرا في حكمه »[2] .

ومن الامعان في تاريخ هذه الفترة يتبين بوضوح ، بأن فكرة الغزو والسيطرة على المدن الاسلامية لم تكن من اهداف صلاح الدين . انما كان الهدف تحقيق وحدة تشمل بلاد الجزيرة والشام ومصر من النيل الى الفرات وتعزيز امكانيات تلك الوحدة اقتصاديا وعسكريا ليتسنى له تحقيق الهدف الاكبر « تحرير القدس » . وكانت المصالح الخاصة للامراء المحليين من اسباب المنافسات المستمرة فيما بينهم . وكانت تلك المنافسات

(١) شعلة الاسلام : ٦٨ .
(٢) الروضتين : ٢/٦٢ .

تمنع تشكيل حلف متماسك ضد الصليبيين ، اضافة الى ان اولئك الأمـراء ـ من جهة ثانية ـ يشكلون خطرا مباشرا على صلاح الدين في حالة تقدمه لقتال اولئك الغزاة، لان خطوط رجعته ستكون مهددة انذاك ، فضلا عن امكان تعاونهم جميعا في حربه • كما وجد صلاح الدين ـ بعبقريته العسكرية ـ ان وحدة الجيوش تحت امرة قائد واحد هي الشرط الاساسي لكل انتصار على الصليبيين • ومما يدل على صحة ما جاء فيما سبق:

اولا :ـ نص الكتاب الذى ارسله صلاح الدين الى الديوان العزيز ببغداد والذى شرح فيه الاسباب التي دعته للمسير نحو حلب سنة ٥٧١ هـ فقـال : « الخادم [اي صلاح الدين] ينهي ان الذي يفتتحه من البـلاد ويتسلمه ••• انما يعده طريقا الى الاستنفار الى بلاد الكفار ••• ولانختار الى ان تغدو جيوش المسلمين متحاشدة على عدوها لا متحاسدة بعتوهـا ، ولولا ان امور الحرب تصلحها الشركة لما عزّ عليه ان يكون كثير المشاركين ولا أساءة ان تكون الدنيا كثيرة المالكين • وانما امور الحرب لا تحتمـل في التدبير الا الوحدة ، فاذا صح التدبير لم يحتمـل فـي اللقـاء الا العـدة »[1] •

ثانيا :ـ كان صلاح الدين اذا افتتح حصنا ، او مدينة نورية لايشترط على اهلها في شيء سوى ان يكون العسكر تابعا له في اوقات الازمات ، بينما يترك المدينة لاهلها مع كل اموالها ومتاعها • ومن امثلة ذلك مدينة حلب التي فتحها سنة ٥٧٩هـ • ولم يشترط على اتابكها عمادالدين زنكي سـوى « ارسال العساكر في الخدمة للغزاة ••• والمظاهرة والحضور في مواقف الغـزو »[2] •

ثالثـا :ـ كان صلاح الدين اذا دخل حصنا او مدينة للمسلمين مـن

(١) أبو شامة ، الروضتين : ٤٨/٢ •
(٢) أبو شامة ، الروضتين : ٤٣/٢ •

الحصون والمدن التابعة لأحد الأمراء المسلمين المعادين له يعلن العفو العام عن أهل ذلك المكان[1] • ولو كان محبا لسفك الدماء لقضى على خصومه وامر بقتلهم •

رابعا :ـ لو كان صلاح الدين ينوى حرب النوريين والقضاء عليهم وبالتالي السيطرة على الشام لمصلحته الشخصية ، لما تقدم نحو الشام بحوالي سبعمائة جندى[2] ، ولم يجلب معه عساكر مصر ؟ ثم لماذا استقبله اهالي دمشق بالترحاب وساعدوه بما يملكون من قوة للتوجه نحو حلب واجبارها على الوخول في الوحدة ؟ لقد كان رحيل صلاح الدين الى الشام اشبه برحلة زيارة ، لأنه لم يعدّ عدة الحرب ، ولم يظهر بمظهر الفاتح ، وانما ذهب اجابة لدعوة وجهت اليه ـ اضافة للاسباب التي نذكرها ـ ووجد في البلاد التي دعته استعدادا للدخول تحت لوائه وسرورا بالاتحاد معه[3] •

---

(١) ومن أمثلة المدن التي اعلن صلاح الدين عفوه عن اهلها مدينة دمشق سنة ٥٧٠هـ ولقد ساعدت تلك السياسة صلاح الدين في كسب مودة الناس ، اذ دفعت بكثير من أهالي الحصون الى الاستسلام اليه لعلمها مسبقا بسياسته المنوه عنها • من أمثلة ذلك اذعان صاحب حصن كيفا له وهو نورالدين بن قرا ارسلان وصاحب حصن عكا سنة ٥٧٨هـ • انظر : مفرج الكروب : ٢/٢٥ـ٢٨ ، الروضتين ٢/٣٢ •

(٢) البنداري ، سنا البرق : ١/١٦٦ ـ ١٦٧ ؛ المقريزي ، السلوك : ١/٥٨ ؛ ابن الشحنة ، روض المناظر : ٢٣٦ ؛ Runciman, op. cit., 11, P. 404.

(٣) انظر مثلا عن رغبة مدينة دمشق بالانضمام الى صلاح الدين والقصائد التي نظمت لاجل ذلك :

ـــ الاصفهاني ، خريدة القصر ، القسم الاول : ١/٣٢٩ ـ ٣٣٠ •

وعن استبشار اعيان سنجار بقدوم صلاح الدين اليهم وخروجهم للقائه انظر :

ـــ ابن شاهنشاه ، مضمار الحقائق : ١١١ •

ولقد علم صلاح الدين بأن كثيرا من العداة سيظنون بـه الظنـون ، ولذلك اوضح لهم سياسته بكتاب ـ ذكره العماد الاصفهانـي في البـرق الشامي ـ بالانشاء الفاضلي جاء فيه : « ان الوفاء انما يكون بعد الوفـاء ، والمحبة انما تظهر آثارها عند تكاثر العداة • وبالجملة انا في واد والظانون ظن السوء في واد ، ولنا من الصلاح مراد لن يبعدنا عنه مراد ، ولا يقال لمن طلب الصلاح (انك قادح) ، ولا لمن القى السلاح (انك خارج) • وما مرادنا الا مصلحة تؤثر لا فتنة تثار ••• فلو زرنا على غير هذا السبيل لما سلكنا مراجعة الخطاب ومطالعة الكتاب ، فلا يحمل امرنا الا على احسنه، ولا يظن بنا الا الخير الذى طبعنا اخص بوجوده من معدنه »[1] •

وقد ذكر القلقشندي بأن صلاح الدين بعث بكتاب الى الديوان العزيز (الخلافة العباسية) ببغداد شرح فيه اسباب تقدمه نحو الشام ، بحـوالي عشر صفحات يمكن من خلاله ان نتلمس اسبابا جديدة يمكن اضافتها الى ما سبق وهي : انه زحف الى الشام لكثرة المكاتبات التي وصلت اليه للمسير اليهم لانقاذ الموقف ومحاربة الصليبيين والسيطرة على الاسباب التي تخـدم الهدف الكبير وهو فتح القدس فقال : « فكثرت مكاتبـات اهـل الاراء الصائبة ، ونظر للاسلام ولبلاد الاسلام في العاقبة ، وعرفنا ان البيت المقدس ان لم تتيسر الاسباب لفتحه وامر الكفر ان لم يجرد العـزم في قلعـه والا ثبتت عروقه وكانت ••• همم القادرين بالقعود آثمة ، وانا لا نتمكن بمصر منه مع بعد المسافة ، وانقطاع العمارة وكلال الدواب ، واذا جاورناه كانت المصلحة بادية ، والمنفعة جامعة، واليد قادرة ،والبلاد قريبة، والغزوة ممكنة ، والميرة متسعة والخيل مستريحة ، والعساكر كثيرة •••»[2] •

---

(١) الروضتين : ١/٢٣٤ ؛ سنا البرق الشامي : ١/١٦٩ •
(٢) صبح الاعشى : ١٣/٨٥ •

كما اوضح صلاح الدين للديوان العزيز ببغداد ، ان من اسباب زحفه نحو الشام القصاء على بعض العقائد المعتلة[1] ، والظاهر ان صلاح الدين قصد بها طائفة الاسماعيلية . كما اوضح ايضا سوء نية ابن المقدم وسعدالدين كمشتكين اللذين تمسكا بكفالة الملك الصالح ، واعلن بأنهم « يأكلون الدنيا باسمه ويظهرون الوفاء بخدمته وهم عاملون بظلمه ... والمراد الان هو كل ما يقوى الدولة ويؤكد الدعوة ، ويجمع الامة ، ويفتح بقية البلاد »[2] . وبذلك اعلن صلاح الدين بأن هدفه الاول فتح بقية البلاد ، بما فيها القدس ، وانه لابد لذلك الفتح من دولة قوية ، وامة موحدة وشعب متآلف ، واعتبر نفسه المسؤول عن تحقيق تلك الاهداف .

وهكذا اذن كانت وفاة نورالدين بداية لتبوء صلاح الدين مركز الصدارة في قيادة المسلمين ، ووراثة المكانة التي كان عليها نورالدين . وكان هدف زحفه الى الشام توحيد مصر والشام والجزيرة في دولة قوية، واتخاذ منطقة الشام مركزا عسكريا قريبا من تحصينات الصليبيين في المنطقة . الا ان الامراء المحليين لم يحسنوا التصرف ، ولجأوا الى المكابرة والعناد ، وزجوا بولد نورالدين في قتال صلاح الدين فاضطر الى مقاومتهم[3] ، وبالتالي السيطرة على ممتلكاتهم ، او اجبارهم على الانقياد لسلطانه .

ثانيا ــ مسير صلاح الدين من مصر الى الشام وتملكه كلا من دمشق وحمص وحماة سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م .

اخذ صلاح الدين يتجهز للسفر الى الشام في اوائل سنة ٥٧٠هـ/ النصف الثاني من سنة ١١٧٤ م) بعد ان مكث في مصر ــ بعد وفاة

---

(١) نفس المصدر : ١٣/٨٩ .

(٢) نفس المصدر : ١٣/٨٩ ــ ٩٠ .

(٣) القزاز ، الحياة السياسية في العراق : ٢٥٤ .

نورالدين ــ حوالي خمسة اشهر ينظر عن كثب الى الاضطرابات التـــي كانت تحدث في الشام اثر وفاة نورالدين ، انتظارا لفرصة سانحة • فقـد انكر على سيف الدين غازى ، حاكم الموصل احتلاله بلاد الجزيرة • كما بعث الى الامراء بحلب يلومهم على اعتقال اصدقائه بني ابن الداية ، ثـم راسل الملك الصالح واظهر استعداده لتولى الوصاية عليه(١) •

ولم يكن ثمة امل في العثور على خلف يمكـن ان يحتـل مكانـــة نورالدين ، ويتمكن من الحفاظ على وحدة مصر والشام والجزيرة ــ كما سبق القول ــ • لدلك فان اية محاولة جادة وصادقة لاعادة البنيان السياسي الذى كان قائما ايام نورالدين ، لابد لها ان تتصدى بحزم للامارات الزنكية القائمة في منطقة الشام والجزيرة • وكان من الطبيعي على من سيقود تلك المحاولة ان يلاقي معارضة شديدة من اولئك الذين اعتقدوا بأنهم اوصياء شرعيون على الملك الصالح بن نورالدين، وهذا هو الذي وجدناه من مقاومة ابن المقدم وسعدالدين كمشتكين لصلاح الدين، ومحاولتهما تشويه مقاصده(٢) •

كان هدف صلاح الدين اقامة دولة قوية موحدة لمقاومة الخطر الصليبي(٣) •

---

(١) انظر : الروضتين : ١/٢٣٤ ؛ صبح الاعشى : ١٣/٩٠ •

(٢) انظر : ابن كثير ، البداية والنهاية : ١٢/٢٨٦ •

(٣) أورد أبو شامة نصا أشار فيه الى سياسة صلاح الدين ومبتغاه من السيطرة على الشام وذكر بأنه عزم على فتح القدس ، واعادة توحيـد الاتابكيات الزنكية ، التي ان لم تسانده في حربه ضد الصليبيين ، فانها ــ من غير شك ــ ستكون مستعدة للتواطوء مع عدوه ضده فقال : « ان يكونوا بنيانا فيعضدوه اذا سعى ويلبوه اذا دعا ، ولا يقعدوا عن المعاضدة في فتح البيت المقدس ••• فان قعدت بهم العزائم واخذتهم في الله لومة لائم فلا اقل من ان يكونوا اعوانا عليه يلقنونه عن قصده حريصين على اتصال المكروه اليه •» الروضتين : ١/٢٥٤ • والاطـلاع على نصوص اخرى اصدرهـا صلاح الدين موضحا فيها نفس الاهداف انظر : البندارى ، سنا البرق : ١/١٦٩ ؛ الـروضتين : ١/٢٣٣ـ٢٣٤ ؛ القلقشنـدي ، صبح الاعشى : ١٣/٨٨ـ٩٠ •

ولذلك كان عليه ان يعمل على ضم كل الاتابكيات الزنكية الى حكمه ، وكان من الطبيعي ان يقع الصراع بين الطرفين ، لانه ليس من المعقول ان ينضم كل الامراء الى صلاح الدين بالطريقة التي يراها صلاح الدين نفسه ! .

فصلاح الدين كان كرديا ، واغلب الامراء النوريين كانوا من الاتراك ، كما ان صلاح الدين كان اميرا لمصر ، وقد اتهم بمحاولة للقيام بانقلاب والانفصال بمصر عن السلطة المركزية النورية - كما سبق القول - وان وصاية الملك الصالح ومقارعة الصليبيين معناه انشاء سلطة عسكرية مركزية ببلاد الشام . فهل كان بالامكان ان يتقبل الامراء النوريين في الشام والجزيرة ، سلطة رجل يطمع في ملكهم ، وكان يحكم بلادا هي بعيدة عن بلادهم ! ؟ علما بأن السلطان والنفوذ هو هدف كل صغير وكبير من الامراء في تلك الفترة . لان الملك كما هو عزيز على من يطمح فيه ، عزيز على من هو فيه .

ان نظرة موضوعية للتاريخ تشير الى انه في اغلب الفترات التي تسودها المصالح الشخصية ، وينتابها الصراع من اجل الوصول للسلطة والقيادة ، يكون فيها التمسك بالدين ضعيفا ، ولذلك كان على صلاح الدين في كل الاحوال « اعادة التسلح الخلفي »[1] المبني على العقيدة الاسلامية ليمكنه ان يدخل الشام ويحكمه من دون معارضة . اذ بغير اعلانه شعار « الجهاد في سبيل الله »(*) ، واعلامه الاطراف بأنه انما يقصد توحيد

(١) جب ، صلاح الدين : ١٨٨ .

(*) يقول ايمانويل سيفان Emmanuel Sivan ان الاسباب التي دفعت صلاح الدين (لاعلانه الجهاد في سبيل الله) هي :- انه لم يكن بين جيل صلاح الدين من كان مؤهلا لقيادة الامة غيره وقد اعتبر صلاح الدين مجاهدة الكفار (اي الصليبيين) واجبا جماعيا Obligation Collective ولما وجد ان الامراء مشغولين عنه . كان عليه ان يحقق الهدف ولو بالقوة ، ولذلك اعتبر تقدمه نحو الشام انما هو لخدمة الجهاد في سبيل الله .
L, Islam et la Croisade (Paris, 1968) p. 96.

الكلمة لحرب الصليبيين ، كان لا يستطيع مطلقا دخول الشام الا على أسنة الحراب ، وان دخلها فانه كان لا يستطيع المكوث فيها ، لانه سيلقى - من غير شك - مقاومة شديدة . الا ان صلاح الدين عرف كيف يتصرف، واختار الوقت الملائم ، وخرج من القاهرة بحوالي سبعمائة فارس بضمنهم سيف الدين طغتكين ، وتقي الدين عمر ، وعزالدين فروخ شاه ، بعد ان عهد الى اخيه الملك العادل بادارة شؤون مصر[1] . وفرق بعض عساكره على ثغورها ومداخلها الحربية لصيانتها والمحافظة عليها[2] .

وفي بداية صفر من سنة ٥٧٠ هـ (٣ أيلول سنة ١١٧٤ م) نزل صلاح الدين البركة[3] واقام بها حتى اجتمع اليه العسكر ، ثم رحل الى بلبيس في ١٣/ربيع الاول/٥٧٠ هـ ، وكان رسل حاكم بصرى شمس الدين جاولي ورسل شمس الدين ابن المقدم عنده يستحثونه على مواصلة المسير ودخول الشام . فسار ودخل بصرى[4] وكان أثناء سيره يتمهل قليلا ليثبت اقدامه في كل خطوة يخطوها ، فمر بصدر وأيلة متفقدا استحكاماتها العسكرية[5] .

---

(١) ابن شداد ، النوادر السلطانية : ٥٠ ؛ الكامل : ٤١٧/١١ ؛ المقريزي السلوك ٥٨/١ ؛ ابن العديم ، الزبدة : ١٩/٣ .
Lanep ool, A History of Egypt, p. 199.

(٢) سعداوي ، التاريخ الحربي المصري : ٥٨ .

(٣) وتعني بركة الجب ، ويقال لها ايضا بركة الحجاج ، وتقع في الجهة البحرية من القاهرة ، وكان صلاح الدين يخرج اليها للصيد والنزهة . سنا البرق الشامي : ١٧٦/١ ، هامش ٤ .

(٤) الكامل ٤١٧:١١ ؛ سنا البرق الشامي : ١٧٧/١ .

(٥) الباهر في تاريخ الدولة الاتابكية : ١٧٧ ؛ ابن خلدون ، التاريخ : ٥٦٦/٥-٥٦٧ .

وقد انفرد ابن الاثير برواية مفادها بأن صلاح الدين استعمل اساليب الدهاء مع صاحب بصرى . حيث اوحى اليه بأنه يملك خمسين الف دينار، مما دفع بصاحب بصرى واتباعه الى مساعدة صلاح الدين للحصول على الاموال ، وعدم مقاومتهم اياه لانه كان بعدد قليل من العسكر . وعندما استقبل شمس الدين جاولي ـ حاكم بصرى ـ صلاح الدين خارج القلعة وجده في قلة من العسكر ، فخاف على نفسه ، واراد الانسحاب عن معاضدته ، الا انه اجتمع بالقاضي الفاضل وقال : « ما ارى معكم عسكرا ، وهذا بلد عظيم لا يقصد بمثل هذا العسكر ، ولو منعكم من به ساعة من النهار اخذكم اهل السواد ، فان كان معكم مال سهل الامر : فقال : معنا مال كثير يكون خمسين الف دينار . فضرب صاحب بصرى على رأسه وقال: هلكتم واهلكتمونا وجميع ما كان معهم عشرة الاف دينار »[1] .

ولئن صحت هذه الرواية فمعناها ان صاحب بصرى كان يرى في صلاح الدين سلطانا طامعا عاديا ، وانه لابد لمثل هذا السلطان من عسكر قوي ومال مبذول يستميل به الناس . اما صلاح الدين فكان يرى نفسه قائدا للامة ، يؤيده الناس ويحمونه وينصرونه على اعدائه والمخالفين عليه. وان الجيوش الكثيرة والاموال المبذولة انما تستخدم لكسب النصر على الصليبيين ، لا لحرب المسلمين .

ومن بصرى خرج صلاح الدين الى صلخد ـ كما ذكر العماد الاصفهاني في البرق الشامي ـ وسار معه حاكمها الى الكسوة[2] . ومنها نظم صلاح الدين امر دخول مدينة دمشق ثم وصلها يوم الثلاثاء نهاية شهر

---

(١) الكامل : ٤١٧/١١ .

(٢) انظر : سنا البرق الشامي : ١٧٧/١ ؛ بيومي ، قيام الدولة الايوبية : ٢١٧ .

ربيع الاخر من سنة ٥٧٠ هـ الموافق ٢٨ تشرين الاول سنة ١١٧٤ م ، وخرج كل من بها من العسكر اليه « فلقوه وخدموه ، ودخل البلد ونزل في دار والده المعروفة بدار العقيقي»[١] ثم خرج الى الميدان الكبير بدمشق فجاءت اليه فرق الملاعب من المصارعين والمتأنقين وغير ذلك ، فقاموا باعمال رياضية وبهلوانية جلبت انتباه السلطان تعبيرا من اهالي دمشق بالفرحة التي انتابتهم بتملك صلاح الدين زمام امورهم[٢] .

اما قلعة دمشق فقد امتنعت عليه قليلا ، وكانت بيد خادم اسمه جمال الدين ريحان . الا ان صلاح الدين استماله لجانبه وقال له : « انا مملوك الملك الصالح وما جئت لانصره واخدمه ، واعيد البلاد التي اخذت منه اليه »[٣] .

وهكذا ملك صلاح الدين مدينة دمشق وقلعتها ، واظهر انه انما جاء لاقرار شرعية الحكم ولتربية الملك الصالح وتدبير ملكه . واصدر على

---

(١) الكامل : ٤١٧/١١ ؛ سنا البرق : ١٧٧/١ ؛ مفرج الكروب : ١٩/٢-٢٠ ؛ ابن ايوب ، المنتخبات : ٢٦٩ ؛ ابن العديم ، الزبدة : ١٩/٣ ؛ ابن العبري تاريخ مختصر الدول : ٢١٦ ؛ العزي ، نهر الذهب: ٩٨/٣-٩٩ ؛ ابن العماد شذرات الذهب : ٢٣٦/٤ ؛ ابو الفدا : ٧٦/٥؛ بول ، طبقات سلاطين الاسلام : ٧٢ ؛ الزركلي ، الاعلام : ٢٩٢/٩ .

(٢) كان من بين الالعاب التي أقيمت امام صلاح الدين ، لعبة سحرية قام بها رجل وصف : برجل يعمل الاعاجيب كان يدخل الخيمة امام صلاح الدين فيختفي بداخلها ، بحيث لم ير ولم يجده احد اذا فتش عليه ،ثم تربط الخيمة في محل آخر ، واذا به يخرج منها . وقد اعجب به الناس الا ان الامير سنقر الخلاطي قام اليه وضرب عنه بين الناس محتجا بأن مثل هذا لا يؤمن ان يكون جاسوسا لدى الصليبيين ، وأراد الخلاطي قتل رفيقه فالتجأ الى صلاح الدين ، فحماه وطلب منه مغادرة دمشق . ابن اياس ، كتاب تاريخ مصر (القاهرة ١٣١١ هـ) ، ٧٣/١ .

(٣) الكامل : ٤١٧/١١ ؛ سنا البرق الشامي ١٧٧:١ .

الفور بيانا الى اهالي دمشق أعلن فيه عفوه عنهم ، وتصميمه علي تحقيق ما عزم عليه من المضيّ قدما في محاربة الذين اغتصبوا أملاك سيده نورالدين . فذكر بالانشاء الفاضلي : « ان الله ملكنا دمشق عناية لا عنوة ، ولم يكتب فيها بحمد الله الى خطيّة خطوة ، ولاحدثت عثره ... فعلموا ... (السيف اصدق انباء) والحق اعز بناء ، والباطل يضمحل عفاء والزبد يذهب جفاء ، الا وانا رأينا العفو أقرب للتقوى ، وامثل في سلوك الطريقة المثلى ... وارحنا القلوب من نصبها ، وابقينا السلطة في منصبها ... ونظرنا في احوال البيت النورى ، اعلاه الله ، فاذا هو قد اطفئت مصابيح نوره وكاد ذكره في الذهاب يلحق بمذكوره فاستأنفنا تدبيرات نؤمل ان الله سبحانه يقيم البيت الكريم على عمده ، ويغنيه عن مساندة من لا يغنيه عن سنده . وقفينا حق الملك الصالح وحق والده رحمه الله باظهار الاحسان في كفالته ، واستشعار الجميل في خدمته وقد كان ريحان مانع بتسليم القلعة ريثما علم ان لا يبقى بالرماح ريحانه ... فاعطيناه امانا وبوأناه منها مكانا ... »[1] .

وقد اتبع صلاح الدين في دمشق نفس السياسة التي قام بتنفيذها في مصر ، بعد توليته الوزارة سنة ٥٦٧ هـ . اذ عمد الى كسب تأييد الشعب فاصدر على الفور اوامره بانفاق الاموال وتوزيعها على الناس ، والمناداة بازالة المكوس وابطال القبائح والمنكرات والضرائب التي احدثت بعد وفاة نورالدين محمود ، وكاتب امراءه والاطراف المعنية باتباع الاوامر الجديدة[2] .

---

(١) البنداري ، المصدر السابق : ١/١٧٧ـ١٧٨ .

(٢) الروضتين ١:٢٣٦ ؛ النوادر السلطانية : ٥٠؛ السلوك : ١/٥٨؛ تاريخ ابن خلدون : ٥/٥٦٧ ؛ عاشور ، الحركة الصليبية : ٢/٧٤٣ .

وعمد صلاح الدين الى ارضاء علماء الدين لكسب تأييدهم ، وكان لهذه السياسة اثر كبير في نفوس الناس نظرا للمكانة الكبيرة التي كان يتمتع بها علماء الدين فقد مشى الى دار قاضي القضاة (كمال الدين ابن الشهرزوري)[١] فدخلها وسلم على صاحبها ، ولم يلتفت الى ما كان بينه وبين الشهرزوري قبل هذا التاريخ من سوء تفاهم • فاظهر للشهرزوري خاصة وللدمشقيين عامة صفاء نيته وحسن خلقه •

وقد رحب به قاضي القضاة اجمل ترحيب ، واعلن انصياعه لصلاح الدين ثم ذكر له وسط تجمعات الحاضرين « طب نفسا فالامر امرك والبلد بلدك »[٢] • فكانت هذه الكلمات من قاضي القضاة بدمشق اعلانا عاما للدمشقيين بالتسليم المطلق لصلاح الدين والانصياع له ، فاظهروا فرحتهم ، واعلنوا سرورهم و « ارتاحت قلوبهم وطابت نفوسهم ، وسارت حياتهم في المدينة سيرها الطبيعي المعتاد »[٣] ، وسلموا اليه مقاليد امورهم ، وقد قابلهم صلاح الدين ايضا بالاكرام والترحاب واظهر السرور لهم[٤] •

---

(١) كمال الدين ابن الشهرزوري ، قاضي قضاة دمشق • كان له مكانة كبيرة في عهد نورالدين الذي اطلق له زمام امور دمشق ، في الوقت الذي كان فيه صلاح الدين متوليا لرئاسة شرطة المدينة • وكثيرا ما كان يقع بين الطرفين عدم توافق في تسيير امور المدينة • كما كان الشهرزوري متوليا لامرية الاشراف على بناء أسوار دمشق ومدارسها على عهد نورالدين ، ومكث بدمشق حتى توفي نورالدين فيها ثم خدم صلاح الدين بعد ان دخل دمشق سنة ٥٧٠ هـ ، وعندما حضرته الوفاة بدمشق سنة ٥٧٢ هـ طلب من صلاح الدين تولية أخيه ضياء الدين في منصب القضاء بدمشق فأستجاب له السلطان ، وهو دليل على التقارب الذي كان بين الطرفين • انظر : ابو شامة ، الروضتين : ١/٢٦٢ •

(٢) ابن العماد ، شذرات الذهب : ٤/٢٤٣ •

(٣) سعداوي ، المصدر السابق : ٥٩ •

(٤) النجوم الزاهرة : ٦/٢٤-٢٥ ؛ رض المناظر : ٢٣٦ •

وكان من نتائج المحبة والتعاون الذى ظهر بين صلاح الدين والدمشقيين ، ان مدحه بعض شعرائهم بقصائد كثيرة وصفوا فيها دمشق بعد دخول صلاح الدين اليها . فذكر الشاعر محمد بن عبدالله التعاويذي في سنة ٥٧٥ هـ بأن دمشق اصبحت مأوى للمطرودين او الهاربين من الاتابكيات الزنكية ، كما اصبحت موئلا للمساكين ومحطة للتجار الذين اخذوا يحطون فيها رحالهم ، للامن الذى سادها بفضل عدل صلاح الدين وعفته حتى باتت دمشق بأهلها وكأنها صورة لما روى في التاريخ عن مدن المسلمين الاول[1] .

وقد شبهه الشاعر نشوء الدولة ابو الفضل احمد بن المبارك (ت:٦٠١هـ) بالنبي يوسف ، وانه قدم الى دمشق بعد ان استغاثت به ، وتمنت لو كانت مصر . وان صلاح الدين لما دخلها غدت بجلاله تزهو على غيرها من البلاد[2] .

---

(١) ذكر ابو الفتح محمد التعاويذي في سنة ٥٧٥ قوله :

اضحت دمشق وقد حللت بجوها	ماوى الطريد وموئل المسكين
وغدت بعدلك وهي اكرم منزل	تلقى الرحال به وخير قطين
يثني عليك المعدمون بها كما	تثني الرياض على السحاب الجون
لك عفة في قدرة وتواضع	في عزة وشراسة في لين
واريتنا بجميل منك ما روى الرا	وون عن امم خلت وقرون

ابن شاهنشاه ، مضمار الحقائق : ٢٢-٢٣ .

(٢) ذكر الاصفهاني ان الشاعر نشو الدولة علي بن المبارك مدح صلاح الدين عند دخوله دمشق بقوله :

بدا في سماء الملك من شخصك البدر	وقابله الاقبال والفتح والنصر
وجلى ظلام الشرك اقبال نوره	فأصبح مخذولا له الذي والقهر
اتى بعدما نادت دمشق لبعده	الى ربها : تالله مسني الضر
شكت بعده لما توطن غيرها	وقالت ، كم امثالها ، ليتني مصر
وكانت له يعقوب اذ هو يوسف	فأضحت به تزهو وباشرها البشر

خريدة القصر ، ق١ : ١/٣٢٩-٣٣٠ .

كما وصفه الشاعر وحيش الاسدي[1] بالاسد الذي أحيا دمشق كما أحيا مصر من قبل • وعدد للدمشقيين انتصاراته على الصليبيين في دمياط سنة ٥٦٥هـ والاسكندرية سنة ٥٦٩هـ • وعلى قوى الفاطمين بعد مقتل الوزير شاور ـ السابق الذكر ـ كما اعلن الاسدي بأن الشام لو لم يتداركه صلاح‌الدين لاندرست آثاره فقال :

والشام لو لم يدارك اهله اندرست   آثاره وعفت آياته حُقبا[2]

وعلى الرغم من عدم خلو الوصف السابق لصلاح‌الدين من المبالغة ـ نظرا لان المدح قيل في فترة وجود الدولة الايوبية أولا ، وكون بعض الشعراء من أصدقاء صلاح‌الدين ثانيا كالشاعر وحيش الاسدي ـ فانه لا يخلو من حقيقة تاريخية ذلك لان دمشق كان يسودها جو من القلق والخوف على مستقبلها لخلّوها من حاكم قوي ـ بعد خروج سعدالدين كمشتكين بالملك الصالح الى حلب ـ وكثرة تهديدات الصليبيين لها • لذلك فان دخول صلاح‌الدين الى دمشق ـ وهو الحاكم القوي لدولة مصر القوية الواسعة ـ معناه اعطاء دمشق دفعة قوية من الامل في الامن والاستقرار والوقوف بوجه التحدي الصليبي •

اما الامراء النوريون ذووا الاطماع في السلطة والوصاية على الملك الصالح فقد كان موقفهم من دخول صلاح‌الدين دمشق موقفا سلبيا بصورة عامة فقد سادهم جو من التوتر خلقه الخوف على مناصبهم ، وقد وصفهم

---

(١) هو الشاعر ابو الوحش سبع بن خلف بن محمد بن عبدالله ولد سنة ٥٠٤ هـ ومدح صلاح‌الدين بعدة قصائد عند وصوله الشام وملكه دمشق سنة ٥٧٠ هـ • انظر : الاصفهاني ، خريدة القصر وجريدة العصر ، ق٣ : ٢٤٢/١ •

(٢) نفس المصدر السابق : ٢٤٣ •

العماد الاصفهاني – في البرق الشامي – بقوله : « ولما سمع المدبرون للملك الصالح باقبال صلاح الدين المؤذن بادبارهم حاروا في حوارهم ، ولبسوا شعار استشعارهم ، وراسلوا بالعنف معنفين وبالعسف معتسفين »[١]. ثم اجمعوا على مراسلته وحملوا قطب الدين ينال بن حسان رسالة ارعدوا فيها ، واندروا بأنهم عازمون على حربه ان لم يرتد عما قصده ، فقد جاوز حدّه ولابد من التصدي له وقالوا : « هذه السيوف التي ملكتك مصر بأيدينا والرماح التي جنيت بها قصور المصريين على اكتافنا والرجال التي ردت عنك تلك العساكر هي تردك وعما تصديت له تصدك وانت فقد تعديت طورك وتجاوزت حدّك ... »[٢] .

ويقال بأن قطب الدين بن ينال المنبجي فاه بتلك الرسالة الجارحة ، بعد ان مكث بضيافة صلاح الدين ثلاثة أيام ، وبعد ان كان صلاح الدين – كما ذكر ابن ابي طيء – قد « تلقاه بموكبه وبنفسه وبالغ في اكرامه والاحسان اليه »[٣] . ومع كل ذلك فان صلاح الدين احتمله وتغافل عن كلامه ، واجابه بكلام لطيف وقال له : « اعلم يا هذا انني وصلت الشام لجمع كلمة الاسلام وتهذيب الامور وحياطة الجمهور وسد الثغور وتربية ولد نورالدين »[٤] ، ولانقاذ اخوة مجدالدين[٥].

الا ان المنبجي اغلظ له في القول مرة ثانية ، وقال له : « انت تريد الملك لنفسك ، ونحن لا ننزع في قدسك ولا نبني على اسك ، فارجع حيث

---

(١) سنا البرق الشامي : ١/١٧٩ .
(٢) الروضتين : ١/٢٣٧ ؛ سنا البرق الشامي : ١/١٧٩ ؛ مفرج الكروب : ٢/٢١ .
(٣) الروضتين ، : ١/٢٣٧ .
(٤) نفس المصدر : ١/٢٣٨ ؛ مفرج الكروب : ٢/٢١–٢٢ .
(٥) سنا البرق الشامي : ١/١٧٩ .

شثت ولا تطمع فيما ليس لك فيه مطمع »[1] . وكاد صلاح‌الدين ان يسطو عليه في هذه المرة ويقتله واومى الى رجاله باقامته من بين يديه[2] .

ولما رأى صلاح‌الدين بأن النوريين لا يميلون لوجهة نظره ، وانهم مصرون على اتهامه بحبه للسيطرة والفتح ، ورغبتهم بعدم الانضمام اليه ، عوّل على أخيه سيف‌الاسلام طغتكين في ادارة شؤون دمشق ، ورعاية رعيتها وقرر التوجه نحو حمص[3] ، التي كانت هي ومدينة حماة وقلعة مرعش وسلميه وتل خالد والرها من بلاد الجزيرة في اقطاع فخرالدين مسعود الزعفراني من امراء نورالدين[4] .

وفي يوم الاحد ١١ جمادى الاولى سنة ٥٧٠هـ (٨ كانون الاول سنة ١١٧٤م) خرج صلاح‌الدين الى حمص ، ودخلها يوم الثلاثاء منتصرا ، دون قلعتها التي امتنعت عليه[5] . وكانت كما وصفها ابن جبير وقتذاك « في غاية العتاقة والوثاقة مرصوص بناؤها بالحجارة الصم السود ، وأبوابها حديد ، تكتنفها الابراج المشيدة الحصينة »[6] . لذلك لم يشأ صلاح‌الدين

---

(١) نفس المصدر السابق : ١/١٧٩ .

(٢) الروضتين : ١/٢٣٨ ؛ بيومي ، المصدر السابق : ٢١٩ هامش (٥) .

(٣) الروضتين : ١/٢٣٧-٢٣٨ ؛ سنا البرق الشامي : ١/١٨٠؛ مفرج الكروب ٢/٢٢-٢٣ ، ابن الاثير : ١١/٢٧٦ ؛ ابن العديم ، الزبدة: ٣/٢٠-٢١ الزركلي ، الاعلام : ٩/٢٩٣ .

(٤) الكامل: ١١/٤١٨ ؛ تاريخ ابن خلدون : ٥/٥٦٨ .

(٥) ابن شداد ، النوادر السلطانية : ٥٠ ؛ الكامل : ١١/٤١٧؛ البنداري : ١/١٨٠ ؛ مفرج الكروب : ٢/٢٣ ؛ زبدة الحلب : ٣/٢١ ؛ السلوك : ١/٥٩ ؛ ابن ايوب ، المنتخبات : ٢٦٩ ؛ ابن خلدون : ٥/٥٦٨؛ ابن الوردي ، التاريخ ٢/١٢٠ ؛

(٦) رحلة ابن جبير (ط. ليدن) : ٢٣٧ .

الاستمرار في حصارها ، بل ترك عليها حامية تحاصرها وتمنع وصول الميرة اليها[1] .

ولم يترك صلاح الدين قلعة حمص ، بل عاد اليها بعد ان فتح مدينة حماة اثر محاصرته لحلب سنة ٥٧٠هـ . لان سعدالدين كمشتكين راسل الصليبيين بعد محاصرة صلاح الدين لهم وطلب مساعدتهم . وكان متولي امرهم القائد الصليبي ريموند الثالث ـ الوصي على الملك بلدوين الرابع ملك بيت المقدس الصبي ـ[2] الذي لبى نداء كمشتكين وزحف على حمص وحاصرها في ٦ ربيع الاول سنة ٥٧٠هـ (أول شباط سنة ١١٧٥م) ، فاضطر صلاح الدين الى رفع الحصار عن حلب والتوجه الى صد الهجوم الصليبي . مما دفع بريموند الثالث الانسحاب من حمص[3] فتوجه اليها صلاح الدين فورا وحاصر قلعتها تسعة أيام حتى تمكن من فتحها في ١٧ آذار سنة ١٩٧٥م ، بعد ان نصب عليها المجانيق واخذها قسرا ورتب عليها واليا[4] ، وقيل اقطعها لابن عمه ناصرالدين محمد بن شيركوه وهو زوج اخته ست الشام بنت أيوب[5] .

---

(١) الكامل : ٤١٨/١١ ، زبدة الحلب ٣ : ٢ ، جب ، صلاح الدين: ١٢٣ .

(٢) لم تنقل المصادر التاريخية المعاصرة نصوص من تلك المراسلات التي كانت بين كمشتكين والصليبيين . بل أشارت فقط الى ان جماعة الامراء بحلب راسلوا الصليبيين وهادنوهم بعد ان بذلوا لهم اقطاعات خاصة لابعاد شرورهم عن حلب وبانياس . وكان سعدالدين كمشتكين من جملة الامراء الذين كانوا مسيطرين على الامور بحلب . انظر : الروضتين : ٢٣٦/١ ؛ مفرج الكروب ١٧/٢ـ١٨ .

(٣) الكامل (القاهرة : ١٣٠١) : ١٨٩/١١ ؛ السلوك : ٥٩/١ .

(٤) مفرج الكروب: ٢٩/٢ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية : ٢٨٩/١٢ .

(٥) ابن خلكان ، وفيات الاعيان : ٢٢٧/١ ؛ ابن كثير : ٣١٧/١٢ .

ويمكن ان يكون ـ من جهة ثانية ـ في ملك صلاح الدين لمدينة حمص رد اعتبار للايوبيين ، لان حمص كانت من اقطاع شيركوه ـ عم صلاح الدين ـ ايام كان في خدمة نورالدين ، الا ان نورالدين استردها منه بعد استقرار ملك صلاح الدين بمصر[1] .

وبعد ان ملك صلاح الدين حمص توجه الى مدينة بعلبك ، التي كانت تابعة لنورالدين ويحكمها رجل من عنده عرف بيمن ، فسلم اليه قلعتها بالسلم في يوم السبت رابع شهر رمضان سنة ٥٧٠هـ[2] ، بعد ان يئس من معونة حلب[3] . وربما لضعف قوته وعدم تمكنه من مقاومة أي حصار يقع على المدينة . والارجح بأن يمنا هذا سلم مدينة بعلبك لصلاح الدين بعد ان علم بملك صلاح الدين لدمشق وحمص ومحاصرته لحلب ، فعلم ان الوقت لصالح صلاح الدين ففضل السلامة لنفسه واختار الوقوف الى جانب المنتصر .

وقد راسل صلاح الدين أخاه سيف الاسلام ـ نائبه بدمشق ـ وأخبره مبشرا بفتح بعلبك وجاء بنص الكتاب المرسل بالانشاء الفاضلي : « ونزول المسار ربعه بفتح قلعة بعلبك بالسلم الذي اغمدت فيه السيوف ... ورغمت من الاعداء الانوف ... »[4] . وهذا يدلنا على ان النوريين كانوا يتوقعون وقوف قلعة بعلبك الى جانبهم ضد صلاح الدين ، الا ان ظنونهم خابت وسلمت القلعة بالامان .

وفي هذه الفترة وصل الى خدمة صلاح الدين الكاتب العماد

---

(١) بيومي ، المصدر السابق : ٢٢٣ .
(٢) الكامل : ١١/ ٤٢٠ ؛ سنا البرق الشامي : ١/ ١٨٣ .
(٣) السلوك : ١/ ٥٩ .
(٤) سنا البرق الشامي : ١/ ١٨٣ .

الأصفهاني ، الذي خرج من الموصل في ٤ جمادي الاول وعبر الخابور الى الرقة ونزل مدينة دمشق . وكان صلاح الدين قد أنهى فتح بعلبك ، فامتدحه بقصيدة اوضح له فيها ان الاسلام سيفتخر به ، وان فتحه بعلبك استقرار لسلطانه في منطقة الشام ، وان ذلك الفتح قد ابكى حساده دما . ثم دعاه الى فتح البيت المقدس الذي هو هدف الجميع وان ما عداه من الفتوح انما هو اعداد لذلك الفتح[1] .

اما قلعة حماة ، فان صلاح الدين توجه اليها بعد محاصرته قلعة حمص في المرة الاولى في ١٣ جمادى الاولى سنة ٥٧٠هـ (١٠ كانون الاول سنة ١١٧٤م) وكانت بيد الامير عزالدين جورديك ، الامير النوري ، الذي شارك صلاح الدين بقتل الوزير الفاطمي شاور سنة ٥٦٤هـ/١١٦٩م[2] .

---

(١) جاء في القصيدة التي امتدح بها الاصفهاني صلاح الدين بفتحه بعلبك ما يلي:ـ

بفتوح عصرك يفخر الاسلام	وبنور نصرك تشرق الايام
وبفتح بعلبك تهذبت	هذي الممالك واستقر الشام
وبكى الحسود دما ، وثغر الثغرـ	من فرح بنصرك ـ للهدى بسام
فتح تسنى في الصيام كأننا	ـ شكرا لما منح الاله ـ صيام
فتمل فتحك ، وافتح القدس الذي	بحصوله لفتوحك الاتمام

انظر : ابن واصل ، مفرج الكروب : ٢/ ٣٠ ، ابو شامة ، الروضتين: ١/ ٢٥٩ ؛ البنداري ، سنا البرق الشامي : ١/ ١٨٤ـ١٨٥ .

(١) كان عزالدين جورديك ممن امتنع عن تأييد تولي صلاح الدين القيادة بمصر . غير انه في هذه الفترة عند تقدم صلاح الدين لحصار قلعة حماة ، انقلب الى جانب صلاح الدين ، وربما بدت علائم الانتصار على صلاح الدين ، فأراد جورديك أن يكون مع المنتصر ، ولكن مراسله صلاح الدين له اثناء حصار قلعة حماة بضرورة تسليمها اليه لانه انما جاء ـ اضافة للاسباب الواردة اعلاه ـ لاعادة بلاد الجزيرة التي احتلها سيف الدين غازي ، وربما تدل على وجود صراع بين سيف الدين غازي وعزالدين جورديك . ففضل الثاني الوقوف الى جانب صلاح الدين لان ذلك يحقق مطامحه. انظر الكامل: ١١/ ٤١٨ ؛ تاريخ ابن خلدون : ٥/ ٥٦٩ .

ـ سابق الذكر ـ وقد وصل صلاح‌الدين مدينة حماة في أول جمادي الثاني سنة ٥٧٥هـ/ ٢٨ كانون الاول (ديسمبر) سنة ١١٧٤م • فأستقبله جورديك استقبالا حسنا عند الرستن ، من نواحي مدينة حماة وسلمه المدينة بعد ان امتنع عن تسليمها في البداية ، اعتقادا منه بان صلاح‌الدين ينوي السيطرة على البلاد والاستيلاء على املاك نورالدين • الا ان صلاح‌الدين عرّفه الاحوال ، وما هو عليه من طاعة الملك الصالح ، وانه انما جاء لحفظ بلاده عليه ، ومدافعة الصليبيين عنه ، وارجاع بلاد الجزيرة من ابن عمه سيف‌الدين غازي حاكم الموصل • وقد استحلفه عزالدين على ذلك ومن ثم سلم اليه القلعة[1] التي كان عليها أخوه ، وعرض على صلاح‌الدين تطوعه ليكون سفيرا له لدى الحلبيين ليعرفهم الاحوال ، فوافق صلاح‌الدين على طلبه وأرسله الى حلب رسولا من عنده لتحقيق صلح بين الطرفين[2] • وربما دل ذلك على وثوق جورديك بصدق نوايا صلاح‌الدين •

ولما وصل عزالدين جورديك الى حلب أشار على من بها من الامراء بمصالحة صلاح‌الدين • الا ان سعدالدين كمشتكين اتهمه بالتواطؤ مع صلاح‌الدين ، وأمر به فاودع السجن مع بني ابن الداية • وظل صلاح‌الدين ينتظر أخباره في الرستن حتى طال عليه الانتظار ، فتقدم الى جباب التركمان ، قرب حلب ، فلقيه أحد غلمان جورديك وأخبره بما جرى على سفيره من الاعتقال • فرحل عائدا الى حماة وطلب من أخي جورديك ضرورة تسليم قلعة حماة اليه ، وأخبره بما جرى على أخيه ففعل • وبذلك

---

(١) الكامل : ٤١٨/١١ ؛ الروضتين : ٢٣٨/١ ؛ سنا البرق الشامي : ١٨٠/١ ، مفرج الكروب : ٢٣/٢ ؛ زبدة الحلب : ٢٢/٣ ؛ تاريخ ابن خلدون : ٥٦٩/٥ •

(٢) ابن العديم ، الزبدة : ٢٢/٣ •

تسلم صلاح الدين قلعة حماة ، وصعد اليها وولاها مبارزالدين علي بن أبي الفوارس[1] • وقيل بأن صلاح الدين ولاها خاله شهاب الدين محمود الحارمي[2] • وهكذا دخلت حماة كليا تحت امرته ، وأصبح حكم صلاح الدين يمتد على كل من مصر ودمشق وما بينهما ، وكل من حمص وحماة وبعلبك •

ثالثا ـ موقف صلاح الدين من الصالح اسماعيل بن نورالدين حتى وفاته سنة ٥٧٧هـ/١١٨١م :

تولى الملك الصالح اسماعيل الملك شكليا ، بعد وفاة والده نورالدين محمود زنكي سنة ٥٦٩هـ/١١٧٤م • اذ كان طفلا صغيرا في الحادية عشر من عمره ـ كما تبين ذلك من قبل ـ وقد تمكن الامراء المحيطون به من التلاعب بمقدرات الوصي والوصاية ، ونقلوا مركز الحكم من دمشق الى حلب[3] • ومن هناك بدأ الامير كمشتكين بتنفيذ سياسته القاضية بانفراده بالوصاية على الملك الصالح ، فاعتقل بني ابن الداية[4] ، وتآمر مع الاسماعيلية في قتل رفيقه الامير أبو صالح ابن العجمي سنة ٥٧٢هـ الذي كان مساعده في نقل الملك الصالح من دمشق الى حلب والوصاية عليه[5] •

---

(١) الكامل : ٤١٨/١١ ؛ الروضتين : ٢٣٨/١ ؛ زبدة الحلب : ٢١/٣ ؛ سعداوي ٦١ •

(٢) الدواداري ، كنز الدرر : ٥٨/٧ـ٥٩ •

(٣) الدواداري ، كنز الدرر : ٥٨/٧ـ٥٩ •

(٤) يرى ابن ابي طيء : بأن نورالدين هو الذي اوصى بأن تكون حلب مركزا لاقامة ابنه فيها من بعده ، نظرا لعامل القربى والمحبة التي كانت بينه وبين بني ابن الداية حكام حلب • الروضتين : ١٧٤/١ •

(٥) انظر : سنا البرق الشامي : ١٦٢/١ـ١٦٥ ؛ زبدة الحلب : ١٤/٣ـ١٥ •

(٦) يذكر ابن واصل ان جماعة من الباطنية (الاسماعيلية) قفزوا يوم

ومن هناك أخذ سعدالدين كمشتكين يخطط بحزم للسيطرة على حلب وابعاد صلاحالدين عنها بكل الوسائل ، فعندما تقدم صلاحالدين الى الشام بعث اليه كمشتكين كتابا اتهمه فيه بحبه للغزو والسيطرة على املاك سيده نورالدين وابنه الملك الصالح[1] - كما تبين من قبل - ، بعد ان هرب من مقدمة عسكر سيفالدين غازي - حال علمه بوفاة نورالدين - الى دمشق واقنع الملك الصبي بضرورة الانتقال الى حلب ليتسنى له هناك السيطرة على ادارة البلاد لوحده[2] .

والظاهر ان صلاحالدين لم تكـن تخفى عليـه مخططات كمشتكين واعوانه[3] ، وكان يحاول بين فترة وأخرى مراسلة الملك الصالح لتوضيح الامر له وافهامه بضرورة اقصاء كمشتكين عنه والا فان العلاقة بين الطرفين سوف تفسد ، طبقا لما ورد في كتاب صلاحالدين للملك الصالح الذي ارسله

الجمعة علي ابي صـالح ابن العجمي فقتلوه . وقيل للملك الصـالح بأن كمشتكين هو الذي دفعهم الى قتله ليستقل بالامر . فقبض عليه ، وتوفي اثناء تعذيبه امام قلعة حارم التي كانت تابعة له . اذ كان قد سير اليهـا تحت الاستظهار ، ليأمر اصحـابه بتسليمهـا الى الملك الصـالح فعـذب سعدالدين حتى مات من العذاب . مفرج الكروب : ٢/٦٢ .

(١) مرآة الزمان ، ق١ : ٨/٣٢٧ .

(٢) انظر : ابن العديم ، زبدة الحلب : ٣/١١ ؛ ابن كثير؛ البداية والنهاية : ١٢/٢٨٥ ؛ البنداري ، سنا البرق الشامي : ١/١٦٢ .

(٣) كان يحيط بالملك في حلب ، بالاضافة الى سعدالدين كمشتكين، الامير خالد بن محمد وابو صالح ابن العجمي ، وينال بن حسان المنبجي، وبعض غلمان نورالدين من الذين ارتضوا العمل لدى الملك الصالح تحت امره كمشتكين وكان هـ لاء جميعا يتعمدون تشويـه كل كتاب يرسلـه صلاحالدين للملك الصالح بخصوص الصلح ، ويشيرون عليـه بمكاتبـة صلاحالدين بالغلظة . انظر : سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ق١ ، ج٨، ص ٢٣٦ .

اليه بعد دخوله دمشق سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م وقد جاء في بعضه : « انما جئت من مصر خدمة لك لاؤدي ما يجب من حقوق المرحوم [أي نورالدين] فلا تسمع ممن حولك فتفسد احوالك وتختل امورك وما قصدي الا جمع كلمة الاسلام على الفرنج »(١) • الا ان كمشتكين كان يعمد الى تشويه مقاصد صلاحالدين امام الملك الصبي ويأمره بمكاتبة صلاحالدين بالغلظة ، وقد أرسل اليه ـ تعبيرا عن ذلك ـ ينال بن حسان يغلظ له بالقول ويتهمه باجحاد الاحسان وكفر النعمة • وقد أجاب صلاحالدين رسول الحلبيين بكلمات عبرت بوضوح عن اعتقاده بأن الامراء المحيطين بالملك الصالح انما هم امراء مضللون ، وانهم سبب كُل المشاكل فقال لينال بن حسان : « والله ما جئت الا لأستنقذ هذا [أي الملك الصالح] من يد مثلك وامثالك فانتم سبب زوال دولته »(٢) •

ويبدو ان الملك الصالح لم يكن راضيا عن تصرفات من حوله ، الا انه لم تكن بيده حيلة يستطيع بها ابعادهم من حوله ، فقد كان صغير السن ، سريع التصديق والتأثر بمن حوله ، وقد دل على ضعف الملك الصالح ، وتلاعب كمشتكين بمقدراته ما ذكره ابن أبي طيء من ان الاخير هو الذي كان وراء اعتقال عزالدين جرديك ، أمير حماة ورسول صلاحالدين للملك الصالح ، الذي قدم الى حلب في محاولة من صلاحالدين لعقد صلح بين الطرفين « فاتهمه الامراء بالمخامرة وردوا مشورته وأشاروا بقبضه فامتنع الملك الصالح ، ولج سعدالدين كمشتكين في القبض عليه فقبض وثقل بالحديد »(٣) •

---

(١) مرآة الزمان ، المصدر السابق ، ق١: ٣٢٧/٨ •
(٢) نفس المصدر والمكان السابق •
(٣) ابو شامة ، الروضتين : ٢٣٨/٢ •

لذلك فمن الطبيعي ان يتوجه صلاح‌الدين الى حلب لاستنقاذ رسوله والملك الصالح وضم حلب الى ملكه ، طالما أصبح حاكمها الفعلي لا يستطيع تدبير أمره بنفسه ، اضافة الى ان حلب كانت تمثل مركزا مهما للغاية من مراكز بلاد الشام التي وصفها أسدالدين شيركوه لنورالدين محمود أثر وفاة والده زنكي سنة ٥٤٢هـ بقوله : « وقد رأيت ان اصيرك الى حلب وتجعلها كرسي ملكك وتجتمع في خدمتك عساكر الشام ، وانا اعلم ان الامر يصير جميعه اليك ، لان ملك الشام يحصل بحلب ، ومن ملك حلب استظهر على بلاد المشرق »[١] • واذا ما علمنا بأن صلاح‌الدين كان صاحبا ومرافقا لكل من اسدالدين شيركوه ونورالدين ، وانه كان في كثير من الاحيان رسول نورالدين الى شيركوه[٢] ، فانه من الطبيعي ان يكون صلاح‌الدين عليما بأهمية حلب ، وانه أراد السيطرة عليها ليحصل له ملك الشام خاصة وانه كان يهدف الى توحيد البلاد وجمع الشعوب الاسلامية لاستخدام طاقاتها من أجل اخراج الغزاة وتحرير القدس •

وقد كتب القاضي ابن الفراش[٣] قصيدة مدح فيها صلاح‌الدين واوضح بأن البلاد التي يملكها تتبسم له لانها كانت قبله موحشة القطوب ، ووصف الذين يحاربونه من الامراء المسلمين ، كسعدالدين كمشتكين ، بأنهم رهط المغيرة بن سعيد الذي خرج في امارة خالد بن عبدالله القسري ،

---

(١) نفس المصدر السابق : ١/٤٦-٤٧ •

(٢) انظر الفصل الاول صفحة : ٦٠ •

(٣) ابن الفراش : هو القاضي شمس‌الدين ابو عبدالله من اهالي دمشق ، كان قاضي العسكر ايام نورالدين بالشام ، وبعد وفاة نورالدين سنة ٥٦٩ هـ ولاه صلاح‌الدين الاشراف على خزانة دولته وأقره على قضاء عسكره وخاصته ، وكان صديقا حميما لعماد الدين الاصفهاني الذي مدحه بقوله : « وهو اصدق من خطب الي صداقته ، وجعل صداقها صدقه » • الاصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر ، ق١ : ١/٢٨٩-٢٩٠ •

أو شبيب بن يزيد الخارجي أبو الضحاك أحد الثائرين على بني امية ، ودعا صلاح الدين الى محاربتهم ، لان جهاده اياهم ، في هذه الفترة ، أهم من جهاد الصليبين ، ثم ذكّره بأن نورالدين كان قد ادخره ليدفع من بعده نائبة الخطوب ، لذلك شجعه على تخليص ابن نورالدين من اولئك الامراء الذين حبسوه ومنعوه من اللقاء بالحبيب ، ويقصد به صلاح الدين ، لانه كان صغيرا بينهم ، لا بل أسيرا[1] .

وقد توجه صلاح الدين الى حلب بعد ان ملك دمشق وحمص وحماة ثم بعلبك ونزل على جبل جوشن فوق مشهد الدكة في ٣ جمادى الثاني سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م وامتدت عساكره الى الخناقية والى السعدى[2] . غير انه توقف عن تقدمه قليلا لاستنفار سيف الدين غازي - اتابك الموصل - عساكره وارساله لاخيه عزالدين مسعود بحوالي ستة آلاف فارس لمساندة كمشتكين في حربه لصلاح الدين[3] .

كان سعدالدين كمشتكين هو المدبر للامر لاتباعه سياسة حكيمة تمكن

---

(١) مما جاء في قصيدة ابن الفراش ما يلي :-

عصت حلب وقاتل ساكنوها	وليس قتالهم لك بالعجيب
لانك ناصر الاسلام حقا	وهم رهط المغيرة او شبيب
جهادك ان طلبت الغزو فيهم	اهم اليك من غزو الصليب
ولم يذخرك نورالدين الا	لتدفع عنه نائبة الخطوب
فخلص ابنه بالسيف منهم	فقد حبسوه في بلد جديب
يبيت وقلبه المحزون اشهى	الى لقياك من ضم الحبيب
صغير بينهم ، لا بل اسير	غضيض الطرف منجوس النصيب
تذكر عهده واحنن عليه	ونفس عنه تضييق الكروب

انظر : الاصفهاني : خريدة القصر ، ق١ ج ١ :٣٠٢-٣٠٣ .

(٢) ابن ابي طيء ، انظر : ابو شامة ، الروضتين : ٢٣٨/١ .

(٣) ابو شامة ، الروضتين : ٢٤٩/١ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب: ٣١/٢ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب : ٢٤/٣-٢٥ .

بهـا ان يوقف نشـاط صلاح الدين ، ولو لفترة محدودة ، ويمنعه من الاستمرار في حصار حلب ، فهو الذي ارسل الى سيف الدين غازي وطلب منه انضمام القوات الموصلية الى القوات الحلبية ـ كما ذكرنا من قبل ـ كما ارسل الى القومص[1] الصليبي حاكم مدينـة طرابلس ، ووعـده بأموال جزيلة ان هو تمكن من ابعاد صلاح الدين عن حلب[2] وقالوا له : « أنت طليقنا ، وكنت رفيقنا في الاسر ، والآن انت عتيقنا ، وحقنا عليك متعين ، وبرهان ذلك بين »[3] • وقد استجاب القومص لطلب كمشتكين وتقـدم لحمص وحاصرها في ٧ رجب ٥٧٠هـ • الا ان صلاح الدين ـ صده عن مقصده ـ وقام بمظاهرة عسكرية تقدم بها الى الرستن ، ولما علم الصليبيون بقربه منهم رحلوا عن حمص ، ولما وصل اليها صلاح الدين حاصرها وضايقها

---

(١) القومص : هو ا لكونت ريموند الثالث صاحب امارة طرابلس الصليبية ويلقب في بعض المصادر العربية (بالصنجلي) وهو تحريف عربي للقبه الفرنسي

(La Conte Raymond descendant... de saint-Agilles).

انظر : ابن واصل ، المصدر السـابق ٢:٢٩ ، هامش رقم (٢) • وكان القومص مأسورا لدى نورالدين منذ سنة ٥٥٩ هـ ، وبقي معتقلا بحلب ، حتى اطلق سراحه كمشتكين سنة ٥٧٠ هـ بعد ان تكفل بدفع مائة وخمسون الف دينار صورية مع اطلاق سراح الف أسير من المسلمين • الروضتين ١:٢٤ ؛ مفرج الكروب : ٢/٢٤ ؛ البداية والنهاية : ١٢/٢٨٩ ؛ تاريخ ابن خلدون : ٥/٥٦٨/غير ان ابن الجوزي يرى بأن القومص اطلق سراحه من المعتقل في عهد نورالدين نفسه وليس في عهد ابنه الملك الصـالح • المنتظم في اخبار الملوك والامم : ٨/٢١٦ •

(٢) الروضتين : ١/٢٤٠ ؛ مفرج الكروب ٢:٢٤ ؛ البداية والنهاية ١٢/٢٨٩ •

البرق الشامي ١/١٨٢ •

(٣) العماد الاصفهاني في البرق الشامي • انظر : البنداري ، سنا

حتى تمكن من فتح قلعتها التي كانت قد عصت عليه من قبل في ٢١ شعبان من السنة نفسها[١] • والظاهر ان ريموند كان قد أدرك اهمية تحالف الصليبيين مع حلب ، كما ادرك خطورة قيام وحدة بين القاهرة وحلب ودمشق ، لذلك اسرع بنجدة الملك الصالح ليسد الطريق بوجه صلاح الدين[٢] •

وقد أشار المؤرخ الصليبي وليم الصوري الى هذا التعاون الذي تم بين القومص وكمشتكين وذكر بأن الاخير شكر القومص على استجابته للنداء واطلق ما كان في يده من الاسرى الصليبيين في حلب امثال رينالد شايتون وجوسلين كورتناي تعبيرا منه عن صدق نواياه[٣] •

ولم يكتف سعدالدين كمشتكين بمراسلة سيف الدين غازي والقومص ، وانما راسل ـ أيضا ـ راشدالدين سنان مقدم الاسماعيلية في الشام ، ووعده باعطائه أموالا كثيرة ان تمكن من قتل صلاح الدين • وقد استجاب راشدالدين سنان لطلب كمشتكين ، الا ان محاولته باءت بالفشل وقتل صلاح الدين جماعة الاسماعيلية في الحال[٤] •

واضافة الى ذلك ، فقد أجبر سعدالدين كمشتكين الملك الصالح

---

(١) مفرج لكروب : ٢/٢٩ ؛ المقريزي ، السلوك : ١/٥٩ ؛تاريخ ابن خلدون : ٥/٥٦٩ •

(٢) عاشور ، الحركة الصليبية : ٢/٧٤٤ •

(٣) Runciman, op. cit., 11, P. 407.

(٤) كانت هذه المحاولة الاولى التي قام بها الاسماعيلية لقتل صلاح الدين ، وسوف نتطرق الى شرح هذا الحادث في فصل قادم انظر : الكامل ١١/٤١٩ ؛ مفرج الكروب : ٢/٢٤ ؛ البداية والنهاية : ١٢/٢٨٩/ وقد انفرد ابن كثير برواية مفادها بأن الملك الصالح راسل شيبان صاحب الحسبة وطلب منه ارسال نفر من اتباعه الى صلاح الدين ليقتلوه فلم يظفروا منه بشيء • انظر : البداية والنهاية : ١٢/٢٨٩ •

اسماعيل بالميل نحو طائفة الشيعة بحلب ، خاصة وانه وجد من طائفة السنة في حلب ميلا نحو صلاح‌الدين ، فخاف ان يسلموا اليه البلد ، كما فعل أهالي دمشق . فتعاون مع طائفة الشيعة وتسامح معهم في اقامة شعائرهم الدينية التي الغاها نورالدين كالجهر « بحيّ على خير العمل » في الاذان والدعوة للائمة الاثني عشر امام الجنائز وفي الاسواق ، والصلاة على أمواتهم خمس تكبيرات . كما اتفق معهم ان تكون عقود الانكحة الى الشريف الطاهر حمزة من زهرة الحسني ـ أحد كبار الشيعة في حلب ـ اضافة الى اعادته اليهم شرقية الجامع بحلب لاقامة صلاتهم فيه على قاعدتهم القديمة[1] .

ومما يدل على ذلك قول المؤرخ الشيعي ابن أبي طيء : « فأذن المؤذنون في منارة الجامع وغيره بحيّ على خير العمل ، وصلى أبي في الشرقية مسبلا ، وصلى وجوه الحلبيين خلفه ... وفعلوا جميع ما وقعت الايمان عليه »[2] .

وللتأثير على الرأي العام الحلبي ، وقطع كل محاولة منهم لتسليم حلب الى صلاح‌الدين أشير على الملك الصالح بن نورالدين بالقاء خطبة مؤثرة على جموع الشيعة بحلب ، وقد ذكر ابن أبي طيء نص الخطبة الملقاة ومما جاء فيها ما يلي : « يا أهل حلب أنا ربيبكم ونزيلكم واللاجيء اليكم ، كبيركم عندي بمنزلة الاخ ، وصغيركم عندي يحل محل الولد » [قال ابي ابي طيء] وخنقته العبرة وسبقته الدمعة وعلا نشيجه فافتتن الناس وصاحوا صيحة واحدة ، وضجوا بالبكاء وقالوا نحن عبيدك وعبيد أبيك نقاتل بين يديك ونبذل أموالنا وانفسنا لك »[3] .

---

(١) ابن ابي طيء ، انظر : ابو شامة ، الروضتين :٢/٢٣٨ .

(٢) ابو شامة ، المصدر السابق : ٢/٢٣٩ .

(١) ابو شامة : ٢/٢٣٨/ وقد اضاف ابن العديم وغيره الى نص

والظاهر ان الخطبة السابقة نقلت عن ابن أبي طيء الى كثير من المصادر والمراجع من دون تمحيص أو تدقيق لواقع الخطبة ولطبيعة الناس الملقاة عليهم[1] • فالذين تجمهروا حول الملك الصالح ، لم يكونوا من الحلبيين عامة ، انما كانوا من طائفة الشيعة ـ كما ذكرنا من قبل ـ ثم ان الملك الصالح لم يتقدم الى القاء خطبته بدافع ذاتي ، انما اشير عليه من قبل كمشتكين الذي تواطئ مع الشيعة بحلب • وقد ذكر ابن أبي طيء ما يدل على ذلك « اشير على ابن نورالدين ان يجمعهم في الميدان ويقبل عليهم بنفسه ، ويخاطبهم انهم الوزر والملجأ »[2] ، علما بان طائفة الشيعة لم تبد استعدادها لمساعدة الملك الصالح الا بعد ان تنازل لهم عن كل ما حظر عليهم فعله أيام والده نورالدين ، فقد اشترطوا « على الملك الصالح ان يعيد اليهم شرقية الجامع ••• وان يجهر بحيّ على خير العمل والاذان والتذكير في الاسواق وقدام الجنائز بأسماء الائمة الاثني عشر »[3] •

ومن بين المصادر التي نقلت الخطبة بتشويش ابن الاثير القائل : « ركب الملك الصالح ، وهو صبي عمره اثنا عشرة سنة ، وجمع أهل حلب

الخطبة ما يلي : « وقد عرفتم احسان ابي اليكم ، وقد جاء هذا الظالمينتزع ملكي » انظر : زبدة الحلب : ٣/٢٢ ؛ ابن العبري ، التاريخ المختصر: ٢١٦ •

(١) اشارت بعض المصادر والمراجع التي نقلت عن ابن ابي طيء بأن الملك الصالح القى الخطبة على جموع الحلبيين ، وانه اثر فيهم وابكاهم ودفعهم الى لتعاطف معه ، ووعدوه ببذل اموالهم وأنفسهم في سبيله • أنظر: مثلا الكامل : ١١/٤١٨ـ٤١٩ ، مفرج الكروب : ٢/٢٣؛ زبدة الحلب : ٣/٢٢ ، ابن خلدون ٥/٥٦٩ ؛ سعداوي ، التاريخ الحربي المصرى : ٦٢؛ بيومي ، قيام الدولة الايوبية : ٢٢١ •

(٢) الروضتين : ٢/٢٣٨ •

(٣) نفس المصدر والمكان السابق •

وقال لهم : قد عرفتم احسان ابي اليكم ومحبته لـكم ••• وبكى بأبكى الناس فبذلوا له الاموال والانفس واتفقوا على القتال دونه والمنع عن بلده ، وجدوا في القتال ، وفيهم شجاعة ••• فكانوا يخرجون ويقاتلون صلاحالدين عند جبل جوشن ، فلا يقدر على القرب من البلد »[1] • ونظرة عميقـة للنص الذي اورده ابن الاثير ـ والذي نقله عنه الكثيرون ـ لتشير الى ان فيه شيئا من التعميم والمبالغة • فقد اشار ابن الاثير ان الصالح اسماعيل جمع أهالي حلب وخطب فيهم ، علما بأن الذين تجمهروا حوله انما كانوا من طائفة الشيعة الاثني عشرية فقط ـ كما ذكرنا من قبل ـ أي ان في النص تعميما وتورية • ثم ان ابن الاثير يشير الى ان الصالح اسماعيل قال في خطبته المؤثرة للناس حوله من الشيعة : « قـد عرفتم احسان أبي اليكم ومحبته لكم » والحقيقة ان نورالدين لم يحسن اليهم كاحسان ابنه الصالح اسماعيل ، الذي كان تحت تأثير سعدالدين كمشتكين ، لان نورالدين انما كان قد أبطل شعائرهم الدينية مثل (الاذان بحيّ على خير العمل) ، وجعل مظاهر الحياة الاجتماعية والدينية بالخط الذي تسير عليه جماعة السنة ـ وقد ذكرنا فيما سبق ما يدل على ذلك ـ ولو كان الملك الصالح ـ كما ذكر ابن الاثير ـ قد ذكر الحلبيين باحسان والده ومحبته لهم ، فلماذا اذن يطلبون منه السماح لهم باقامة شعائرهم المحظورة عليهم ؟ ثم اذا كانت لدى اتباع الملك الصالح من القـوة العسكرية ما يدفع بهـا صلاحالدين بحيث يجعله لا يقدر على القرب من حلب ـ كما ذكر ابن الاثير ـ فلماذا اذن انهزم الحلبيون أمامه وتحصنوا بأسوار المدينة ، وامتنعوا عن التصادم به وجها لوجه !؟

ولو كانت لدى الملك الصالح القوة الكافية لصد صلاحالدين ، فلماذا

---

(١) الكامل : ١١/٤١٨ـ٤١٩ •

اذن استعان بقوى الصليبيين والاسماعيلية والمواصلة • علما بان أغلب المصادر التاريخية لم تشر الى ان الحلبيين كانوا يخرجون من حصونهم ويقاتلون صلاح الدين ، بل على العكس كان الصالح اسماعيل وسعدالدين كمشتكين قد خافا من طائفة السنة في حلب ان يسلموا البلد الى صلاح الدين فاستمالوا طائفة الشيعة وتحصنوا في البلد[1] •

ويبدو من دراسة النص ان ابن الاثير عمّم خطبة الملك الصالح السابقة الذكر ، والتي يبدو فيها ان الصالح اسماعيل كان قد خطب في جموع الحلبيين عامة في بداية تقدم صلاح الدين لحصار حلب ، وانه لما وجد من طائفة السنة ميلا نحو صلاح الدين ذكّرهم باحسان والده اليهم ومحبته لهم ، الا انهم ـ كما يبدو ـ امتنعوا عن اجابته لصغر سنه ووقوعه تحت تأثير سعدالدين كمشتكين الذي كان متواطئا مع الصليبيين وطائفة الاسماعيلية ، وبقيت طائفة الشيعة الى جانبه لصداقة كمشتكين لهم • بعد ان منحهم الملك الصالح بعض التنازلات ، لذلك كله بذلوا أموالهم وانفسهم دونه ثمنا لتلك التنازلات لا حبا بالنوريين •

اما موقف سيف الدين غازي صاحب الموصل من تحركات صلاح الدين فانه استغل انشغال صلاح الدين بقلعة حمص وبعلبك ، وجهز قواته العسكرية وارسلها بقيادة أخيه عزالدين مسعود بن مودود للانضمام للقوات الحلبية في مواجهة خطر صلاح الدين[2] • وذلك لان سيف الدين غازي خاف على مصالحه الشخصية وملكه ان يستولى عليهما صلاح الدين ، فقد

---

(١) كانت الاسباب التي دفعت صلاح الدين الانسحاب من حلب شدة البرد وكثرة تساقط الثلوج والامطار في تلك السنة ، اضافة الى هجوم الصليبيين على مدينة حص ومحاولتهم السيطرة عليها ، ابن ابي طيء ، انظر: الروضتين ٢/٢٣٩ •

(٢) الروضتين : ١/٢٤٨ ؛ مفرج الكروب : ٢/٣١ •

وجد بأن صلاح‌الدين « قد استفحل أمره وعظم شأنه فخاف ان غفل عنه استحوذ على البلاد واستقرت قدمه في الملك وتعدى الامر اليه »[1] علما بان جماعة من امراء حلب ـ كما ذكر ابن أبي طيء ـ اتصلوا بعزالدين مسعود أخي سيف‌الدين وأخبروه بأن صلاح‌الدين متى ملك حلب لم يكن له قصد الا الموصل[2] ٠

وسواء كان في تقدم عساكر الموصل الى الشام استدعاء من حلب ، أو للحفاظ على مصالح سيف‌الدين الشخصية في المنطقة ، فان صلاح‌الدين كان رجلا سياسيا كبيرا ، استطاع ان يفكر بحذق وينقذ نفسه من الخطر المحدق به ، والذي كان ينتظره لو وقعت الحرب بينه ـ وهو في عساكر قليلة ـ وبين القوات العسكرية لمنطقة الجزيرة ـ بما فيها الموصل وسنجار ـ وحلب ٠ حيث استخدم أساليب نورالدين نفسها أثناء تقدمه لحصار دمشق عن طريق « اضعاف الحزب المعارض بتشجيع المرتدين ، وبتنظيم تظاهرات عسكرية في اللحظات المناسبة »[3] وتمكن بذلك من ان يوقع انشقاقا كبيرا بين قوات الموصل وسنجار ، وبعبارة أخرى بين الاخوين سيف‌الدين غازي صاحب الموصل ، وعمادالدين زنكي صاحب سنجار ٠

فقد كاتب صلاح‌الدين عمادالدين صاحب سنجار واطعمه في الملك لانه هو أكبر أمراء البيت الزنكي[4] ، ويقال بأن صلاح‌الدين نوه له بولاية

---

(١) ابن شداد ، النوادر السلطانية : ٥٠ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ٦/٢٣ ٠

(٢) الروضتين : ١/٢٤٩ ؛

Lanepool, A History of Egypt, P. 200.

(٣) جب ، صلاح‌الدين : ١٣٢ ٠

(٤) الكامل : ١١/٤٢٠ ؛ تاريخ ابن خلدون : ٥/٥٧٠ ؛ سعداوي، المصدر السابق ٠٦٥ ويرى ابن شداد بان عمادالدين هو الذي أظهرالانتماء

الموصل[1] . وقد نجحت هذه السياسة سريعا لأن عمادالدين رفض الأنقياد لمطاليب أخيه ، وتحصّن بقلعة سنجار وأحسن حفظها والذب عنها ضد أخيه سيفالدين[2] . الذي جهز آخاه الثاني عزالدين مسعود[*] وارسله الى الشام للانضمام للقوات الحلبية ، وجعل الامير عزالدين زلفندار مساعدا له في قيادة عساكر الموصل ، بينما ذهب هو الى سنجار لحصار عمادالدين في شهر رمضان من سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م[3] .

تقدمت قوات الموصل وحلب لمضايقة صلاحالدين في منطقة الشام وتقدموا الى حماة وحصروها ، الا انهم رحلوا عنها لعدم تمكنهم من السيطرة عليها ، وراسل مقدمو حلب والموصليون ــ كما ذكر العماد الاصفهاني في البرق الشامي ــ النائب السلطاني في حماة ، علي بن أبي الفوارس ، وطلبوا منه تسليم البلد وقالوا لـه : « انما وصلنا للصلح والاجتماع فيما يعود بين الجانبين بالنصح والنجح »[4] .

لصلاحالدين . فأمده الاخير ببعض القوات العسكرية لمجابهة خطر اخيه سيفالدين . النوادر السلطانية : ٥١ ؛ وانظر : أبو شامة ، الروضتين: ١/٢٤٩ .

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب : ٣/٢٤ .

(٢) الكامل : ١١/٤٢٠ ؛ مفرج الكروب ٢:٣١ .

(*) هو عزالدين مسعود بن مودود بن زنكي الذي اصبح حاكما لولاية الموصل بعد وفاة اخيه سيفالدين غازي . وكان يختلف عن اخيه بما قيل عنه انه كان رجلا صالحا وسياسيا كبيرا جرت له مع صلاحالدين حروب كثيرة وامتدت حياته من سنة ٥٧٦ هـ الى سنة ٥٨٩ هـ (١١٨٠-١١٩٣م) انظر : الكامل ١٢/٦٦ ، الروضتين ٢/٢٢٦-٢٢٧ ؛ سنا البرق الشامي : ١/١٨٦ ؛ وفيات الاعيان : ٤/٢٩٠ - ٢٩٣ ؛ سعيد الديوهجي، الموصل في العهد الاتابكي (بغداد ١٩٥٨) : ٣٢ .

(٣) الكامل : ١١/٤٢٠ .

(٤) سنا البرق الشامي : ١/١٨٦ .

فكتب النائب لصلاح الدين يحثه للقدوم اليه علّه يتم عقد صلح لا يتأتى نقضه ، فمضى اليه صلاح الدين بجمع يسير من عسكره رجاء الائتلاف ، وابعادا للحرب • حيث التقى بالامير سعدالدين كمشتكين وشهاب الدين أبو صالح بن العجمي رغبة منه في الوصول الى السلام ، ورغم ما طلب منه التنازل عن كل الحصون التي فتحها في منطقة الشام ، فان صلاح الدين اجابهم الى طلبهم شريطة ان يكون نائبا عن الملك الصالح وله مدينة دمشق فقط بعد ان أقسم ان يسلك في الملك الصالح سبيل الامانة الا ان الموصليين والحلبيين اغتروا بقوتهم ، ووجدوا في صلاح الدين ضعفا لاجابته كل ما التمس منه اضافة الى قلة عسكره ، فظنوا فيه العجز واشتطوا في الطلب ، وجاوزا حد الاشتراط وطلبوا منطقة الرحبة وأعمالها، فامتنع صلاح الدين عن اجابتهم لانها لابن عمه ناصرالدين محمد بن شيركوه[1] • وبذلك لم يسمح صلاح لاي انشقاق يحدث بين صفوفه ، وربما اكتشف بأن الزنكيين أرادوا ضرب قوته من الداخل باثارة الانشقاق بينه وبين أقربائه الذين وكل اليهم قيادة الفرق العسكرية وادارة بعض القلاع ، ففضل الحافظ على وحدة صفه على كسب أعدائه بمثل هذه الطريقة •

ولم يشأ صلاح الدين ان يقاتل جموع عساكر الموصليين والحلبيين التي اتحدت ضده ــ وهو بقواته القليلة ــ لذلك عمد سياسته الحكيمة التي استخدمها من قبل في اثارة الانشقاق بين أعدائه ، فجعل يداريهم ويدعوهم للمصالحة لعل عسكره يلحق به[2] • فتنازل لكمشتكين عن

---

(١) سنا البرق الشامي : ١/١٨٦ ، ابن ابي طيء ؛ انظر : الروضتين : ١/٢٤٩ •
(٢) البداية والنهاية : ١٢/٢٩٠ •

حمص وحماة وبعلبك واقتنع بدمشق وحدها لعله يثير انشقاقا بين حلب والموصل ، الا ان سياسته في هذه المرة فشلت لان العرض رفض[1] . ونهض مقدمو حلب والموصل من مجلسه الى مخيمهم ، ثم ساروا بعساكرهم الى جانب نهر العاص من شيزر ، واظهروا بانهم يريدون الحرب[2] .

لذلك لم يجد صلاح الدين بدا من حربهم ، وتقدم الى قرون حماة ، ومن هناك حاول مرة أخرى مصالحتهم ، واجتهد في ذلك ـ كما ذكر ابن شداد ـ فما صالحوه ورأوا ان في الحرب معه خير وسيلة لاصلاح أوضاعهم ونيل مقصودهم[3] . فاضطر صلاح الدين الى اعلان الحرب عليهم ، بعد ان استنفر عسكره وجعله كردوسا[4] واحدا للمدافعة حتى تصل اليه عساكره التي استدعاها من المدن القريبة التابعة له[5] .

وفي يوم الاحد ١٩ رمضان سنة ٥٧٠هـ (١٣ نيسان سنة ١١٧٥م) التحم الطرفان بمعركة حامية وكان كردوس صلاح الدين يقاتل ميمنة وميسرة لسدّ الفراغ في نقص عدد الجند ، ومشاغلة الاوقات حتى وصل اليهم جماعة من العسكر المصري في عشرة من المقدمين الاكابر منهم تقي الدين

---

(١) Runciman, op. cit., 11, P. 409.

(٢) سنا البرق الشامي : ١/١٨٨ ؛ مفرج الكروب : ٢/٣٢ .

(٣) ابن شداد ، النوادر السلطانية : ٥١ .

(٤) الكردوس : نظام لتعبئة الجيوش في العصور القديمة ، يخالف نظام الكتائب ، وهو نظام روماني لا يتقيد فيه الجند بصف واحد او كتيبة واحدة ، انما يكون عدة كتائب يشكل منها كردوسا واحدا . وكان يخرج من الكردوس «النداء» الذي يستخدم للواجبات الخاصة . انظر : زيدان ، التمدن الاسلامي (القاهرة ١٩٠٢) ١١٧:١ ، عبدالله العمري ورفقاءه ، الجيش العربي في صدر الدولة العباسية (بغداد ١٩٦٣) :١٤١؛ سعداوي ، التاريخ الحربي المصري : ٦٥ هامش ٤ .

(٥) ابن ابي طيء ، انظر : الروضتين ١/٢٥٠ .

عمر وعزالدين فرخشاه ابنا اخي صلاحالدين ، وشهابالدين محمود بن تكش خاله وجماعة من خواص صلاحالدين ورجاله الذين اندفعوا للحرب بقوة جعلت فيها آمال الزنكيين تخيب ، فقد انهزموا مولين الادبار ، وتركوا اثقالهم واحمالهم ، وأسر جماعة من عساكرهم ، وثبت قليلا عزالدين مسعود بعد انهزام أصحابه ، الا انه ازيل عن موقفه ، وغنم صلاحالدين كل ما كان معه ، وتبعهم الى حلب قاصدا محاصرتها وعندئذ امر بقطع خطبة الملك الصالح وازالة اسمه عن السكة في بلاده[1] . وبذلك بسط صلاحالدين نفوذه على كل أملاك النوريين بالشام تقريبا بضمنها جنوب مقاطعة حلب .

ولقد اتبع صلاحالدين في هذه المعركة مع النوريين سياسة حكيمة للغاية . ففي الوقت الذي كانت فيه رحى الحرب تدور ، كان صلاحالدين - كما ذكر ابن أبي طيء - يراسل جماعة من أمراء الموصل - بعد ان فشلت سياسته السابقة بفك ارتباط حلب عن الموصل - ويستميلهم اليه ، ويستفسدهم بحمل الاموال اليهم حتى أبطأهم عن الحرب[2] . وربما قصد صلاحالدين في هذه المرة الحفاظ على دماء المسلمين وعدم اراقتها . ومما يدل على ذلك الاوامر التي أصدرها لعساكره بعد فرار العسكر النوري أمامهم ، بأن « لا يتبع مدبر ولا يقذف على جريح ، ثم اطلق من وقع في

---

(١) الكامل : ١١/٤٢٢ ؛ النوادر السلطانية : ٥١ ؛ الروضتين : ١/٢٥٠ ؛ سنا البرق الشامي ٨٨:١ ؛ مفرج الكروب : ٢/٣٢ ؛ تاريخ ابن خلدون ٥٧:٥ ؛ النجوم الزاهرة : ٦/٢٣؛ البداية والنهاية: ١٢/٢٩٠؛ الغزى ، نهر الذهب في اخبار من ذهب : ٣/١٠٠-١٠١ ؛
Lanepool, A History of Egypt, P. 200; Runciman, op. cit., 11, P. 409.

(٢) الروضتين : ١/٢٥٠ .

اسره »[1] • حتى قيل بأنه لم يقتل في تلك المعارك أكثر من سبعة انفس[2] • وربما اراد صلاح الدين أيضا ان يكسب ثقة من حاربه من المسلمين ومودتهم ، لانه انما كان يريد ان يضمهم الى جانبه ليكونوا له عونا عند محاربته الصليبيين ، ولو كان يريد حربهم والقضاء عليهم لما اطلق اسراهم ولتتبع فلولهم المنهزمة • ويمكن ان يكون لتلك الجماعات التي هربت من المعركة من دون غدر صلاح الدين بها أثر في انتظام الصلح بينه وبين الحلبيين فيما بعد • اذ بعد ان تقدم صلاح الدين لحصار حلب في المرة الثانية ، كان الحلبيون قد راسلوه[3] على ان يكون لهم ما بأيديهم ، ولصلاح الدين ما افتتحه من بلاد الشام ، فوافق صلاح الدين على ذلك وانسحب من حصار حلب في العشر الاول من شوال سنة ٥٧٠هـ[4] •

وبالرغم من السياسة الجديدة التي اتبعها صلاح الدين ضد النوريين ، والتي ادت الى انتصاره وهزيمة من حاربه من المسلمين ، فان ابن الاثير يعزى سبب هزيمة النوريين الى مقدم العسكر النوري عزالدين زلفندار

---

(١) البداية والنهاية : ١٢/٢٩٠ •

(٢) المقريزي ، السلوك : ١/٥٩ •

(٣) الكامل : ١١/٤٢٢ • وقد ذكر العماد الاصفهاني في البرق الشامي بأن صلاح الدين بعد انتصاره على النوريين في قرون حماة توجه الى بقرا حصار من اعال حلب ، وعيد عيد الفطر فيها وهو ينوي حصار حلب، فجاءت اليه رسلهم بالانقياد وأجابوا الى المراد وتنازلوا لصلاح الدين بكل ما أخذ الى حماة ، ولما رأى صلاح الدين انكسارهم استزادهم على حلب كفر طاب والمعره ، وأخذ منهم الايمان المستقرة على شروط هذا الصلح وسألهم اطلاق سراح اخوه مجدالدين من السجن فأجابوه وتم الصلح • **سنا البرق الشامي** : ١/١٩٠-١٩١ ، انظر : الروضتين : ١/٢٥٠ ؛ تاريخ ابن خلدون : ٥/٥٧٠ ؛ البداية والنهاية ١٢/٢٩٠ ؛ السلوك : ١/٥٩ •

(٤) مفرج الكروب : ٢/٣٣ •

الذي وصفه بقوله « وكان زلفندار جاهلا بالحروب والقتال غير عالم بتدبيرها مع جبن فيه ، الا انه رزق سعادة وقبولا من سيف‌الدين »[1] .

وعلى أية حال فان انتصار صلاح‌الدين عند قرون حماة كان له نتائج ايجابية هامة : فقد ثبتت مركزه تماما في منطقة الشام ، كما اضعفت مركز مناوئيه من المسلمين . حتى ان بعض القلاع القريبة كان متولوها يرسلون الى صلاح‌الدين طلب الاستسلام والانقياد لحكمه امثال صاحب قلعة بعرين[2] . التي كانت بيد الامير فخرالدين مسعود الزعفراني ، وهو من أكابر الامراء النورية ، اذ لما أحس بقوة صلاح‌الدين نزل من قلعته وانقاد له وطلب الدخول في خدمته ، وظن انه يكرمه ويشاركه في الملك . الا ان صلاح‌الدين لم يلتفت اليه فغادرها ، ومن ثم تسلمها صلاح‌الدين واقطعها لخاله شهاب‌الدين محمود بن تكش الحارمي[3] .

---

(١) الكامل : ١١/٤٢١ .

وفي ذكر ابن الاثير لحوادث هذه المعركة تظهر ميوله نحو اميرالموصل، الذي ربما قصد ارضاءه عندما تحدث عن العسكر النوري فقال : « ولما التقى الجمعان لم يثبت العسكر ... وثبت عزالدين اخو سيف‌الدين بعد انهزام اصحابه ، فلما رأى صلاح الدين ثباته قال : أما أن يكون اشجع الناس او انه لا يعرف الحرب ، وأصر اصحابه بالحملة عليه فحملوا وأزالوه عن موقفه » الكامل ١١/٤٢١-٤٢٢ ولو تسألنا : هل كان ابن الاثير الى جانب صلاح‌الدين وسط معمعة الحرب ليعرف ما قاله عن عزالدين ؟ ليتبين بوضوح ميله نحو امير الموصل عزالدين .

(٢) وردت هذه القلعة في كتاب الكامل والبرق الشامي باسم « بعرين » وفي مفرج الكروب والنوادر السلطانية باسم « بارين » والاصح « بعرين » لتواردها في أغلب المصادر القديمة انظر : الكامل : ١١/٤٢٣، النوادر السلطانية : ٥١ ؛ سنا البرق الشامي : ١/١٩١ ؛ مفرج الكروب ٢/٣٤ .

(٣) الكامل : ١١/٤٢٣ ؛ مفرج الكروب : ٢/٣٤/ وفيما يخص

اعلن صلاح الدين نفسه ـ بعد ذلك الانتصار ـ حاكما على مصر والشام وتخلى عن تبعيته للملك الصالح بن نورالدين الذي لم يبق له سوى مدينة حلب وبعض القلاع المحيطة بها[1] • اضافة الى ان ذلك الانتصار هزّ الخلافة العباسية ببغداد مما دفع بالخليفة العباسي الى ارسال الخلع السنية والتشريفات العباسية والاعلام السود ، اضافة الى التوقيع من الديوان بالسلطنة على بلاد مصر والشام[2] • وبهذا التقليد أصبح صلاح الدين سلطانا شرعيا بنظر المسلمين ، ووارثا حقيقيا لدولة نورالدين وجهاده واكسبه التقليد الخليفي مهابة الصليبيين خاصة وامراء المسلمين عامة •

تولية صلاح الدين قلعة بعرين لخاله الحارمي ، يرى نظير سعداوي بأن عدم التفات صلاح الدين للزعفراني وسحب القلعة من يده وتسليمها للحارمي ، انما هي سياسة التعصب العنصري التي سار عليها صلاح الدين بتفضيل العنصر الكردي على العنصر التركي لان الزعفراني كان تركيا وان صلاح الدين كان كرديا ، فكان يولي اقرباءه من الاكراد القلاع والمدن• (التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين : ٦٨) •

والحقيقة ان سعداوي خاطيء فيما نسبه لصلاح الدين ، لان سياسة التعصب العنصري وتفضيل قومية على أخرى لم يكن مألوفا في عهد صلاح الدين الذي ساده الشعور الاسلامي من اجل احياء معالم الجهاد لمقاومة الخطر الخارجي القاضي بانصهار القوميات جميعا للعمل في مصلحة الاسلام • اضافة الى ان العنصرية والقومية لم تظهر معالمها الا بعد القرن ١٩م • ثم ان تسلم صلاح الدين الحصون والقلاع لاقرباءه لا يعني تفضيل قوميتهم على القوميات الاخرى ، انما يعني سياسة حكيمة من صلاح الدين لتثبيت مركزه وحكمه في تلك المدن والحصون • وهذا أمر طبيعي يتبع قديما وحديثا ، لان كل قوة جديدة اذا أرادت ان تمركز قوتها في المناطق المفتوحة عليها أن تضع قيادة امورها وحصونها بيد انصارها أو اقربائها لفترة محدودة حتى يستقيم الحكم •

(١) الكامل : ٤٣٢/١١ ؛ سنا البرق الشامي : ١٩٢/١ـ١٩٣ ؛ البداية والنهاية : ٢٩١/٢ •

(٢) البنداري ، سنا البرق الشامي : ١٩٢/١ـ١٩٣ •

وبعد الانتصار الذي حققه صلاح الدين على النوريين في قرون حماة عاد الى دمشق فدخلها في آخر شوال من السنة ، ثم رحل منها الى مرج الصفر فنزل به الى آخر السنة[1] • وتقدم الشعراء اليه والى أقربائه من الامراء الايوبيين بالمدح لانتصارهم على النوريين في قرون حماة ، كان من بينهم العماد الاصفهاني الذي مدح محمد بن شيركوه بقصيدة جاء فيها :

وتحطمت عند القرون قرونهم بل كلت الانياب والاظفار
عبروا المعرة مالكين معرّة والعار يملك تارة ويعار
او ما كفاهم يوم حمص وكفهم في بعلبك بمثلها الانذار[2]

وفي مرج صفر في بداية سنة ٥٧١هـ/١١٧٥م جاء رسول الصليبيين الى صلاح الدين يطلب عقد هدنة بين الطرفين ، فاجيب الى طلبه ، بعد ان اشترط على الصليبيين أمورا التزموها[3] • لان الصليبيين اصيبوا في ذلك العام بشدة كبيرة ، وضايقة اقتصادية نظرا للجدب الذي أصاب منطقة الشام[4] • وربما خاف الصليبيون من قوة صلاح الدين التي أصبحت تهدد قوتهم في المنطقة • اذ ان الانتصار الذي حققه صلاح الدين في حمص وحماة ، وقرون حماة على النوريين ، اوقع الرعب في قلوب الصليبيين ، فدفعهم ذلك الى ان يحسبوا لقوة صلاح الدين حسابها ففضلوا السلامة ، واختاروا جانب الهدنة ، فأرسلوا اليه وفدا لمفاوضته على ذلك ، فوافق صلاح الدين على الاقتراح الصليبي ليعطي لعسكره قسطا من الراحة ينعم بها المقاتلون عند أهليهم ، خاصة وان الشام كان مجدبا ـ كما ذكرنا من

(١) مفرج الكروب : ٢/٣٥ •
(٢) الروضتين : ١/٢٤٩ •
(٣) مفرج الكروب : ٢/٣٥ •
(٤) البداية والنهاية : ١٢/٢٩٢ •

قبل – اضافة الى ان صلاح‌الدين كان قد توصل الى عقد هدنة مع الحلبيين • لذلك كله فرّق العسكر ، وارسل بالقاضي الى مصر برفقة العساكر المصرية « ليستغلوا المغل وليحفظ الفاضل ما استجد من الممالك »[1] •

وربما قصد صلاح‌الدين – باتفاقة مع الصليبيين – ان يأمن جانب أعدائه – ولو لفترة قصيرة – ليتسنى له التفرغ للنوريين وتوحيد الكلمة ، كي لا يحارب في جبهتين في وقت واحد • فقد كان النوريون في حلب وبلاد الجزيرة وديار بكر (أي من الشمال والشرق من مراكزه) بينما كان الصليبيون يحتلون جزء من فلسطين والساحل الشامي ، وهم بذلك يهددون حدوده الغربية والجنوبية أيضا فيما اذا تقدم الى داخل بلاد الجزيرة[2] •

وبعد ان تم له الاطمئنان من المناوئين له من المسلمين ، وتمت الهدنة مع الصليبين عاد الى دمشق وأخذ يجلس في دار العدل ، وعاد الى سيرته الاولى في التردد الى الصيد وأخذ الشعراء والكتاب يزورونه وينشدون القصائد والمديح بمآثره ومكارمه • وقد مدحه من بين هؤلاء العماد الاصفهاني في قصيدة حيا فيها انتصاره على أعدائه ، واوضح بأن صلاح‌الدين انما كسب الكرام ببّره ، وجانبه أعداؤه لبطشه ، وطلب من الله ان يمده بعمر طويل ليحقق كمال الانتصار على عدوه • وربما دلت القصيدة على أسباب عقد الصليبيين الصلح مع صلاح‌الدين ، لانه بأسه صدهم ، ولانهم

---

(١) مفرج الكروب : ٢/٣٦ ؛ البداية والنهاية : ١٢/٢٩٢ •

(٢) قيل ان هذا الاتفاق الذي وقع بين صلاح‌الدين والصليبيين كان فرصة طيبة عرفت فيه لاول مرة خلق صلاح‌الدين النبيلة لدى اعداءه الذين اعجبوا بمزاياه ، حتى ان ممثل الصليبيين هنرى اف تورن Humphry of Toron منح صلاح‌الدين لقب فارس بعد ان اعجب به اعجابا كبيرا •

Lanepool, A History of Egypt, P. 200.

قصدوه بطلب الصلح خوفا منه[1] .

نقض سيف الدين غازي معاهدة الصلح مع صلاح الدين

بينما كان صلاح الدين يجني ثمار انتصاره في قرون حماة ، نجد ان سيف الدين غازي يحارب بجبهتي أولاهما كان يحاصر أخاه عماد الدين ، أمير سنجار ، لعدم اتفاقه معه لمحاربة صلاح الدين . نجده في الاخرى يحارب قوات صلاح الدين . وحين بلغه نبأ اندحار قواته أمام جيوش صلاح الدين صالح أخاه عماد الدين ، بعد ان كادت سنجار تسقط بيده ، وهرع الى الموصل ليجمع قواته من جديد للانتقام من صلاح الدين[2] .

وفي الوقت الذي عقد فيه سيف الدين غازي الصلح مع عماد الدين ، كان الصلح قد انتظم بين صلاح الدين والحلبيين ، ولما وصل خبره الى سيف الدين عتب على الحلبيين « ووبخهم ونسبهم الى العجلة في ذلك والى الضعف ، وسلوك غير طريق الحزم ، وحملهم على النقض والنكث ، وانفذ اليهم من أخذ عليهم المواثيق »[3] . كما بعث برسول من عنده الى صلاح الدين بدمشق ليأخذ له عهدا وليكون جاسوسا للموصليين لاكتشاف نوايا صلاح الدين ومقاصده . الا ان الرسول لما وصل دمشق وقابل صلاح الدين غلط واخرج من كمه نسخة يمين الحلبيين لسيف الدين

---

(١) جاء في بداية القصيدة التي مدح بها العماد الاصفهاني صلاح الدين سنة ٥٧١ هـ/١١٧٥م اثناء وجوده بدمشق ما يلي :-

سواك لسهم العلى لن يريشا ... فنسأل رب العلى ان تعيشا
من الناس بالبر صدت الكرا ... م، وبالبأس في البر صدت الوحوشا

انظر : مفرج الكروب : ٢/٣٦ .

(٢) انظر : ابن ابي طيء ، الروضتين ١/٢٤٩ ؛ الكامل ١١/٤٢٧ ؛ مفرج الكروب : ٢/٣١ و٣٧ ؛ مرآة الزمان ، ق١:١/٣٣٣ .

(٣) الروضتين ١/٢٣٥ ؛ سنا البرق الشامي : ١/١٩٥-١٩٦ ؛ مفرج الكروب ٢/٣٦ .

القاضية بنقض الهدنة التي بينهم وبين صلاح‌الدين ، ولما تسلمها صلاح‌الدين علم باتفاقهم عليه ، ونقض الحلبيين ما أخذ عليهم من المواثيق وقال للرسول ـ كما ذكر العماد الاصفهاني ـ « كيف حلف الحلبيون للمواصلة ، ومن شرط ايمانهم انهم لا يعتمدون أمرا الا بمراجعتهم لنا واستيذانهم ؟ »[1] •

وبالاضافة الى ما سبق عمد سيف‌الدين غازي الى جمع عساكره من الموصل وديار بكر • بعد ان استنجد ـ أيضا ـ بصاحب حصن كيفا وماردين ، وأخذ ينفق الاموال الكثيرة للاعداد لحملة كبيرة تقدم بها الى نصيبين في ربيع الاول من سنة **٥٧١هـ/١١٧٥م** ، وأقام بها حتى انتهت موجة الامطار والبرد ، ثم سار نحو حلب فعبر نهر الفرات من البيره وخيم على الجانب الغربي منها ، وراسل الحلبيين واستقرت القاعدة بين الطرفين على انضمام القوات الحلبية الى عسكر سيف‌الدين لمحاربة صلاح‌الدين ، بعد ان كانت قد جرت بين سيف‌الدين وسعدالدين مراسلات طويلة ، عزم خلالها سيف‌الدين مرارا العودة الى الموصل ، وترك مقاومة صلاح‌الدين[2] • الا ان أمره استقر باجتماعه بابن عمه الملك الصالح اسماعيل بن نورالدين قرب قلعة حلب ، ثم افترق الطرفان بعد ان عاد الملك الصالح الى حلب ونزل سيف‌الدين غازي بعين المباركة وكان عسكر كمشتكين يخرج الى خدمته

---

(١) سنا البرق الشامي : ١/١٩٥ـ١٩٦ ؛ مفرج الكروب : ٢/٣٧ ؛ مرآة الزمان ق١ : ٨/٣٣٢ •

(٢) لم أجد في المصادر التاريخية مضامين المراسلات التي جرت بين سيف‌الدين حاكم الموصل وسعدالدين كمشتكين الوصي على الملك الصالح في حلب • ولا الاسباب التي كانت تدع سيف‌الدين الى الانسحاب للموصل ، غير ان ابن الاثير ذكر بأن عسكر سيف‌الدين غازي ضجر من طول المقام بالشام لنفاذ نفقاتهم ولبرودة الجو لانه مكث بنصيبين حتى انقضى فصل الشتاء ، فكان هذا من اسباب رغبته بالعودة الى الموصل• انظر : الكامل : ١١/٤٢٧ •

كل يوم ثم غادرها وتوجه الى تل السلطان[1] بجمع كبير من عساكر الموصل وحلب وديار بكر وغيرها[2] .

ولم يكتف سيف‌الدين غازي وسعدالدين كمشتكين بما قرراه من الاتفاق على مقاومة صلاح‌الدين ، وانما اتفقا أيضا على وجوب التعاون مع الصليبين لتحقيق نفس الهدف . وربما أرادوا بذلك دفع صلاح‌الدين على القتال وحده في جبهتين .

لذلك اطلقوا سراح من كان في الاسر في حلب من ملوك الصليبيين منهم البرنس ارناط صاحب حصن الكرك وجوسلين خال الملك بعد ان اتفقا معهم على وجوب المساعدة لهم[3] .

اما حقيقة ذلك التعاون الذي كان بين الصليبين والجبهة المتحدة من الموصليين والحلبيين : فان المصادر التاريخية لم توضحه ، واكتفت بالقول على ان الجبهة المتحدة (سيف‌الدين غازي والصالح اسماعيل) استعانت بجماعة من الصليبيين[4] وقيل : اطلق الحلبيون من كان في اسرهم من ملوك الصليبين[5] . علما بان الاثير وابن شداد لم يذكرا شيئا عن التعاون مع الصليبيين في هذه الفترة .

---

(١) تل السلطان : منزلة بين حلب وحماة . انظر : النجوم الزاهرة ، المصدر السابق : ٦/٢٦ .

(٢) الكامل : ١١/٤٢٧ـ٤٢٨ ؛ النوادر السلطانية : ٥١ ؛ مفرج الكروب : ٢/٣٧ـ٣٨؛ النجوم الزاهرة ٦:٢٧ ؛ مرآة الجنان بتاريخ‌الاعيان ٣:٣٩٣ ؛ مرآة الزمان ق١ :٨/٣٣٣ ؛ تاريخ ابن خلدون : ٥/٥٧٠ـ ٥٧١؛ البداية والنهاية : ١٢/٢٩٢ ؛ الحريري ، الاخبار السنية : ١٢٨؛ سعداوي ، المصدر السابق : ٧٠ـ٧١ .

(٣) سنا البرق الشامي : ١/٢٠٢ ؛ مفرج الكروب : ٢/٣٨ .

(٤) البداية والنهاية : ١٢/٢٩٢ .

(٥) سنا البرق الشامي : ١/٢٠٢ ؛ مفرج الكروب : ٢/٣٨ .

ورغم عدم تحديد المصادر التاريخية ـ أو سكوتها ـ عن ماهية الاتفاق الذي حصل بين الجبهة المتحدة والصليبيين فان أغلب المراجع الحديثة أشارت الى ان الجهة المتحدة قررت الدخول في مفاوضات مع حاكم امارة انطاكية الصليبية ، الا انه لم يعرف ما اسفرت عنه تلك المفاوضات ـ كما ذكر نظير سعداوي ـ سوى اطلاق سراح اسراهم من حلب[1] • وأشار الدكتور سعيد عبدالفتاح عاشور الى ان سيفالدين غازي أرسل سفاره الى ريموند الثالث صاحب طرابلس والوصي على بيت المقدس يطلب فيها محالفته في مقاومة صلاحالدين • ولكي يثبت حسن نواياه أرسل الى ريموند ما كان لديه من اسرى الصليبيين[2] •

والحقيقة انه لا توجد أية مفاوضات بين الموصليين والحلبيين من جهة وامارة انطاكية أو طرابلس الصليبية من جهة ثانية • ذلك لان كل المصادر التاريخية العربية المعاصرة لم تشر قط الى وجود محاولة للاتفاق مع ريموند ولم تشر الى اسمه • علما بان الدكتور عاشور أشار الى ابن واصل كمصدر لمعلوماته التاريخية ، في الوقت الذي لم اجد في ابن واصل ما يدل صراحة على ما جاء به الدكتور عاشور ، وان ابن واصل لم يذكر سوى « واطلق الحلبيون من كان في الاسر من ملوك الفرنج »[3] • اضافة الى ان عاشور اتهم سيفالدين غازي بتواطئه مع الصليبيين واتفاقه معهم ، بينما الذي ذكره ابن واصل ـ كما مر أعلاه ـ ان الحلبيين هم الذين اطلقوا سراح ملوك الصليبيين لا أمير الموصل سيفالدين غازي •

---

(١) سعداوي ، المصدر السابق : ٧٠ •

(٢) الحروب الصليبية : ٧٤٧/٢ •

(٣) مفرج الكروب : ٣٨/٢ ؛ وانظر : عاشور ، الحركة الصليبية : ٧٤٧/٢ للمقارنة مع ما أورده ابن واصل فيما يخص محاولة الاتفاق بين سيفالدين غازي ـ اتابك الموصل ـ والصليبيين •

اما ما أشار اليه نظير حسان سعداوي من ان سيف الدين غازي والصالح اسماعيل « اتفقا على الدخول في مفاوضات عسكرية مع امارة انطاكية الصليبية ، ولم يعرف تماما ما اسفرت عنه تلك المفاوضات الا اطلاق سراح من كان في حلب وقتذاك من اسرى الصليبيين»[1] • فان قوله أيضا لا يخلو من جانب التعميم والجمع بين الادب والتاريخ • فقد أشار سعداوي الى أبي شامة كمصدر لمعلوماته ، علما بان أبا شامة لم يشر قط الى وجود مفاوضات مع امارة انطاكية الصليبية[2] • ثم ان في النص الذي اورده سعداوي شيئا من التعميم والادغام ، يقول سعداوي : « اتفقا على الدخول في مفاوضات » أي انهم (غازي واسماعيل) لم يدخلا بعد في اتفاق مع الصليبيين ثم يقول : « ولم يعرف تماما ما اسفرت عنه تلك المفاوضات » •

واستقراء مما سبق يظهر لي بان سيف الدين غازي وسعد الدين كمشتكين عندما اتفقا على مقاومة صلاح الدين ووحدا جهودهما وقواتهما العسكرية من أجل ذلك أطلقا سراح البرنس ارناط وجوسلين للمكانة الكبيرة التي كانا يحتلانها عند الصليبيين ليأمنوا جانبهم فيما اذا تقدموا لحرب صلاح الدين • وعندما اطلق سراحهما ذهبا الى ريموند الثالث حاكم امارة طرابلس وربما ـ عرفانا للجميل ـ طلبا منه عدم مهاجمة الموصليين والحلبيين في حالة تقدمهم نحو صلاح الدين ، أو طلبا منه تقديم بعض المساعدات للنوريين ضد صلاح الدين • والظاهر ان ريموند قد استجاب لطلبهما لا حبا بالنوريين ، أو تطبيقا لمعاهدة بين الطرفين ، انما طمعا في اضعاف قوة صلاح الدين لانه العدو المشترك بالنسبة لهم • لان أية محاولة من قبل صلاح الدين ـ أو غيره ـ تعمل على توحيد مصر والشام كانت تعتبر ضربة قاصمة لقوة الصليبيين في المنطقة • وقد اوضح المؤرخ الصليبي وليم الصوري

---

(١) التاريخ الحربي المصري : ٧٠ •
(٢) انظر : الروضتين : ١/٢٥٥ •

سنة ٥٧١هـ/١١٧١م ـ من دون ان يشير الى وجود اتفاق مع النوريين ـ ذلك المفهوم بقوله : « كل ازدياد في قوة صلاح‌الدين كان سببا يثير الريبة في انظارنا ... لانه كان رجلا حكيم المشورة ، وباسلا في الحرب ، وشهما الى ابعد حدود الشهامة وبدا لنا [من جانب الصليبين فقط] أكثر حكمة ان نمد العون للملك الصبي [الملك الصالح اسماعيل بن نورالدين الذي كان بحلب] ... ليس من أجل ذاته بل لتشجيعه كخصم ضد صلاح‌الدين »[1] . وهكـذا يبـدو بان الصليبيين كانوا يستخدمون سياسة « فرق تسد » بين المسلمين فيعملون جاهدين تقديم مساعداتهم لكل طرف يرون ان قوته قد ضعفت لادامة نزاعه مع الطرف الثاني كي يحقق لهم بقاء أطول في المنطقة ، سواء طلبت منهم المساعدة أو لم تطلب .

اما موقف صلاح‌الدين من تجمعات الموصليين والحلبيين العسكرية ضده ، فانه لما تيقن صـدق قصدهم لمحاربته خـرج من دمشق في شهر رمضان ، واجتاز حماه وخيّم بالقرب من بو قبيس في مرجه في ٢٥ رمضان سنة ٥٧١هـ ، حتى اذا انتهى شهر رمضان عبر صلاح‌الدين نهر العاصي بالقرب من شيزر ووصل الى تل السلطان وكان أعدائه قد سبقوه اليها[2] . ولما كان صلاح‌الدين في قليل من العسكر ، لانه كان قد سيّرها الى مصر ـ كما ذكرنا من قبل ـ فانـه بعث الى أخيه الملك العـادل بمصـر يأمره باستدعاء العساكر المصرية بالحضور للغزاة[3] . كما بعث بكتاب فاضلي الى بغداد شرح فيه للديوان العزيز مقاصـد الحلبيين وسبب محاربتهم اياه ،

---

(١) جب ، صلاح‌الدين : ١٢٥ .

(٢) الروضتين : ١/٢٥٤ ؛ مفـرج الكـروب : ٢/٣٨ ؛ البدايـة والنهاية : ١٢/٢٩٢ النجوم الزاهرة : ٦/٢٦ـ٢٧ .

(٣) ابن شداد ، النوادر السلطانيـة : ٥١ ؛ البدايـة والنهـاية ١٢/٢٩٢ ؛ زبدة الحلب : ٣/٢٥ .

وأوضح لهم أن الحلبيين نقضوا العهد الذي كان معقودا بين الطرفين .
ومن جملة ما جاء في الكتاب المرسل الى بغداد ما يلي :ـ

« ان الحلبيين والموصليين لما وضعوا السلاح وخفضوا الجناح اقتصرنا بعد ان كانت البلاد في أيدينا على استخدام عسكر الحلبيين في البيكارات الى الكفر وعرضنا عليهم الامانة فحملوها والايمان فبذلوها وسار رسولنا وحلف صاحب الموصل بمحضر من فقهاء بلده وامراء مشهده يمينا جعل الله فيها حكما وضيق في نكثها المجال على من كان حنيفا مسلما وعاد رسوله ليسمع منا اليمين فلما حضر واحضر نسختها اومى بيده ليخرجها فاخرج نسخة يمين كانت بين الموصليين والحلبيين مضمونها الاتفاق على حربنا والتداعي الى حزبنا والتساعد على ازالة خطبنا والاستنفار على من هو على بعدنا وقربنا وقد حلف بها كمشتكين الخادم بحلب وجماعة معه يمينا نقضت الاولى فرددنا اليمين الى يمين الرسول وقلنا هذه يمين عن الايمان خارجة واردت عمرا واراد الله خارجه وانصرف الرسول عن بابنا وقد نزهنا الله ان يكون اسمه معرضا للحنث العظيم والنكث الذميم وعلمنا ان الناقد بصير والاخذ قدير والمواقف الشريفة النبوية اعلاها الله مستخرجة الاوامر الى الموصلي اما بكتاب مؤكد بأن لا ينقض عهد الله بعد ميثاقه ، واما ان تكون الفسحة واقعة لنا في تضييق خناقه [ثم ذكر علاقتهم بالصليبيين فقال] : انهم يشاركونه ضد العدو اسما ولفظا ولا ينوون لما استحفظوا حفظا والعدو يجاورهم »[1] .

اما ما قيل في عدد العساكر التي اشتركت في القتال والنتائج التي تمخضت عنها المعركة ، فان المعلومات التاريخية التي وجدت في كل من مؤلفات المقريزي وابن تغري بردى وسبط ابن الجوزي وابن كثير وابن

(١) الروضتين : ١/٢٥٤ .

خلدون وابن العديم وكل المصادر والمراجع الأخرى المتأخرة ، لا تعدو أن تكون نقلا لما ورد في تاريخ الكامل لابن الاثير ، والبرق الشامي للعماد الاصفهاني[1] ، المعاصرين لصلاح الدين ، واللذين يمثلان وجهتي نظر مختلفتين ، بل ومتناقضتين لما كان يدور بين النوريين والايوبيين من صراع في الفترة الاولى قبل الوصول الى وفاق من أجل مكافحة الغزاة ٠

فالعماد الكاتب الذي ساءت علاقته مع النوريين بعد وفاة نورالدين سنة ٥٦٩هـ/١١٧٤م وخروجه من بين ظهرانيهم غاضبا عليهم[2] ، يتهم الموصليين والحلبيين بالتواطىء مع الصليبيين اضافة الى مبالغته في عدد اجنادهم ، في الوقت الذي تعمد الاقلال من عسكر صلاح الدين ليتسنى له في النهاية الاكبار من انتصاره على أعدائه فقال : « ولما تحقق اجتماع الموصلية والحلبية ، واتفاقهم بالهمم الابية ايقنا منهم صدق القصد وضلالهم عن نهج الرشد فرحلنا من دمشق في شهر رمضان ، فما عرجنا على بلد ولا انتظرنا ما وراءنا من مدد ، حتى جزنا حماة وخيمنا بقرب بوقبيس في مرجه وبعث النصر في فوجه ٠٠٠ فاسمنا الخيول ٠٠٠ وركب السلطان عند استكمال امداده واحتفال أجناده ٠٠٠ وجاءنا الخبر انهم في عشرين ألف فارس

---

(١) عثرت على ما ورد في البرق الشامي للعماد الاصفهاني فيما اورده ابو شامة في الروضتين من نصوص مختصرة لنفس الكتاب ٠ وكذلك الملخص الذي اورده البنداري المتوفي في القرن ٧ هـ في كتاب « سنا البرق الشامي » الذي حقق القسم الاول منه رمضان ششن ، في طبعة بيروت سنة ١٩٧١ ٠

(٢) ذكر العماد الاصفهاني انه بعد وفاة نورالدين تغيرت عليه الاحوال فأضطر الى هجر النوريين ، لاختلال امره وكثرة حساده الذين بلغ مرادهم اضداده حتى كان دمعه يفيض من جراء ذلك ، فخرج من الموصل وتوجه الى خدمة صلاح الدين الذي اكرمه واحسن اليه ٠ انظر : سنا البرق الشامي : ١/١٥٩ و١٨٥ ٠

سوى سوادهم وما وراءهم من امدادهم ، وانهم موعودون من الفرنج بالنجدة وانهم يزيدون كل يوم في القوة والشدة ، وما كان اجتمع من عسكرنا سوى ستة آلاف فارس »[1] .

ولما كان الاصفهاني قد خرج من الموصل غاضبا على أهلها ، فقد اتهم المواصلة ـ لا الحلبيين ـ بأنهم هم الذين اطلقوا سراح من كان في الاسر من ملوك الصليبيين وهم البرنس ارناط صاحب الكرك وجوسلين خال الملك ، وكذلك صور قوات الموصل ـ متهكما ـ باسلوب أدبي أظهر من خلالها عداوته لهم فوصف سيف‌الدين وعسكره بأنه : « شاب حوله شباب ... والملك الصالح مع الحلبيين في خلابه ... قد جمع ... من سائر قبائل الاكراد ومن المماليك الاتابكية كل كميش وهجان واكديش »[2] .

ثم يعرج الاصفهاني الى تعليل أسباب انتصار صلاح‌الدين على أعدائه ، ويرى بأن صلاح‌الدين عبأ عسكره تعبئة جيدة ، وأمرهم بعدم الهجوم على النوريين وقال لهم : « دعوهم يتعبوا ويركضوا وينقضوا قواهم ويرفضوا ، واذا قربوا منا ابعدناهم ، واذا وصلونا قطعناهم ، فنحن نعطيهم الاشواط ونوليهم الافراط وهم يصلون متسابقين متفرقين فاذا دنوا من بنيان صفنا المرصوص انقض عليهم جداره ... »[3] .

---

(١) سنا البرق الشامي : ١/ ٢٠٠ـ٢٠١ . وقد اخذ ابن كثير بوجه نظر الاصفهاني وأشار الى ان عدد عسكر الجبهة المتحدة (عسكر سيف‌الدين والملك الصالح) كان « عشرين الف مقاتل على الخيول المضمرة » ، بينما اشار الى عدد عسكر صلاح‌الدين فقال: « وانما معه الف فارس من‌الحماة» . البداية والنهاية : ١٢/ ٢٩٢ .

(٢) سنا البرق الشامي : ١/ ٢٠٢ـ٢٠٣ .

(٣) نفس المصدر والمكان السابق .

وكانت نتائج المعركة ـ كما ذكر الأصفهاني ـ لصالح صلاح الدين ، الذي حقق انتصارا عظيما ، وغنم كل ما كان مع أعدائه من خيام وعدة ، مع اسر عدد كبير من الامراء المقدمين وفرار البقية الباقية منهم الى حلب ، وغلقهم أبوابها على الفور ظنا منهم بأن صلاح الدين ورائهم . كما أشار الاصفهاني الى ان صلاح الدين عندما سيطر على عدّة الموصليين وجد في بعضها خمورا وطيورا ، وبذلك يكون قد اتهم عسكر الموصليين بتعاطي المحرمات[1] .

وقد روى ابن الاثير حوادث تلك المعركة ، وحاول تلمس الاعذار لهزيمة النوريين ، وأخفى كثيرا من معالمها ، بل لقد تجاهلها تماما في كتابه (تاريخ الدولة الاتابكية) . وأشار في الكامل الى ان عدد عساكر الموصليين

---

(١) نقل عن الاصفهاني نتائج المعركة الكثير من المؤرخين امثال: سبط ابن الجوزي وابن خلدون وابن كثير والمقريزي وغيرهم واشاروا جميعا الى نفس اتهام الاصفهاني للمواصلة بتعاطي المحرمات من دون نقد لطبيعة المؤرخ وعلاقته بالمواصلة ، بل ان البعض منهم من المتأخرين ـ عند نقله للنصوص ، تمثل بموقف الاصفهاني في الوقوف الى جانب صلاح الدين وتبرير حربه لعسكر المواصلة ولذلك بالغوا كثيرا في اتهام المواصلة بشرب الخمور وتعاطي المحرمات ومثل هذا ان كان المواصلة فعلا يتعاطونه ، فانه ليس من المعقول ان يستخدم الخمر ـ وهو مخدر نوعاما ـ في اوقات الحروب التي تتطلب الحزم والجلاد . ومن امثلة ذلك ما ذكره ابن كثير بقوله : « ووجد السلطان في مخيم غازي سبتا من الاقفاص التي فيها الطيور المطربة ، وذلك في مجلس شرابه المسكر ، وكيف من هذا حاله ومسلكه ينتصر ، فأمر السلطان بردها عليه وتسيرها اليه وقال للرسول قل له بعد وصولك اليه وسلامك عليه : اشتغالك بهذه الطيور احب اليك مما وقعت فيه من المحذور ... وقد كان معه اكثر من مائة مغنية ورد آلات اللهو واللعب الى حلب ... وكان السلطان قد وجد عسكر المواصلة كالحانة من كثرة الخمور والبرابط والملاهي ، وهذه سبيل كل فاسق ساه لاهي » . البداية والنهاية : ٢٩٢/١٢ وأنظر ايضا : مرآة الزمان ق١ : ٣٣٣/٨ ؛ السلوك ٦١/١ .

والحلبيين الذين جابهوا صلاحالدين كانوا ستة آلاف فارس(١) . ثم عرج ابن الاثير الى تعليل أسباب الهزيمة أمام صلاحالدين وأشار بأن سيفالدين غازي جمع العساكر وسار بها الى نصيبين في ربيع الاول من سنة ٥٧١هـ وأطال البقاء بها حتى انقضى فصل الشتاء فضجر العسكر ونفذت النفقات « وصار العود الى بيوتهم مع الهزيمة أحب اليهم من الظفر لما يتوقعونه ان ظفروا مع طول المقام بالشام بعد هذه المدة »(٢) .

وقد عزا ابن الاثير أسباب الهزيمة الى مقدم العسكر النوري (زلفندار) واوضح بان عسكر صلاحالدين وصل الى تل السلطان عصر ليلة المعركة وهو تعب أشد التعب بالاضافة الى عطشه ، وقد وقعوا على الارض ليس فيهم حركة . وقد أشار جماعة على سيفالدين بوجوب الهجوم عليهم وهم على تلك الحال ، الا ان زلفندار قال : « ما بنا حاجة الى قتال هذا الخارجي [أي صلاحالدين] في هذه الساعة ، غدا بكره نأخذهم فترك القتال الى الغد ، فلما اصبحوا اصطفوا للقتال فجعل زلفندار ... اعلامهم في وهدة من الارض لا يراها الا من هو بالقرب منها ، فلما لم يرها الناس ظنوا ان السلطان [أي سيفالدين] قد انهزم ، فلم يثبتوا وانهزموا »(٣) .

---

(١) أشار ابن العديم نقلا عن ابن الاثير بأن عدد عساكر النوريين كان ستة الاف فارس ، بينما ذكر اليافعي بأن عددهم كان ستة الاف وخمسمائة . والظاهر ان الرقم الذي أورده كان تحريفا لرواية ابن الاثير بأن عددهم كان على التحقيق يزيد على ستة الاف فارس اقل من خمسمائة فنقلها اليافعي ستة الاف وخمسمائة انظر : الكامل ٤٢٧/١١ ؛ زبدة الحلب : ٢٤/٣ ؛ مرآة الجنان : ٣٩٣/٣ .

(٢) الكامل : ٤٢٧/١١ .

(٣) نفس المصدر السابق : ٤٢٨١/١ . ومن المصادر التي نقلت عن الكامل : مفرج الكروب ٣٨/٢-٣٩ ؛ زبدة الحلب ٢٧/٣ وغيرها .

وقد تجاهل ابن الاثير ذكر الخسائر التي الحقت بالنوريين بعد الهزيمة ، الا انه ذكر ــ ومن دون ان يعلل ما قال ــ بأنه لم « يقتل بين الفريقين مع كثرتهم غير رجل واحد »[1] . ومما سبق يمكن استخلاص بعض الحقائق التاريخية وهي :

أولا :ــ ان العماد الاصفهاني كان مبالغا في اتهامه للنوريين عامة والموصليين خاصة وان ما اورده عن نتائج المعركة وفسوق الموصليين ، والخمور والطيور والمغنيات التي وجدت في خيامهم بعد الهزيمة امام صلاح الدين ، يحتمل ان يكون بدافع الحقد عليهم ، لان الموصليين اخرجوه بعد وفاة نورالدين حتى اضطر الى مفارقتهم . علما بأن الطيور التي وجدت في عدة الموصليين ــ ان صح ما ذكره الاصفهاني ــ لا غرابة فيها . فالعساكر ــ قديما وحديثا ــ التي تذهب للمعارك لابد ان ترافقها المؤن وما تحتاج اليه من غذاء لانقطاعها اياما طويلة في ساحات القتال بعيدا عن مراكز التجمع الحضري ، وربما كانت اقفاص الطيور من احدى المؤن التي جلبت مع العسكر لتكون غذاء الجند عند الازمات كقطائع الاغنام مثلا التي ترافق العساكر أيام الحروب في أغلب الاحيان .

اما اتهام عسكر الموصليين بتعاطي المحرمات ، ووجود الخمور والمغنيات في خيامهم . فهو اتهام قد يكون من قبيل تشويه سمعة الخصوم ، وتسويد صفحتهم في نظر جمهور المسلمين . علما بأن أغلب المصادر التاريخية الاخرى تجاهلت ذكر ذلك الاتهام كابن شداد مثلا وابن واصل من المتأخرين ، واكتفائهم بذكر ان صلاح الدين استولى على ما كان في

---

(١) نفس المصدر والمكان السابق . اما المصادر التي نقلت نفس الرواية عن الكامل فمنهما : مفرج الكروب : ٢/٤٠ ؛ مرآة الجنان : ٣/٣٩٣ .

عسكر سيف الدين غازي ومطابخه وسرادقه التي كانت تحوى من أنواع الطيور الكثير[1] • اضافة الى ان الصاق تهمة شرب الخمور واباحة المنكرات الاخرى كانت من جملة الاسلحة التي يستخدمها بعض المسلمين لحرب خصومهم ـ خاصة في تلك الفترة ـ واظهارهم بمظهر الفساق الذين يجب قتالهم ، وقد رأينا من قبل كيف اتهم صلاح الدين بشرب الخمور ومن بعده عزالدين مسعود ، وفي هذه المرة كان الاتهام شاملا لعسكر الموصليين عامة لتبرير حرب صلاح الدين لهم •

ثم ان تعاطي العساكر الخمور في أوقات الحروب أمر بعيد الاحتمال، لانه يسبب فتورا في النفس وخمولا في نشاطات العساكر ، والحروب تتطلب شد العزائم وشحن القوى لمواجهة متطلبات المعارك ، الا اذا كانت القيادات متواطئة مع الاعداء • ولم تحدثنا المصادر التاريخية كافة عن وجود أي تواطىء بين قادة عساكر الموصل وصلاح الدين •

ثانيا :ـ كان الاصفهاني مبالغا في عدد الجند الذين اشتركوا في المعركة ، حيث يدعى بأنهم كانوا عشرين ألفا • وقد ردّ ابن الاثير على الاصفهاني وقال بأن عددهم كان على وجه التحقيق يزيد على ستة آلاف فارس أقل من خمسمائة نظرا لاطلاعه على جريدة العرض التي كان المتولي لها أخاه مجدالدين • ثم يعلق ابن الأثير على مبالغة الاصفهاني ويقول : « انما قصد العماد ان يعظم أمر صاحبه بأنه هزم بستة آلاف عشرين الفا ••• ثم ليت شعري كم هي الموصل واعمالها الى الفرات حتى يكون لها وفيها عشرون ألف فارس »[2] اضافة الى انه لم يكن في تلك الفترة استخبارات

(١) النوادر السلطانية : ٥٢ ؛ مفرج الكروب : ٢/٣٩ـ٤٠ ؛ زبدة الحلب : ٣/٢٧ •

(٢) الكامل : ١١/٤٢٩ •

دقيقة ، وكان التقدير هو الطريق المتبع في معرفة عدد جنود الاعداء • علما بأن الذي ذكرته المصادر ـ ومن ضمنها الاصفهاني ـ بأنه « جاء الخبر الى صلاح‌الدين بأن أعداءه في عشرين ألف فارس »[١] ولم يذكروا بأن عددهم كان عشرين ألف فارس[٢] •

ثالثا :ـ ان ما ذكره ابن الاثير من ان عدد القتلى رغم كثرة المقاتلين كان رجلا واحدا ، فيه تحيز واضح الى جانب الموصليين لان الهزيمة كانت فيهم ، ومع ذلك فان العدد لا يخل من حقيقة تاريخية : كانت في ان حربا حقيقية لم تقع بين المواصلة وصلاح‌الدين ، ولهذا فمع كثرة عدد العساكر لم يقتل من الطرفين سوى رجل واحد لان المواصلة اندحروا فارين من ساحات المعركة قبل ان تقوم الحرب حتى ان ابن واصل يقول : « وكانت هذه الكسرة من الله تعالى بغير حرب ولا قتال»[٣] •

وعلى أية حال فان النوريين خسروا المعركة ، واندحروا فارين من

---

(١) انظر : سنا البرق الشامي : ١/٢٠٠ ؛ مرآة الزمان ، ق١: ٨/٣٣٣ ؛ مفرج الكروب : ٢/٤٠ •

(٢) اشار ابن كثير لوحده بأن سيف‌الدين غازي سار في عشرين الف مقاتل • البداية والنهاية ١٢:٢٩٢ غير انه لا يؤخذ بما جاء به ابن كثير لانه مصدر متأخر ، اضافة الى انه أخذ بوجهة نظر الاصفهاني الذي نقل عنه رواياته ، ولهذا فهي لا تخل من حقد ضد المواصلة انظر مثلا: صفحة رقم (٢٩٢ـ٢٩٣) من نفس المصدر •

(٣) مفرج الكروب : ٢/٤٠ • اعتقد بأن فرار المواصلة من المعركة بهذه السرعة كان لضعف العقيدة التي يحملها الجند في محـاربة صلاح الدين ، فقد خرجوا من الموصل الى الشام لحرب صلاح‌الدين من دون مبرر منطقي يدفعهم لقتاله • بينما خرج صلاح‌الدين من مصر الى الشام واخذ يفتح مدينة بعد أخرى من مدن النوريين وهو يحمل عقيدة وكان يبررها لاجناده فاندفعوا صوب ساحـات القتال مؤمنين بأنهم المنقذون والمعيدون لبنيان الوحدة المنهارة والمدافعون عن البلاد ضد الغزاة •

ساحاتها امام عسكر صلاح‌الدين بعد ان اسر منهم الكثير . غير ان صلاح‌الدين منّ عليهم واطلقهم ، وكان من بينهم فخرالدين عبدالمسيح[1] .
ثم توجه صلاح‌الدين صوب حلب يوم الاحد ١٣ شوال سنة ٥٧١هـ بعد ان كان قد فرّق كل ما غنمه على جنده دون الاحتفاظ لنفسه بشيء منها[2] .
وقد كان لهذا التصرف الحسن اثره الكبير في ترابط وحدة صفوفه . وقد مدحه العماد الكاتب بقصيدة بيّن فيها اهمية انتصاره على الموصليين الذين انما اوقعهم جهلهم في حرب صلاح‌الدين ، فجنى عليهم سلاحهم بعد حنثهم يمين الصلح الذي اصلحه صلاح‌الدين بعزمه وفلاحه ، ثم يعرج الاصفهاني التلميح بفتح القدس وتخليص الساحل الاقصى من الصليبيين ، لان صلاح‌الدين وجنوده انما هم فرسان الدهر وفتاكه[3] .

اما سيف‌الدين غازي ـ اتابك الموصل ـ فانه بعد هزيمته عاد الى مدينة حلب ، واخذ منها خزانته[4] . وسار حتى عبر الفرات ودخل

---

(١) النوادر السلطانية : ٥٢ ؛ مفرج الكروب : ٢/٣٩ ؛ زبدة الحلب ٣/٢٧٠ ، السلوك ١/٦١ .
(٢) النوادر السلطانية : ٥٢ ؛ مفرج الكروب : ٢/٣٩ ؛ زبدة الحلب ٣/٢٧ ؛ السلوك : ١/٦١ ؛ الروضتين ١:٢٥٥ ،
(٣) جاء في بعض ابيات القصيدة التي مدح بها العماد الاصفهاني صلاح‌الدين ما يلي :

فالحمد لله الذي افضاله	حلو الجنا، عالي السنا ، وضاحه
عاد العدو بظلمة من ظلمه	في ليل ويل قد جنا مصباحه
حمل السلاح الى القتال، وما درى	ان الذي يجني عليه سلاحه
اضحى يريد مواصليه صد وده	وغدا يحيد رثاءه مداحه
ان افسد الدين العداة بحنثهم	فالناصر الملك الصلاح صلاحه
فكأنني بالساحل الاقصى ، وقد	ساحت ببحر دم الفرنجة ساحه

انظر : الروضتين ١/٢٥٥ ، مفرج الكروب ٢/٤١ـ٤٢ .
(٤) النوادر السلطانية : ٥٢ .

الموصل وكان ـ كما ذكر ابن الاثير ـ لا يصدق بالنجاة • وقد ترك بحلب بعد خروجه منها أخاه عزالدين مسعود بجمع من العسكر للدفاع عن الملك الصالح ، ولاستقطاب بقية العسكر المهزوم[1] • وقد استشار سيفالدين غازي وزيريه جلالالدين ومجاهدالدين قايماز في مفارقة الموصل والاعتصام بقلعة عقر الحميدية خوفا من هجوم صلاحالدين عليهم ، فقال له مجاهدالدين : « أرأيت ان ملكت الموصل عليك أتقدر ان تمتنع ببعض ابراج الفصيل ؟ فقال : لا ، فقال : برج في الفصيل خير من العقر »[2] •

ولم يشأ صلاحالدين ان يلاحق فلول النورية المنهزمة امامه ويحاصر حلب بل اكتفى بالقيام بغارات على أعدائه المتمردين في المنطقة ، بعد ان سيطرت جنوده على الحصون المحيطة بحلب شمالا وجنوبا[3] • كي يفرض على حلب حصارا عسكريا ربما يدفعها للاستسلام بدون قتال ، لذلك تقدم نحو (بزاغه) وتسلمها ٢٢ شوال سنة ٥٧١هـ ، ثم تقدم نحو منبج وتسلمها أيضا بقية الشهر المذكور ، وكان صلاحالدين حنقا على حاكمها قطبالدين ابن حسان المنبجي لفظاظته التي قابل بها صلاحالدين عندما أرسله الحلبيون رسولا اليه[4] •

ويرى ابن الاثير بأن المنبجي كان شديد العداوة لصلاحالدين والتحريض عليه والطعن فيه مما جعل صلاحالدين حنقا عليه ودفعه الى ملك مدينته ، بينما امتنعت عليه قلعتها[5] • الا ان صلاحالدين حاصرها

---

(١) الكامل : ٤٢٩/١١ ؛ مفرج الكروب : ٤٠/٢ •

(٣) مفرج الكروب : ٤١/٢-٤٢ •

(٣) Cahen, op. cit., P. 416.

(٤) ابن واصل ، نفس المصدر والمكان السابق ؛ زبدة الحلب ٢٧/٣ •

(٥) الكامل : ٤٢٩/١١ •

وضيق عليها وملكها عنوة رغم كل مدخراتها التي قـدرت بستمائة ألف دينار من عين ونقد ومصوغ وغير ذلك[1] • كما اخذ ابن حسان معه أسيرا ، الا ان صلاح الدين اطلق سراحه فسار الى الموصل وعوضه سيف الدين ـ اتابكها ـ بمدينة الرقة[2] •

وفي ٤ ذي القعدة[3] من سنة ٥٧١ هـ تقدم صلاح الدين الى مدينة (عزاز) وحاصرها ثمانية وثلاثين يوما[4] ، وضيق على من بها ونصب عليها المجانيق • وفي ليلة الاحد ١١ ذي القعدة عندما كان صلاح الدين في خيمة الامير جاولي الاسدي ، وثب عليه جماعة بزي الجند قيل انهم من الاسماعيلية وأرادوا قتله ، الا ان محاولتهم فشلت ، واكتشف صلاح الدين بأن عملية الاغتيال اشترك في اعدادها الحلبيون[5] • مما دفعه للاصرار على فتح عزاز

---

(١) يرى المقريزي بأن صلاح الدين اخذ منهـا « ثلاثمـائة الف دينار ، ومن الفضة والانية والاسلحة ما يناهز بألفي الف دينار » السلوك: ٦١/١ • وفي كيفية استلام صلاح الدين بعض تلك الاموال ذكر ابن ابي طيء قوله : لما تسلم صلاح الدين اموال ابن حسان المنبجي استعرضهـا فوجد مكتوب على الاكياس التي بداخلها الاموال يوسف • فسأل عن هذا الاسم فقيل له ولد يحبه ابن حسان ويؤثره كان يدخر له هذه الاموال• فقال صلاح الدين « انا يوسف وقد اخذت ما اخبيء لي » • الروضتين: ٢٥٧/١ •

(٢) الكامل : ٤٢٩/١١ـ٤٣٠ ؛ مفرج الكروب : ٤٢/٢ـ٤٣ ؛ زبدة الحلب ٢٧/٣ـ٢٨ ؛ السلوك : ٦١/١ ؛ مرآة الزمان ق١ : ٣٣٤/٨ـ ٣٣٥ ؛ البداية والنهاية ٢٩٣/١٢ •

(٣) وقيل ايضا حاصر صلاح الدين عزاز في ٣ ذي القعدة • انظر : زبدة الحلب : ٢٨/٣ •

(٤) وقيل ايضا حاصر صلاح الدين قلعة عزاز لمدة ثمانية وعشرين يوما • مرآة الزمان ق١ : ٣٣٤/٨ • وقيـل اربعون يومـا كانت مـدة الحصار • تاريخ ابن خلدون : ٥٧٢/٥ •

(٥) سوف نتطرق في الفصل الرابع الى تفصيل حادثة اغتيال صلاح الدين المشار اليها اعلاه ونبين دوافعها • انظر : النوادر السلطانية : ٥٢•

وحلب ، حتى ان عسكر صلاح‌الدين أصابه رد فعل شديد ضد قلعة عزاز لمحاولة اغتيال سيدهم فاشتدوا في ضرب البلد حتى أحدثوا فيه كثيرا من النقوب التي دفعت حاكم القلعة الى الاستسلام وطلب الامان ، وتسلم صلاح‌الدين قلعتها في ١١ ذي الحجة[١] من سنة ٥٧١هـ/٢٦ يونيه سنة ١١٧٦م واصلح ما تهدم منها ثم اقطعها الى ابن اخيه تقي‌الدين عمر[٢] .

وبعد ان ملك صلاح‌الدين قلعة عزاز توجه الى مدينة حلب وحاصرها للمرة الثالثة في ١٥ ذي الحجة سنة ٥٧١هـ الموافق ٢٥ يونيه سنة ١١٧٦م ، بعد ان كان قد خيّم على رأس الياروقية فوق جبل جوشن وجبى أموالها واقطع ضياعها . وكان لشدة حصاره لحلب يمنع ان يدخل اليها شيء ، أو يخرج منها أحد[٣] . وكان سعدالدين كمشتكين قد خرج الى حصن حارم ، فقطع طريق العودة أمامه الى حلب ، فاحتال على صلاح‌الدين وتضرع بأنه يدخل حلب لاصلاح الاحوال بين الطرفين . وكان في حقيقة امره خائفا من ان تقع معاهدة صلح بين صلاح‌الدين والحلبيين ليس له فيها اسم ولا ذِكر . فراسل صلاح‌الدين يتلطف معه الحال ويقول : « لو فسح لي في الدخول الى حلب سارعت في الخدمة واصلحت الامر على ما يرومه السلطان وراسل أيضا الملك الصالح والامراء بحلب يقول لهم : قد حصلت خارجا وقد بلغني أمور ولابد من طلبي من الملك الناصر ليأذن لي في الصيرورة اليكم ، فان الذي قد حصل عندي لا يمكن الكلام فيه ، فراسل الملك الصالح السلطان في الاذن في الدخول الى حلب فأذن له »[٤] .

---

(١) وقيل تسلم صلاح‌لدين قلعة عزاز في ١٤ ذي الحجة . انظر : النوادر السلطانية : ٥٢ .

(٢) مفرج الكروب : ٤٥/٢ ؛ زبدة الحلب : ٢٩/٣-٣٠ .

(٣) الروضتين : ٢٦١/١ ؛ سنا البرق الشامي : ٢١٥/١ ؛ مفرج الكروب ٤٦/٢ .

(٤) الروضتين : ٢٥٩/١ .

وكان صلاح‌الدين قد انفذ رهائنا من عنده اليهم وهم شمس‌الدين ابن أبي المعنا الخطيب والعماد الكاتب واسل اليه الحلبيون نصرةالدين ابن الزنكي • الا ان العدل بن العجمي ـ السابق الذكر ـ احتجز رهائن صلاح‌الدين في بيت ومنع عنهم غلمانهم ولم يحضر لهم طعام ولا مصباح ، حتى صباح اليوم التالي ، فاحضر الى مجلس الملك الصالح وكان عنده ابن عمه عزالدين مسعود وجماعة من أرباب الدولة اضافة الى سعدالدين كمشتكين الذي كان قد وصل البلد • فعرض لرسل صلاح‌الدين نسخة اليمين فوقعاها وخرجا الى صلاح‌الدين وأخبراه بما جرى في حقهما من الهوان ، فعلم حينئذ بانها كانت حيلة حتى يتمكن كمشتكين من دخول حلب • لذلك اطلق رسول الحلبيين (نصرةالدين) وقاتل أهل حلب حتى انتهت سنة ٥٧١هـ(١) •

والظاهر ان المعاملة السيئة التي لاقاها رسول صلاح‌الدين انما كانت نتيجة للعلاقات السيئة التي كانت بين الموصليين خاصة والنوريين عامة وبين العماد الاصفهاني الذي ترك العمل بين ظهرانيهم غاضبا عليهم ، وانصرف الى خدمة صلاح‌الدين ـ كما تبين ذلك من قبل ـ اما اطلاق صلاح‌الدين نصرةالدين فكان فيها أكثر من معنى واحد : فقد اوضح للحلبيين انه قابل الاساءة بالاحسان • ثم ان عودة نصرةالدين الى حلب معززا مكرما معناه رغبة صلاح‌الدين في كسب مودة الحلبيين ، لان الرسول لابد ذاكرا مواقفه ومعاملته التي عومل بها عند صلاح‌الدين ، علما بان سياسة صلاح‌الدين كانت تسير بخط ارضاء رجال الدين ـ كما تبين ذلك من قبل عند دخول صلاح‌الدين دمشق ـ الذين كانت بيدهم قيادة الشعب فكريا •

ويرى الاصفهاني بأن الحلبيين لما وجدوا استمرار صلاح‌الدين في

---

(١) الروضتين : ١/٢٥٩ •

حصارهم علموا ان العاقبة وخيمة فدخلوا من باب التذلل وتوسلوا اليه ان يصالحهم بعد ان اعترفوا بخطئهم ، فأجابهم صلاح الدين الى طلبهم وتم الصلح بينهم[1] . غير ان ابن الاثير يرى بأن الصلح تم بين الحلبيين وصلاح الدين في ٢٠ محرم من سنة ٥٧٢هـ بعد ان وقعت عليه الاجابة من الطرفين ، لان أهل حلب خافوا من طول الحصار الذي ربما يضعف قواهم ، وصلاح الدين رأى انه لا يقدر على دخول البلد بيسر ولا الدنو منه ولا على قتال من به فوافق على اعادة الصلح[2] .

ويتبين مما سبق وجهتا نظر مختلفتين كانتا نتيجة للصراع الدائر بين الايوبيين والنوريين ، وتبني كل مؤرخ لوجهة احد الجانبين ومبالغته فيما ينسبه للطرف الثاني . فالاصفهاني الذي كان بجانب صلاح الدين ومن نقل عنه كأبي شامة ، والمقريزي وابن كثير وغيرهم ـ اظهروا الحلبيين بموقف الضعف والذلة أمام صلاح الدين . بينما صورهم ابن الاثير على جانب كبير من القوة بحيث ان صلاح الدين كان لا يقدر على الدنو من البلد وفي هذا تحيز واضح للحلبيين ، لان صلاح الدين ـ كما ذكر المقريزي ـ لم يقاتل الحلبيين ، انما حاصر حلب وضيق عليها ومنع احدا من ان يدخلها أو يخرج منها[3] . ثم لو كانت لدى الحلبيين القوة التي صورها ابن الاثير لما انهزموا فارين . ولما طلبوا مساندة قوات الموصل والجزيرة واعتصموا بقلعة حلب !؟ .

والذي يظهر بأن الحلبيين وصلاح الدين رغبا في عقد الصلح لا لضعف فيهما ؛ انما لدفع الخطر الخارجي الذي كان يهدد كلا الطرفين وخدمة

---

(١) الروضتين : ٢١٧/١ ؛ السلوك ٦٢/١ ؛ البداية والنهاية ٢٩٥/١٢ .

(٢) الكامل : ٤٣١/١١ .

(٣) السلوك : ٦٢/١ .

لمصلحة المسلمين عامة • ولذلك قدّم كل طرف من جانبه تنازلات عن طيب خاطر حبا في الوصول الى السلام ولتوحيد الكلمة من أجل مقاومة الصليبيين ، وفي شروط الاتفاقية ما يدل على ذلك :

لقد تقرر الصلح وكان عاما شاملا للموصليين والحلبيين ، وأهل ديار بكر وماردين وكانت القاعدة ان يكونوا كلهم عونا على الناكث الغادر[1] • وكتب في نسخة اليمين « انه اذا غدر واحد وخالف ولم يف بما عليه حالف كل الباقون عليه يدا واحدة وعزيمة متعاقدة حتى يفيء الى الوفاء والوفاق ويرجع الى مرافقة الرفاق »[2] • وقد تنازل صلاح الدين ـ عن طيب خاطر ـ للملك الصالح عن قلعة عزاز ـ التي فتحها عنوة ـ بعد ان كان الملك الصالح قد ارسل له اخته الصغيرة فاكرمها صلاح الدين ، وسألها ما تريد ، فقالت : قلعة عزاز فمنحها اياها[3] •

وهكذا تم عقد صلح عام بين النوريين وصلاح الدين ، بعد ان أنقض سيف الدين غازي المعاهدة التي كانت بين صلاح الدين والملك الصالح ـ اتابك حلب ـ والحلبيين ويمكن توضيح صيغة المعاهدتين ـ استخلاصا مما سبق ـ بما يلي :ـ

أولا ـ في سنة ٥٧٠هـ الحلبيون والايوبيون طرف واحد ضد الصليبيين •
ثانيا ـ لا يحق لطرف التحالف أو التعاقد مع طرف ثالث الا بموافقة أو علم الطرف الثاني •

---

(١) الكامل : ٤٣١/١١ ؛ الروضتين : ٢٦١/١ ؛ مفرج الكروب : ٤٦/٢ ؛ تاريخ مختصر الدول : ٢١٦ •

(٢) العماد الاصفهاني انظر : تلخيص البنداري ، سنا البرق الشامي : ٢١٧/١ـ٢١٨ ؛ الروضتين : ٢٦١/١ •

(٣) الكامل : ٤٣١/١١ ؛ النوادر السلطانية : ٥٢ ؛ مفرج الكروب : ٤٦/٢ ؛ زبدة الحلب: ٣٠/٣ ؛ البداية والنهاية : ٢٩٥/١٢ •

ثالثا ـ نقض الحلبيون العهد بتحالفهم مع المواصلة ضد صلاح الدين •

رابعا ـ تجدد العهد سنة ٥٧٢هـ مرة ثانية وانضم اليه المواصلة وأصبح بالصيغة التالية :

أ ـ الجميع يدا واحدة ضد الغزاة **الصليبيين** •

ب ـ لا يجوز لاحد الاطراف نقض العهد •

جـ ـ اذا نقض أحد الاطراف العهد أو خالفه فالباقون يدا واحدة عليه حتى يرجع الى الوفاق •

وبعد انتهاء عقد الصلح مع النوريين توجه صلاح الدين الى حصون الاسماعيلية للانتقام منهم على محاولاتهم المتعددة لاغتياله ، وانتهت علاقته معهم بالتوصل الى معاهدة سلام بين الجانبين بتوسط شهاب الدين الحارمي خاله[1] •

وبعد ان امن صلاح الدين جانب أعدائه من **المسلمين** تفرغ للاصلاحات الداخلية وبناء الحصون والمدارس • فقد عاد بعد حصار قلاع الاسماعيلية الى حماة ، وفيها وصل اليه من اليمن أخوه الملك المعظم شمس الدولة توران شاه بعد ان ذهب لفتحها سنة **٥٧١هـ/١١٧٥ ـ ١١٧٦م** • فقد عاد الى الشام بعد ان استقرت أموره هناك واشتاق لزيارة أهله وأقاربه فاستقبله صلاح الدين استقبالا حسنا[2] ، وخرج من حماة عائدا الى دمشق فوصلها في **١٦** صفر سنة **٥٧٢هـ/٢٦** آب سنة **١١٧٦م** وفي دمشق تم زواج صلاح الدين من الخاتون عصمة الدين بنت معين الدين أنر ، ارملة نور الدين

---

(١) الاصفهاني ، انظر : سنا البرق الشامي ج/٢٢٣ ؛ مفرج الكروب : ٢/٤٧ـ٤٨ •

(٢) الاصفهاني ، نفس المصدر والمكان السابق ؛ مفرج الكروب : ٢/٤٨ـ٤٩ ؛ سعداوي ، المصدر السابق : ٧٧ـ٧٨ •

وام الملك الصالح التي كانت مقيمة بقلعة دمشق ، وولى تزويجها منه أخوها الامير سعدالدين بن انر ، وحضر القاضي ابن ابي عصرون العقد ، وقد مكث صلاح‌الدين بقرب زوجته الجديدة ليلتين ثم عاد الى مصر[1] .

وفي يوم السبت ١٦ ربيع الاول سنة ٥٧٢هـ الموافق ٣-١٠-١١٧٦م دخل صلاح‌الدين القاهرة بعد ان أصبح سلطانا لكل من مصر والشام وأعالي الجزيرة . بينما كان قد دخلها من قبل مرافقا لعمه أسدالدين شيركوه ، ونائبا عن نورالدين محمد زنكي وسوف نتطرق في فصل قادم الى أهم أعماله الداخلية التي قام بانجازها في مصر اثر عودته اليها . علما بأن علاقات سياسية مهمة دارت في هذه الفترة بين الصليبيين وصلاح‌الدين كان في أغلبها النصر لصلاح‌الدين ، ما عدا معركة الرملة التي خسرها وعاد منهزما الى القاهرة[2] . وكانت نتيجة تلك العلاقات عقد معاهدة للسلام لمدة سنتين ، تقدم بطلبها بلدوين الثالث ملك بيت المقدس ، ووافق عليها صلاح‌الدين ليتفرغ للامراء المسلمين ويتمكن من توحيدهم ورص قواهم[3] .

---

(١) العماد الاصفهاني ، انظر : تلخيص البنداري ، سنا البرق الشامي : ١/٢٣٠-٢٣١ ؛ مرآة الزمان ، ق١ : ٨/٣٣٥ ؛ مفرج الكروب: ٢/٥١ ؛ زبدة الحلب : ٣/٢٠ ؛ النجوم الزاهرة : ٦/٧٨ ؛ البداية والنهاية ١٢/٢٩٥ .

(٢) في اثناء وجود صلاح‌الدين بالقاهرة نازل الصليبيون حماة في سنة ٥٧٣ هـ . الا انهم ارتدوا عنها لعدم تمكنهم مقاومة حاميتها التي كانت بيد خال صلاح‌الدين الحارمي كما نازل الصليبيون حارم ، ولذلك خرج صلاح‌الدين لمنازلتهم ودفع أذاهم عن بلاد المسلمين ، ودارت بين الطرفين عدة معارك انتصر فيها صلاح‌الدين امثال معركة مرج العيون سنة ٥٧٥ هـ ، وتخريب بيت الاحزان ، وسوف نتطرق الى شرح كل ذلك في الثالث .

(٣) Lanepool, A History of Egypt, P. 206.

كما حدثت في هذه الفترة علاقات سياسية بين صلاح الدين وسلاجقة الروم الذين استنجدوا به لدفع الخطر الذي أصابهم من تهديدات الارمن • ثم راسل السلطان السجوقي قلج ارسلان صلاح الدين في صلح الشرقيين عامة معه فوافق صلاح الدين وحلف عليه في ١٠ جمادى الاولى من سنة ٥٧٦هـ على نهر شنجة ـ في أعالي الفرات ـ وكان الصلح عاما لسلاجقة الروم والموصليين وأهالي ديار بكر[١] •

وبعد ان أمن صلاح الدين جانب الامراء المسلمين ـ نتيجة للمعاهدة السابقة ـ عاد الى دمشق ، وخرج منها الى بلاد الارمن لقمع ملكهم ابن لاون لاستمالته قوما من التركمان كانوا يرعون في بلاده غدر بهم وأسرهم • فغزاه وأحرق قلعة « المناقير » التي كانت من القلاع الحصينة التابعة له • فاضطر ابن لاون بالخضوع اليه ، ودخل في طاعته بعد ان اطلق ما بيده من أسارى المسلمين • ثم عاد على أثرها صلاح الدين الى حماة فوصلها في آخر جمادى الآخرة سنة ٥٧٦هـ[٢] • وتقدم اليه الشعراء بالمدح والثناء[٣] •

وفي يوم الاثنين ١٨ رجب سنة ٥٧٦هـ غادر صلاح الدين الشام الى القاهرة لوفاة أخيه الملك المعظم توران شاه بالاسكندرية • واستناب بالشام

---

(١) ابن شداد ، النوادر السلطانية : ٥٤ •
(٢) مفرج الكروب : ٢/٩٨ـ٩٩ •
(٣) من الشعراء الذين مدحوا صلاح الدين بعد انتصاره على ابن لاون الشاعر جمال الدين ابو غالب محمد بن الخطاب بقصيدة جاء في بعضها :

ازرت ابن لاون لأواءه ، فأضحى بـه خبرا عن عيـان
ودان مـن الـذل لا يرعوى ، حـذارا من الراعفـات اللـدان
فلا قدم عنده للثبـا ت ، وليس لـه بسطاكم يدان
واخلى اليكـم منـاقيـره وغادر للهـدم تلك المباني

انظر : ابن واصل ، مفرج الكروب : ٢/٩٩ •

ابن اخيه عزالدين فرخشاه . وفي القاهرة اشتغل بعمارة أسوارها وتنظيمات مصر الداخلية[1] ، حتى وافاه الخبر بوفاة الملك الصالح اسماعيل بن نورالدين في **٢٥** رجب سنة **٥٧٧**هـ ٤ كانون الاول سنة **١١٨١**م ، وكان عمره آنئذ تسع عشرة سنة بعد ان اصيب بمرض القولنج[2] . وكان قبل وفاته قد أحضر امراءه وأوصاهم بتسليم مدينة حلب الى ابن عمه عزالدين مسعود بن مودود[3] .

ويرى ابن الاثير بأن سبب اختيار الملك الصالح لعزالدين مسعود خليفة من بعده لحكم حلب ، وعدم اختياره لعمادالدين زنكي ـ ابن عمه واخي عزالدين مسعود ـ لان الاول كان أقوى من الثاني وبيده العساكر ، وهو بما يملك من مؤهلات يستطيع حماية حلب من صلاحالدين فيما اذا أراد السيطرة عليها[4] . وفي هذا الرأي شيء من التفخيم والمبالغة من خطر صلاحالدين ومحاولة اساءة العلاقة بينه وبين الملك الصالح التي تحسنت في الفترة الاخيرة ، بعد ان اكرم بقلعة عزاز . والظاهر ان ابن

---

(١) مفرج الكروب : ٢/١٠١ .

(٢) القولنج : مرض يصيب بطن الانسان وصفه الخوارزمي بقوله : « اعتقال الطبيعة لانسداد المعي المسمى قولون » انظر : مفاتيح العلوم (القاهرة ، ١٣٤٢ هـ) ٩٨ .

(٣) النوادر السلطانية : ٥٥ ؛ الروضتين : ٢/٢١ـ٢٢ ؛ تاريخ مختصر الدول : ٢١٨ ، زبدة الحلب : ٣/٤٠ـ٤٢ ؛ البداية والنهاية: ١٢/٣٠٨ـ٣٠٩ ؛ الغساني ، العسجد المسبوك : ١٣ ؛ مرآة الزمان ، ق ١ : ٨/٣٦٧ ـ ٣٦٨ ؛ ابن الشحنة ، روض المناظر : ٢٤٠ ؛

Runciman, op. cit., 11, P. 433.
Lanepool, A History of Egypt, P. 206.

(٤) الكامل : ١١/٤٧٢ـ٤٧٣ ؛ الباهر في تاريخ الدولة الاتابكية: ١٨٢ـ١٨٣ .

الاثير أراد تبرير تقدم عزالدين مسعود الى حلب وتملكه اياها ، كما أراد تبرير حادثة وفاة الملك الصالح التي قيل فيها ـ اضافة الى موته بمرض القولنج ـ بأنه مات مسموما[1] •

وتبين من دراسة الحادث أن عزالدين مسعود ساءه ـ وهو أكبر امراء البيت النوري ـ حكم الملك الصالح عليهم وهو صغير السن لا يبلغ عمره العشرين سنة • فأراد امتلاك الامر بيده ، فبعث الى الملك الصالح من وضع له السم في طعامه وقتله • ولما أخبر بنجاح العملية تقدم فورا الى حلب وامتلكها ومما يدل على ذلك احتجاج عمادالدين ـ اتابك سنجار ـ على سيطرة عزالدين على حلب ودعوته اياه ان يسلمها اليه عوضا عن سنجار وبعث اليه قائلا : « كيف تختص انت ببلاد عمي وابنه وبأمواله دوني ، وهذا أمر لا صبر لي عنه »[2] • في الوقت الذي لم تذكر جميع المصادر التاريخية دفاع عزالدين عن نفسه واحتجاجه ضد منافسيه في امتلاكه حلب بان الملك الصالح هو الذي سلمها اليه بوصايته • اضافة الى ان الالم الذي يصيب الانسان من استخدامه السموم ينتاب منطقة البطن ، وان كافة المصادر تقول بأن الصالح اسماعيل اصيب بمرض القولنج ثم توفي ، علما بان هذا المرض يصيب بطن الانسان أيضا ، وربما كان هذا التقارب في موضع الالم دليل آخر على ان الملك الصالح توفي مسموما •

---

(١) يقول ابن ابي طيء : كان سبب موت الملك الصالح ان علم الدين سليمان بن جندر سقاه سما في عنقود عنب وهو في الصيد ، وقيل ان الذي سقاه ياقوت الاسدي في شراب وقيل انه اطعمه خشكنانكه وهو في الصيد • الروضتين : ٢/٢١ •

(٢) زبدة الحلب : ٣/٤٧ •

« كان صلاح الدين ، في هذه الفترة ، يخاف ضرب الموصليين بقسوة لان دم المسلمين واحد ، وقد استخدم الطرق النفسية حتى لا يثير غضب المسلمين ضده وتراق الدماء بينهم » .

Sivan L' Islam et la Croisade ideologe et propagande dans les Reactions, P. 98.

رابعا ـ موقف صلاح‌الدين من امراء الموصل منذ وفاة سيف‌الدين غازي سنة ٥٧٦ هـ/١١٨٠م حتى سنة ٥٨٠هـ/١١٨٥م وامتلاكه حلب وسنجار

في ٣ صفر سنة ٥٧٦هـ/١١٨٠م توفي سيف‌الدين غازي بن مودود بن زنكي أتابك الموصل نتيجة لاصابته بمرض السل ، بعد ان طال به المرض وادركه في آخره السرسام[1] ، وكان عمره آنئذ ثلاثين سنة حكم الموصل منها حوالي عشر سنين وثلاثة أيام[2] •

وكانت علاقته بصلاح‌الدين غير حسنة يصاحبها الشك وينتابها النزاع ، ويغلب عليها طابع الخوف والحذر من قوة صلاح‌الدين التي بازديادها فقدان لسلطانه • وقد اتهمته بعض المصادر ـ كما تبين من قبل ـ بشرب الخمر واباحة المحارم • الا انه على أية حال تاب في آخر أيامه وكان يخرج مع الناس لاستسقاء الامطار ، كما كان يتردد على رجل زاهد اسمه أبي أحمد بن الحداد في قرية قريبة من الموصل اسمها الفضلية[3] •

وقد أراد سيف‌الدين أن يعهد بالملك لولده معزالدين سنجر شاه بن غازي البالغ من العمر اثنتي عشرة سنة • الا ان أخاه عزالدين مسعود امتنع من لمثل تلك الاوامر ، وأشار أكابر الامراء في الموصل امثال مجاهدالدين قايماز على وجوب جعل الملك في عزالدين ، لما كان عليه من كبر السن والشجاعة والعقل ، على ان يقطع معزالدين سنجرشاه ، ابن عزالدين بعض البلاد • فوافق سيف‌الدين على ذلك الاقتراح ، خاصة وانه

---

(١) سرسام : يقول الخوارزمي بأنه مرض يصاحبه حمى دائمة مع صداع وثقل في الرأس والعينين اللتين يصاحبهما حمرة شديدة مع كراهية الضوء • انظر : مفاتيح العلوم : ٩٦ •

(٢) النوادر السلطانية : ٥٤ ؛ مفرج الكروب : ٢/٩٢ •

(٣) مرآة الزمان ، ق١: ٨/٣٦٤ •

خاف على ملكه من صلاح الدين فتقرر من بعده بالملك عزالدين ، بعد ان منح سيف الدين جزيرة ابن عمر وبلادها لمعزالدين سنجرشاه ، وقلعة عقر الحميدية لولده الآخر ناصرالدين كشك[1] .

وقد حافظ عزالدين مسعود على عهد أخيه ، وقام بتدبير أموره مجاهدالدين قايماز ، كما ارسل الى صلاح الدين الشيخ الفقيه فخرالدين أبا شجاع بن الدهان البغدادي ليتفق معه على ابقاء العلاقة بينهما كما كانت على عهد سيف الدين ، على ان تكون سروج والرها والرقة وحران والخابور ونصيبين في يده فلم يجبه صلاح الدين لانها بحكم تقليد خليفة بغداد تكون تابعة لصلاح الدين ، وانما جعلها بيد سيف الدين غازي بالشفاعة بعد ان اشترط عليه ان يمده بالعساكر عند الحاجة[2] . ولكي يجعل امتلاكه لتلك البلاد شرعيا ، ويجعل من الذين يعارضونه في ذلك خارجين عن سلطان الخليفة العباسي . كتب الى الخليفة العباسي يعلمه بوفاة سيف الدين غازي ، ويطلب منه ان يقلده تفويضا بتلك البلاد ليقوى بها ثغور المسلمين بالشام . وقد كاتب بذلك الشيخ صدرالدين عبدالرحيم شيخ الشيوخ بانشاء العماد الكاتب ، بعد ان اوضح صلاح الدين للشيخ المنجزات التي حققها ، والمشاكل التي قضى عليها ، والجهاد الذي قام به ضد الصليبيين في حفظ ثغور المسلمين ، ثم اوضح لبغداد بأنه تحمل وحده مشاق تلك الحروب والمرابطة في الثغور ضد الكفار في السنين الخمس السوابق لهذا الكتاب . ونظرا لاستمرار رغبته في الجهاد فهو أحوج ما يكون ان تنضم اليه تلك البلاد لاستخدام عساكرها في عمليات الجهاد وفي نص الكتاب المرسل الى بغداد ما يثبت ذلك :

---

(١) مفرج الكروب : ٩٣/٢ .

(٢) العماد الاصفهاني . انظر : الروضتين : ١٧/٢ .

« قد عرف اختصاصنا من الطاعة والعبودية ، للدار العزيزة النبوية ، بما لم يختص به أحد ، وامتدت اليه منا في اقامة الدعوة الهادية بمصر واليمن والمغرب بما لم تمتد اليه يد ، وازلنا من الاقاليم الثلاثة أدعياء ، وخلفناهم للردى ، حيث دعوا بلسان الغواية خلفا ، ولا خفاء ان مصر ، اقليم عظيم وبلد كريم ، بقيت مائتين وخمسين سنة مضيمة وعانت كل هضيمة وعاينت كل عظيمة ، حتى انقذها الله بنا من عبيد بني عبيد واطلقها بمطلقات أعنتنا اليها من عناء كل قيد ، وفيها شيعة القوم ، وهم غير مأموني الشر الى اليوم ، وطوائف أقاليم الروم والفرنج من البر والبحر بها مطيفة ، فمن حقها ان يتوافر عسكرها ، فلو حصل ـ والعياذ بالله ـ بها فتق لاعضل رتقة واتسع على الراقع خرقة ، واحتجنا لحفظ بلاد الشام وثغور الاسلام الى استصحاب العسكر المصري اليها ، وله مدة خمس سنين في بيكارها ، منتقماً من كفارها متحملا لمشاقها على غلاء أسعارها ، وانما أحوج الى ذلك أن بلاد هذا الثغر قد اقطعت عنه ، وعساكرها أخذت منه »[1] .

وقد أجابت بغداد بالقبول على كتاب صلاح‌الدين وارسلت اليه في رجب من سنة ٥٧٦هـ صدرالدين شيخ الشيوخ ابا القاسم عبدالرحمن ، وشهاب‌الدين بشير الخاص بالتفويض والتقليد والتشريف[2] ، فتلقاهم

---

(١) الروضتين : ١٧/٢ ؛ مفرج الكروب : ٩٤/٢-٩٥ .

(٢) كان هذا التشريف الذي وصل الى صلاح‌الدين ، هو اول خلعة قدمت من الخليفة الناصر لدين الله لصلاح‌الدين وكانت تشمل ثوب اطلس اسود واسع الكم مذهب ، وبيقار وطيلسانان اسودين مذهبين ، ومشده مذهبة مع طوق وتخت وسرفسار ، وجواد كميت من مراكب الخليفة عليه سرج اسود وسلال اسود وطوق مجوهر وقصبة ذهب وعلم اسود وعدة خيول ، وقد تسلم صلاح‌الدين تلك التشريفات بالفرحة بعد ان كانت دمشق قد تزينت لاستقبال الرسل . انظر : الروضتين : ١٩/٢ .

صلاح الدين بالاكرام وترجل لهم ، ثم حسّن لشيخ الشيوخ مرافقته الى مصر لزيارة قبر الامام الشافعي هناك ، فوافق شريطة ان يخرج من مصر الى أرض الحجاز لاداء فريضة الحج في ذلك العام[1] .

ورغم اعتبار صلاح الدين ان حلب وما جاورها من القلاع هي تابعة له بحكم تفويض بغداد ، الا ان عزالدين مسعود لم يلتفت اليه وبقي مالكا لحلب ، ولم يتمكن صلاح الدين آنئذ من مزاحمته عليها لانه كان في مصر[2] . لذلك استولى عزالدين على الخزائن والذخائر التي كانت في حلب وتحكم فيها وأقام بقلعتها الى سادس عشر شوال من سنة ٥٧٧هـ . الا انه علم بأنه لا يمكنه حفظ الشام مع الموصل سوية لوجود الخطر الايوبي ، وظهور بعض الاضطرابات الداخلية بين صفوفه كالحاح بعض أمرائه عليه بزيادة رواتبهم واقطاعاتهم ، فاضطر الى الرحيل من حلب عائدا الى الموصل بعد ان ابقى في حلب ولده مظفرالدين بن زين الدين . وأثناء عودته الى الموصل التقى بأخيه عمادالدين زنكي في منطقة الرقة واتفقا سوية على ان يسلم عزالدين مدينة حلب الى عمادالدين عوضا عن سنجار[3] . بعد ان قيل بأن عمادالدين هدد أخاه عزالدين بتسليم مدينة سنجار لصلاح الدين ان لم يسلمه مدينة حلب[4] .

---

(١) نفس المصدر والمكان السابق ، مفرج الكروب : ٢/٩٥ .

(٢) الكامل : ١١/٤٧٣-٤٧٤ ؛ الروضتين : ٢/٢١ .

(٣) النوادر السلطانية : ٥٥ ؛ مفرج الكروب : ٢/١٠٩ ؛ زبدة الحلب : ٣/٤٧ .

(٤) الكامل : ١١/٤٧٤/ وبالرغم مما ذكره ابن الاثير ان عمادالدين زنكي هو الذي طالب بمدينة حلب عوضا عن سنجار ، فان المنصورالايوبي وابن العديم يريان بأن عدم تمكن عزالدين من حفظ حلب وادارتها دفعته الى مراسلة عماد الدين وترغيبه باستلام حلب عوضا عن سنجار التي وجد عزالدين بأن انضمامها اليه فيه اهمية كبيرة لتعزيز قواه لان سنجار

ولم يكـن يتوقع من صلاح‌الدين ان يقف مكتوف اليدين حيـال تحركات عزالدين السابقة القاضية بنقض المعاهـدة المبرمة بين الطرفين ، والتي ستؤدي ـ دون شك ـ الى القضاء على مشروع الوحدة الذي يسعى لتحقيقه لذلك عمد الى استخدام سياسة حكيمة لفك ارتباط حلب بمـا حولها من القلاع والحصون القريبة ، فقد كتب الى صاحب قلعة الراوندان[1] يأمره بأن يكون في مساندة الملك المظفر تقي‌الدين عمر ـ صاحب حماة ـ الذي أمره صلاح‌الدين بالتأهب والنهوض لحرب النوريين ، كغـيره من سائر النواب الذين كاتبهم صلاح‌الدين بنفس الخصوص[2] ، وقد وصل كتاب صلاح‌الدين الى صاحب قلعة الراوندان في العشر الاواخر من شعبان سنة **٥٧٧**هـ وجاء فيه ما يلي : « وقد عرفت ما تجدد من وفاة صاحب حلب وهي ولايتنا التي لا نثني عنها عنـان الطلب ، فانها من تقليـدنا من أمير المؤمنين ، وما تركناها للملك الصالح بعد التصرف فيها وحصول حصونها ومعاقلها في أيدينا الا رعاية لحقوق أبيه ، ورغبة فيه ولا مانع الآن عنها من يمين معقودة »[3] .

قريبة من الموصل عكس حلب التي كانت بعيدة عن الموصل وتؤدي الى انقسام قوته ، اضافة الى ان عزالدين كان يعلم بأن صلاح‌الدين كان يتعلق بمدينة حلب . انظر : ابن شاهنشاه من مضمار الحقائق وسر الخلائق (القاهرة ١٩٦٨) : ٦٠ ؛ زبدة الحلب : ٣/٥١ ـ٥٢ .

(١) الراوندان : من جند قنسرين في بلاد الشام ، وهي قلعة حصينة عاتية ، ولها اعين وبساتين ، وتقع في الشمال من قلعة حارم ، بينها وبين حلب‌مرحلتين ، وتعتبر كورة من نواحي حلب . انظر : مراصد الاطلاع: ٢/٥٩٨ ؛ شيخو ، مجاني الادب (بيروت ١٩٢٣) : ٢٠٢ ـ ٢٠٣ .

(٢) العماد الاصفهاني ، انظر: الروضتين: ١/٢٣ ؛ ابن شاهنشاه، مضمار الحقائق : ٦١ ؛ مفرج الكروب : ٢/١١٠ .

(٣) ابن شاهنشاه ، نفس المصدر والمكان السابق .

كما عمل صلاح الدين على كسب تأييد الخلافة العباسية ، والقيام بحملة اعلامية لتوضيح تواطؤ عزالدين مسعود مع الاسماعيلية والصليبيين ليثبت لبغداد صدقه ، وليدفع جنده لحرب النوريين عن طيب خاطر منهم ، باعتبار ان النوريين متواطئون مع الاعداء وان محاربتهم واجبة لاعادة وحدة الصف في قوات المسلمين ولذلك كله كتب صلاح الدين الى الخليفة العباسي مخبرا اياه بسوء أحوال الشام ، بعد ان اغار الصليبيون على انطاكية وهددوا المدينة المنورة • ومما جاء في الكتاب المرسل الى الديوان العزيز ما يلي :

« وشاع الخبر بغارة افرنج انطاكية على حارم ، وأتوا من النهب والسبي بالعظائم ، وشاع أيضا ان عسكر حلب اغاروا على الراوندان وهي في عملنا ، ورسلهم عند الفرنج يستنجدونهم ، وراسلوا الحشيشية ، والمراد من الرسالة غير خاف ، والعلم بالمعتاد عنه كاف ، وابن أخينا غائب في اقصى بلاد الفرنج في أول برية الحجاز ، فان طاغية منهم جمع خيله ورجله ، وحدثته نفسه الخبيثة مخصبه بقصد تيماء ، وهي دهليز - على ساكنها السلام - واغتنم كون البرية معشبة مخضرة في هذا العام والعجب انا نحامي عن قبر النبي - صلوات الله عليه وسلامه - مشتغلين بهمه والمذكور - يعني صاحب الموصل - ينازع في ولاية هي لنا • ليأخذنا بيد ظلمه ، وكم بين من يحارب الكفر ويحمل اليهم قواصم الآجال ، وبين من يتخذهم بطانة من دون المؤمنين ، ويحمل اليهم كرائم الاموال هذا ما نعد في الملة الحنيفية والدولة الهادية العباسية من آثار لا يعد مثلها لابي مسلم ، لانه اقدم ثم خامر ، ووالى ثم ولي ، ولا اخرا لطغرلبك ، فانه نصر ونصب ، ثم حجر وحجب ، وقد عرف ما فضلنا الله به عليهما في نصر الدولة ، وقطع من كان ينازع الخلافة رداءها ، ويطهّر المنابر من رجس الادعياء ، ولم نفعل ما فعلناه لاجل الدنيا ، غير ان التحدث بنعمة الله واجب ••• فان اقتضت

الاوامر الشريفة ان يوعز للمذكور بحلب بتقليد ، فالاولى ان يقلّد الكل ، فلا رغبة فيما لا يؤمن معه شر الشريك ، وللمالك الامر الحكيم في ممالك المماليك »[١] .

ونظرا لرغبة صلاح‌الدين في التقدم نحو الشام وتجهزه للسفر ، فقد خرج الناس لوداعه في القاهرة يوم ٥ محرم سنة ٥٧٨هـ صحبة العلماء والفضلاء والشعراء الذين آخذ كل واحد منهم ينشد أبياتا في الوداع[٢] .

وقد خرج صلاح‌الدين من القاهرة قاصدا مدينة حلب ، وجعل طريقه على ايله ، ثم وصل الى دمشق يوم ١٧ صفر سنة ٥٧٨هـ ، وكان الصليبيون قد نقضوا معاهدة الصلح المعقودة بين الطرفين سنة ٥٧٦هـ/١١٨٠م ، ولذلك خرج من دمشق واغار على طبرية وبيسان[٣] . كما ارسل الى مصر يطلب من أخيه الملك العادل تجهيز الاسطول المصري لمقابلته على الساحل الشامي بعد ان خرج الى بعلبك ، الا انه ترك حصار بعلبك وتوجه لحصار بيروت حال سماعه بأن الاسطول المصري خرج اليها . ورغم الحصار الشديد والضربات التي تلقتها المدينة ، الا انها لم تفتح نظرا

---

(١) مفرج الكروب : ٢/١١٠ ــ ١١٢ .

(٢) يقال بأنه أخرج احد مؤدبي اولاد صلاح‌الدين رأسه اثناء تجمعات الناس لوداع صلاح‌الدين وأنشد بيتا من الشعر قال فيه:

تمتع من شميم عرار نجد فما بعد العشية من عرار

وقد تطير صلاح‌الدين من ذلك البيت من الشعر ، وانقبض انبساطه ، وكأن الشاعر نطق بما هو مقدر . لانه قدر لصلاح‌الدين الا يعود الى مصر مرة اخرى حتى توفي سنة ٥٨٩ هـ/١١٩٣م . انظر : مفرج الكروب : ٢/١١٣ ، زبدة الحلب : ٣/٥٥ .

(٣) النوادر السلطانية : ٥٦ ؛ مفرج الكروب : ٢/١١٣ـ١١٥؛ زبدة الحلب ٣/٥٦ .

لقلة المنجنيقات ، واستجماع بلدوين الرابع ملك بيت المقدس لسفن عكا وصور لرفع الحصار عن بيروت ، وما اشيع عن الموصليين بأنهم تهادنوا مع الصليبيين وعقدوا معهم معاهدة دفاعية هجومية ضد صلاح‌الدين[١] .

ورغبة من صلاح‌الدين بالالتفات الى القوى الاسلامية ، والتفرغ لمشروع وحدة الكلمة قبل ضرب الصليبيين ، ونتيجة للعوامل السابقة ، فقد ترك حصار بيروت ورحل الى بعلبك ومنها الى مدينة حمص ، ثم الى حماة . ولما قرب من حلب وصل الى خدمته مظفرالدين كوكبري بن زين‌الدين الذي كانت بيده قلعة حرّان ، لانه كان قد استوحش من عزالدين مسعود ـ أتابك الموصل ـ ووزيره مجاهدالدين قايماز[٢] .

وفي ١٨ جمادى الاولى سنة ٥٧٨هـ وصل صلاح‌الدين حلب وحاصرها لمدة ثلاثة أيام[٣] . الا انه ترك حصارها وفضل السيطرة على بلاد الجزيرة والحصون المجاورة لها ، ليتمكن من دخول حلب بسلام ، بعد ان يدفعها لطلب الاستسلام[٤] . ونظرا لرغبة صلاح‌الدين الصادقة في العمل على توحيد بلاد الشام والجزيرة من أجل مقاولة الصليبيين ، وابعادا

---

(١) مفرج الكروب : ٢/١١٥ـ١١٦ ؛ التاريخ الحربي المصري : ١٣٦ ؛

Lanepool, Saladin, P. 169.

(٢) النوادر السلطانية : ٥٦ـ٥٧ ؛ مفرج الكروب : ٢/١١٦ . ورغم ما ذكر اعلاه من اسباب ترك صلاح‌الدين حصار بيروت والتقدم نحو حلب مارا بحران . فان ابن الاثير يرى بأن مجاهدالدين قايماز هو الذي كاتب صلاح‌الدين واطمعه في البلاد ودعاه الى عبور الفرات بعد ان وعده النصرة ، مما دفع صلاح‌الدين الى ترك حصار بيروت وتقدم نحو حران بعد ان اظهر بأنه ينوي حصار حلب سترا للحال . الكامل : ١١/٤٨٣ .

(٣) مفرج الكروب : ٢/١١٦ ، السلوك : ١/٧٨ .

(٤) انظر : الكامل : ١١/٤٨٣ ؛ رحلة ابن جبير : ٢٤٧ .

لكل اصطدام مسلح يقع مع المسلمين ، فقد أصدر قرارا بالعفو العام عن جميع المسلمين الذين يرغبون العمل معه في مجاهدة الصليبيين شريطة ان تكون القيادة له ، حيث كاتب ملوك الاطراف والامراء المحليين أنه « من جاء مستسلما سلمت بلاده ، على ان يكون من أجناد السلطان واتباعه ومساعديه على جهاد الكفرة »[1] •

وقد استجاب لقرار العفو الامير نورالدين بن قر أرسلان بن سقمان ابن ارتق ـ صاحب حصن كيفا ـ وتقدم الى صلاح‌الدين بالاذعان ، فوعده صلاح‌الدين بمنحه قلعة آمد بعد فتحها اكراما له[2] • بينما امتنع عليه الامير فخرالدين مسعود بن الزعفراني أمير مدينة الرها ، فتقدم صلاح‌الدين الى مدينته وحاصرها وضيق عليها حتى اضطر الزعفراني الى طلب الامان ، فأمن وسلم البلد الى صلاح‌الدين ودخل في خدمته • ثم تقدم صلاح‌الدين الى الرقة وملكها بعد ان هرب منها أميرها قطب‌الدين ينال بن حسان المنبجي الى الموصل عند سماعه بتقدم صلاح‌الدين نحوه • كما استسلمت كل من الخابور وقرقيسيا ، وماكسين وعربان ومشهد الرمان من أرض الجزيرة وكافة الحصون الاخرى المحيطة بحلب والمنتشرة في أرض الشام والجزيرة وقلعة رأس العين والشمسانية والمجدل والحصين ونصيبين التي استسلمت بعد ان حوصرت عدة أيام فدخلها صلاح‌الدين واقطعها للامير أبي الهيجاء السمين[3] •

---

(١) الروضتين : ٣٢/٢ ؛ مفرج الكروب : ١١٧/٢ •

(٢) الكامل : ٤٨٣/١١ ؛ الروضتين : ٣٢/٢ ؛ مفرج الكروب: ١١٧/٢ •

(٣) الكامل : ٤٨٤/١١ ، الروضتين : ٣٢/٢ ، تاريخ مختصر الدول : ٢١٨ ، مفرج الكروب ١١٧:٢ـ١١٨ ، عاشور، الحركة الصليبية: ٧٧٦/٢ •

اما موقف عزالدين مسعود عزالدين مسعود ـ اتابك الموصل ـ من تحركات صلاح‌الدين ، فانه خاف على ممتلكاته وجمع عساكر الموصل ، وتقدم بها نحو نصيبين للدفاع عن حلب في حالة تقدم صلاح‌الدين اليها ، غير ان عبور صلاح‌الدين للفرات ـ كما تبين من قبل ـ قطع عليه خطوط رجعته فاضطر الى العودة الى الموصل[1] ، بعد ان قيل بأنه راسل الصليبيين وطلب منهم العون على مقاومة صلاح‌الدين[2] .

وقد راسل صلاح‌الدين الخليفة العباسي ببغداد واوقفه على تحركات الموصليين واوضح له تواطئهم مع الصليبيين ، ليضفي على تحركاته صفة الشرعية ، وربما استهدف ، من جهة ثانية ، الحصول من الخليفة العباسي على تفويض بتخويله سلطة عليا على بقية الامراء المسلمين في اقليم الجزيرة كسلطة سلاطين السلاجقة في القرن الحادي عشر الميلادي[3] . وقد جاء في نص الكتاب المرسل للديوان العزيز ببغداد بالانشاء الفاضلي ما يلي :ـ

« ... وكتاب الخادم الآن من البيره بعدما قطع الفرات وكان من لا تقرب عليه العزائم ما هو بعيد ولا يلقى السمع وهو شهيد ، يظن ان ساكن النيل يحول الفرات بينه وبين قصده ... ولما تحقق الخادم ان المواصلة قد واصوا الفرنج مواصلة أخلصوا فيها الضمائر ولم يستطيعوا فيها كتمان السرائر وخصمتهم خطوط الايدي المتمسكة بعَضم الكوافر وعقدوا معهم عقد أشهده من هو حاضره ونقله الى من سمعه من هو ناظره ، وكان عقدهم احدى عشرة سنة والمستقر لهم في كل سنة عشرة آلاف دينار على ان تسلم ثغور المسلمين الى الكفار منها بانياس وشقيف تيرون

(١) الكامل : ١١/٤٨٣ .

(٢) انظر ابو شامة ، الروضتين : ٢/٣٣ .

(٣) Grousset, op. cit., 11, P. 714.

وحبيس جلدك وأسارى الفرنج في كل بلدة بأيديهم وفي كل بلد يسترجعونه من الخادم مساعدة الفرنج ، ولما تم لهم هذا العقد وحملوا الى الفرنج ذلك النقـد ظنوا ان الحق يجادله الباطل فيدحضه ، وان يد الكفر تنبسط الى الاسلام فتقبضه وان الخادم لا يمكنه ان يتوجه اليهم ، الا ان يكون للفرنج سلما ، ولا يستطيع ان يقسم العساكر فيجعل بازاء الفرنج قسما وبازائهم قسما ... وتواعـد المواصلة مع الفرنج ليطلبوا ولاية الخادم من جانب ويطلبها الفرنج من جانب ، ونظروا فيمـا يوصل المشـاة الى الخادم ولم ينظروا للاسلام في العواقب ، فوصل المواصلة الى نصيبين مجدين ، وحركوا الفرنج للخروج الى الشام متطرفين ... لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ... ولما قرب الخادم من الفرات وصل اليه صاحب حران ابن زين‌الدين على كوجك ... وكذلك صاحب سروج وصاحب البيره وكل بيده مفاتيح بلده وأمامه أمان الخادم له قد استبدله من مقلده ووراءه عسكره على كمال عدده وعدده ، وتوالت كتب امرائهم الذين يأخذون اقطاعاتهم خدما ومصانعات ورعاياهم الذين يأخذون أموالهم جبـايات ومقاطعات ومكوسا وعشورا واحتكارات يرغبـون الى الخادم في الانفاذ ويحثونه في المسير ... »[1] .

وبذلك اوضح صلاح‌الدين للخليفة العباسي بأن الموصليين انما عزموا على اضعاف قواه بتعاونهم مع الصليبيين ، معتقدين بأن نهر الفرات يعصمهم من تقدمه الا ان آمالهم خابت ، حيث تمكن صلاح الدين من عبوره وامتلاك كل الحصون والقلاع المنتشرة هناك بعد ان كانت تلك القلاع والحصون نفسها تراسل صلاح‌الدين وتطلب الانضمام اليه للارهاق الاقتصادي الذي كانت تعانيه من جراء ظلم الامراء النوريين ولذلك لم يبق أمام صلاح‌الدين

---

(١) الروضتين : ٢/٣١ـ٣٢ .

الا الموصل فتقدم لحصارها •

حصار صلاح الدين الموصل الاول سنة ٥٧٨ هـ/١١٨٢م

وجد صلاح الدين بأن الصراع مع الصليبيين لا يمكن دفعه بقواته المحدودة التي تحيط به خاصة وان عساكر مصر - في أغلب الاحيان - لا يستغنى عنها للدفاع عن مصر نفسها ، علما بأن الغرب النصراني كان لا يزال يقدم امداداته المتوالية للصليبيين في الشام ، وانه طالما بقي النوريون في حلب وسنجار والموصل تحت أمرة غيره فانهم - من دون شك - يشكلون قوة ثالثة لا يستأمن جانبها ، ولهذا فان النتيجة الحتمية التي يتوقع قيامها هي : محاولة صلاح الدين ضم الموصل وسنجار وحلب الى حكمه سواء بطريق الحرب مع النوريين ، أو باتباع سياسة سلمية يمكن معها جعل عساكر تلك البلاد تقف الى جانبه أثناء الازمات كالتوقيع على معاهدة جدية يحترمها كلا الطرفين للتعاون العسكري من أجل مقاومة الغزاة •

كان صلاح الدين قد احتل كثيرا من المواقع النورية ، وخرج الى حمص وحماة قاصدا ضم حلب الى ملكه ، غير ان مظفر الدين كوكبري أشار على صلاح الدين بالمسير نحو الموصل[١] • لما كان عليه الموصليون من نكث العهود ومكاتبة الصليبيين لاجل مقاومته[٢] • فتقدم صلاح الدين اليها بعد ان كان قد ملك كلا من الرها والرقة ونصيبين بالامان - كما تبين ذلك

---

(١) يرى ابن الاثير بأن صلاح الدين لما ملك نصيبين جمع امراء وارباب مشورته واستشارهم بأي البلاد يبدأ : الموصل ام سنجار ، أم بجزيرة ابن عمر ، فأختلفت آراؤهم ، وأشار مظفر الدين على الموصل وأيده ناصر الدين محمد بن عمه شيركوه الذي سعى لاحتلال صلاح الدين الموصل ليمتلكها هو عوضا عن اموال يقدمها لصلاح الدين • وسوف يتبين حقيقة هذا الرأي فيما بعد • انظر : الكامل ١١:٤٨٤-٤٨٥ •

(٢) النوادر السلطانية : ٥٦ •

من قبل ـ وبعد ان كان قد اتضح له بأن تحقيق أهدافه لا يتم بدون نزاع مسلح مع الموصليين الذين رفضوا الانصياع لقراراته القاضية بانضمامهم اليه ، ورفضهم لاية محاولة جادة للصلح ، الا انسحابه الى مواقعه القديمة في مصر[1] ٠

ولهذا صمم صلاح‌الدين على حصار الموصل ونزل عليها يوم الخميس ١١ رجب سنة ٥٧٨هـ وظل محاصرا اياها قرابة خمسة وثلاثين يوما[2] ٠ وكان قد استشار امراءه في كيفية حصار البلد ، ودار حول السور ، وعين لكل مقدم موضعا حوله يقاتل منه الموصليين ، فجعل تقي‌الدين في القسم الشرقي وأخاه تاج‌الملوك بوري عند باب العمادية ، وكان المتولي عن حفظ الموصل مجاهدالدين قايماز الذي راسل الديوان العزيز ببغداد وطلب شفاعتهم للتوسط لدى صلاح‌الدين في الكف عن حصار الموصل ٠ وقد استجابت الخلافة العباسية لطلب الموصليين وارسلت الى صلاح‌الدين صدرالدين شيخ الشيوخ وشهاب‌الدين بشير في الشفاعة ، فرحل عنها الى مدينة سنجار[3] ٠

وكان عزالدين مسعود ـ اتابك الموصل ـ قد سيّر القاضي بهاءالدين

---

(١) ابن شاهنشاه ، مضمار الحقائق : ١٠٩ ٠

(٢) استمر حصار الموصل مدة ٣٥ يوما ، ذلك لان صلاح‌الدين نزل عليها يوم ١١ رجب وغادرها الى سنجار يوم ١٦ شعبان ، فكان مجموع: ١٩ يوما من رجب و١٦ يوما من شعبان يساوي ٣٥ يوما انظر : النوادر السلطانية : ٥٧ ، الروضتين ٢:٣٣ ؛ مفرج الكروب : ٢/١٢٠/ اما اذا اخذنا بقول المنصور الايوبي بأن صلاح‌الدين نزل على حلب في رجب وعشرة ايام من شعبان ، فان مدة الحصار تكون ٢٩ يوما ٠ انظر : مضمار الحقائق وسر الخلائق : ١١٠ ٠

(٣) ابن شاهنشاه ، مضمار الحقائق : ١٠٧ ؛ تاريخ مختصر الدول: ٣١٨ ؛ الروضتين ٢/٣٢ـ٣٣ ، مفرج الكروب : ٢/١٢٢ ٠

ابن شداد رسولاً من عنده الى الديوان العزيز لأجل التوسط بينه وبين صلاح الدين • وقد وصف ابن شداد ذهابه الى بغداد لاداء المهمة فقال : « كنت ـ اذ ذاك ـ في الموصل ، فسيّرت رسولا الى بغداد قبيل نزوله عليها بأيام قلائل ، فسرت مسرعا في الدجلة ، واتيت بغداد في يومين وساعتين من اليوم الثالث مستنجدا بهم ، فلم يحصل منهم سوى الانفاذ الى شيخ الشيوخ وكان في صحبته رسولا من جانبهم ، يأمرونه بالحديث معه ••• »[1] •

وقد دخل رسول الخليفة العباسي بين صلاح الدين وعزالدين وتحدث مع الطرفين حديث الصلح ، غير ان عزالدين طلب اعادة البلاد التي كانت تابعة لحكمه فأجاب صلاح الدين الى ذلك ، شريطة ان يسلموا مدينة حلب اليه ، فامتنع عزالدين عن ذلك ، ثم نزل صلاح الدين عن رأيه ، وطلب منهم الامتناع من انجاد عمادالدين صاحب حلب ضده ، فامتنع عزالدين بحجة ان بينه وبين أخيه عهود ومواثيق ، وانه لا يمكنه نكثها ، ولذلك لم يتوصل الجانبان الى حلول ايجابية ، وبقيت الرسل تتردد بين الطرفين من دون نتيجة[2] •

كما أرسل عزالدين مسعود الى بلهوان بن ايلدكز (١١٧٢ ـ ١١٨٥م) ـ أتابك همذان ـ رسولا يستنجد بـه ضد صلاح الدين ، الا ان الاخير عرض عليه شروطا قاسية منعت عزالدين من التعاون معه • اضافة الى ان الجاندار رسول مظفر قزل ارسلان ـ اتابك اذربيجان ـ ورسلا من شاه أرمن اتابك خلاط ، وصلت لتحقيق نفس الهدف ، الا انه لم ينتظم امر ولا تم صلح[3] • نظرا لان الموصليين ـ كما ذكر المنصور الايوبي ـ كانوا

---

(١) النوادر السلطانية : ٥٧ ؛ الروضتين : ٢/٣٣ ؛ مفرج الكروب ٢/١٢٢ •

(٢) الكامل : ١١/٤٨٦ ؛ مفرج الكروب ٢/١٢٢ •

(٣) الكامل : ١١/٤٨٧ ؛ مفرج الكروب : ٢/١٢٣ •

يماطلون ويختالون في حديث الصلح ويطلبون مطاليب كثيرة وأشياء متعددة • وكان شيخ الشيوخ رسول الخليفة العباسي - يتوهم بأن صلاحالدين هو الذي لا يؤثر الصلح ، فلما تبين لصلاحالدين منه ذلك عمد الى التنازل للموصليين الى ما طلبوه ارضاء لممثل بغداد • علما بان ممثلي صلاحالدين - القاضي الفاضل والفقيه عيسى الهكاري - امتنعوا عن حضور جلسات التفاوض مع الموصليين لمماطلتهم في حديث الصلح ، فاضطر ممثل بغداد الدخول الى الموصل للتأكد من حسن نواياهم فوجدهم متنكبين عن سلوك النهج وقالوا له بعد كلام طويل : « ان اراد صلاحالدين وفاقنا فليرحل عنا • ويرد بلادنا ونحن نخلّي بينه وبين حلب ، ولا يطلب منا مساعدة ، لان لنا مع عمادالدين زنكي يمينا وعهدا ••• وكان قد استقر مع الرسل انهم يسلمون الى السلطان حلب ويستعيدون منه البلاد فندموا على ما قدّموه من التقرير ، وتبين لـه ما كان المواصلة عليـه من الحنث والمخادعة فانصرف شيخ الشيوخ من عندهم متوجها الى بغداد »[1] • الا انهم لحقوا به معتذرين وطلبوا منه العودة الى صلاحالدين ، لاعادة حديث الصلح[2] • لان انسحاب ممثلي صلاحالدين ، وممثل بغداد من المفاوضات معناه فشل المفاوضات مع الموصليين ، وان الحرب آتية لا ريب فيها •

---

(١) ابن شاهنشاه ، مضمار الحقائق : ١٠٨-١٠٩ •

(٢) ذكر العماد الاصفهاني في البرق الشامي بأن المواصلة جاؤا الى ممثل بغداد وتضرعوا اليه وتشفعوا وقالوا : «تعود وتعيد ما سمعته وتحكي من المعنى ما استعلمته فلعلك تأتي بالعلل بعد النهل ويرد بلطفك من عنف علينا وصعب الى المنهج للاسهل فرجع بغير ما رجا واستكشف كذبهم حجاب المجا ••• فلما اجتمع بالسلطان استعفى من الكلام واستوفى حديث ما سمعه ••• فقالوا له هذه اشهر شراف وميامين بقدومك طراف وقد عزمنا ان نرحل ونهب لوصولك الموصل » • انظر : جب ، صلاح الدين : ١١٤ •

وقد تحدث ابن الأثير عن حصار صلاح الدين الأول للموصل ، وكان في حديثه بعض الامور التي تستحق الدراسة ، خاصة وانه كان شاهد عيان ، وان روايته نقلت الى الكثير من المصادر والمراجع[1] دون الاشارة الى مدى صحة تلك الرواية ، وعلاقة مؤرخها بالاحداث ، علما بان ابن الاثير كان موصلي البيئة والفكرة وكان في حصار الموصل الثاني سنة **٥٨١هـ** أحد المدافعين عن الموصل من داخل السور ضد صلاح الدين[2] . وقد ذكر ابن الاثير بأن صلاح الدين عندما تقدم لحصار الموصل انفرد مع أعيان دولته كالامير مظفرالدين وناصرالدين بن شيركوه واقتربوا من البلد للتحقيق في كيفيــة دخوله ، الا ان صلاح الدين لما رأى الموصل « رأى ما هاله وملأ صدره وصدر أصحابه ، فانه رأى بلدا عظيما كبيرا ورأى السور والفصيل قد ملئا من الرجال ، وليس فيه شرافة الا وعليها رجل يقاتل سوى من عليه من عامة البلد المتفرجين ، فلما رأى ذلك علم انه لا يقدر على أخذه ، وانه يعود خائبا ... [وقال للامراء حوله] غررتماني واطمعتماني في غير مطمع ، ولو قصدت غيره قبله لكان اسهل أخذا بالاسم والهيبة التي حصلت لنا ، ومتى نازلناه ، وعدنا منه ينكسر ناموسنا ... وخرج اليه بعض العامة يوما فنالوا منه ... [ولما أشير عليه بنصب المجانيق على البلد قال] مثل هذا البلد لا ينصب عليه منجنيق ، وحتى ان نصبناه أخذوه ولو خرّبنا برجا وبدنه من يقدر على الدخول للبلد وفيه هذا الخلق الكثير ؟ فألحّ تقي الدين

---

(٢) انظر مثلا : ابــن العبري ، تاريخ مختصر الــدول : ٢١٨ـ ٢١٩ ، الروضتين : ٢/٣٣ ، مفرج الكروب : ٢/١٢٠ـ١٢١ . علما بأن ابن واصل نقل رواية ابن الاثير بالنص مـا عدا اختلاف بسيط في نقله لكلمة «المداس» بدلا من كلمة «اللالكه» والمعنى واحد قارن مع ابن الاثير، الكامل : ١١/٤٨٤ـ٤٨٧ .

(٣) انظر الكامل : ١١/٥١٢ .

وقال نجربهم به ، فنصب منجنيقا ، فنصب عليه من البلد تسعة مجانيق وخرج جماعة من العامة فأخذوه ، وجرى عنده قتال كثير ، فأخذ بعض العامة لالكه[1] من رجليه فيها المسامير الكثيرة ، ورمى بها أميرا يقال له جاولى الاسدي مقدم الاسدية وكبيرهم فأصاب صدره ... وأخذ الالكه وعاد عن القتال الى صلاح‌الدين وقال : قد قاتلنا أهل الموصل بحماقات ما رأينا مثلها ، والقى الالكه وحلف انه لا يعود يقاتل عليها أنفة حيث ضرب بهذه ثم ان صلاح‌الدين رحل من قرب البلد ، ونزل متأخرا ، خوفا من البيات ، فانه لقربه كان لا يأمن ذلك ... وان من بسنجار من العساكر الموصلية يقطعون طريق من يقصدونه من عساكر أصحابه فسار من الموصل اليها »[2] .

ولو تفحصنا رواية ابن الاثير لوجدنا فيها ما يلي :

أولا :ــ صور ابن الاثير سبب تقدم صلاح‌الدين الى الموصل بأنه اشارة من مظفرالدين وناصرالدين الذي دفع صلاح‌الدين لامتلاك الموصل ليمنحها اياه عوضا عن أموال يدفعها اليه . علما بان صلاح‌الدين لم يتقدم لحصار الموصل باشارة احد ، أو لاسباب اقتصادية طمعا في أموال ناصرالدين ــ كما ادعى ابن الاثير ــ انما الذي دفعه لحصارها ــ ولحصار غيرها من المدن السابقة ــ سياسته التي نبعت من عقيدته التي كان يحملها ، والتي تمثلت بتحقيق شعار « الجهاد في سبيل الله » الذي تطلب جمع الكلمة ورص القوى من أجل مقاومة الغزاة[3] . ولو كان صلاح‌الدين يهدف

---

(١) الالكه : هو المداس او الحذاء ، واللالك لفظ فارسي والجمع (لوالك) واللالكي هو صانع الاحذية . انظر : مفرج الكروب : ١٢/٢ هامش ٤ .

(٢) الكامل : ١١/٤٨٤ــ٤٨٧ .

(٣) ذكرنا فيما سبق نصوص كثيرة تثبت ما جاء اعلاه تمثلت

بفتوحاته وغزواته الحصول على متاع الدنيا لاستولى على خزائن دمشق عندما فتحها • ثم لو كانت رغبته الحصول على الاموال لما منح قلعة آمد ـ بما حوت من آلات وأموال قدرت بثلاثة ملايين من الدنانير ـ لنورالدين محمد بن قرا أرسلان الارتقي دون ان يستلم منها شيئا رغم معارضة امرائه[1] • اضافة الى ان صلاحالدين عندما فتح القدس سنة ٥٨٣هـ سمح للصليبيين ـ ولرجال الدين خاصة ـ بنقل أموالهم ومجوهرات كنائسهم ـ بما فيها كنيسة القيامة ـ الى خارج البلد دون اعتراض[2] ، كما انه توفي ولم يخلف في خزانته سوى سبعة وأربعين درهما ودينارا • فكيف اذن يتهم من يترك أموال أعدائه دون ان يغتنمها ويتوفى ولم يترك الا حوالي بضعة دنانير ، بأنه كان يفتح المدن للحصول على مغانم اقتصادية !؟ •

ثانيا :ـ يوضح ابن الاثير بأن الاسباب التي دفعت صلاحالدين الى الانسحاب من حصار الموصل بأنها كانت في قوة الموصليين وشجاعتهم التي منعت صلاحالدين وجنده من التقرب من البلد أولا ، وانتصار العساكر

بالكتب المرسلة الى الديوان العزيز ببغداد • انظر مثلا : الروضتين : ٦٢/١ و٤٨/٢ •

(١) انظر : الروضتين : ٣٩/٢ ؛ مفرج الكروب ١٣٦/٢ ؛ البداية والنهاية ٣١٣/١٢ •

(٢) كان في القدس بعد فتحها من قبل صلاحالدين سنة ٥٨٣ هـ بعض نساء ملوك الروم اللواتي يملكن الكثير من الاموال والجواهر النفيسة ، فسمح لهن صلاحالدين بالخروج من القدس ولم يأخذ من أموالهن شيئا • كذلك خرج من القدس البطرك الكبير ومعه اموال البيع ـ منها قبة الصخرة وكنيسة القيامة ـ التي كانت عظيمة جدا بما حوت من مجوهرات دون ان يعترضه صلاحالدين • فقيل له : خذ ما معه لتقوي به المسلمين ، فقال : لا اغدر به • ولم يأخذ منه غير عشرة دنانير بدل الامان على النفس حسب ما جاء في شروط اتفاقية الصلح • انظر : الروضتين ٩٦/٢ ؛ مفرج الكروب ٢١٦/٢ •

الموصلية التي بسنجار على عساكر صلاح الدين ثانيا . فاضطر صلاح الدين الى ترك حصار الموصل والتوجه الى سنجار نجدة لاصحابه المهزومين هناك . واستقراء لكثير من المصادر تبين ان انسحاب صلاح الدين من حصار الموصل تمثل بالاسباب التالية :ـ

أولا ـ انسحب صلاح الدين من حصار الموصل ، لانه لم يحب اراقة الدماء بين المسلمين في شهر رجب ، وهو أحد الاشهر الحرم في الاسلام . وقد تبين من قبل كيف ان صلاح الدين اوقف القتال مع النوريين سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م عند قرون حماة في شهر رمضان ، احتراما لذلك الشهر . وكذلك عند محاصرة صلاح الدين لمدينة سنجار سنة ٥٧٨هـ والتي حاصرها حصارا شديدا ، حتى انهدمت ثلمة من سورها ، ولما دخل شهر رمضان كف عن القتال حرمة للشهر حتى سلمت المدينة بالامان[١] ومما يدل على ان صلاح الدين كان يحترم الاشهر الحرم ولا يقاتل فيها ما قاله لرسول بغداد عند كلامه في حديث الصلح مع المواصلة : « هذه أشهر شراف وقد عزمنا على الرحيل ونهب لوصولك الموصل »[٢] .

ثانيا ـ ايقن صلاح الدين ان استسلام الموصل ـ وهي البلد الكبير الواسع ـ لا يتأتى الا عن طريق حصارها الشديد والسيطرة على القلاع والحصون المجاورة لها ، والتي تموّنها بما تحتاج اليه ، ولذلك فضل ملك سنجار والعودة الى حصار الموصل ثانية[٣] .

ثالثا ـ ان صلاح الدين ترك حصار الموصل ولم يفتحها لعدم تقليد الخليفة العباسي ، مقاليد الموصل اليه . ولو ان بغداد منحته التقليد لفتحها

---

(١) انظر : الروضتين : ٢/٣٣ .
(٢) ابن شاهنشاه ، مضمار الحقائق : ١١٠ .
(٣) النوادر السلطانية : ٥٧ ؛ الروضتين : ٢/٣٣ .

بكل يسر استنادا الى ما ذكره صلاح‌الدين في الكتاب الذي أرسله الخليفة العباسي للتعريف بفتح آمد سنة ٥٧٩هـ ـ وهو بالانشاء الفاضلي ـ « ولو قبلت مسألته في تقليد الموصل لكان قد ولجها ولو بدرجة ادلجها وأخذها ولو بحصاة نبذها »[١] .

رابعا ـ يرى المنصور ـ وهو ابن الملك المظفر ، ابن اخي صلاح‌الدين وقد كان معاصرا لاحداث عد حصار صلاح‌الدين للموصل هذا ـ بأن صلاح‌الدين انسحب من حصار الموصل لان الاخبار وصلت اليه بانتصار الملك المظفر على عسكر الموصل عند حدود سنجار فترك صلاح‌الدين حصار الموصل لمساندة العسكر الايوبي هناك وتكملة فتح سنجار والعودة الى حصار الموصل ثانية[٢] .

فتح صلاح‌الدين سنجار وتبعيتها له :

تبين مما سبق ان صلاح‌الدين انسحب من حصار الموصل لعوامل عدة اجتمعت في عدم ارسال خليفة بغداد تقليد المدينة اليه ، وانتصار عسكره على عسكر الموصليين عند حدود سنجار ، ووساعة المدينة وحصانتها ، فرحل عن الموصل الى سنجار في ١٦ شعبان ٥٧٨هـ/١٥ ديسمبر ١١٨٢م . وفي أثناء طريقه اليها وجد عسكرا من الموصل سائرا اليها ، فأخذ خيلهم وعددهم وردهم الى الموصل رجّالة[٣] .

ويتبين من موقف صلاح‌الدين تجاه عسكر الموصل شيء من سياسته التي هدف من ورائها التخلص من اطعام الاسرى ، والاستفادة من خيولهم

---

(١) الروضتين : ٤١/٢ .
(٢) ابن شاهنشاه ، مضمار الحقائق : ١١٠ .
(٣) الكامل : ٤٨٨/١١ ؛ الروضتين : ٣٣/٢ ؛ مفرج الكروب: ١٢٣/٢ .

لمصلحة عساكره • ثم لكسب ودّ الاسرى وود أهليهم في بلدهم، أن منّ عليهم باطلاقهم احرارا دون ان يصيبهم منه أذى اضافة الى انه لم تكن لصلاح‌الدين معسكرات قريبة لايواء الاسرى فيها •

وقد امتنع حاكم سنجار (شرف‌الدين أمير اميران هندو) – أخو عزالدين مسعود أتابك الموصل – من تسليم قلعة سنجار الى صلاح‌الدين بالامان ، فاضطر صلاح‌الدين لمحاصرتها والتضييق عليها ، حتى تمكن من دخولها بعد ان ملك أحد أبراجها ، فاضطر شرف‌الدين الى طلب الامان لنفسه ولامواله ولعسكره في ٢ رمضان سنة ٥٧٨ ، فأمنه صلاح‌الدين وخرج شرف‌الدين من البلد الى الموصل محفوظا مكرما ، ودخلها صلاح‌الدين ورتب أحوالها ، وأمر بعمارتها وولاها سعدالدين مسعود بن أنر[1] • وقد استبشر أعيان سنجار بقدوم صلاح‌الدين اليهم وخرجوا للقائه ، فقابلهم صلاح‌الدين بالاكرام والاحسان واسقط ما كان في المدينة من مكوس وضرائب[2] • وكان رؤساء سنجار من بني يعقوب فترك الرياسة فيهم ، وولى القضاء منهم نظام‌الدين بن المظفر محمد بن يعقوب[3] •

وبعد ان دخل صلاح‌الدين سنجار ، ورتب امورها رحل منها الى نصيبين وأقام بها لشدة البرد • وقد شكا له أهاليها من معاملة أميرهم القاسية أبو الهيجاء السمين فعزله واستصحبه معه الى دارا التي كانت تابعة للامير الارتقي صمصام‌الدين بهرام الذي تلقى صلاح‌الدين بالاكرام • ومن نصيبين خرج صلاح‌الدين الى حرّان للاستراحة فيها ، بعد ان ودّع رسل

---

(١) الكامل : ٤٨٨/١١ ، الروضتين : ٣٣/٢ ، مفرج الكروب : ١٣٣/٢ ، مضمار الحقائق : ١١٠–١١١ ، زبدة الحلب : ٥٩/٣ •
(٢) مضمار الحقائق : ١١١ •
(٣) الروضتين : ٣٣/٢ •

الخليفة العباسي[1] .

اما موقف عزالدين مسعود ـ اتابك الموصل ـ من ملك صلاح‌الدين لسنجار ، فانه راسل شاه أرمن[2] سقمان ظهيرالدين اتابك اخلاط ، يستنجده ويستنصره على صلاح‌الدين[3] . فأجابه الى طلبه وانفذ الى صلاح‌الدين رسولا من عنده يشفع في الموصل وسنجار التي كانت آنئذ لم تفتح بعد . غير ان صلاح‌الدين سوّف في الجواب ، فلما رأى بكتمر جواب صلاح‌الدين ، اخرج له رسالة ثانية فيها الوعيد والتهديد ان لم يرحل عن البلد وعاد الى شاه ارمن فأخبره الخبر[4] . فتجهز بقواته العسكرية وخرج من اخلاط التي كان مخيما بظاهرها الى ماردين ، وحضر معه دولة شاه ـ اتابك بدليس وارزن ـ والتقى معهم عزالدين مسعود بقليل من العسكر والاثقال[5] . واجتمعت عساكرهم على حرزم[6] للتوجه لقتال صلاح‌الدين الذي كان آنئذ في حرّان قد فرق العساكر واخلد الى الراحة

---

(١) الروضتين : ٣٣/٢ ، مفرج الكروب : ١٢٤/٢ ، زبدة الحلب : ٥٩/٣ .

(٢) كان شاه ارمن خال صاحب ماردين ايلغازي بن البي بن تمرتاش . علما بأن صاحب ماردين هو ابن خال عزالدين مسعود اتابك الموصل . وهذا يوضح لنا سبب تعاون شاه أرمن لا اتابك الموصل عزالدين مسعود . انظر : العماد الاصفهاني في البرق الشامي (تلخيص ابو شامة) ، الروضتين ٣٨/٢ .

(٣) النوادر السلطانية : ٥٨ ، مفرج الكروب : ١٣٢/٢ .

(٤) مفرج الكروب : ١٣٣/٢ .

(٥) النوادر السلطانية : ٥٨ ، الروضتين : ٣٨/٢ في مفرج الكروب: ١٣٣/٢ .

(٦) حرزم : بلدة صغيرة في واد ذات نهر جار وبساتين بين ماردين ودنيسر من اعمال الجزيرة ، وأكثر اهلها من ارمن النصارى ، أنظر : النوادر السلطانية ٥٨ هامش ١ ، مفرج الكروب : ١٣٣/٢ هامش ٥ .

كما تبين ذلك من قبل •

وفي حران أعاد صلاح الدين جمع العساكر القريبة منه ، وارسل الى تقي الدين – أمير حماة – بطلب النجدة فأمده ببعض العساكر • وخرج بما أصبح عنده منها الى رأس العين فلما سمع به أعداؤه تفرقوا ، وعاد كل منهم خائبا الى بلاده من دون ان يحققوا أي مطلب[1] ، بينما توجه صلاح الدين الى آمد وافتتحها •

فتح قلعة آمد وأهميتها في انضمام الاراتقة الى صلاح الدين :

في يوم الاربعاء ١٧ ذي الحجة سنة ٥٧٨هـ/نيسان ١١٨٣م توجه صلاح الدين الى قلعة آمد (ديار بكر حديثا) وكان المتولي لامرها والحاكم فيها بهاء الدين بن نيسان ، بينما كان اتابكها محمود بن ايكلدي[2] ، – وهو شيخ كبير كان الملك له فيها من جهة السلاطين السلاجقة – ليس له من الملك سوى الاسم[3] •

واستمر صلاح الدين في حصار آمد حتى دخلت سنة ٥٧٩هـ ، لان القلعة كانت غاية في الحصانة والمناعة ، ويضرب بسورها المثل ، الا ان سوء تصرف ابن نيسان اضعف من كان فيها ودفعهم الى التهاون في القتال • وقد

---

(١) النوادر السلطانية : ٥٨ ؛ الروضتين : ٣٨/٢ ؛ مفرج الكروب ٢:١٣٣–١٣٤ •

(٢) محمود بن ايكلدي : هو جمال الدين شمس الملوك بن ايكلدي الاينالي حكم قلعة آمد من سنة ٥٣٦ هـ الى سنة ٥٧٩ هـ حيث انتقلت القلعة من يده الى حكم صلاح الدين • انظر : زامباور ، معجم الانساب والاسرات الحاكمة (القاهرة ١٩٥١) ٢١١/١ •

(٣) يقول ابن واصل : كان محمود بن ايكلدي محكوم عليه في قبضة مسعود بن نيسان الذي كان يظهر للرسل التي تصل محمود على انه نائبه ، وكان يتصرف تحت امره ونهيه ، بينما كان حقيقة الامر بيده • مفرج الكروب ١٣٤/٢ •

اتهمه ابن الاثير بأنه « لم يعط الناس من الذخائر شيئا ، ولا فرق فيهم دينا ولا قوتا ، وقال لاهل البلد : قاتلوا عن نفوسكم ، فقال بعض أصحابه ليس العدو بكافر حتى يقاتلوا عن نفوسهم ... وكانت أيام ابن نيسان قد طالت وثقلت على أهل البلد لسوء صنيعهم وملكتهم وتضيقهم عليهم في مكاسبهم فالناس كارهون لها ، محبون لانقراضها »[1] .

وقد استغل صلاح‌الدين الاضطرابات الداخلية في البلد ، فعمد الى وسيلة من وسائل الحرب النفسية ، حيث امر بكتابة رقائع كثيرة علقت بالسهام ، كتب عليها ـ كما ذكر ابن أبي طيء وابن الاثير ـ ابراق وارعاد ووعد وايعاد باستأصال شأفتهم ان داموا بالقتال ، والاحسان اليهم ، وازالة ما كان عليهم من الكلف والضرائب ان اعتزلوا القتال فدفعتهم تلك الرقاع الى التهاون في الدفاع عن القلعة ، خاصة وان جند صلاح‌الدين احدثوا في السور نقبا ، فدفعت تلك العوامل جميعا الى ان يرسل ابن نيسان نساءه الى القاضي الفاضل ليتوسط له لدى صلاح‌الدين بطلب الامان لنفسه ولامواله ، فأجيب الى طلبه ، ووافق صلاح‌الدين على منحه ثلاثة أيام ينقل خلالها أمواله الى خارج البلد[2] .

وفي ١٤ محرم سنة ٥٧٩هـ/٦ـ٥ـ١١٨٣م تسلم صلاح‌الدين آمد[3]

---

(١) الكامل : ٤٩٣/١١ ، وقد نقل ابن واصل نفس الرواية التي ذكرها ابن الاثير انظر : مفرج الكروب : ١٣٥/٢ .

(٢) الكامل : ٤٩٤/١١ ، الوضتين : ٣٩/٢ ؛ مفرج الكروب ١٣٥/٢ ؛ البداية والنهاية : ٣١٣/١٢ .

(٣) الروضتين ٣٩/٢ ، بينما يرى العماد الاصفهاني في البرق الشامي وابن واصل بأن صلاح‌الدين تسلم آمد في العشر الاول من محرم انظر : الروضتين : ٣٩:٢ اما ابن شداد فيذكر بأن صلاح‌الدين قاتل آمد وأخذها في ثمانية ايام وذلك في اوائل المحرم ، النوادر السلطانية: ٥٨ .

بعد ان نصب ابن نيسان خيمه ظاهر البلد لينقل اليها أمواله ، غير ان أصحابه لم يعينوه بصدق وسرقوا تقريبا نصف ما كان يخرجه ، فاضطر صلاح الدين الى ارسال رجال من عنده ليساعدوه حتى انقضت أيامه الثلاثة فمنع من نقل ما تبقى له • واستلم البلد بما فيه من الغلال والسلاح وآلات الحصار وكانت تحوى الشيء الكثير[1] • الا ان صلاح الدين لم يأخذ منها شيئا ، ووهبها لنورالدين محمد بن قرا أرسلان ابن سقمان بن أرتق ـ اتابك حصن كيفا ـ[*] لانه كان قد وعده بها ـ كما تبين ذلك من قبل ـ رغم امتناع بعض أصحاب صلاح الدين وقالوا له : « ان هذه المدينة فيها من

---

(١) هناك وصفا طويلا مفصلا في انواع الالات والاموال التي وجدت في قلعة آمد تجده في ابي شامة نقلا عن ابي طيء • كذلك وصف ابن كثير وابن واصل تلك الامتعة والالات ومما جاء في الوصف : انه كان في البلد من الذخائر ما يساوي قيمته ثلاثة ملايين دينار ، وبرجا مملوء بنصول النشاب وآخر فيه مائة الف شمعة ، ووجد فيه خزانة كتب فيها مليون ومائة واربعين الف مجلد فوهبها صلاح الدين كلها للقاضي الفاضل الذي انتقى منها حمل سبعين حمارا وترك الباقي في البلد • انظر : الروضتين : ٢/٣٩ ؛ مفرج الكروب : ٢/١٣٦ ؛ البداية والنهاية ١٢/٣١٣ •

(*) كان قطب الدين ايلغازي (ت : ٥٨٠هـ) والامراء الاراتقة الاخرون هم الذين رتقوا فتوق الاسلام اولا وكانوا يتولون بيت المقدس وحمايته من الصليبيين قبل الفاطميين ، حتى استولى عليه الصليبيون سنة ٤٩٢ هـ • بينما بقيت ديار بكر ومن والاها وحلب وأعمالها بحماية الاراتقة وقد توارثوا الامارة في ذلك الاقليم الى أن انتهى الى قطب الدين ايلغازي أعمال ميفارقين وماردين ، ولما توفي بقيت بيد ابنه البالغ من العمر عشر سنين ، وانتهى الى ابن عمه نورالدين بن محمد قرا ارسلان حصن كيفا وخرتبرت ، ثم أضاف اليه صلاح الدين آمد • وقد كان قطب الدين أولا الى جانب الموصليين ، ثم اذعن لصلاح الدين ودخل في طاعته أنظر : الروضتين : ٢/٦٠ •

الذخائر ما يزيد على الف الف دينار ، فلو أخذت ذلك واعطيته جندك واصحابك ، وسلمت اليه البلد فارغا لكان راضيا ... فامتنع ، من ذلك وقال : ما كنت لاعطيه الاصل وابخل بالفرع . »[1] وقد علّق المستشرق جب على هذا الكرم النبيل من صلاح الدين لنورالدين الارتقي فقال : « لتثبت مرة والى الابد بطلان جميع التهم التي الصقها بـه أعداؤه عن الاطماع الانانية »[2] .

ولو تساءلنا قائلين : اذا كان هدف صلاح الدين من فتح القلاع والمدن الاسلامية ليفيد بما فيها من عَددٍ وعُدَة في مقاومة الصليبيين ، فلماذا اذن سلّم قلعة آمد ـ وهي القلعة الحصينة الغنية ـ الى الاراتقة لمجرد وعـد قطعه على نفسـه ؟ الحقيقة ان صلاح الدين لم يكن من السذاجة بمكان بحيث يسلم مثل تلك القلعة ـ وقد كلفته الكثير من الجهد والوقت ـ لحكم غيره من دون ان يحقق هدفه الرئيس من فتح الحصون والمدن الاسلامية . لان صلاح الدين لم يسلم آمد لنورالدين الارتقي الا بعد ان حلف له الاخير ان يظهر العدل ويقمع الجور ويكون سامعا مطيعا له مع معـاداة الاعداء ومصافات الاصدقاء في كل الاوقات ، وان يكون الى جانبه عنـد الازمات[3] . وبذلك يكون تسليم صلاح الدين قلعة آمد لنورالدين مجرد توليته الامارة عليها ، كسائر المدن والقلاع الاسلامية الاخرى التي بعد ان يدخلها يولي عليها اميرا من عنده . ولقد كان الامير المولى في هذه المرة ارتقيا قد كسب ثقـة قائده الاعلى لالتقـاء هدفيهما ، ولذلك فمنح آمد

---

(١) مفرج الكروب : ٢/١٣٦ ؛ انظر ابو شامة : ٢/٣٩ ؛ عماد الدين ، امارة بني ارتق : ١٠٥ـ١٠٦ .

(٢) صلاح الدين : ١٣٧ .

(٣) العماد الاصفهاني في البرق الشامي ، انظر الروضتين ٢/٤٢ـ ٤٣ .

لنورالدين لا يعني انفصاله بها ، انما تبعيته لصلاح الدين •

وقد امتدح الشعراء صلاح الدين بعد ملكه آمد ، وعدوا دخوله اليها من الانتصارات العظيمة التي اعادت لمنطقة الجزيرة حيويتها ونشاطها • كالقاضي السعيد ابن سناء الملك[1] • الذي وصف أرض الجزيرة بانها لم تظفر من قبل برئيس فطن وانه لم يرأسها فيما سبق الاخصي أو صبي ، فلما جاء صلاح الدين انصلحت أمورها لاستخدامه العدل وقضائه على المفاسد ، ثم امتدحه على هبته آمد لنورالدين ، وعدّه من المفاخر الجليلة ، لانه ردّ للمسلوب حقوقه[2] •

ولقد كان لفتح آمد اهمية كبيرة ، فقد دفعت باقي القلاع القريبة منها

---

(١) هو القاضي السعيد ابو القاسم هبةالله بن جعفر بن سناء الملك، أكبر شعراء مصر في العصر الايوبي ، ولد في حدود سنة ٥٥٠ هـ ، وتوفي بالقاهرة سنة ٦٠٨ هـ • وكان لوالده علاقة طيبة بوزير صلاح الدين القاضي الفاضل ، حتى قيل بأنه كان يشرف على شؤون القاضي الفاضل اثناء تغيبه في الشام وللشاعر قصائد كثيرة ، وديوان موشحات انظر : ابن خلكان ، الوفيات : ٥/١١٢ ــ ١١٦ ؛ مفرج الكروب : ٢/١٣٧ هامش رقم (٣) •

(٢) جاء في بعض القصيدة التي ذكرها ابن سناء الملك ما يلي :ــ

ارض الجزيرة لم تظفر ممالكها	بمالك فطن او سائس درب
ممالك لم يدبرها مدبرها	الا برأي خصي او بعقل صبي
حتى اتاها صلاح الدين فأنصلحت	بعد الفساد، كما صحت عن الوصب

انظر : مفرج الكروب : ٢/١٣٧ــ١٣٨ ، وفي الروضتين نجد قصيدة طويلة ، من ضمنها الابيات الشعرية السابقة ، غير ان ابو شامة يرى بأن القصيدة قيلت بعد فتح صلاح الدين حلب سنة ٥٧٩ هـ وليس آمد• أنظر الروضتين ٢:٤٣ــ٤٤ • واعتقد ان الشاعر مدح بها صلاح الدين بعد فتح حلب وعرج الى ذكر مآثر صلاح الدين في آمد واهميتها لان آمد وحلب ملكهما صلاح الدين بنفس السنة •

أو التابعة للاراتقة(*) بالانضمام الى سلطان صلاح الدين • امثال صاحب قلعة ميافارقين وماردين اللذين ارسلا برسوليهما الى صلاح الدين يطلبان الامان ويقدمون فروض الطاعة والولاء لسلطانه • وقد استقبلهم صلاح الدين بالقبول ورد كل رسول منهم بالاكرام(١) ، وبذلك تكون قوة الاراتقة في المنطقة ـ كقوة مستقلة ـ قد انهيت ، واصبحوا داخلين في الوحدة الجديدة التي يرأسها صلاح الدين • وقد اخلص الاراتقة للعهد وبرهنوا ـ كما سنجد فيما بعد أكثر من مرة ـ على صدقهم بانضمامهم للوحدة نظرا لمشاركتهم الحروب الكثيرة التي قادها صلاح الدين ضد الصليبيين •

وبعد ان ملك صلاح الدين آمد ورتب أمورها ، عبر الفرات عائدا الى الشام قاصدا حلب وولاياتها التي كانت بيد الامير النوري عمادالدين زنكي ـ أخو عزالدين مسعود اتابك الموصل ـ فنزل على تل خالد ـ من أعمال حلب ـ فحصرها ورماها بالمنجنيق حتى طلب أهلها الامان فأمنهم وتسلم القلعة في ١٢ محرم سنة ٥٧٩هـ(٢) • ثم سار منها الى عين تاب ، وكانت بيد

(*) الاراتقة : ينتمي الاراتقة الى أرتق بن اكسك ، الملقب بظهير الدين ، الى قبيلة الدقر Doger التركمانية ، التي تنتمي الى قبيلة الغز التي انتظمت في صفوف السلاجقة الذين منحوهم اقطاعات خاصة للعمل الذاتي داخل نطاق حدود الدولة السلجوقية • وكان أرتق السابق الذكر من مماليك السلطان ملكشاه • وقد حكم الاراتقة من ٤٦٥ـ٥٢١ هـ /١٠٧٢ـ١١٢٧م في منطقة ديار بكر ، وكانت اهم معاقلهم ماردين وكيفا وحصن آمد • وسقطت معاقلهم الواحدة تلو الاخرى على يد زنكي ـ انظر : عمادالدين خليل ، امارة بني ارتق (وهي رسالة معدة لنيل درجة الدكتوراه من جامعة عين شمس باشراف الدكتور حسن حبشي (القاهرة، ١٩٦٨) : ٣١ـ٣٢ •

Ency of Islam (Art. Artukids), Vol, 1, PP. 662-667.

(١) الروضتين : ٢:٤١ـ٤٢ ؛ جب صلاح الدين : ١٣٨ •

(٢) الكامل : ١١/٤٩٥ ؛ النوادر السلطانية : ٥؛ الروضتين ٢/٤٢ ؛ مفرج الكروب : ٢/١٣٩ ؛ تاريخ الازمنة : ٨٥ •

الامير ناصرالدين محمد بن خمار تكين الذي بادر فور وصول صلاحالدين اليه بتقديم الطاعة والولاء له وطلب منه ان يبقيه على امارة الحصن فوافق صلاحالدين • وتقدم من عين تاب الى حصار حلب[1] •

« فتح صلاحالدين حلب وتمام الوحدة بين مصر والشام »

بعد ان تسلم صلاحالدين تل خالد وعين تاب ـ من أعمال حلب ـ تقدم لحصار حلب[2] • ونزل عليها في ٢٦ محرم سنة **٥٧٥**هـ[3] • الا انه

---

(١) نفس المصادر والامكنة السابقة ، ثم أنظر ايضا : السلوك: ١/٨١ ؛ تاريخ ابن خلدون ٥:٧٩ ؛ المختصر في أخبار البشر : ٥/٨٩ •

(٢) يقول ابن ابي طيء : بأن كثيرا من الشعراء كانوا يحرضون صلاحالدين على فتح حلب منهم ابو الفضل بن حميد الحلي وقد جاء في قصيدته :

يا ابن ايوب لابرحت مدى الد ... هـر رفيع المكان والسلطان
حلب الشام نحو مرآك ولهى ... ولـه الصب ريع بالهجران

وقال ابن سعدان الحلبي من قصيدة طويلة دعى فيها صلاحالدين الى فتح حلب بعد ان وصفها « بالحسناء أم القرى » فقال :

ايه صلاحالدين شد ازرها ... واعزم عليها فالزمان قد عزم
ودونك المتعة من قبابها ... وبابها المغلق في وجه الامم

الروضتين ٢:٤٤ •

والحقيقة ان هذه الابيات الشعرية لم تكن هي الدافع لفتح حلب، لان ذلك يخالف الهدف الرئيسي الذي تمثل بقول صلاحالدين المرسل الى بغداد بالانشاء الفاضلي والذي جاء فيه : « تسلمنا مدينة حلب ••• وسرنا انها انجلت والكافر المحارب والمسلم هو المسالم ، واشترطنا على عمادالدين الخدمة والمظاهرة والحضور في مواقف الغزو» • الروضتين : ٢/٤٣ •

(٣) لم تحدد المصادر التاريخية بالضبط اليوم الذي نزل فيه صلاح الدين لحصار حلب • فابن الاثير يروى بأنه نزل عليها في المحرم من السنة ، وابوشامة يذكر في ٢٦ محرم ، بينما ذكر المقريزي بأن صلاح الدين نزل عليها في اوائل المحرم • انظر : الكامل: ١١/٤٩٦ ؛الروضتين: ٢/٤٢ ؛ السلوك : ١/٨١ •

لم يتقدم لقتالها مباشرة حيث نزل بالميدان الأخضر وأقام به عدة أيام ، ثم انتقل الى جبل جوشن ونزل باعلاه ، واخذ يظهر للحلبيين بأنه ينوي ان يتدّير وانـه يبني مساكن له ولاصحابه وعساكره ، ليدفـع الحلبيين الى الاستسلام من دون قتال ، لانه كان لا يرغب باراقة دماء المسلمين ، وكان ينهى عن القتال ويقول : انما مقصودنا البلد ، ولا حاجة بقتل أحد من المسلمين ، الا ان بعض الشباب من العسكر والجهال كانوا يتقدمون الى حلب ويقاتلون عليها[١] • وفي احـدى الاصطدامات مع الحلبيين جرح تاج الملوك بورى[*] •

وكان اتابك حلب ـ عمادالدين زنكي ـ ومن معـه من العسـاكر النورية يجدون في الحفاظ على البلد ، وكان قد أخذ بعض رهائن الحلبيين ، واصعد جماعة من أولادهم وأقاربهم الى القلعة خوفا من تسليمهم البلد الى صلاح‌الدين[٢] ولما طال حصار البلد كثرت المصروفات اليومية المنفقة على العساكر في حفظ البلد ، والتي قدرت بحوالي عشرة آلاف دينار يوميا[٣] ،

---

(١) الكامل ١١:٤٩٦ ؛ ابن شاهنشاه ، مضمار الحقائق : ١٤١؛ الاصفهاني تلخيص ابو شامة ، الروضتين ٢/٤٢ ؛ مفرج الكـروب : ٢/٤١ ؛ السلوك ١/٨١ • زبدة الحلب ٣:٦٤ـ٦٥ ؛ مرآة الزمان ق١ : ٨/٣٧٥ ؛ تاريخ ابن خلدون ٥/٥٧٩ ؛ المختصر في اخبار البشر : ٥/٨٩؛ الغزي ، نهر الذهب ٣/١٠٣ •

(*) تاج الملوك : هو اخو صلاح‌الدين الايوبي ، وبوري كلمة تركية معناها الذئب • ولد سنة ٥٥٦ هـ وتوفي سنة ٥٧٩ هـ في حلب اثرالجرح الذي أصابه عند محاولته اقتحام اسوارها • وكان صلاح‌الدين يحبـه كثيرا • وحزن لفقـده مدة ثلاثـة ايـام • انظـر : الكامل ١١/٤٩٨ ؛ الروضتين :٢/٤٢ـ٤٣ ؛ وفكات الاعيان : ١/٢٦١ـ٢٦٢ •

(٢) زبدة الحلب : ٣/٦٤ •

(٣) يقول المنصور ان عمادالدين نظر بعواقب الامـور نظرا لطول حصار حلب وكان قد «وجد عليه في كل شهر ما يصرفه على الاجناد ثلاثين

دفعت عمادالدين الى التهاون في حفظ البلد ، والى الشحة في صرف الاموال حتى ان بعض الاجناد جاء مرة يطلب بعض الاموال لينفقها في الدفاع عن حلب فاعتذر اليه عمادالدين بقلة الاموال فقيل له : « من يريد ان يحفظ مثل حلب يخرج الاموال ولو باع حلي نساءه »[1] • فاضطر الى اخراج بعض أواني الذهب والفضة وانفقها على الاجناد[2] •

غير ان عمادالدين لما رأى ان الحصار طال امده ، وانه لا قبل لـه بصلاح‌الدين ، وان أمواله لابد نافذة ، اتفق مع الامير حسام‌الدين طمان على عقد الصلح مع صلاح‌الدين وتسليم البلد اليه • وكان حسام‌الدين يخرج سرا للاتفاق مع صلاح‌الدين على الشروط الخاصـة بتسليم البلد اليـه • وكانت هذه الشروط تقضي ان يتسلم صلاح‌الدين حلب من عمادالدين ، ويسلّمه عوضا عنها سنجار والخابور ونصيبين وسروج ، وان تكون الرقة لحسام‌الدين طمـان ، وان يباشر عمادالدين الى خدمة صلاح‌الدين متى دعاه[3] •

ويروى ابن الاثير ان الحلبيين والعساكر التي كانت بحلب لا علم لها بما كان يدور بين صلاح‌الدين وعمادالدين حتى صعدت أعلام صلاح‌الدين على القلعة فاندهشوا لذلك الفعل[4] • والواقع ان ابن الاثير بالغ فمـا

الف دينار» ولو قسمت هذه الكمية من المصروفات على عدد ايام الشهر لخرجت عشرة الاف دينارا يوميا مصروف عمادالدين على الدفاع عن حلب اثناء حصار صلاح‌الدين لها • انظر : مضمار الحقائق وسر الخلائق: ١٤٢ •

(١) الكامل : ٤٩٦/١١ ، مفرج الكروب : ١٤٢/٢ •
(٢) زبدة الحلب : ٦٥/٣ •
(٣) الكامل : ٤٩٦/١١ و٤٩٧ ، مفرج الكروب : ١٤٢/٢ ، زبدة الحلب ٦٦/٣ ، اريخ ابن خلدون ٥٧٩/٥ •
(٤) بالغ ابن الاثير بتصوير موقف الحلبيين من تسليم عمادالدين

نسبه للحلبيين لانه قصد تشويه العلاقة الحقيقية التي كانت بينهم وبين صلاح‌الدين والتي تمثلت بميلهم اليه حتى ان عمادالدين خافهم ان يسلموا البلد الى صلاح‌الدين ، فأخذ بعضا من رهائنهم وأطفالهم واحتجزهم في القلعة كما تبين ذلك من قبل • كما ان صلاح‌الدين لما تسلم البلد خرجت العساكر الحلبية الى خدمته ، كما تقدم مقدموا حلب الى تقديم الطاعة له ، ولو كان في قلوبهم شيء ما قصده ابن الاثير لما نزلوا الى خدمته وقدّموا فروض الطاعة بمثل تلك السرعة ! اذ ان الحلبيين لما علموا بملك صلاح‌الدين البلد انفذوا عنهم اليه عزالدين جورديك وزين‌الدين بلك ، فمكثوا عنده الى الليل ، واستحلفوه على العسكر وعلى أهل البلد فحلف لهم • وذلك في ١٧ صفر سنة ٥٧٩هـ • ثم دخل صلاح‌الدين البلد فخرجت العساكر الحلبية الى خدمته بالميدان الاخضر فتلقاهم بالاكرام وخلع عليهم وطيب قلوبهم[١] • كما عمل عمادالدين وليمة جيدة لصلاح‌الدين احتفاء بقدومه للبلد وتسلمه اياها[٢] •

البلد الى صلاح‌الدين وذكر بأنهم عجبوا من ذلك التسليم وأسقط بأيديهم ، وانهم قبحوا فلعه واسمعوه مكروها ومن ذلك : انت لا تصلح للملك ، وانما لغسل الثياب ، الكامل : ١١/٤٩٧ ، نقل عن الكامل ابن واصل •انظر : مفرج الكروب ٢/١٤٢ واضاف ابن العديم الى تلك المبالغات قوله : ان العامة بحلب عملوا أشعارا كانوا ينشدونها على عماد الدين للاستهزاء بها :

احباب قلبي لا تلوموني ... هذا « عماد الدين » مجنون

قايض بسنجار قلعة حلب ... وزاده المولى نصيبيين

زبدة الحلب : ٣/٦٨ •

(١) النوادر السلطانية : ٥٩ ؛ الكامل : ١١/٤٩٧-٤٩٨ ؛ مفرج الكروب : ٢/١٤٢-١٤٣ ؛ البداية والنهاية : ١٢/٣١٣-٣١٤ •

(٢) قيل أنه في اثناء تلبية صلاح‌الدين لدعوة عمادالدين جاءه من

وفي يوم الاثنين ٢٧ صفر من السنة صعد صلاح‌الدين قلعة حلب من باب الجبل وكان يسير ويقرأ : قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتعزّ من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شيء قدير الايه[١] •
وعندما سئل عن أهمية فتحه لحلب قال : « والله ما سررت بفتح مدينة كسروري لفتح هذه المدينة ، والآن تبينت انني املك البلاد وعلمت ان ملكي قد استقر »[٢] • وللتدليل على صحة مدعاه نعت نفسه بسلطان بلاد المشرق جميعا Orientalium Rexomninm regum كما جاء في الكتاب الذي أرسله الى البابا اليوسيوس الثالث سنة ١١٨٣م بشأن بعض الاسرى من المسلمين الذين كانوا بيد الصليبيين[٣] •

وكان لدخول صلاح‌الدين حلب صدى بالغ الاثر في نفوس أصحابه وأعدائه فقد تقدم اليه الشعراء بالمدح والثناء[٤] • كما بشره بعضهم بفتح

اخبره بوفاة اخيه تاج الملوك بورى ، غير ان صلاح‌الدين لم ينهض من الدعوة ، وبقي جالسا وسط الحاضرين حتى انتهاء الدعوة وانصراف المدعوين ، كي لا يكدر عليهم مجلسهم وأمر بأن يجهز سرا واحتمل الحزن وحده • وبذلك اثبت صلاح‌الدين خلقا عظيما وصبرا جميلا • أنظر : نفس المصادر والامكنة السابقة •

(١) آل عمران : ٣/٢٦ • انظر : عبدالباقي ، محمد فؤاد ، المعجم المهرست لالفاظ القرآن الكريم (القاهرة ١٣٦٤ هـ) : ٦٧٣ •

(٢) ابن ابي طيء ، تلخيص ابو شامة ، الروضتين : ٢/٤٥/ الرواية ضعيفة لان ابن ابي طيء كان مؤرخا شيعيا وقد تأثر بعقيدته •

(٣) Lanepool, Saladin, P. 174.

(٤) من الشعراء الذن تقدموا الى صلاح‌الدين بالمدح والثناء لفتحه مدينة حلب : يوسف البراعي ، سعيد بن محمد الحريري ، وابو طي النجار الذي مدح مدينة حلب فقط ، وابن سناء الملك والعماد الاصفهاني والمجد بن جهبل • ومن جملة الابيات الشعرية قول ابن‌سناء الملك السابق الذكر :

القدس[1] . وأصبح صلاح الدين أقوى سلطان في العالم الاسلامي في

بدولة الترك عزت ملة العرب — وبأبن ايوب ذلت شيعة الصلب
وفي زمان ابن ايوب غدت حلب — من ارض مصر، وعادت مصر من حلب
ولابن ايوب دانت كل مملكة — بالصفح، والصلح، او بالحرب والحرب
مظفر النصر ، منعوت بهمته — الى العزائم ، مدلول على الغلب

انظر : ديوان ابن سناء الملك ، تصحيح وتعليق محمد عبدالحق (الهند ١٥٨) ٩-١٠ ، الروضتين :٢/٤٣-٤٦ ؛ مفرج الكروب ٢/١٤٥-١٤٦ ؛ شذرات الذهب : ٤/٢١٣-٢١٤ ؛ بدوي أحمد ، صلاح الدين الايوبي بين شعراء عصره وكتابه (القاهرة ١٩٦٠) : ٧٦-٧٨ ؛ حمزة ، ادب الحروب الصليبية : ١٣٠ .

(١) قال ابن ابي طيء : كان الفقيه مجدالدين بن جهبل الشافعي الحلبي قد وفد اليه تفسير القرآن الكريم لابي الحكم المغربي فوجد فيه عند قوله تعالى ألم غلبت الروم في أدنى الارض ، وهم من بعد غلبهم سيغلبون » الآية انأبا الحكم قال : ان الروم يغلبون في رجب سنة ٥٨٣هـ وتفتح القدس ، واستدل على ذلك بأشياء ذكرها في كتابه . فلما فتح صلاح الدين حلب ، كتب اليه المجد بن جهبل ورقة بشره فيها بفتح القدس على يديه ، واعطى الورقة للفقيه عيسى ، فلما وقف عليها ، لم يتجاسر على عرضها لصلاح الدين خوف الا تتحقق ، وحدث بما في الورقة لمحي الدين بن زكي الدين القاضي الدمشقي ، وكان هذا الاخير يثق بعقل ابن جهبل، فعمل قصيدة مدح بها صلاح الدين وقال :

وفتحكم حلبا بالسيف في صفر — قضى لكم بافتتاح القدس في رجب

انظر : الروضتين ٢/٤٥-٤٦ ، البداية والنهاية ١٢/٣١٤ ، وقد ذكر ابن الاثير البيت السابق ببعض الاختلاف وهو .

وفتحكم حلبا بالسيف في صفر — مبشر بفتوح القدس في رجب

انظر : الكامل ١١/٤٩٧.

وقيل ان هذا البيت هو من نسج الشاعر ابن سناء الملك ، وقيل بل من قول فخرالدين المولى وقيل هو قول ابو المعالي ابن الحسن القرشي ، والاصح هو شعر القاضي محي الدين بن زكي الدين كما جاء في الرواية الاولى . انظر : شذرات الذهب : ٤/٢١٤ ؛ التاريخ الحربي المصري : ١٤٧-١٤٨ ، هامش رقم (٦) .

عصره ، وكان اسمه يرفع بعد كل آذان في الحجاز ــ وغيرها من مساجد المدن الاسلامية ــ بالتمجيد والدعاء على انه أمير الشام وجهات مصر كلها واليمن بعد ذكر اسم الخليفة العباسي وأمير مكة « لما وهب الله لهذا السلطان العادل من الثناء الجميل ، والقى عليه من محبة الناس وعباد الله شهداءه في أرضه »[١] .

اما أعداء صلاح‌الدين فقد احدث دخوله حلب ردود فعل معاكسة لديهم ، فقد وجد الصليبيون من ملك صلاح‌الدين لحلب انتكاسة لقواهم ، لانه بات من غير شك ان صلاح‌الدين ــ أصبح بما يمتلك من قوة كبيرة ــ سوف يحاصر ممتكاتهم في منطقة الشام[٢] . حتى ان المؤرخ الصليبي وليم الصوري اعترف بما آلت اليه حالة الصليبيين السيئة بعد ملك صلاح‌الدين حلب ، وصرح بأن استيلاءه عليها كان اسوأ حادثة اصيب بها الصليبيون في تلك الفترة[٣] . حتى ان بعض امراء الحصون والقلاع الصليبية المجاورة لحلب أخذوا يسارعون الى كسب رضاء صلاح‌الدين عنهم ، واستحصال الامان لقلاعهم ، نظرا للقلق والتوتر الذي أصابهم امثال أمير حصن انطاكية الذي أرسل الى صلاح‌الدين جماعة من اسرى المسلمين كسبا لرضاه ، « كما سارع الى اللياذ بعفو السلطان وأمانه فقبله السلطان »[٤] .

وبعد ان ملك صلاح‌الدين حلب واعمالها ــ تل خالد وعين تاب ــ لم يبق أمامه من القلاع المجاورة سوى قلعة حارم ، التي كانت بيد المملوك النوري سرخك . لذلك راسله صلاح‌الدين وطلب منه تسليم القلعة ، ووعده بأموال كبيرة اليه اضافة الى ولاية بصرى وضيعة بدمشق مع حمام

---

(١) رحلة ابن جبير (طبعة ليدن) : ٩٦ .
(٢) Look: Grousset, op. cit., 11, P. 729.
(٣) Stevenson, op. cit., P. 230.
(٤) مفرج الكروب : ٢/١٤٧ .

العقيقي وأربعين ألف دينار ذهبا منها عشرة آلاف لاخيه ، الا انه اشتط في الطلب • لذلك توعده صلاح الدين وتهدده ويقال بأنه لتهديد صلاح الدين له راسل الصليبيين وطلب حمايتهم ، فسمع أصحابه انه يراسل الصليبيين ، فخافوا ان يسلّم البلد اليهم • فقبضوا عليه أثناء نزوله من القلعة ، ونادوا بشعار صلاح الدين وأرسلوا اليه يعرفونه الخبر فجاء اليهم وتسلمها منهم[1] •

والحقيقة ان محاولة اتهام الخصوم بالتواطىء مع الصليبيين ، كانت مطية يستخدمها كل من يحاول ان يرتقي على أكتاف غيره لينال حظوظا • ذلك لان سرخك ـ كما يتبين لي من دراسة النصوص التاريخية ـ لم يكن متواطئا مع الصليبيين ، انما كان قد تباطىء بقبول منح صلاح الدين التي عرضها عليه عوضا عن حارم لعله ينال أكثر منها ، فاستغل نقيب البلد هذا التباطىء ، وقبض عليه واتهمه بالتواطىء مع الاعداء لينال مكانة لدى صلاح الدين ويحتل موضعه في امارة البلد • ومن الادلة على ذلك : ما قيل بأن نقيب القلعة أراد ان تنفق سوقه لدى صلاح الدين فراسله ووعده بتسليمه البلد شريطة ان يمنحه وجماعته بعض الانعام[2] • اضافة الى انه كان مع صلاح الدين عند تسلمه حارم الامير بدرالدين حسن ابن الداية ، الذي رفض مزاعم نقيب القلعة واتهمه بأنه كاذب على سرخك ، لانه كان قد استخدم معه من قبل نفس الاسلوب واخرجه من القلعة ظلما[3] •

---

(١) الكامل ٤٩٩/١١ ؛ ابن ابي طيء ، انظر : الروضتين :٤٦/٢؛ مفرج الكروب ١٤٦/٢ـ١٤٧ ؛ زبدة الحلب : ٧٠/٣

(٢) الكامل : ٤٤٩/١١ ، مضمار الحقائق وسر الخلائق : ١٤٥ ، الروضتين : ٤٦/٢ •

(٣) مضمار الحقائق وسر الخلائق : ٤٦/ وقد روى ابن ابي طيء بأن ابن الداية قدم الى صلاح الدين عند اتهام نقيب قلعة حارم لاميرها وقال

وهكذا يظهر بأن نقيب القلعة كان من الذين يتطلعون الى الامارة والسلطان ولذلك كان يحاول ان يجعل غيره سلما يرتقي عليه لتحقيق أهدافه ، الا ان ابن الداية كشف أمره لانه كان من أحد ضحاياه ، غير ان صلاح‌الدين لم ينكل به ، بل اكرمه ، نظرا لانه كان قد وعده ببذل العطاء له ان سلمه البلد . لذلك تلطف لابن الداية وقال له : « ان بين أيدينا أمكنة نريد أخذها ومتى لم نف بما نعد ونجزل العطاء لم يثق بنا أحد »[1] .

وبعد ان تسلم صلاح‌الدين حارم في ١٩ صفر سنة ٥٧٩هـ ، مكث فيها ليلتين وقرر قواعدها وولى فيها ابراهيم بن شروه ، ثم عاد الى حلب فدخلها في ٣ ربيع الاول سنة ٥٧٩هـ وقام باصلاح أمورها وولى القضاء لمحي‌الدين بن زكي‌الدين ، واستناب فيها زين‌الدين أبا البيان المعروف بابن البانياس ، كما كشف عن حلب المظالم والمكوس ، وولى قلعتها سيف‌الدين يازكوج ، وجعل الملك بحلب لولده الظاهر غياث‌الملك الغازي ، أما الحصون التابعة لحلب فقد أقرّ عين تاب بيد صاحبها ، وأعطى تل خالد وتل باشر للامير بدرالدين يلدرم ، كما منح اعزاز للامير علم الدين سليمان بن جندر[2] . وقد كتب القاضي الفاضل بتوقيع صلاح‌الدين أمر اسقاط المكوس بحلب الذي وزع على الاهالي والامراء وقد جاء فيه :

« انتهى الينا بمدينة حلب رسوما استمرت الايدي على تناولها والالسنة

له : « يا مولانا لا تلتفت الى هؤلاء فانهم آذوا هذا الوالي وكذبوا حتى فوتوه ما كان السلطان وعده به وما قلت هذا الا عن تجربة فانني لما كنت متوليا لهذه القلعة جرى علي من كذبهم في حقي وتحرضهم على امور كدت بها اهلك مع نورالدين وهم كانوا سبب خروجي من هذه القلعة »الروضتين ٤٦:٢ .

(١) الروضتين : ٤٧/٢ .

(٢) الروضتين : ٤٧/٢ ؛ مفرج الكروب : ١٤٧/٢ .

على تداولها وفيها بالرعاة ارفاق وبالرعايا اضرارا ولها مقدار الا عند من كل شيء عنده بمقدار منها ما هو على الاثواب المجلوبة ومنها ما هو على الدواب المركوبة ومنها ما هو في المعاش المطلوبة وقد رأينا بنعمة الله ان نبطلها ونضعها ونعطلها وندعها ونضرب عنها في أيامنا ونضرب عليها بأقلامنا ونسلك ما هو اهدى سبيلا ونقول ما هو اقوم قليلا ونكره ما كره الله ونحظر ما حظره الله ، فانه من ترك شيئا عوضه الله امثاله واربح متجره في الرعية اليوم بما يوضع عنهم من أصرها ••• فعلى كافة أوليانا وولاتنا وأمرائنا والمتصرفين من قبلنا ان لا يهووا اليها ولا يردوا ولو بلغ الظمأ منهم موردا ويثقلوا بها ميزان المال فتخف ميزان الاعمال ••• وليعلم ان ذلك من الامر المحكم والقضاء المبرم والعزم المتمم »[1] •

ويتبين من الكتاب السابق ان صلاح‌الدين وجد بحلب بعد فتحها ضرائب كمركية كانت تؤخذ على الاثواب المجلوبة ، وضرائب نقل كانت تؤخذ على الدواب المركوبة اضافة الى ضرائب أخرى محلية كانت تؤخذ على البضائع الاقتصادية كالمعايش ، فابطلها جميعا معتقدا بأن من ابطل ضريبة في سبيل الله عوضه الله اضعافها • واشار الى ذوي الامر في دولته بالكف عن أخذها ولو أفلست خزائنهم وبهذه السياسة تمكن صلاح‌الدين ان يجعل حلب ـ وهي عاصمة دولة النوريين ومركز تجمع أعدائه ـ تقف الى جانبه حتى النهاية • وأصبح من غير شك انه لا يوجد بين سلاطين وامراء المسلمين من ينافسه المكانة السياسية التي سما اليها •

فقد كان سلاجقة آسيا الصغرى يتوددون الى صلاح‌الدين ويخطبون رضاه ، والأمراء الاراتقة انضموا جميعا تحت سلطانه • اما النورويون فان أغلب مدنهم وحصونهم وقعت تحت سيطرة صلاح‌الدين طوعا أو كرها ،

---

(١) الروضتين : ٢/٤٧ •

ولم يبق سوى الموصل التي كان اتابكها بين الفترة والاخرى يراسل بغداد ويطلب الشفاعة ممن فيها ليتوسطوا له عند صلاح الدين[1] • وكان من الطبيعي ان يقع الصدام بين الطرفين ان لم تنضم الموصل الى الوحدة الجديدة التي كان تحقيقها من صميم أهداف صلاح الدين وفي الصفحات التالية تبيان لكيفية انضمام الموصل للوحدة ومشاركتها في تحقيق الهدف الاكبر « تحرير القدس » •

خامسا :ـ

« حصار الموصل والصلح عليها ، وتمام الوحدة بين مصر والشام بلاد الجزيرة

في الوقت الذي ملك فيه صلاح الدين حلب ، تم انضمام الشام الى الوحدة مع مصر ، ولم يبق الا جزء من بلاد الجزيرة بما فيها الموصل لم تنضم للوحدة • ولذلك أخذ صلاح الدين يخطط لاجبارها على الدخول في الوحدة والانضمام الى سلطانه • ولم يقصد صلاح الدين بانضمام الموصل اليه لاشباع رغباته الشخصية وتوسيع سلطانه انما ليتخذ من الموصل عونا له بما تملك من قدرات طبيعية وبشرية لتحرير القدس بعد ان يكون قد أمن خطوطه الخلفية من هجوم معاكس • وقد اوضح صلاح الدين موقفه

---

(١) من امثلة الطلبات التي ارسلها عزالدين مسعود ـ اتابك الموصل الى بغداد بطلب الشفاعة للمواصلة من صلاح الدين • الطلب المرسل في ٧ ذي الحجة سنة ٥٨٠ هـ الى الخليفة الناصر لدين الله •وقد استجاب الناصر لهم وارسل الى صلاح الدين شيخ الشيوخ صدالدين برفقة شهاب الدين بشير الخادم • وكانت نتيجة هذه الشفاعة ، عند صلاح الدين ، الاتفاق على ان لا يتفقوا بسبب رفض صلاح الدين التنازل عن جزيرة ابن عمر واربل المنضمتان اليه طواعية • انظر : مفرج الكروب ٢/١٥٥ـ١٥٦ ؛ تاريخ ابن خلدون ٥/٥٨١ ؛ التاريخ الحربي المصري : ١٥٢ـ١٥٣ •

من الموصليين بالكتاب الذي أرسله الى الخليفة العباسي ، بالانشاء الفاضلي في أواخر سنة ٥٧٩هـ وقد جاء فيه : ان الموصليين لم يطلبوا مساعدة بغداد اعترافا بها ، انما لعجزهم عن المدافعة • ولو كانت عندهم القدرة لما التفتوا الى الديوان العزيز • وللتدليل على صحة مدعاه وصفهم بالطمع وعقوق امر الخلافة ، كما عاق أولهم وتقدم لمضايقة بغداد • ثم وصفهم بالخيانة فقال : « لو تحرك اليوم متحرك لكانوا له كنانة ولكانت بلادهم له خزانة [ثم بيّن صلاح الدين هدفه من ضم الموصل فقال :] ويرجو الخادم [أي صلاح الدين] بالموَصِل ان يكون المو ُصِلِ الى القدس وسواحله »[1] •

ولم يجعل صلاح الدين الموصل طريقه الى القدس ادعاء ، لانه بعد انضمام الموصل اليه تمت الوحدة بين مصر والشام وبلاد الجزيرة ، وعمل صلاح الدين على استثمار طاقات تلك المناطق الواسعة وحقق للمسلمين جميعا أهدافهم بتحريره القدس • ولو لم يفتح القدس بعد انضمام الموصل اليه ، لكان بالامكان اتهامه باتخاذ شعار « العمل من أجل تحرير القدس » ، بأنه كان شعارا زائفا يخفي وراءه مطامحه الشخصية •

ولقد ساد بين صلاح الدين والموصليين شيء من التباعد بعد فتح حلب ، نظرا لانشغال كل جانب ببعض المشاكل الجانبية فعزالدين مسعود – اتابك الموصل – قام بتغيير وزيره المعتمد مجاهدالدين قايماز ، باتباع من أراد المصلحة لنفسه ، وهو عزالدين محمود زلفندار الذي تولى نيابة اتابكية الموصل بدلا من قايماز • فأثار هذا التبديل غضب صاحب أربل وجزيرة ابن عمر اللذين كانا على علاقة حسنة مع مجاهدالدين قايماز • ولذلك امتنعا على اتابك الموصل ورفضا التعاون مع عزالدين مسعود ، وراسلا صلاح الدين بالطاعة والولاء ، غير ان عزالدين مسعود علم بالمضرة التي

---

(١) الروضتين :٢/٤٩ •

أصابته من جراء ابعاد وزيره المعتمد قايماز ، لذلك اطلق سراحه واعاده لمنصبه القديم ، وقبض على زلفندار وأعوانه بعد عدة أشهر من توليته الامر وكان ذلك سنة ٥٨٠هـ[١] .

اما صلاح‌الدين فانه خرج من حلب الى دمشق صحبة أخيه الملك العادل فوصلها في ٢٤ شعبان سنة ٥٧٩هـ/٢٤-٨-١١٨٣م ، وبعد ان مكث بدمشق شهر رمضان ، بعث بأخيه العادل الى حلب بعد ان ولاه الامارة عليها ، وعند وصوله اليها ، خرج من حلب الملك الناصر بن صلاح‌الدين ، الذي كان نائبا عن أبيه فيها ، ووصل الى دمشق في خدمة والده[٢] .

وأثناء اقامة صلاح‌الدين بدمشق كانت الرسل تتردد اليه من الجوانب مستسلمة اليه . فوصله رسول معزالدين سنجر شاه أتابك الجزيرة معلنا خضوع اتابكيته لصلاح‌الدين ، كما وصل اليه رسل أربل ، وأخوه الملك العادل من حلب يوم الاثنين ٤ ذي الحجة ، وأقاما عنده حتى انقضت أيام العيد الاكبر[٣] .

كما انشغل صلاح‌الدين في هذه الفترة بمهاجمة حصن الكرك الذي كان بيد الامير الصليبي ارناط ، لتأديبه ، نظرا لقيامه بمهاجمة المدينة المنورة ، وقطعه طريق المواصلات بين مصر والشام . فاستدعى عساكر من مصر وحلب وجاءته امدادات من حصن آمد ودارا وماردين ، وتقدم بما تكون لديه من قوة نحو حصن الكرك . وقد حدثت عدة اصطدامات مع الصيبيين كان النصر فيها للعسكر الصلاحي . وكان ذلك مقدمة لدخول

---

(١) الكامل ١١/٤٩٩-٥٠٠ ؛ الروضتين : ٢/٥٤ ؛ مفرج الكروب: ٢/١٥٣-١٥٤ .

(٢) النوادر السلطانية : ٦٤ ؛ الروضتين : ٢/٥٠ ؛ مفرج الكروب: ٢/١٥٢ - ١٥٣ .

(٣) مفرج الكروب ٢/١٥٦ .

مدينة نابلس والاستيلاء على كل ما كان فيها ما عدا حصنها • ومن ثم عاد صلاح‌الدين بقواته الى دمشق فوصلها يوم السبت ٧ جمادى الآخرة سنة ٥٨٠هـ[١] •

وأثناء وجود صلاح‌الدين بدمشق وصلت اليه رسل مظفرالدين بن زين‌الدين صاحب حرّان معلمة بأن عسكر الموصل وعسكر قزل ـ صاحب العجم ـ نازلوا اربل وانهم نهبوا واحرقوا ، وان ابن زين‌الدين نصر عليهم وكسرهم ، مما دفع بصلاح‌الدين الى التوجه نحو الموصل[٢] • وقد ادعى ابن الاثير بأن الذي دفع بصلاح‌الدين الى التوجه نحو الموصل ، هو مظفرالدين ـ صاحب حران ـ الذي تكفل له بخمسين ألف دينار ان هو اقبل على فتح الموصل[٣] •

---

(١) انظر : النوادر السلطانية : ٦٦ـ٦٧ ؛ الروضتين ٢/٥٤ـ٥٥؛ مفرج الكروب ٢/١٥٧ـ١٦٢ •

(٢) العماد الاصفهاني ، انظر : الروضتين ٢:٦٠ ؛ النوادر السلطانية : ٦٧ ؛ مفرج الكروب : ٢/١٦٤ •

(٣) اعتقد ان هذه القصة هي من نسج ابن الاثير وبعيدة عن الحقيقة ، وقد استخدم نفس الاسلوب مع صلاح‌الدين عند تقدمه لحصار الموصل الاول ، وذكر بأن أسباب تقدمه اليها كان باشارة من ناصرالدين الذي وعده بدفع بعض الاموال اليه ان هو احتل الموصل وسلمها اياه • وقد تبين من قبل خطأ هذه الرواية والاسباب الحقيقية التي دفعت صلاح الدين لحصار الموصل الاول وغيرها من المدن الاسلامية • راجع ص ٢١٩ ـ ٢٢٠ من الكتاب وانظر : الكامل : ١١/٥١١ ، الروضتين : ٢/٦١ ؛ مفرج الكروب : ٢/١٦٥ ؛ تاريخ ابن خلدون : ٥/٥٨١ـ٥٨٢ • ومما يثبت خطأ رأي ابن الاثير ما ذكر ابن واصل : بأن صلاح‌الدين عندما وصل الى حران قبض على مظفرالدين واعتقله تأديبا له لانه ظن انه يميل الى‌اصحاب الموصل وفي هذا ما يناقض رأي ابن الاثير السابق ، اذ لو كان مظفرالدين هو الذي دفع صلاح‌الدين لاحتلال الموصل لما اتهمه صلاح الدين بالميل نحو المواصلة ولوجدنا العكس • انظر : مفرج الكروب : ٢/١٦٥ •

والحقيقة : لم تكن اعتداءات الموصليين على اربل ، ولا الاموال التي وعد بها صلاح الدين ، هي التي دفعته لمحاربة الموصيين ، انما حددت تلك الاعتداءات الوقت الذي خرج فيه صلاح الدين لتنفيذ هدفه تجاه الموصليين ، وهو اجبارهم على الدخول في الوحدة لمقاومة الخطر الصليبي - كما تبين من قبل - كما ان تلك الاموال التي وعد بها صلاح الدين من مظفرالدين - ان صحت رواية ابن الاثير - فهي على ما يبدو من العوامل المساعدة ، لا من العوامل الدافعة لذلك التحرك . والذي يبدو بأن مظفرالدين قد وعد صلاح الدين بأن يساعده على تنفيذ مهمته - كأي أمير بسيط تابع للسلطان العام - لتبعيته له . ولو لم يساند مظفرالدين صلاح الدين على تنفيذ المهمة لعزله من منصبه طبقا لسياسة صلاح الدين العامة التي كان يشترطها على كل امير تابع له . ومما يدل على ذلك المنشور الذي كتبه صلاح الدين الى زين الدين علي كوجك بأربل والذي اوضح فيه بأن هدفه الجهاد في سبيل الله فمن ساعده على اتمام هذا الفرض ، والا تزال يده عن منصبه ويعزل[1] .

ولما كان صلاح الدين قد اوضح بأن الموصل الطريق الى القدس ، لذلك فان فتحها من تمام الجهاد في سبيل الله ، ولهذا كان على مظفرالدين - وغيره من الامراء القريبين من الموصل والتابعين لصلاح الدين - ان يقدموا العون للعسكر الايوبي ويسهّلوا له مهمة فتح المدينة والا سيكون العزل نصيبهم .

وقد خرج صلاح الدين من دمشق متوجها نحو الموصل في ١٢ محرم سنة ٥٨١هـ ، فمرّ على حمص وحماة ثم سار الى حلب والتقى بأخيه الملك

---

(١) للاطلاع على نص المنشور انظر : مفرج الكروب : ٢/١٦٣-١٦٤ .

العادل ، حيث اجتمعت العساكر جميعا تحت قيادته فعبر بهـا الفرات الى حرّان ، وقبض على صاحبها مظفرالدين كوكبرى تأديبا له على مخالفته لبعض الاوامر ، ثم اطلق سراحه واعاد اليه ممتلكاته . ثم غادر حرّان في ٣ ربيع الاول سنة ٥٨١هـ الى رأس العين ، وفيها وصل اليه رسل الملك السلجوقي قلج ارسلان بن مسعود صاحب الروم ـ واخبروه بأن ملوك الشرق بأسرهم قد اتفقت كلمتهم على محاربته ان لم يعد عن الموصل . غير ان صلاح‌الدين لم ينثن عن عزمه ورحل الى دنيسر ، فجاءه عمادالدين بن قرا ارسلان ومعه عساكر آمد فاكرمهما صلاح‌الدين ، ثم رحل طالبـا الموصل فوصل الى نصيبين فانضمت اليـه قوات الجزيرة بقيادة معزالدين سنجر شاه ، فتقدم بما معـه من العساكر وخيم على موضع قرب الموصل يعـرف بالاسماعيليات . ومن هـذا الموضـع ارسـل بالقاضي ضياءالدن الشهرزوري الى بغداد لتعريف الخليفة العباسي بالخطوات التي يتبعها ، وما عليه المواصلة من تواطىء مع الصليبيين ، وتبعيتهم لسلطان العجم الذي ينقشون السكة باسمه ، واوضح للخليفة بانه انما جاء لحصار الموصل لنصرة الاسلام بهم ولردهم لطاعة الخليفة[١] .

ومن منطقة الاسماعيليات شرع صلاح‌الدين باقطاع البلاد للجند ، وارسال جماعة من امراءه لفتح الحصون المجاورة للموصل كحصن العقر والحميدية ، كما فكر بقطع مياه دجلة عن الموصل حتى تضطر الى طلب الاستسلام ، الا انـه عدل عن رأيه ، لصعوبة الامر وعـدم الامكان في تحقيقه[٢] . وكانت تحـدث مناوشات عسكرية بين القـوات الصلاحية

---

(١) ابن شداد : ٦٧ـ٦٨ ؛ الروضتين ٢/٦١ـ٦٢ ؛ مفرج‌الكروب ٢/١٦٥ـ١٦٦ وانظر : السلوك : ١/٨٩ ؛ مرآة الزمان ق١ : ٨/٣٨٣؛ تاريخ ابن خلدون ٥/٥٨٢ .

(٢) ذكر الاصفهاني وابن واصل بأن الوقت الذي كان فيه صلاح

والموصلية في الجانب الشرقي من المدينة قرابة شهر من أول ربيع الآخر الى آخره ، حيث غادر صلاح الدين الموصل الى خلاط لوفاة شاه أرمن ـ صاحب خلاط ـ ومكاتبة أعيانها له باستدعاءه اليهم ليملكوه البلد . غير ان هذه المراسلة لم تحقق لصلاح الدين أي مكسب ، لان شمس الدين البهلوان ـ صاحب اذربيجان ـ كان قد زوج شاه أرمن ابنته ليكون له طريقا للسيطرة على خلاط . ولذلك لما علم بوفاة شاه ارمن تقدم الى خلاط واحتلها واصطلح أهاليها معه ، وتقدم البهلوان بطلب الاعتذار الى صلاح الدين ، مما دفع صلاح الدين الى مغادرة خلاط والتوجه الى ميافارقين[1] .

كانت ميافارقين تابعة لصاحب ماردين اسد الدين يرنقش ، فحاصره صلاح الدين وضيق عليه في جمادى الاولى سنة ٥٨١هـ ، غير انه وجد ان امر حصارها يطول فراسله ورغبه في الموادعة والتسليم ، وكان البلد بيد الخاتون ابنة فخر الدين قرا ارسلان ـ اخت نور الدين الدراج ، وهي

الدين محاصراً الموصل شديد الحر ، وكان ماء دجلة قد قل ، وتقدم من له الخبرة في علم الهندسة ـ قيل هو الفقيه فخر الدين أبو شجاع بن الدهان ـ الى صلاح الدين واقترح عليه تحويل نهر دجلة عن الموصل كي يعطش اهلها ، ويضطروا الى تسليم البلد من دون مقاومة . وقد جاء في الكتاب المرسل الى بغداد بالانشاء العمادي بخصوص حصار الموصل ما يلي : « وذكر المهندسون من اهل الخبرة انه يسهل تحويل دجلة الموصل عنها بحيث يبعد مستقى الماء منها ، وحينئذ يضطر اهلها الى تسليمها بغير قتال ، ولا حصول ضرر في تضييق ولا نزال » . الروضتين ٢/٦٣ وانظر: الكامل ١١/٥١٣ ؛ مفرج الكروب ٢/١٦٧ .

(١) انظر : النوادر السلطانية : ٦٩ ؛ الكامل ١١/٥١٣ ؛ تاريخ مختصر الدول : ٢٢٠ ؛ المنتخبات : ٢٨٦ ؛ مفرج الكروب : ٢/١٦٨ـ ١٦٩ ؛ مرآة الزمان ، ق١ ٨/٣٨٤ ؛ تاريخ ابن خلدون : ٥/٥٨٢ـ٥٨٣؛ تاريخ ابن الوردي : ٢/١٣٥ .

زوجة ابن عمها قطب‌الدين الغازي صاحب ماردين الذي توفي فأحال اسدالدين أمر ميافارقين اليها ـ فراسلها صلاح‌الدين أيضا وضمن لها كل ما تطلبه ، حتى سلمت البلد اليه فوفى لها بوعده ، ثم طلبت منه حصن الهتاخ ـ في ديار بكر قرب ميافارقين ـ فمنحها اياه وتسلم منها ميافارقين ، ثم غادره عائدا الى حصار الموصل ، وهو الحصار الثالث(١) .

« حصار الموصل الثالث وتمام الصلح عليها »

لما انتهى صلاح‌الدين من أمر ميافارقين ، عاد الى الموصل وهو ينوي حصارها للمرة الثالثة ، وقد جعل طريقه على نصيبين ووصل الى كفر زمّار ـ بقرب الموصل ـ في شعبان من سنة ٥٨١هـ ، ومكث فيها حتى انتهى فصل الشتاء البارد . ثم جاءه رسل عزالدين مسعود تطلب عقد صلح بين الطرفين ، وكان وفد الرسل يتكون من النساء الاتابكيات وفيهن ابنة الملك العادل نورالدين(٢) « فاكرمهن السلطان ووعدهن بالاحسان وقال قد قبلت شفاعتكن

---

(١) النوادر السلطانية : ٦٩ ؛ الكامل : ١١/٥١٥ـ٥١٦ ؛ مفرج الكروب : ٢/١٦٩ـ١٧٠ .

(٢) روى ابن الاثير ان عزالدين ـ اتابك الموصل ـ ارسل بالنساء الاتابكيات الى صلاح‌الدين للتوسط في حل النزاع بين الطرفين في حزيران ١١٨٥م عند حصار الموصل الاول . الا ان صلاح‌الدين ردهن خائبات ، ثم ندم على ردهن وعاد الى اللذين اشاروا عليه بذلك باللوم والتوبيخ . الكامل : ١١/١٢٠/ وقد نقل رواية ابن الاثير وثبتها بتاريخها هذا كل من : ابن العديم ، زبدة الحلب ٣/١٨ ؛ تاريخ ابن خلدون : ٥/٥٨١ وغيرهم من المتأخرين من دون التدقيق في اثبات لتاريخ السفارة . وقد روى الاصفهاني ما يدل على خطأ ابن الاثير في تحديد تاريخ السفارة ، حيث اشار الى ان عزالدين ارسل بالنساء الاتابكيات الى صلاح‌الدين اثناء الحصار الثالث بعد شعبان سنة ٥٨١ هـ وان صلاح‌الدين اكرمهن وقبل شفاعتهن . انظر الروضتين : ٢/٦٤ ؛ مفرج الكروب : ٢/١٧٠ـ١٧١ . ومن دراسة الاحداث يتبين ان رواية الاصفهاني هي الصحيحة وان ابن

لكن لابد من مصلحة تتم ومصالحة نفعها يعم ، واستقر الأمر على ان يكون عمادالدين زنكي صاحب سنجار أخو صاحب الموصل وسيطا في اصلاح ذات البين وحكما فيما يعود لمصلحة الجانبين »[1] .

وفي كفر زمار مرض صلاحالدين مرضا شديدا ، فرحل عائدا الى حرّان في مستهل شوال ، وبلغ غاية الضعف ، فوصل اليه أخوه الملك العادل من حلب ومعه اطباؤها . وكان عزالدين أثناء مرض صلاحالدين يعمل جاهدا للحصول على بعض المساعدات ليبعد صلاحالدين عن الموصل ، ومن ذلك انه أرسل بالمؤرخ بهاءالدين ابن شداد الى الديوان العزيز ببغداد يستنجد بهم ، والى سلطان العجم أيضا ، لكنه لم يحصل منهما أية مساعدة . لذلك وجد في مرض صلاحالدين فرصة طيبة وعلم أهالي الموصل « سرعة انقياده ورقة قلبه في ذلك الوقت فند بوبي [أي ندب المواصلة ابن شداد] لهذا الامر وبهاءالدين الربيب ... وقالوا : امضيا ما يصل اليه جهدكما وطاقتكما فسرنا حتى أتينا العسكر والناس كلهم آيسون من السلطان . وكان وصولنا في أوائل ذي الحجة من السنة المذكورة [٥٨١هـ] فاحترمنا احتراما عظيما وجلس لنا ... ومات رحمه الله وهو على ذلك الصلح لم يتغير عليه ... »[2] .

وكانت قاعدة الصلح بين صلاحالدين وأهالي الموصل بالصيغة التالي :ـ

الاثير قصد بروايته تشويه مقاصد صلاحالدين وقد ذكر المستشرق جب ما يدل على ذلك : « فلا سبيل الى الجدال بأن رواية عمادالدين هي الاكثر طبيعية والاشد تماسكا في ذاتها ومع الظروف ، بينما قام ابن الاثير بتحريفها لكي يظهر صلاحالدين في اسوأ ضوء ممكن » صلاحالدين : ٨٨ .

(١) الروضتين : ٢/٦٤ .

(٢) النوادر السلطانية : ٧٠ـ٧١ ؛ انظر : الاصفهاني (تلخيص ابو شامة) الروضتين ٢/٦٤ـ٦٥ ؛ مفرج الكروب : ٢/١٧٢ .

أولا :ـ يسلم عزالدين مسعود ـ اتابك الموصل ـ الى صلاح‌الدين شهرزور وأعمالها وولاية ، القرابلي وجميع ما وراء الزاب من أعمال مع ولاية بني قفجاق •

ثانيا :ـ يترك صلاح‌الدين لعزالدين مسعود الموصل واعمالها ، يتحكم فيها بأمره على ان يكون تابعا لصلاح‌الدين • أي ان صلاح‌الدين منح ولاية الموصل استقلالا ذاتيا بأمرة عزالدين مسعود •

ثالثا :ـ وافق عزالدين مسعود على ان تكون الخطبة باسم صلاح‌الدين في كل البلاد التابعة له (الموصل وديار بكر وبلاد الجزيرة) وان تقطع الخطبة السلجوقية من تلك البلاد • كما وافق عزالدين مسعود على سك النقود باسم صلاح‌الدين في تلك البلاد أيضا •

رابعا :ـ على عزالدين مسعود الحضور بعساكره في خدمة صلاح‌الدين متى استدعاه وان يشترك الطرفان في مجاهدة الصليبيين •

خامسا :ـ تعهد الطرفان الحفاظ على المعاهدة السابقة ، ووقعت بنودها بالقبول في ٩ ذي الحجة سنة **٥٨١**هـ المصادف **٣-٣-١١٨٦**م •

واكراما لعزالدين مسعود على موافقته على شروط التضامن مع صلاح‌الدين عمد الاخير الى ارسال هدايا كبيرة اليه ، قدر ثمنها بحوالي عشرة آلاف دينار سوى الملبوس والخيل والطيب[1] •

وبعد انتهاء الصلح مع أهالي الموصل كتب صلاح‌الدين الى أخيه سيف الاسلام باليمن كتابا اوضح له فيه تطور العلاقة مع الموصليين ،

---

(١) انظر: النوادر السلطانية ٧٠ ؛ الكامل: ١١/٥١٧ ؛الروضتين: ٢/٦٤ ، ٦٦ السلوك ١/٩٠ ؛ مفرج الكروب ٢/١٧٢ ؛ زبدة الحلب ٣/٨٣ ؛ تاريخ ابن خلدون : ٥/٥٨٢-٥٨٣ ؛ روض المناظر في اخبار الاوائل والاواخر : ٢٤٣ ؛ مرآة الجنان : ٣/٤١٩ ؛ شذرات الذهب ٤/٢٦٨ •

وتوصلها الى السلام وقد جاء في الكتاب ما يدل على ما ورد سابقا وهو :

« وانا أقمنا على بلاد الموصل وتصرفنا فيهـا ، وانعمنا على الاجنـاد بأعمـالها ونواحيها ، فاتفق اختلال امر ديار بكـر لموت ملوكها وتبـدد سلوكها ، فقصـدناها وقررنا امورها ••• وفتحنـا ميافارقين ••• فملـكنا بها ديار بكر ••• ودخل الشتاء فخرجنا من تلك الديار بعد ضم شتاتها ••• رأينا ان نقيم في بلاد الموصل لنشتو بها الى الربيع ••• ولما تحقق صاحب الموصل هذا العزم ، ضاقت عليه الارض بما رحبت ••• فالقى سـلاحه وطلب بالصلح صلاحه ••• وكان حلمنا لمأمن روعه لما اتى يومنا ونزل لنا عن جميع ما وراء الزاب من البلاد والقلاع ••• وشهرزور ومعاقلهـا وأعمالها وولاية بني قفجاق والقرابلي (البوازيج) وعانه • وقررنا عليه الموصل وأعمالها على انه يكون بحكمنا وينفذ عسكره بخدمتنا وتكون الخطبة والسكة باسمنا وان يطلق المظالم ولا يرتكب فيها المآثم وقد حصلت لنا مع صاحب الموصل ومن جميـع من بالجزيرة وديار بكـر الطاعـة والسكة والخطبة ••• »[1] •

وهكذا تمت الوحدة بين مصر والشام وبلاد الجزيرة بدخول كل من حلب وميافارقين والموصل تحت امرة صلاح الدين ، اذ كان بفتح حلب كمال انضمام الشام الى مصر ، وبفتح ميافارقين امتلاك صلاح الدين لديار بكر ، وبعقد الصلح مع الموصليين انضمت منطقة الجزيرة للوحدة • وهكذا تمت الوحدة ، وثبت مركز صلاح الدين كقائد اسلامي عام لكافة القوى الاسلامية الممتدة في كل من مصر والشـام وبلاد الجزيرة وديار بكـر ، ومناطق شهرزور وما وراء الزابين وبلاد القرابلية وبني قفجاق وقد أصبحت

---

(١) مضمار الحقائق وسر الخلائق : ٢٢٥ ؛ وانظر الروضتين : ٦٤/٢ •

تلك المناطق جميعا • بعد أن سادها الاستقرار بين مختلف عناصرها العربية والكردية والتركمانية ، مادة لجيوش صلاح الدين ، وكان من نتائج تلك الوحدة والاستقرار ان هزم الصليبيون أمام صلاح الدين في معركة حطين وحررت القدس في سنة ٥٨٣هـ ، أي بعده عدة أشهر من تمام تلك الوحدة[١] • وهكذا تمكن صلاح الدين من تحقيق امنيتين من أمنيتي نورالدين كانت الاولى باحلال السنة محل الشيعة في مصر ، وكانت الثانية بتوحيد مصر ببلاد الشام والجزيرة[٢] • وبذلك أصبح صلاح الدين ـ كما ذكر ابن منقذ ـ « صلاح الدنيا والدين ••• جامع كلمة الايمان » و « الذي احيى سنة الخلفاء الراشدين ، واقام عمود الدولة والدين »[٣] • ولم يبق له الا الهدف الثالث ، وهو اجلاء الصليبيين عن أرض الشام • وهو موضوع البحث في الفصل التالي •

واستنتاجا من دراسة الفصل الثاني أرى ما يلي : أولا ـ ان وصول صلاح الدين الى مركز القيادة ، واحتلاله مكانة نورالدين محمود بن زنكي المرموقة في قيادة المسلمين ، لم يكن مجرد صدفة عارضة ، انما الذي اوصله اليها مجموعة من العوامل تمثلت فيما يلي :

١ ـ عدم وجود شخصية سياسية قوية وقديرة في البيت الزنكي كان بامكانها ان تحتل مكانة نورالدين •

٢ ـ كان صلاح الدين غداة وفاة نورالدين يملك بلاد مصر القوية

---

(١) انظر : القزاز ، الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الاخير : ٢٦٣ـ٢٦٤ ؛

Stevenson, op. cit., P. 236.

(٢) انظر : العقيقي ، نجيب ، المستشرقون (القاهرة ١٩٦٤) ٦٢:١ •

(٣) الاعتبار : ١٦٤ ، ١٦٥ •

الغنية الواسعة التي كانت أكبر من أي اقليم آخر كان بيد الامراء المسلمين في الشام والجزيرة •

٣ ـ وجود بعض الانصار والمؤيدين لصلاح الدين بين أعضاء البيت الزنكي وبين صفوف جمهور المسلمين • حتى اعتبره بعضهم المنقذ من الازمات خاصة عندما كان الصليبيون يغزون مدنهم أو حصونهم ، كما حدث في انطاكية ودمشق وغيرهما حيث كان جمهور الناس وبعض الامراء يكاتبون صلاح الدين ويدعونه لنصرتهم ، حتى ان البعض منهم كان يخوّف الصليبيين بصلاح الدين كابن المقدم مثلا •

٤ ـ ثم لا يخفى ما كان يتمتع بـه صلاح الدين من شخصية قوية ومكانة كبيرة بين الامراء ، نظرا للخدمات الجليلة التي قدمتها عائلته للدولة النورية خاصة ، والمسلمين عامة ، اضافة الى ما قام به صلاح الدين من أعمال جيدة في الدفاع عن دمياط والاسكندرية والكرك ضد الصليبيين •

ثانيا :

رغم المعارك الكثيرة التي حدثت بين صلاح الدين والقوى الاسلامية في منطقة الشام والجزيرة ، فانها لم تكن معارك حاسمة يضحي فيها الجند بكل قواهم من أجل القضاء على الخصم ، بل كثيرا ما كان يفر احد الطرفين من ساحات المعركة ، أو يتحصنون وراء القلاع والاسوار ، دفعا لاي اصطدام عنيف قد يؤدي بكلا الطرفين الى الموت • وقد حدث هذا فعلا في المعركة التي حدثت بين صلاح الدين وامراء الموصل وحلب في الحرب التي دارت عند قرون حماة سنة ٥٧٠هـ ، وكذلك في تحصن أهالي سنجار والاراتقة وراء الاسوار وعدم محاربتهم صلاح الدين وجها لوجه •

ونظرا لعدم رضاء جمهور المسلمين عن الحروب التي كانت تقع بين كلا الطرفين من المسلمين ، وعدم رغبة الجند من كلا الجانبين بالقتال الى

آخر نفس ضد الخصم ، كان على صلاح الدين والامراء الذين وقفوا ضده العمل من أجل كسب رضاء الجمهور ، ودفع الجند للقتال عن طريق تبرير موقفهم • فكان الامراء النوريون يشيعون بين أجنادهم بأن صلاح الدين جاحد للنعمة ، وانه خارجي يحب السيطرة والغزو على أملاك سيده نورالدين ، ولذلك يجب قتاله • وفي الفترة الاولى من الاصدامات التي وقعت بين الطرفين ، كان أغلب الجمهور والاجناد يقفون موقفا ايجابيا من امرائهم ويعملون بكل قواهم للايقاع بصلاح الدين ، الا ان انتصارات صلاح الدين التي حققها في دمشق وحمص وحماة وبعلبك ، دفعت بأغلب الجمهور الى الميل الى صلاح الدين لان مركز القوى أصبح بيده • ولذلك كان بعضهم يحتج على الامراء الذين يدفعونهم لحرب صلاح الدين بالقول الآتي : (ليس صلاح الدين بكافر حتى نقاتل عن انفسنا دونه) •

وكان صلاح الدين من جانبه أيضا يحاول بكل خطوة يخطوها ان يكسب رضاء الجمهور والخلافة العباسية ، وكان عليه ان يدفع بالاجناد الى القتال عن طيب خاطر ضد الخصم من القوى الاسلامية التي كانت في مدن وقلاع الشام والجزيرة • ولذلك نجده يرفع شعارات مختلفة بين الفترة والاخرى ، ويرسل بالكتب الى بغداد لتوضيح موقفه واتهام خصمه ، وكان الشعار الاول الذي رفعه بعد وفاة نورالدين هو (العمل من أجل وصاية الملك الصالح بن نورالدين وتحريره من أيدي الذين يأكلون الدنيا بأسمه) • ولما كان سعدالدين كمشتكين وابن المقدم وغيرهما من الامراء قد سيطروا على وصاية الملك الصالح بحلب ، لذلك فلابد ان يتهم اولئك الامراء بالتواطوء مع الغزاة الصليبيين ليتسنى لصلاح الدين ابعادهم عن الملك الصالح وقيادة الامور بنفسه •

ورغم ان اتهام الامراء ، الذين وقفوا ضد صلاح الدين بالتواطوء مع

الصليبيين مبالغ فيه ، غير انه لا يخلو من حقيقة تاريخية تمثلت في ان بعض الامراء الذين لم يتمكنوا من وقف تقدم صلاح الدين اليهم اضطروا الى طلب العون من الصليبيين لا حبا بهم ، بل لجعل صلاح الدين يقاتل على جبهتين • ومن جهة ثانية كان الصليبيون يساندون بعض الامراء النوريون لا حبا بهم ، وانما خوفا من نتائج الوحدة الايجابية التي سوف تضعف قواهم •

وبعد ان توفي الملك الصالح ، وملك صلاح الدين جزءاً كبيرا من منطقة الشام والجزيرة ، كان شعاره الثاني (العمل من أجل تحرير القدس) • وكان اعادة الوحدة بين القوى الاسلامية في مصر والشام ومنطقة الجزيرة أهم الوسائل ـ بنظر صلاح الدين ـ لتحقيق ذلك الهدف • ولذلك كانت كتبه ومراسلاته جميعا تدعو الى اقامة الوحدة واعداد العدّة ، وانه لا يحارب المسلمين الا من أجل هذا الهدف وانه انما يريد من الحصون والقلاع شوكتها لا زهرتها ، ولذلك نجده يتنازل عن كل ما في المدن والحصون التي يفتتحها لاصحابها أو للامراء الذين يمنحهم تقليدها كما حدث في حصن آمد وحلب ودمشق مثلا •

ثالثا :

ولما كان صلاح الدين يهدف الى اقامة الوحدة واعداد العدّة من أجل تحرير القدس ، لذلك كان هدفه أيضا كسب رضاء الجمهور والاجناد ، وعدم التفريط بهم في كل الاحوال • فكان يطلق الاسرى • ويأمر بعدم العنف في قتال المسلمين والهجوم على حصونهم • واذا ما أراد فتح مدينة من المدن التي استعصت عليه فانه كان يستخدم الطرق التالية لفتحها :

أ ـ كان يصدر قرارات الامان لكل من يستسلم بدون قتال على شرط ان تكون العساكر واحدة عند النصّرة ضد العدو الخارجي ، كما

حدث ذلك لاهالي حصن كيفا مثلا .

ب ـ كان صلاح الدين يلقي بواسطة السهام رقاع يكتب عليها عبارات الترغيب والترهيب ، الى داخل الحصون الممتنعة لدفع أهلها الى طلب الاستسلام بعدما يحدث بين صفوفهم اضطرابا نفسيا ، كما حدث ذلك عند فتح حصن آمد .

ج ـ كان صلاح الدين يظهر للمدينة القوية الحصينة ، بأنه انما جاء يتديّر بقربها ، وانه عازم على الاستقرار بجوارها . مما يدفع بمن داخل المدينة الى طلب الامان أو السعي من أجل الوصول الى الصلح لدفع قوات صلاح الدين الضخمة من قرب البلد ، لانها ان استمرت بحصار البلد سوف تلحق أضرارا كبيرة به ، وهذا هو الذي حدث فعلا عند حصار صلاح الدين للموصل في المرة الثالثة سنة **٥٨١**هـ .

د ـ وفي بعض الاحيان كان صلاح الدين يقدم بعض التنازلات ويمنح الاموال الوفيرة لامراء بعض الحصون في سبيل فتح حصونهم دفعا للقتال ، كما حدث ذلك عند محاصرته حصن حارم وميافارقين .

هـ ـ وأحيانا أخرى كان صلاح الدين يلجأ الى الاساليب السياسية ، فيعمد الى التحالف مع بعض الامراء ضد الامراء الآخرين ليضعف من قوى الخصم ويدفعه الى طلب الاستسلام . وقد جرب صلاح الدين هذا الاسلوب بتحالفه مع عماد الدين أمير سنجار ضد أخيه عز الدين أمير الموصل .

رابعا :

بقي صلاح الدين اثنتي عشرة سنة ٥٧٠ ـ ٥٨٢هـ/١١٧٤ ـ ١١٨٦م يعمل من أجل تحقيق الوحدة واعداد العدّة قبل ان يبدأ بمرحلة التحرير . وقد كسب خلال هذه المدة محبة جمهور المسمين عامة وثقتهم . فكان الناس من كل الحصون والقلاع يراسلونه ويطلبون الانضمام الى وحدته حبا في

الجهاد في سبيل الله ، بينما اختار البعض الآخر طـريق الوحدة لتمرير مصالحه الشخصية للوصول الى امارة الحصن الذي ينتمي اليه ، كما فعل بعض الامراء الذين كانوا بحصن حارم •

وبذلك بنى صلاح الدين وحدة قوية متينــة ارتكزت على جمهــور المسلمين لا على القيادات السياسية بين الامراء •، ونظرا للانتصارات التي حققها صلاح الدين بفضل الوحدة القوية المتينة التي بناها ، وبفضل رفعه لشعار العمل من أجل تحرير القدس ، فقد تطلع الى طموحات اوسع من ان تنحصر بمنطقة الشام والجزيرة • كانت في اعادة امجاد الدولة العباسية ، وفي احياء معالم الجهاد في سبيل الله ضد الكفر في كل مكان ، ومما يدل على ذلك الكتاب الذي ارسله الى الخليفــة العباسي الناصر لدين الله ســنة ٥٧٩هـ أثناء حصاره للموصل ، والذي اوضح فيه بأنه سوف يستمر في الجهاد في سبيل الله « الى ان تعلو كلمة الله العليا ، وتملأ الولاية العباسية الدنيا ، وتعود الكنائس مساجد والمذابح المستعبدة معابد ، والصليب المرفوع حطبا في المواقد ••• ويضيف الى الديوان بمشيئة الله تعالى ما يجاور اكنافه ، ويمدّ أطرافه مثل تكريت ودقوقا والبواريج وخوزستان وكيش وعمــان والذي وقع اعظم من الذي يتوقع ، والذي طلع أكثر من الذي يتطلع ، والذي رؤى أمس أكثر من الذي يسمع »[1] •

هكذا اذن تمكن صلاح الدين ان ينتصر على مناوئيه من سائر امراء المسلمين لحسن تدبيره السياسي والعسكري وتمكنه من استغلال الظروف التي كان يعيشها المجتمع الاسلامي آنذاك ، والمناداة بمــا كان يطمح اليه جمهور المسلمين من توحيد الجهود ، ورصّ القوى ، لتحرير القدس ، وسائر البلاد الاسلامية من الغزاة الصليبين •

---

(١) ابو شامة ، الروضتين :٢/٤٩ •

الفصل الثالث

موقف صلاح الدين من القوى الصليبية

٥٧٠ ـ ٥٨٨هـ/١١٧٤ ـ ١١٩٢م

اولا - صلاح الدين والصليبيون في فترة الاعداد لبناء الوحدة
٥٧٠-٥٨٢ هـ ١١٧٤-١١٨٦م

بعد ان قبض صلاح الدين على زمام الامور في مصر ، عقب وفاة عمه أسدالدين شيركوه ، اتجهت سياسته الى اقامة دولة ايوبية قوية في مصر مع الحفاظ على العلاقات الودية مع نورالدين بالشام ، وعلى هذا الاساس أقام سياسته تجاه الصليبيين • فقد ساند صلاح الدين نورالدين ضد الصليبيين في حصار الكرك والشوبك ، وقام بعدة غزوات على تجمعات الصليبيين في المنطقة التي تربط مصر بالشام ، كالسيطرة على أيلة ، ليتسنى لقواته العسكرية وللقوافل التجارية ، وقوافل الحجاج ان تسير بين مصر والشام والحجاز بسلام كما تبين ذلك من قبل •

وفي الفترة التي اعقبت وفاة نورالدين تطور موقف صلاح الدين من القوى الصليبية ، فقد أصبح - بحكم ما تميز به من مقدرة سياسية وعبكرية - الرجل الذي سيحتل المكانة المناسبة في قيادة المسلمين ضد الصليبيين ، والخلف الشرعي لنورالدين ، والحلقة الرابعة والمتممة من تلك الحلقات القيادية التي ظهرت في منطقة الشام ، والتي تمثلت في مواقف التصدي للغزاة الصليبيين في شخص زنكي وعمادالدين ومن ثم في نورالدين • وقد تركزت سياسته في العمل من أجل توحيد مصر والشام وما يمكن ضمه اليهما من البلاد الاسلامية ليتسنى له ان يقف بصلابة وحزم بوجه التحدي الصليبي الذي كانت تدعمه قوى نصارى اوربا ، وليجعل من البلاد الاسلامية التي تنضم تحت لوائه أساسا لقوته وطريقا الى تحرير القدس •

لهذا تميزت سياسة صلاح الدين الايوبي تجاه الصليبيين ، في الفترة

المحصورة بين وفاة نورالدين ٥٦٩هـ/١١٧٣م وبين سنة ٥٨٢هـ/١١٨٦م

ـ الفترة التي تمت فيها الوحدة بين مصر والشام وبلاد الجزيرة ـ بطابع اللين والموادعة والمهادنة ، وتعليل ذلك سهل ميسور ، فقد كان صلاح الدين يهدف الى القضاء على الصليبيين قضاء تاما ، وذلك لا يتيسر قبل اقامة دولة اسلامية موحدة قوية . ومن هنا فقد هادن الصليبيين موقتا ، لتصفية الحساب مع الامراء المسلمين الذين يقاومون انشاء دولة موحدة .

ورغم ان صلاح الدين لم يقم بحروب حاسمة ضد الصليبيين في هذه الفترة ، الا انه كان بين وقت وآخر يكيل لهم الضربات القوية[1] ، ليبرهن لهم على انــه قادر على مجابهة التحدي ، وربما ليشعر أعداءه من الامراء المسلمين بانه قادر على القتال في جبهتين في آن واحد .

وقد حدثت في هذه الفترة أمور سياسية وعسكرية مهمة ، تمثلت بهجوم الصليبيين على الاسكندرية ، وانهزام صلاح الدين في معركة الرملة ، وانتصاره في مرج عيون وحصاره المتكرر لحصن الكرك وتخريبه نابلس ، وقد تخلل هذه الوقائع الحربية مهادنات سلمية ، استخدمت لتجميع القوى ضد الخصم المباشر ، وللاعداد للمعارك الفاصلة في المستقبل البعيد ، وسوف نتطرق الى كل ذلك تباعا .

« تصدي صلاح الدين للهجوم الصليبي الصقلي على الاسكندرية»

بعد وفاة نورالدين اختل ميزان القوى في منطقة الشام بين الصليبيين والمسلمين ، وحسب الصليبيون خطأ ان الفرصة قد سنحت لهم للهجوم على

---

(١) في الصفحات التالية سيتبين هذا الامر بوضوح ، عند مهاجمة صلاح الدين قوى الصليبيين عند حـارم سنة ٥٧٣ هـ ، وتخريب حصن بيت الاحزان سنة ٥٧٥ هـ ، وانتصاره عليهم في معركة مرج العيون سنة ٥٧٥ هـ .

المعاقل الاسلامية المنيعة • وكان حاكم بيت المقدس آنئذ هو الملك أموري الذي قرر الانتقام لنفسه من النوريين ، لان نورالدين كان قد الحق بالصليبيين ـ قبل مماته ـ عدة هزائم • لذلك هجم أموري على بانياس في ربيع سنة ١١٧٤م اخر شوال سنة ٥٧٠هـ غير ان ابن المقدم ـ وهو الوصي على الملك الصالح ـ راسل الصليبيين وهادنهم وانتهى الامر بالمصالحة بين الطرفين بعد ان سلمهم شيئا من المال واطلق بعض اسراهم[١] •

ولما سمع صلاحالدين بالهدنة انكرها ، وكتب الى الامراء بالشام موضحا لهم انه انما يعد عدته لغزو الصليبيين وقطع دابرهم ، ودعاهم الى نقض المعاهدة التي لهم مع الصليبيين • غير ان المعاهدة ظلت سارية المفعول لعدم ثقة الامراء النورية بنواياه[٢] •

ولم يتمكن صلاحالدين في تلك الفترة من افشال تلك المعاهدات الا انه لم يستطع التقدم نحو الشام ، نظرا لان أنصار الدولة الفاطمية في مصر راسلوا الصليبيين في الشام وصقلية ، واتفقوا معهم على وجوب القضاء على صلاحالدين والدولة الايوبية في مصر ، عن طريق هجوم الصليبيين على مصر • ففي الوقت الذي يتقدم فيه صلاحالدين لصد الهجوم خارج القاهرة ، يكون أنصار الدولة الفاطمية قد قاموا بثورة داخل القاهرة يطيحون بها بالايوبيين ، ويعيدون الدولة الفاطمية من جديد غير ان المؤامرة اكتشفت واطيح بزعمائها منهم الشاعر عمارة اليمني • وصادف في تلك الاثناء وفاة الملك أموري ـ ملك بيت المقدس ـ فتعطل تقدم القوات الصليبية من

---

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب : ٧٢ ؛
Champor, Saladin, P. 76.

(٢) مفرج الكروب : ٢/٨ ؛
Stevenson, op. cit., P. 213.

الشام ، ولم يبق الا غزو مصر عن طريق البحر من صقلية حسبما جاء في الاتفاقية المعقودة بين الاطراف المعنية الثلاثة الصليبيون من الشام وصقلية ، والفاطميين من داخل مصر[١] .

وفي ٢٦ ذي الحجة سنة ٥٦٩هـ/٢٨ حزيران ١١٧٤م تقدم اسطول حربي من صقلية الى الاسكندرية ، لتنفيذ خطة المؤامرة السابقة . ولم يكن قائد الاسطول الصقلي (تانكرد كونت ليكا) يعلم بفشل المؤامرة[٢] . لذلك استمر تدفق قطعات اسطوله الحربي الى الاسكندرية من قبل الظهر الى وقت العصر[٣] . وكانت عدة ذلك الاسطول « ستمائة قطعة ما بين شيني[٤] وطرادة[٥] وبطسه[٦] وغير ذلك ، وكانوا في ثلاثين الفا على ما

---

(١) ابن الاثير ، الكامل : ٤١٢/١١ ؛ ابن واصل، مفرج الكروب: ١٢/٢ ؛

Elisseeff (Nikita): Nur Ad-Din (Domas; 1967), 11, PP. PP. 688-690;

Crousset, op. cit., 11, PP. 617-618; Lane Pool, Saladin, P. 126; Stevenson, op. cit., P. 213.

(٢) Crousset, op. cit., 11, P. 618.

(٣) ابن شداد ، النوادر السلطانية : ٤٨-٤٩ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب : ١١/٢ .

(٤) شيني : انظر الفصل الاول صفحة (٩١) هامش (١) .

(٥) طرادة : انظر الفصل الاول صفحة (٩١) هامش (٢) .

(٦) بطسه : ويقال احيانا بطشة . وقد تحرف الى بسطة ، والجمع بطسات وبطس او بطش . وهي كلمة مأخوذة عن الاسبانية ، ومعناها السفينة الكبيرة . وكانت تستخدم اصلا للحرب ، وقد تستخدم لنقل التجارة ، وكانت تحمل في العادة ما بين ٣٠٠ الى ٧٠٠ مقاتل . (ابن شداد، النوادر (تحقيق الشيال) : ٤٩ هامش رقم (١) ؛ مفرج الكروب: ٧٢/٢ هامش رقم (١) .

ذكـر »[1] • وكانت خيلهم الفا وخمسمائة رأس حسبما ذكـر اسارى الحرب • وكان عـدة السفن التي تحمـل آلات الحـرب والحصار من الاخشاب الكبيرة وغيرها ست سفن ، كانت عدة المراكب الحمالة أربعين مركبا[2] • وقد حملوا على المسلمين حملة قوية اضطرتهم الى التراجع نحو السور ، ثم حاصروهم بعد ان ضربوا خيامهم حول السور ، وكانت عدتها ثلاثمائة خيمة[3] •

ومهما كان عدد الصليبين المهاجمين للاسكندرية مبالغا فيه ، فانه كان كبيرا بالقياس الى قوة المسلمين في الاسكندرية ، لذلك تخوف أهالي البلد من هذه الغزوة كثيرا وقاوموها بشدة[4] • ومنعوها من النزول بسلام الى ساحل البر في الفترة الاولى • غير ان ضعف قواهم المحلية ، وعدم وجود حصن قوية على ساحل البحر ، دفعت الوالي الى أن يأمر الجنود بالانسحاب الى سـور المدينـة والقتـال من داخلـه[5] • وفي الوقت نفسه كتب الى صلاح الدين مستنجدا[6] •

---

(١) النوادر السلطـانية : ٤٨-٤٩ ؛ أنظر : عبدالعزيز سـالم ، تاريخ مدينة صيدا (القاهرة ، ١٩٦١) : ٦٥ - ٦٦ •

(٢) الروضتين : ١/٢٣٤ ؛ الاصفهاني ، البرق الشامي ، تلخيص البنداري ، سنا البرق الشامي : ١/١٧١ ؛ مفرج الكروب : ٢/١٢-١٣؛ البداية والنهاية ١٢/٢٨٧ ؛ التاريخ الحربي المصري: ٤٦ هامش رقم (١)•

(٣) الروضتين : ١/٢٣٥ ؛ مفرج الكروب : ٢/١٤ •

(٤) Champdor, Saladin, P. 76.

(٥) يرى ابن واصل بأن كثرة النازلين من الصليبيين على ساحل الاسكندرية « حملوا على المسلمين حملة اوصلوهم الى السور ، وجذفت مراكب الفرنج داخلة الى الميناء وكان به مراكب مقاتلة ومراكب مسافرة»• مفرج الكروب : ٢/١٤ •

(٦) الكامل : ١١/٤١٣ •

دام حصار المدينة مدة ثلاثة أيام ، كان القتال فيها يتصل من الصباح حتى المساء ، وكانت ترمى بمجانيق كبـار تضرب حجارة كبيرة سوداء ، اضافة الى مساعدة ثلاث دبابات بكباشاتها وهي تشبه الابراج في صـلابة أخشابها وارتفاعها وقد جلبت من صقلية . الا ان المدينة صمدت صمودا رائعا نظرا لمناعة أسوارها ـ اذ كان صلاح الدين قد اهتم بتحصينها قبل سنة ٥٦٦هـ/١١٧١م ـ[١] وصلابة أهاليها واستماتتهم في الدفاع عن البلد[٢] . فقـد تعاظمت بسالة الاهالي ، واشتدت عزائمهم ، وارتفعت معنوياتهم . خاصة عندما سمعوا بقدوم صلاح الدين لنجدتهم . حتى أصبح الرجل منهم ـ كما ذكر ابن الاثير ـ « يظن ان صلاح الدين معه ، فهو يقاتل قتال من يريد ان يشاهد قتاله »[٣] .

ولولا انقاذ صلاح الدين للموقف لسقطت المدينة ، نظرا للاضطرابات التي احدثها التجار الايطاليون الذين كانوا يقومون بالاعمال التجـارية في الاسكندرية[٤] ، فقد أبدى هؤلاء التجار استعدادا لمساعدة الغزاة الصليبيين،

---

(١) انظر : حسين وزملائه ، تاريخ مدينة الاسكندرية (القاهرة ، ١٩٦٣) : ٢٩٢ـ٢٩٣ .

(٢) انظر : النوادر السلطـانية : ٤٩ ، الروضتين : ١/٢٣٥ ؛ مفرج الكروب : ٢/١٥ ؛ السلوك : ١/٥٧ ؛ البداية والنهاية : ١٢/٢٨٧؛ الشرق الاوسط والحروب الصليبية ١/٧٤٢ .

(٣) الكامل : ١١/٤١٣ .

(٤) كانت مدينة الاسكندرية ، في عهد صلاح الدين ، سوقا هاما للتجارة العالمية ، تتعامل مع ما يزيد على ثمانية وعشرين دولة . وكان يصلها معظم منتجات الشرق ، ولذلك اقامت الجمهوريات الايطالية لهـا بالاسكندرية فنادق، لتجارها ، أنظر : رحلة بنيامين ، ترجمة عزرا حداد (بغداد ، ١٩٤٥) : ١٧٧ ؛ تاريخ مدينة الاسكندرية : ٢٩٤ـ٢٩٥ ؛ احمد النجـار ، الانتـاج الادبي في مدينـة الاسكندرية (القاهرة ، ١٩٦٤) : ٤٧ـ٤٨ .

ورغبوا ان يصير البلد اليهم ، ليتمكنوا من السيطرة على ميناء الاسكندرية •
ولما لم يتمكن الغزاة من تحقيق أهدافهم ، مني الايطاليون بخيبة أمل ،
وقدموا الى صلاح الدين متوسلين بالاعفـاء عنهـم والابقـاء على امتيازاتهم
التجارية[١] •

وتظهر سـياسة صلاح الدين الحكيمة للدفـاع عن الاسكندية ، في
استخدامه للحرب النفسية ، واعلانه استنفار العساكر ، ومحاولته للدفاع
عن الثغور الاسلامية الاخرى القريبة من الاسكندرية • فقد كان نازلا
بعساكره على فاقوس ، ولما ورد اليه خبر محاصرة الصليبيين للاسكندرية ،
ارسل في الحال مملوكا له الى اهالي الاسكندرية يعلمهم بتقدمه لمساعدتهم •
كما ارسل بعض العساكر الى ثغرى دمياط والاسكندرية[٢] ، لمنع اي
هجوم معاكس يقع على دمياط التي كانت مهددة ــ فيما يبدو ــ بقوات صليبية
ولاشـك بان تقـدم هـذه القوات الى دميـاط ، ووصـول المملوك الى
الاسكندرية كان له اثر كبير في تثبيت عزائم المدافعين عن البلد من جهة ،
واضعاف معنويات الاعداء من جهة ثانية •

وقد نجحت سياسة صلاح الدين فعلا ، لان أهالي الاسكندرية عندما
علموا بمسير صلاح الدين اليهم استماتوا في الدفاع عن البلد ، حتى ان
بعض العساكر فتحوا أحد أبواب المدينة وخرجوا على حين غفلة ، وهجموا
على آلات الحصار الحربية للعدو واحرقوها[٣] • واتصل قتالهم الى العصر
من يوم الاربعاء ــ وهو رابع يوم من أيام الحصار ــ ثم خرج المسلمون
للقتال مرة ثانية عند اختلاط الظلام ، وأحدثوا الرعب في نفوس الصليبيين ،

---

(١) Grousset, op. cit., 11, P. 619.

(٢) الروضتين : ١/٢٣٥ ؛ مفرج الكروب : ٢/١٥ •

(٣) نفس المصدرين والمكان السابق •

أمامهم وتبعوهم الى البحـر ، واقتحموا عليهم بعض المراكب وخسفوها ، واغرقوا من بداخلها بينما ولت البقية الباقية من تلك المراكب الهرب عائدة الى صقلية خائبة • وكان ذلك يوم الخميس أول محرم سنة ٥٧٠هـ[١] •

وهكذا انتهت هذه الحملة بالفشل الذريع ، وتثبت مركز صلاح الدين بالاسكندرية خاصة ، ومصر عامة ، لانها كانت أول اصطدام جدّي لقوات صلاح الدين لتحصين سواحل مصر ـ كما سيتبين ذلك في فصل قادم ـ خوفا عليها من هجوم مماثل من القوى الصليبية عن طريق البحر • وكانت خسائر المسلمين في هذه الغزوة سبعمائة نفس[٢] •

وبعد ان انتهى صلاح الدين من تأمين قواه في مصر ـ بعد ان قضى على ثورات الفاطميين ، وصد الهجوم الصليبي على سواحل مصر ـ تقدم الى الشام لاصلاح الاحوال هناك نظرا للانشقاقات الخطيرة في دولة نورالدين بعد وفاته وهجوم الصليبيين على ضواحي دمشق •

ولما كان صلاح الدين في هذه الفترة ، ينوي التفرغ لمجابهة أتابكة الشام والجزيرة ويسعى لاقامة الوحدة بين أقاليم البلاد الاسلامية المتفرقة ، لذلك كانت مصلحته السياسية تتطلب المهادنة مع الصليبيين قليلا ، لاجل حشد الطاقات البشرية والاقتصادية ضدهم •

ففي المحرم من سنة ٥٧١هـ/١١٧٥م خرج صلاح الدين بقواته العسكرية من دمشق بعد ان كان قد ملكها وعظمت قواه في الشام ، فخافه الصليبيون ، وظنوا انه يعتزم الهجوم على بلادهم لا محالة ، لذلك أرسلوا

---

(١) ابن الاثير ، الكامل : ١١/٤١٤ ؛ ابو شامة الروضتين : ١/٢٣٥ ؛ الاصفهاني البرق الشامي ، انظر تلخيص البنداري ، سنا البرق الشامي : ١/١٧٣ـ١٧٤ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب : ٢/١٦ •

(٢) مفرج الكروب : ٢/١٤ •

اليه يطلبون مهادنته[١] ، وذلك للاحداث القلقة التي أصابت مملكة بيت المقدس آنئذ[٢] • والجدب الذي أصاب منطقة الشام في تلك السنة[٣] • فأجابهم اليها صلاح الدين وصالحهم[٤] •

وقبل ان تنتهي مدة الهدنة راسل بلدوين الرابع – ملك بيت المقدس –

---

(١) الكامل : ١١/٤٣٥ •

(٢) في هـذه الفترة كانت قد حدثت في مملكـة بيت المقـدس من التطورات السياسية ما يجب الالتفات اليه ، لانه اثر بصورة مباشرة على سير الاحداث في العلاقات التي جرت بين صلاح الدين ومملكة بيت المقدس• فقد كان الملك بلدوين الرابع مصاب بمرض الجذام ، ومع ذلك فقد امتاز بمواهب ادارية وعسكرية جيدة • فقد تزعم قيادة الصليبيين ضد صلاح الدين ، وكانت فترة حكمه القصيرة (٥٧٠–٥٨١ هـ/١١٧٤–١١٨٥م) مليئة بالاحداث الجسام : انظر : سعيد عبدالفتاح عاشور ، الحركـة الصليبية : ٢/٧٣٦ •

واصابة بلدوين الرابع بمرض الجذام احدثت في مملكة بيت المقدس مشكلة في من سيلي ولايـة العرش من بعده ، نظرا لان الاميرة سيبيل رفضت الزواج منه لمرضه ، لذلك اصبح من اللازم ان يبحث للاميرة عن عريس ،يكون مستقبل مملكة بيت المقدس بيده • وقد وقع اختيار بلدوين الرابع على وليم دى مونتراف الملقب (وليم ذو السيف الطويل) وهو أكبر ابناء المركيز • وقد رضي بهذا الزواج ، وأصبح بحكم زوجيته حاكما على مملكة بيت المقدس ، الا انه توفي قبل ان تمضي سنة على زواجه
Besant, Jerusalem, The City of Herod and Saladin (London, 1899) P. 375; Grousset, op. cit., 11, P. 700.

(٣) الروضتين : ١/٢٥٢ •

(٤) لم تذكر كافة المصادر المعاصرة نص الهدنة المعقودة بين صلاح الـدين وملك بيت المقدس واكتفت بالقـول ان صلاح الدين اشترط على الصليبيين امورا فالتزموها انظر : الكامل : ١١/٤٣٥ ؛ الروضتين : ١/٢٥٢ ؛ السلوك : ١/٦٠ ؛ كنز الدرر : ٧/٦٠ ؛
Runicman, op. cit., 11, P. 410.

الدول الاوربية النصرانية ، يطلب النجدات للوقوف بوجه صلاح الدين ، الذي كانت قواته قد عظمت في منطقة الشام ، حيث كان قد تفرغ لمجابهة الامراء النورية ، وفتح كثيرا من حصونهم ومدنهم ، كما تبين ذلك من قبل ٠

وفي آب من سنة ١١٧٧م قدم الى القدس فيليب الالزاسي[١] ، كونت فلاندرز على رأس قوة من الفرسان الفلمنكيين ، الا انه رفض فكرة القيام بهجوم على مصر[٢] ، واحتج بأنه انما جاء الى القدس للحج ، ولتزويج الاميرتين سيبل وايزابيل من بعض أقربائه[٣] ٠

وفي ٢٦ ربيع الاول سنة ٥٧٢هـ/١١٧٦م غادر صلاح الدين الشام الى مصر بعد ان عقد مع الملك الصالح بن نورالدين ـ اتابك حلب ـ الصلح[٤] وانتهز بلدوين الفرصة ، وكرر الطلب على الكونت فيليب الالزاسي ،

---

(١) اطلق عليه في المصادر العربية (الكسندر اقلندس) انظر : الروضتين : ١/٢٧٥ ٠

(٢) كان الذي شجع الملك بلدوين الى محاولة القيام بهجوم عسكري على مصر ، هو الامبراطور البيزنطي مانوئيل كومنين ، لانه مني بخسارة فادحة ، انزلها به سلاجقة الروم في ميريوكيفا لوم سنة ٥٧٢هـ/١١٧٦م ، وقد ارسل مانوئيل بأسطول حربي مكون من سبعين سفينة تحمل عددا كبيرا من قواته العسكرية الى ميناء عكا ٠ ونظرا لرفض الكونت فيليب الاشتراك معه بالهجوم على مصر ، وملل جنده من طول الانتظار بميناء عكا من دون تحقيق أي شيء ، فقد انسحب الاسطول البيزنطي الى البسفور من دون تحقيق أية مكاسب ٠ انظر :

Grousset, op. cit., 11, P. 644-645; Runciman, op. cit., 11, PP. 411-414.

(٣) Setton, A History of the Crusades (Pennsylvania, 1958) Vol. 1, P. 595.

(٤) ابن واصل ، مفرج الكروب : ٢/٥٢ ٠

بوجوب التعاون معه لسحق القوات الاسلامية الموجودة على الحدود الشرقية لامارتي الرها وطرابلس ، فوافق الاخير على اقتراحه ، واغارا بقواتهما الصليبية معا على كل من حمص وحماة • وكادت حماة تسقط بايديهم ، لولا صلابة المسلمين في الدفاع عنها • اذ تمكنوا من اخراج الصليبيين من البلد « بعد ان كادوا يهجمونه ••• ثم رحلوا عن البلد ، وكان مدة حصارهم له أربعة أيام »[1] • وكان الجدب الذي أصاب منطقة الشام من أسباب تلك الغزوة أيضا ، وفي الكتاب الفاضلي المرسل الى بغداد بتوقيع صلاح الدين ما يدل على ذلك : « خرج الكفار الى البلاد الشامية فاسخين لعقد كان محكما غادرين غدرا صريحا مقدرين ان يجهزوا على الشام لما كان الجدب جريحا ونزلوا على ظاهر حماة يوم الاثنين الحادي والعشرين من جمادى الاولى ••• »[2] •

معركة الرملة :

بعد فشل الحملة البيزنطية الصليبية على مصر ، وانسحاب الصليبيين من حماة ، بعد هجومهم الفاشل عليها ، وعودة فيليب الالزاسي الى القسطنطينية خرج صلاح الدين من القاهرة يوم الجمعة ٣ جمادى الاولى وخيّم بظاهر بلبيس ، ونودي بين العسكر ان يأخذوا زاد عشرة أيام أخرى زيادة للاستظهار ، فاندفع العسكر الى السوق للابتياع ، وارتفعت الاسعار حتى غرت العماد الاصفهاني ودفعته الى بيع أحماله وأثقاله والمكوث بالقاهرة ، وعدم الاشتراك بالغزوة « لان المدى بعيد والخطب شديد وهذه نوبة السيوف لا نوبة الاقلام »[3] •

---

(١) الروضتين : ١/٢٧٥ ؛ مفرج الكروب : ٢/٦٤ •

(٢) الروضتين : ١/٢٧٥ •

(٣) قال العماد الاصفهاني عندما نودي للجهاد « ركبت الى سوق

وفي يوم الاربعاء ٢٩ جمادى الاولى ٥٧٣هـ/١١٧٧م نزل صلاح الدين بقواته العسكرية على عسقلان ، واستولى على ما كان بها وقتل عددا من الصليبيين لنكثهم العهد وهجومهم على حارم . ولما رأى العسكر الايوبي خمود الصليبيين انتشروا في معاقلهم القريبة لغرض الحصول على الغنائم ، وبقي صلاح الدين بقليل من عسكره عند الرملة بالقرب من تل الصافية[1] ، استعدادا للقيام بهجوم على الصليبيين . وكان العسكر في تلك الساعة ـ كما حدّث صلاح الدين بذلك لبهاء الدين بن شداد ـ « قد تعبوا تعبية الحرب ، ولما قرب العدو رأى بعض الجماعة أن تعبر الميمنة الى جهة الميسرة ، والميسرة الى جهة القلب ليكونوا حالة اللقاء ... فبينما اشتغلوا بهذه التعبية هجمهم الفرنج وقدر الله كسرتهم ... ولم يكن لهم حصن قريب يأوون اليه ، فطلبوا جهة الديار المصرية ، وظلوا بالطرق وتبددوا »[2] . وكان مقدم العسكر الصليبي البرنس ارناط ، أمير حصن الكرك[3] . تسانده قوات القدس الصليبية بما فيها رجال الدين من الاسبتارية والدواية[*]

العسكر للابتياع وقد اخذ السعر في الارتفاع ، فقلت لغلامي قد بدا لي وقر خطر الرجوع من الخطر ببالي فأعرض للبيع احمالي واثقالي وانتهز فرصة هذا السعر الغالي ، وانا صاحب قلم لا صاحب علم .... » الروضتين : ١/٢٧١ .

(١) تل الصافية ـ حصن بنواحي الرملة قرب بيت جبرين . معجم البلدان : ١/١٦٧ .

(٢) ابن شداد ، النوادر السلطانية : ٥٣ ؛ أنظر : مفرج الكروب: ٢/٥٩ .

(٣) المقريزي ، السلوك :١/٦٤ .

(*) الاسبتارية : الكلمة تحريف ظاهر للفظ الافرنجي Hospitallers وكان يطلق في عصر الحروب الصليبية على طائفة من

الذين كانوا برئاسة الملك بلدوين الرابع[1] .

كانت خسائر المعركة كبيرة ، نظرا لان العسكر الايوبي كان غير مجتمع ، فكان سهل المأخذ . ولذلك تعقبه الصليبيون ، وقضوا عليه ، وغنموا ما كان يحويه من أثقال . وتكاثر الصليبيون على صلاح الدين بقصد القضاء عليه ـ وهو في طائفة يسيرة من عسكره ـ الا انه قاوم مقاومة شديدة ، حتى دخل الليل « فسلك البرية الى ان مضى في نفر يسير الى مصر ، ولقوا في طريقهم مشقة شديدة ، وقل عليهم القوت والماء ، وهلك كثير من العسكر جوعا وعطشا وسرعة سير »[2] ، اما بقية العسكر التي كانت متفرقة ، فقد قتل أكثرها ووقع الباقون في الاسر منهم الفقيه عيسى الهكاري الذي كان من رجال العلم والدين والحرب[3] . « ولم تعظم هذه الوقعة الا بسبب ما اتفق للمسلمين من دخول الرمل وعدم الماء والدليل »[4].
اما خسائر الصليبيين في هذه المعركة فانها ـ طبقا للكتاب الذي أرسله صلاح الدين الى بعض امرائه بعد وصوله الى القاهرة ـ كانت كبيرة أيضا ،

الفرسان الدينيين . وقد أسست هذه الطائفة للقيام بالحرب المقدسة ضد المسلمين ـ على حد زعمهم ـ في كل الاحوال ومهما بلغت التضحيات ولمعرفة المزيد عنها أنظر :

King (E.J.): The Knights Hospitallers, PP. 1-33;

المقريزي ، السلوك : ١/٦٨ (تحقيق مصطفى زيادة) ، هامش رقم (٤) .
اما الداويه فقد ورد تعريفها من قبل .

(١) عاشور ، الحركة الصليبية : ٧٥٧/٧ .

(٢) مفرج الكروب : ٢/٦٠-٦١ .

(٣) أنظر : ابن العماد ، شذرات الذهب : ٤/٢٤٤ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ١٢/٢٩٧ ، مرآة الجنان : ٣/٣٩٨ .

(٤) العماد الاصفهاني : انظر مفرج الكروب : ٢/٦١ ، أنظر : الكامل : ١١/٤٤٢-٤٤٣ .

فقد قتل منهم « اضعاف المقتولة من المسلمين »[1] .

ورغم ما مني به صلاح الدين ، في هذه المعركة ، من هزيمة قاسية ، الا انه برهن على انها لم تكن حاسمة ، وان بامكانه تلقين الصليبين دروسا لن ينسوها . فاعلن تحمله لمسؤولية اخذ الثأر منهم و « حلف الا تضرب له نوبة حتى يكسر الفرنج »[2] .

ولكي يكسب صلاح الدين ثقة جمهور المسلمين ، وبقطع الطريق على اولئك الذين ينتظرون الفرص لتهديم منجزات دولته ، اتبع سياسة حكيمة قضت بتفريق الاموال الكثيرة على الناس ، وخاصة على المتضررين منهم ، أو على أهاليهم ، فقد « اهتم بافاضة الجود ... وجبر الكسير وفك الاسير وتوفير العدد وتكثير المدد وتعويض ما نفق من الدواب »[3] . وبذلك ارضى عامة الشعب المصري ، ودفعهم الى نسيان الآلام التي أصابتهم « فسلوا ما نابهم ولم يأسوا على ما أصابهم »[4] .

كما عمل صلاح الدين على معاقبة الذين اعتقد بأنهم كانوا سببا في هزيمة الرملة « فقطع اخباز[5] جماعة من الاكراد ، من أجل انهم كانوا السبب في هذه الكسرة »[6] .

وربما كانت أخطاء هؤلاء الاكراد تتمثل باشارتهم على العسكر الايوبي

---

(١) العماد الاصفهاني في البرق الشامي ، انظر : البنداري ، سنا البرق الشامي : ١/٢٦١ .

(٢) المقريزي ، السلوك : ١/٦٤ .

(٣) ابو شامة ، الروضتين : ١/٢٧٤ .

(٤) العماد الاصفهاني ، أنظر : الروضتين ١/٢٧٤ .

(٥) الاخباز : جمع خبز وهي ما كان يقدم للجندي من ارزاق اضافة الى راتبه وقد تكون تلك الارزاق أرغفة من الخبز .

(٦) المقريزي ، السلوك : ١/٦٥ .

بأن تعبر الميمنة الى جهة الميسرة ، والميسرة الى جهة القلب عن غير عمد ، عندما كان الصليبيون قد اقتربوا من العسكر ، بحيث انهم ما ان اشتغلوا بهذه التعبية ، الا وكان الصليبيون على رؤوسهم ــ كما تبين ذلك من قبل ــ •

ولما كان امر الشام يهم صلاح الدين ، كما يهمه امر مصر ، لذلك عمل جاهدا على ابلاغ أهل الشام أخبار وصوله الى مصر سالما بالسرعة الممكنة ليطمئن الناس وتأمن نفوسهم فلا يصيب العلاقات السياسية بين الجانبين فتورا • ولهذا ارسل صلاح الدين على أجنحة الطير الكتب المستعجلة ، التي قصد من ورائها ابطال الدعايات المغرضة ضده ، وقد ذكر العماد الاصفهاني بان صلاح الدين ، حال وصوله الى القاهرة أمرهم بكتابة الكتب الى من يهمهم الامر في الشام فقال : « فسيّرنا بها البشائر وانهضنا ببطاقاتها الطائر لاخراس السنة الاراجيف وابدال التأمين من التخويف »[1] •

ونتيجة لهذه السياسة الحسنة التي اتبعها صلاح الدين بعد الهزيمة ، فقد استمر تأييد جمهور المسلمين له ، حتى ان بعض الشعراء قصده بالمدح ليهونوا عليه الكسرة[2] • وقد تمكن صلاح الدين بفترة لم تتجاوز الشهرين من اعادة تنظيم قواته العسكرية ومهاجمة الصليبيين ، وفي نص الكتاب الذي أورده العماد الاصفهاني ما يدل على ذلك : « وأُما نوبة العدو في الرملة فقد كانت عثرة علينا ظاهرها ، وعلى العدو باطنها ، ولزمنا ما نسّي من اسمها ،

---

(١) ابو شامة ، الروضتين : ١/٢٧٤ •

(٢) كان من بين الشعراء الذين قصدوا صلاح الدين بعد كسرة الرملة ، الشاعر ابن سعدان الحلبي ، الذي مدحه بقصيدة جاء في بعضها:

حسب العدا يا صلاح الدين حسبهم ... ان يقرفوك بجرح غير مندمل
وهل يخاف لساع النحل ملتمس ... مرت على اصبعيه لذة العسل

(الروضتين : ١/٢٧٤)

ولزمهم ما بقي من عزمها ولا دليل أدل على القوة من المسير بعد شهرين من تاريخ وقعتها الى الشام ، نخوض بلاد الفرنج بالقوافل الثقيلة والحشود الكثيرة والحريم المستور والمال الموفور »[1] .

وصل صلاح الدين الشام بعد هزيمة الرملة ، واستمرارا لسياسته الحسنة التي قصد من ورائها اعادة الثقة الى نفوس المسلمين ، وقطع دابر المضللين ، كان يأمر عسكره ان يقوم بمظاهرات عسكرية ، وكان يستدعي بعضا من العساكر المصرية ويكتب الى أخيه العادل « ان ينتخب من الاقوياء بالخيل والعدة الفا وخمس مائة فارس ، وأشار على الملك المعظم بالتوجه الى مصر مستصحبا معه من طال بالشام بيكاره ، وبان انفاضه واقتاره . ورأينا المصلحة في مسيرة لمنافع كثيرة وفوائد اثيرة . منها : التخفيف عن الشام في مثل هذا العام ، وذلك بعد ان رتب في بعلبك نوابه واقطعها اصحابه ، ومنها : ان في وصوله الى مصر وقد خرج منها عسكر اسما كبيرا وصيتا عظيما . فان الارجاف شائع باسطول صقلية المخذول وخروجه . ووصول اخينا يكسر من عزم العدو ، ويحطه من ذروة العتو . ومنها : انه اذا أقام بالقاهرة تصرف أخونا الملك العادل في البلاد بعسكره وعذب صفو مقصده في مورده وصدقه »[2] .

وبعد هذا الانتصار الذي حققه الصليبيون على القوات الايوبية في معركة الرملة[3] ، عمدوا الى انشاء بعض الاستحكامات والحصون

---

(١) الروضتين : ٢٧٦/١ ؛ مفرج الكروب : ٦٥/٢ . ع

(٢) العماد الاصفهاني في البرق الشامي ، انظر : البنداري ، سنا البرق الشامي : ٣٢١/١-٣٢٢ .

(٣) تحدث البطريرك الدويهي عن انتصار الصليبيين على صلاح الدين في معركة الرملة ، وأوضح بأن عدد العسكر الصليبي كان (٣٧٥ فارسا) ، بينما كان عدد قوات صلاح الدين العسكرية (٢٦ الف) . ومع

العسكرية ، واختاروا بناء حصن قوي عند « مخاضة الاحزان »[1] في تشرين الاول سنة ١١٧٨م/٥٧٤هـ ، وهو يبعد عن دمشق مسافة يوم ، وبينه وبين طبرية وصفد نصف يوم[2] ٠

وقد اهتم الصليبيون كثيرا بتعمير هذا الحصن ، فقد كان ـ طبقا للكتاب الفاضلي المرسل الى بغداد ـ عرض حائطه أكثر من عشرة اذرع ، وكانوا قد قطعوا له عظام الحجارة ، كل خمسة منها سبعة اذرع الى ما فوقها ودونها ، وعدتها تزيد على عشرين ألف حجر ، كما جعلوا بين الحائطين حشوا من الحجارة الصم ، وقد جعلت سقيته بالكلس حتى أصبح الجميع

قلة العسكر الصليبي ، فانه تمكن من هزيمة العسكر الايوبي ، لرفعه الصليب ، ولان الملك بلدوين استغـاث بالله على المسلمين وكان اغلب عسكره من فرسان الهيكل ، والحقيقة ان ما جاء به الدويهي مبالغ فيه بشكل واضح وكبير، فلم تذكر المصادر جميعا ما جاء به الدويهي اولا، ثم لو كان لرفع الصليب من اهمية في الانتصار ٠ على الاعداء ، فلماذا اذن خسر الصليبيون معركة حطين مثلا سنة ٥٨٣ هـ وكانوا يحملون الصليب ايضا ٠ والذي يظهر ان الدويهي ، لما كان من رجال الدين المسيحي ـ بطريرك ـ لذلك فقد اعتمد التفسير الديني اسلوبا للتحليل التاريخي ، وكان بكتابته مبالغا بشكل كبير ٠

انظر : تاريخ الازمنة ، نشره على اصوله فردناند في مجلة المشرق (بيروت ١٩٥١) ص ٧٨ ٠

(١) مخاضة الاحزان : بلد بين دمشق وحلب والساحل ، زعم بأنه كان مسكن النبي يعقوب (ع) ايام حزنه على يوسف ٠ ويقول ابن الاثير بأنه يقارب مدينـة بانياس الكامل : ٤٥٦/١١ ويرى ابن كثير بأن الذي بني هـذا الحصن هم جماعة فرسان الداوية لاستخدامه كمرصـد لحرب المسلمين ٠ البداية والنهاية : ٣٠٠/١٢ ، انظر : جب، صلاح الدين، ص ١٢٩ ٠

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب : ٧٢/٢ ٠

كأنه جدار واحد لا يؤثر فيه الحديد[1] .

وقد استشعر صلاح الدين خطورة هذا الحصن على بلاد المسلمين ، وجاءه من اخبره بأنه « متى احكم بناء هذا الحصن تمكن الوهن من بلاد الاسلام »[2] . ونظرا لانشغال صلاح الدين بأمر بعلبك[3] ، لذلك أجل التفاته اليه ، غير انه لم يهمل امر الحصن وصرح لامرائه انه اذا أتم الصليبيون بناء هذا الحصن « نزلنا عليه وهدمناه الى الاساس »[4] .

وبعد ان أتم صلاح الدين أمر بعلبك تفرغ لحصن بيت الاحزان ، فهجم عليه وتخطّف بعض الصليبيين من حوله ، فاضطر الملك بلدوين الى استدعاء قواته العسكرية لوضع حد لاغارات صلاح الدين وتقدم للمنازلة[5]. وكان صلاح الدين قد اجمع ومن معه من العسكر على اقتحام بلاد الصليبيين والاستيلاء على ما معهم في يوم واحد ثم يعودون فرحلوا صوب البقاع ليلة الاحد ٢ محرم سنة ٥٧٥هـ . ولما أصبح صلاح الدين جاءه الخبر بأن الصليبيين عازمون على قتاله ، فتوجه اليهم والتقاهم قرب تل القاضي في سهل

---

(١) ابو شامة ، الروضتين : ١٣/٢ ؛ مفرج الكروب : ٧٢/٢ ؛ البداية والنهاية : ٣٠٤/١٢ .

(٢) مفرج الكروب : ٧٢/٢ .

(٣) كان السبب الذي اشغل صلاح الدين بأمر بعلبك ، انه لما فتحها سلم أمر ولايتها لابن المقدم ، الا انه في هذه السنة ٥٧٤ هـ طلبها منه أخوه الملك العادل توران شاه لانها مرباه ومنشأه ولم يمكن صلاح الدين مخالفته . لذلك امر ابن المقدم بالنزول منها وتعويضه بأحسن منها، الا انه رفض الطلب ، فحاصره صلاح الدين حتى اضطره الى التنازل عنها وعوضه بارين وكفر طاب . انظر : الروضتين : ٥/٢ ، البنداري ، سنا البرق الشامي : ٣٣٣/١-٣٣٤ ؛ مفرج الكروب : ٧٢/٢ .

(٤) مفرج الكروب : ٧٢/٢ .

(٥) عاشور ، الحركة الصليبية : ٧٦١/٢ .

مرج العيون • ورغم عدم استعداد صلاح الدين لمواجهة الصليبيين مواجهة فعلية ، الا ان سياسته العسكرية اقتضت عدم الانسحاب من ساحات المعركة والمحافظة على قابلية عسكره القتالية ، ولذلك صدم الصليبيين وهزمهم وأسر بعضا من فرسانهم منهم مقدم الداوية ومقدم الاسبتارية وامير طبرية وجنين وقسطلان ويافا وأخو صاحب جبيل وابن القومصية وابن بارزان أمير الرملة وقدر عدد اسراهم بـ (٢٧٥ رجلا) ، وقد نقلوا الى دمشق ، ففدى ابن بارزان نفسه بعد سنة بـ (١٥٠ ألف دينار صورية) واطلاق ألف أسير مسلم ، اما مقدم الداوية فقد هلك بالسجن وسلمت جثته للصليبيين عوضا بأسير مسلم[1] •

وبعد هذا الانتصار التفت صلاح الدين من جديد الى حصن بيت الاحزان ، وكانت سياسته تجاه الحصن في بداية الامر اتباع الطرق السلمية ، وعدم التضحية بالعسكر وتعبئتهم للمواقف الحازمة ، لذلك راسل الصليبيين وطلب منهم تخريب الحصن وبذل لهم عوضا عنه ستين ألف دينار ، غير أنهم امتنعوا ، فزادهم الى مائة ألف دينار • ولما وجد منهم اصرارا على الحفاظ على الحصن واستحكاماته ، أمر عسكره بالتوجه اليه وتخريبه يوم الخميس ٥ ربيع الآخر سنة ٥٧٥هـ[2] •

ونظرا لكون صلاح الدين صمم على تخريب الحصن ـ بعد فشل

---

(١) الكامل : ٤٥٦/١١ ؛ الروضتين : ٩/٢ ؛ مفرج الكروب : ٧٥/٢ـ٧٦ •

Sivan, L, Islam et la Croisade (Paris, 1968), P. 95.

(٢) ابن شاهنشاه ، مضمار الحقائق : ٢٤ـ٢٦ ؛ الكامل : ٤٥٦/١١ـ٤٥٧ ؛ سنا البرق الشامي : ٣٣٥/١ـ٣٣٨ ؛ البداية والنهاية : ٣٠٠/١٢ ؛

Sivan; op. cit., P. 95.

الطـرق السلمية ـ لذلك امر بتجنيد قوات اضافيـة من عسكر التركمان والاجناد وسيرهم الى الحصن لمساندة القوات الشامية والمصرية • وفي ٢٥ آب سنة ٥٧٥هـ ضرب حول الحصن حصارا شديدا ، واقتحمت القلعة في اليوم السادس[١] • بفضل الخطة العسكرية الجيدة التي اتبعها صلاح الدين• فقد فرّق الامراء على جوانب البرج ، وأخذ هو الجانب الشمالي[٢] • ولما اشعلت النيران في بعض نقوب السور ، ووجد صلاح الدين ان تلك النيران سوف تعيق مواصلة الجند من اتمام مهمة توسيع النقوب المحدثة في السور ، نادى انه « من جاء بقربة ماء فله دينار »[٣] مما دفع بالعسكر الى التسابق في اطفاء النار حتى تمكنوا منهـا وواصلوا التوسع في نقب السـور حتى اسقطوه يوم الخميس ٢٤ ربيع الاول سنة ٥٧٥هـ[٤] •

ورغم الصعوبات الكثيرة التي واجهت صلاح الدين ، كانتشار روائح القتلى وكثرة الامراض ، فانه لم يغـادر المكان حتى انهى هدم الحصن تماما[٥] من الاساس وجعله دكا كأن لم يغن بالامس ، ليعطي الصليبيين درسا عمليا لن ينسوه ، بأن وعده لن يخلف ، وان امره لن يعارض ، وان اندحاره في معركة الرملة لم يكن الا حادثا عارضا •

وقد اكبر الشعراء هدم صلاح الدين لحصن بيت الاحزان ، منهـم الشاعر علي ابن محمد الساعاتي الدمشقي المتوفى سنة ٦٠٤هـ والذي جاء في قصيدته :

---

(١) ابن شاهنشاه ، مضمار الحقائق : ٢٨ ـ ٢٩ ؛ جب ، صلاح الدين : ١٣١ •

(٢) الروضتين: ٢/١١ ؛ مفرج الكروب ٢/٨١ •

(٣) الروضتين : ٢/١١ •

(٤) الروضتين : ٢/١١ ؛ مفرج الكروب : ٢/٨٢ •

(٥) نفس المصدرين والمكان السابق ؛ جب ، صلاح الدين : ١٣١ •

أتسكن أوطان النبيين عصبة   تمين لدى ايمانها وهي تحلف
نصحتكم والنصح للدين واجب   ذروا بيت يعقوب فقد جاء يوسف[1]

ونظرا لان صلاح الدين أصبح يحكم مصر وجزءاً كبيرا من الشام ، لذلك وجه كل جهده للقضاء على الحصون الصليبية التي تقع بين مصر والشام • والتي كانت تهدد طرق المواصلات ، وعلى رأس هذه الحصون ، حصن الكرك[1] الذي كان يعرقل طريق التجارة ، بحيث ان التجار كانوا لا يستطيعون المسير من مصر الى الشام الا بموافقة العسكر[3] • اضافة الى ان امير هذا الحصن هو البرنس ارناط[4] كان من اغدر امراء الصليبيين وانكثهم للعهود[5] • فقد كان مثلا بين صلاح الدين وملك بيت المقدس (بلدوين الرابع) سنة ١١٨٠م هدنة عامة في البر والبحر اتفق عليها لمدة سنتين ، نظرا للجدب الذي أصاب منطقة الشام ، في ذلك العام ، ورغبة

---

(١) الكامل : ٤٥٨/١١ ؛ الروضتين : ١٢/٢ ، مفرج الكروب: ٨٤/٢ ، البداية والنهاية ٣٠٣/١٢/ ومن الشعراء الذين مدحوا صلاح الدين بمناسبة هدم حصن بيت الاحزان ايضا الشاعر نشو الدولة احمد بن تقادة الدمشقي وقد جاء في قصيدته :

هلاك الفرنج أتى عاجلا   وقد آن تكسير صلبانها
ولو لم يكن قد دنا حتفها   لما عمرت بيت اخوانها

انظر : الكامل : ٤٥٧/١١ •

(٢) حصن الكرك : انظر ما ذكرناه عن هذا الحصن في الفصل الاول صفحة (٥٦ ، ١٠٢) •

(٣) ابن شداد ، النوادر السلطانية : ٦٣ •

(٤) يسمى البرنس ارناط في المصادر غير العربية باسم «رينالد شاتيون » انظر : جب ، صلاح الدين : ١٣٩ و٤٢٠ •

(٥) ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، ق ٢ : ٧١/٢ ،
King: The Knights Hospitallers, P. 111.

كلا الطرفين باستخدام زمن الهدنة لتعبئة القوى وكسب الاحلاف[1] ، غير ان الهدنة لم تستمر الا سنة واحـدة ، وذلك لان البرنس ارناط نقضهـا باستيلائه على قوافل تجـارية اسلامية[2] ومهاجمتـه للمدينة المنورة[3] . فاضطر صلاح‌الدين الى نقض الهدنة من جانبه أيضا وهاجم حصن الكرك عدة مرات حتى تمكن من فتحه سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م[4] .

ومن الغزوات المتكررة التي شنها صلاح‌الدين على حصن الكرك ، نرى بأن سياسته كانت تهدف الى التركيز والاستمرار في قتال الصليبيين الذين بداخل الحصن كي يتمكن من فتحه بأقل جهـد ، وبأقل خسارة ممكنة ، قبل ان تأتيه الامدادات من الخارج ، كما حدث ذلك في الغزوة التي قام بها في ١٤ جمادى الاولى سنة ٥٨٠هـ ، حيث نصب مرة واحدة تسعة مجانيق أمام الباب ، تمكن بواسطتها من هدم السور المقابل لها ، غير ان الخندق العميق الذي يفصل السـور عن العسكر الايوبي ، وخشونة

---

(١) انظر : عاشور ، الحركة الصليبية : ٢/٧٦٣ ؛ العريني ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية : ١/٨٠٤ و٨٠٧ ؛
Runciman, op. cit., 11, P. 416

(٢) في سنة ٥٧٧ هـ هجم ارناط على قافلة تجارية كانت قادمة من مصر ، واستولى على ما كان فيها من اموال ومتاع ، كما عزم في هذه السنة على غزو المدينة المنورة فقد قصد تيماء من ارض الحجاز غير ان عزالدين فرخشاه صده عن مطلبه . مفرج الكروب : ٢/١٠١ ـ ١٠٢ ؛ البداية والنهاية : ١٢/٣٠٩ ؛ تاريخ ابن الوردي ٢/١٢٩ ؛ جب ، صلاح‌الدين : ١٤١ـ١٤٢ .

(٣) انظر : رحلة ابن جبير : ٥٨ـ٦٠ ؛ الكامل : ١١/٤٩٠ـ٤٩١ .

(٤) للاطلاع على غزوات صلاح‌الدين لحصن الكرك انظر : النوادر السلطانيـة : ٦٣ ، ٧٧ ؛ الكامل : ١١/٥٠٧ ؛ الاعـلاق الخطيـرة ، ق٢:٢/٧٠ـ٧٣ ؛ السلوك : ١/٨٣ـ٨٤ .

الأرض ، ووصول بعض الأمدادات الى الصليبيين الذي بداخل الحصن[1] ، اجبرته على الانسحاب قبل اكمال مهمته في تحطيم الحصن وعبور الخندق العميق الواسع .

ورغم هذه الغزوات الكثيرة التي حدثت بين صلاح‌الدين والصليبيين ، فان أمير طرابلس (القومص)[2] تقدم الى صلاح‌الدين ، وطلب الانتماء اليه ، بسبب المشكلات التي حدثت داخل مملكة بيت المقدس ، والتي كان من نتائجها ابعاده عن الحكم[3] . وقد استمر القومص بمصاحبة صلاح‌الدين

---

(١) انظر : الكامل : ١١/٥٠٧ ؛ ابن ايوب ، المنتخبات : ٢٨٥؛ مفرج الكروب : ٢/١٥٨-١٥٩ .

(٢) يسمى القومص في المصادر الاجنبية بريموند الذي كان اميرا لمدينة طرابلس ، ثم انتقل ملكه الى مدينة طبرية ، ولما حاصر صلاح‌الدين طبرية ، كانت زوجته بداخل القلعة محصورة ، وكانت هي المرسلة الى ملك بيت المقدس (جاى لوزجنان) طالبة النجدة قبل حدوث معركة حطين سنة ٥٨٣ هـ ، والتي كان ريموند هو الوحيد الذي نجى من هذه المعركة ، حيث هرب الى صور . انظر : عاشور ، الحركة الصليبية : ٢/٨٠٢ ؛
Lane Pool, A History of Egypt, P. 208.

(٣) قيل ان اسباب المشاكل التي حدثت في مملكة بيت المقدس تمثلت في ان الملك بلدوين الرابع المجذوم ، كان له اخت اسمها سيبيل، ولما توفي خلفته في حكم بيت المقدس ، ولم كن لها الاطفل صغير هو الذي سمي بلدوين الخامس . وقد تزوج القومص بسيبيل ، غير انه لما توفي بلدوين مدت سيبيل عينها على احد القادمين من الغرب فتزوجته وتركت القومص . ثم ان المقدم الجديد بعث الى القومص وطلب من حساب البلاد، فوقع الخلاف بين الطرفين ومال القومص على اثره الى جانب صلاح‌الدين ضد مملكة بيت المقدس . انظر : الروضتين : ٢/٧٤-٧٥ ؛ مفرج الكروب : ٢/١٨٤ - ١٨٥؛
Runcirman, op. cit., 11, P. 422-450.

حتى معركة حطين سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م ، وقد قيل بأنه أراد ان يسلم لولا خوفه من أبناء ملته[1] .

وهكذا يتبين ، مما سبق ، بان سياسة صلاح‌الدين اقتصرت ، في هذه المرحله ، على غارات خاطفه ومر نزة على بعض معاقل وحصون الصليبيين ، والموافقة على عقد مهادنات قصيرة لغرض التفرغ الكامل لبناء الوحدة وتعبئة القوى . وبعد ان حقق هدفه السابق ، تقدم لتصفية حسابه الكامل مع الصليبيين . وقبل التطرق الى شرح تلك الخطوات ، اشير الى مسالتين هامتين ، أولاهما : ان صلاح‌الدين ما كان له ان يحقق أهدافه لولا نجاح سياسته تجاه القوى الاسلامية . فلو لم يتمكن من توحيد مصر والشام وبلاد الجزيرة ، لما تمكن ان يتصدى للصليبيين لوحده ، ولو لم يتمكن من اتمام الوحدة لظلت سياسته الهادفة الى تحرير القدس مجرد امنية جميلة . وثانيهما : ان صلاح‌الدين لم يتمكن من تطبيق سياسته والوصول الى أهدافه لولا ان خدمته بعض الظروف المواتية ، التي تمثلت بوفاة نورالدين ، واضطراب أحوال الصليبيين الداخلية من جهة ثانية .

الا انه يجب الا نبالغ كثيرا في تضخيم الموارد التي حصل عليها صلاح‌الدين من المدن الاسلامية بعد اتمامه للوحدة ، لان ذلك يخالف الوقائع التاريخية ، ويخدم وجهة النظر الصليبية من ناحيتين :

أولاهما ـ انه يبرر خسارة الصليبيين أمام صلاح‌الدين . وثانيهما : انه يقلل من أهمية انتصارات صلاح‌الدين .

وكثيرا ما ذكرت بعض المصادر الغربية والعربية وصفا لا يخلو من مبالغة كبيرة في تعداد الطاقات البشرية والاقتصادية التي أصبحت تحت امرة

---

(١) العماد الاصفهاني في البرق الشامي انظر : الروضتين : ٧٦/٢ .

صلاح الدين عند اعلانه مجاهدة الصليبيين ، من دون ذكر للطاقات الهائلة التي كانت لدى الصليبيين ، اضافة الى مبالغتها بذكر الضعف الذي انتاب مملكة بيت المقدس قبل معركة حطين سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م • ومثال لذلك ما ذكره غرايبه بقوله : « التفت صلاح الدين الى الافرنج ليحاربهم بالموارد الضخمة التي أصبحت تحت تصرفه ـ موارد مصر والشام والجزيرة واليمن ـ وكان امرا طبيعيا ان يكسب صلاح الدين انتصارات أضخم من انتصارات أسلافه ، ولكنها قد لا تبدو بهذه العظمة اذا قيست بمواد امبراطورية صلاح الدين البشرية والاقتصادية »(١) •

وفي قول غرايبه تضخيم لاهمية تلك الموارد في انتصارات صلاح الدين، ولو لم يتجاهل المؤلف ذكر الموارد والطاقات الضخمة التي كانت بيد الصليبيين، والتي تفوق موارد دولة صلاح الدين اضعافا مضاعفة ، لتبين بوضوح قلة اهمية موارد صلاح الدين ، نظرا لان العالم النصراني كان يمد الصليبيين بطاقات بشرية واقتصادية هائلة ، تمثلت بخيرة أبطالهم وقياداتهم ، وأضخم انتاجاتهم الحربية ومعداتهم التي كانوا قد سخروها لمواجهة التحدي الاسلامي ، وبخاصة في الحرب الصليبية الثالثة التي قاومها صلاح الدين ، والتي كانت تضم ملك المانيا وفرنسا وبريطانيا وامراء ايطاليا والبندقية وكل طاقات الكنائس الاوربية ورجالها حتى ان ريتشارد بحث عمن يشتري منه لندن ، لينفق أموالها في الحرب ضد صلاح الدين(٢) • في الوقت الذي كان

---

(١) العرب والاتراك (دمشق : ١٩٦١) : ٢٤٥ ، وانظر ايضا : عاشور ، الحركة الصليبية : ٢/٧٦٥ـ٧٦٩ ؛ سعداوي ، التاريخ الحربي المصري : ١٦٩ـ١٧٠ ؛ كلاي ، فتح القسطنطينية : ٧٤ـ٧٥ ، فيشر . تاريخ اوربا في العصور الوسطى : ١/١٩٠ •

(٢) Champdor, Saladin, P. 265.

صلاح الدين يحارب بعساكر مصر والشام وبلاد الجزيرة فقط ، لان بلاد الحجاز رغم تبعيتها لصلاح الدين ، غير انها لم تشترك في الحروب ضد الصليبيين نظرا لبعدها عن ساحات القتال وعدم امتلاكها لقوى عسكرية كبيرة . بل بالعكس كانت تشغل صلاح الدين من التفرغ بكامل قواه للصليبيين ، لانه كان يرسل اليها بين الفترة والاخرى بعض قواته العسكرية للدفاع عنها ، وبخاصة عن اليمن ، والقضاء على ما كان يدور فيها من مشاكل كان يثيرها اتباع الدولة الفاطمية هناك . كذلك لم تقدم بغداد أية مساعدات كبيرة لصلاح الدين ، سوى بعض الاحمولة من النفط الخام[1] .

---

(١) انظر : سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان : ق١:١/٤٠١ ، وسوف انطرق الى تبيان موقف الخلافة العباسية من صلاح الدين واسباب عدم اشتراكها عمليا بكل طاقاتها في الحرب ضد الصليبيين في الفصل الرابع . اما لمعرفة الطاقات التي اشتركت في الحرب الصليبية الثالثة ضد صلاح الدين والملوك الذين اشتركوا فيها انظر : الكامل : ١٢/٦٥ ؛ الروضتين : ٢/١٨٢-١٨٣ ؛ الاصفهاني ، الفتح القدسي : ٣٢٩ و٣٣٥ و٣٣٧ ؛ بالركر ، الحروب الصليبية : ٨٦ ـ ٨٧ رنيسمان ، المدينة البيزنطية : ٧٠٦ ـ ٧٠٧ ، Champdor, Saladin, P. 268.

ثانيا : (معـــركة حطـــين)

« لم يكن ثمة نصر كامل لصلاح الدين او نتائج مثمرة كما حدث في معركة حطين ، ولم يكن ذلك النصر الكامل الا نتيجة الخطة الجيدة والقيادة القوية » .

Rosebault (C.J.): Soladin Prince of Chivalry (London: 1930), P. 182.

ثانيا ـ معركة حطين :

لم يدخل صلاح‌الدين في صراع حاسم مع الصليبيين في الفترة السابقة لانشغاله باقامة الوحدة بين المدن والاقاليم الاسلامية التي تمكنه بطاقاتها من تحقيق هدفه • وبعد كفاح دام اثنتي عشرة سنة تمكن من تحقيق وحدة قوية تمتد من النيل الى الفرات ، ولم يبق أمامه ـ طبقا لمقتضيات الواقع السياسي والعسكري ـ الا اعلان الجهاد ضد الصليبيين ، بعد ان كسب على المستوى الايدولوجي والاعلامي ثقة جمهور المسلمين[١] •

وكان كل شيء معدا بالنسبة لصلاح‌الدين عند نهاية سنة ٥٨٢هـ/١١٨٦م غير ان صلاح‌الدين كان محافظا على شروط المعاهدة التي ابرمت مع مملكة بيت المقدس سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م ، وكان عليه ان ينتظر حتى يزوّد بذريعة للهجوم عليهم[٢] • وربما أراد صلاح‌الدين الا يدفع عسكره لقتال لا يعلم نتائجه ، فقد تكون عاقبة الحرب وخيمة ، لذلك انتظر فرصة ملائمة تدفعه للحرب دفعا ، ولا يكون هو المسؤول وحده عن نتائجها • وجاءت الفرصة مناسبة بالنسبة لصلاح‌الدين عندما نقض البرنس ارناط أمير الكرك العهد المعقود بين صلاح‌الدين والصليبيين[٣] بعد ان « اظهر انه على الهدنة وجنح للسلم واخذ الامان لبلده واهله وقومه ، وبقي الامن له شاملا والقفل من مصر في طريق بلده متواصلا ، وهو يمكن الجائي والذاهب حتى لاحت له فرصة في الغدر فقطع الطريق وأخاف السبيل

---

(١) Look: Sivan, L'Islam et la (reisade, P. 94; Lane Pool, A History of Egypt, P. 208.

(٢) جب ، صلاح‌الدين : ١٤٧ •

(٣) Look, Atiya, Crusade, Commerce and Culture (London, 1962), PP. 78-79.

ووقع في قافلة ثقيلة معها نعم جليلة فأخذها بأسرها وكان معها جماعة من الاجناد فاوقعهم في الشرك وحملهم الى الكرك واخذ خيلهم والعدة ، فأرسلنا اليه ورممنا فعاله وقبحنا احتياله واغتياله فأبى الا الاصرار والاضرار فنذر السلطان دمه »[١] •

كان صلاح‌الدين آنئذ بدمشق فأرسل الى جميع الاطراف باستدعاء العساكر للمسير لحرب ارناط ، فجاءته من كل فج ، وخرج هو من دمشق مسرعا الى الجنوب في ١ - محرم - ٥٨٣هـ/١٣-٥-١١٨٧م بعد ان ترك ولده الاكبر الافضل عند رأس الماء القريبة من دمشق « يستدني اليه الامراء الواصلين ويجمع الاعارب والاعاجم والاتراك »[٢] ، وتقدم صلاح‌الدين الى قصر السلام القريبة من بصرى ليمنع اعتداء ارناط على قوافل الحجاج القادمين من مكة والتي قيل ان اخته كانت فيها[٣] •

وقد تمكن صلاح‌الدين من منع اعتداء ارناط على قافلة الحجاج ، التي وصلت الى مصر بسلام • وبعد ذلك خرج صلاح‌الدين من بصرى الى عشترا ، واستعرض عسكره فكان اثني عشر الف مقاتل رتبهم اطلابا[٤] ،

---

(١) العماد الاصفهاني ، انظر الروضتين : ٢/٧٥ ، ولمعرفة المزيد عن غزو ارناط للقافلة الاسلامية وردود الفعل عند صلاح‌الدين انظر : النوادر السلطانية : ٧٤-٧٥ ؛ الاصفهاني ، الفتح القسي : ١٣ ،العليمي، الانس الجليل :١/٣١٩ ، الدويهي ، تاريخ الازمنة : ٨٧-٨٨ ؛ تاريخ ابن الوردي : ٢/١٣٧ •

(٢) العماد الاصفهاني في البرق الشامي ، انظر : الروضتين ٢/٧٦ •

(٣) مفرج الكروب : ٢/١٨٦-١٨٧ ؛ العريني ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ١/٨٢٣ ؛
Lane Pool, A History of Egypt, P. 208.

(٤) الاطلاب : جمع طلب وهي كلمة كردية معناها الامير الذي يقود مائتي فارس في ميدان القتال ، وتطلق على قائد المائة او السبعين،

وخرج بهم الى الاردن يوم الجمعة ١٧ ـ ربيع الآخر ـ ٥٨٣هـ ونزل بثغر الاقحوان ، وأقام بها خمسة أيام يعين مواقع القتال ، ومواقف الامراء ، وكان عسكره قد أحاط ببحرية طبرية[١] عند قرية الضبيّرة[٢] .

ولما بلغ الصليبيين خبر اجتماع العسكر الايوبي وتقدمه نحو الاردن ، علموا بأن صلاح الدين قاصدهم ، لذلك اجتمعوا واصطلحوا ، ودخل القومص معهم ، بعد ان كانت بينه وبين صلاح الدين معاهدة سلام ، واحتشدوا عند صفورية بعد ان رفعوا صليب الصلبوت[٣] ، وكانوا في خمسين الفا[٤] ، وقيل في عشرين الفا[٥] ، غير انهم لم يتقدموا لحرب

وأول ما استعمل هذا اللفظ بمصر والشام في ايام صلاح الدين ، ثم عدل مدلوله واصبح يطلق على الكتيبة انظر : السلوك (تحقيق مصطفى زيادة) ٢٤٨/١ ، هامش رقم (٢) .

(١) تقع طبرية فوق جبل مطل على بحيرة طبرية ، وعليها سور حصين ، وبحيرتها لا يعيش فيها حيوان . كانت في أيدي المسلمين الى ان ملكها الصليبيون سنة ٤٩٢ هـ وبقيت بأيديهم حتى استردها صلاح الدين سنة ٥٨٣ هـ/ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، ق٢ ، ج٢/١٢٩ـ١٣٠ و١٣٢ و١٣٣ .

(٢) النوادر السلطانية : ٧٥ـ٧٦ ؛ الروضتين : ٨١/٢ ؛ مفرج الكروب : ١٨٧/٢ـ١٨٨ .

(٣) صليب الصلبوت : هو قطعة من الخشب ، يعتقد الصليبيون بأن المسيح (ع) صلب عليه ، ولذلك اصبح هذا الصليب مقدسا . وقد جاء به البطريرك من القدس ليرفع في المعركة ضد المسلمين ، اعتقادا منهم بأنه ينقذهم في أوقات الازمات .

Rosebault, Saladin Prirce of Chivalry, P. 185.

ولمعرفة المزيد عنه انظر : مجلة المشرق ، السنة ٤٣ ، ج٢ ، ١٩٤٩، ص ١٧٥ـ١٧٧.

(٤) السلوك : ٩٢/١ ؛ مفرج الكروب : ١٨٩/٢ ؛ الانس الجليل: ٣٢٠/١ .

(٥) لامب ، شعلة الاسلام ، ترجمة عبدالله يعقوب (بغداد ١٩٦٧)، ص ١٠٧ .

صلاح الدين ، فاستغل هذه الفرصة للهجوم على طبرية بعد ان ترك اطلابه بحالها قبالة عسكر الصليبيين[١] . ولم يمض الا وقت قليل حتى تمكن من في معيته من الحجارين والنقابين من ان يحدثوا نقبا في سور البلد ، ويستولوا عليه في ٢١ - ربيع الآخر - ٥٨٣هـ/٢ - تموز - ١١٨٧م من دون القلعة التي امتنعت عليهم[٢] .

وقد مدح الشاعر ابن الساعاتي صلاح الدين بقصيدة بمناسبة فتحه لمدينة طبرية ذكره فيها بأن هذا الفتح ، انما هو مقدمة لفتح القدس وان هذا النصر قد أقرّ عيون المؤمنين ، وان صلاح الدين انما يقاتل الصليبيين في سبيل الله لارياء من أجل ملك الدنيا فقال :

جلت عزماتك الفتح المبينا ... فقد قرّت عيون المؤمنينا
رددّت اخيذة الاسلام لما ... غدا صرف القضا بها ضمينا
يقاتل كي ذي ملك رياء ... وانت تقاتل الاعداء دنيا[٣]

وقد احدث فتح صلاح الدين لطبرية ردود فعل قوية في مملكة بيت المقدس فكان على أثره اجتماع الملك جاي لوزجنان بالبارونات في عكا ، وأصدر قرارا للتعبئة العامة وافق عليه مجلس النبلاء ، بعد اقناع الامير جيرار المتغطرس على نسيان حقده الذي كان يحمله ضد مقدم الاسبتارية وباليان امير بيت جبريل[٤] .

---

(١) النوادر السلطانية : ٧٦ ؛ مفرج الكروب : ٢/١٨٨ .
(٢) النوادر : ٧٦ ، الاصفهاني ، الفتح القسي : ٢٢ ؛ الكامل: ١١/٥٣٣-٥٣٤ الانس الجليل : ١/٣٢٠ ؛ زبدة الحلب : ٣/٩٣ ؛ وفيات الاعيان : ٦/١٧٤ جب ، صلاح الدين : ١٤٨ ؛
Grousset, op. cit., 11, P. 793.
(٣) ديوان ابن الساعاتي : ٢/٤٠٦ ؛ الروضتين : ٢/٨٤-٨٥ .
(٤) Rosebault, op. cit., P. 183.

وقد أسهم الداوية والاسبتارية بكل ما لديهم من فرسان وأموال ، وتقرر حضـور البطريرك هرقل للاشتراك في الحـرب صـحبة الصليب المقدس ، غير ان المرض منعه من الحضور ، فارسل بالصليب الى اسقف عكا[1] • وبذلك يتبين ان الصليبيين كانوا يخططون للقيام بحرب شاملة وقوية ضد صلاح الدين ، وان دعوة البطريرك والصليب المقدس للاشتراك في الحـرب معنـاه ان الملك والنبلاء قرروا خوض حرب حاسـمة ضـد صلاح الدين لا مجرد غزوة عابرة •

وكان الصليبيون وقتذاك بصدد احدى خطتين : احداهما هجوميـة تقدم بها البرنس ارناط ، والاخرى دفاعية ، تقدم بها ريموند الذي نصح الملك والنبلاء ـ بحكم معرفته بظروف المنطقـة ، وصداقته لصلاح الدين السـابقة ـ بعـدم مغادرة صفورية ـ التي كانت مركز تجمـع القـوات الصليبية ـ حتى لو سقطت طبرية جميعها بيد صلاح الدين ، لان صفورية تتمتع بموقع جغرافي ممتاز ، نظرا للظروف الطبيعية الملائمة ، وخلو المناطق الاخرى من المياه[2] • الا ان ارناط اتهم ريموند بالميل نحو صلاح الدين ، وتمكن من التأثير على الملك جاى ، ودفعه الى اصدار أوامره بالتقدم نحو صلاح الدين من دون استشارة بقية النبلاء[3] • وبذلك « سـار الجيش الصليبي الى مصيره البائس ، وكان أملهم الوحيد ، قطعة الصليب المقدسة ، التي اعتقدوا بأنه يخدمها حارس خاص ، وانها ستفعل المعجزة وتنصرهم »[4] •

وبمغادرة الصليبيين موقعهم في صفورية ، تحقق النجاح الاول لسياسة

---

(١) Grousset, op. cit., 11, P. 787.

(٢) Stevenson, op. cit., PP. 244-245.

(٣) King. The Knights, P. 125

(٤) Rosebault op. cit., P. 185.

صلاح الدين الحكيمة التي قضت باخراج الصليبيين من صفورية عن طريق الهجوم على طبرية ، لان صفورية كانت مشتهرة بغزارة مياهها ، حتى في زمن الصيف ، وكان بامكان الصليبيين الاستمرار بمقاومة صلاح الدين لو مكثوا فيها لكثرة موجوداتها من المراعي والمواد الغذائية ، وهذا هو السبب الذي دفع ريموند ، من قبل ، ان يطلب من الملك جاي مغادرة صفورية[1] .

وهكذا تبدو سياسة صلاح الدين العسكرية في اخراج أعدائه الى ساحات القتال الواسعة بعيدا عن الظروف الملائمة ، لانه كان يتوق للاشتباك معهم بمعركة فاصلة . ومما يدل على ان صلاح الدين كان يخطط لمثل هذا الامر ، وانه كان ينوي القضاء على الصليبيين وتحرير أرض الشام من أيديهم ، ما قاله لعسكره عندما سمع بمغادرة الصليبيين صفورية « جاءنا ما نريد ونحن أولو بأس شديد واذا صحت كسرتهم فطبرية وجميع الساحل ما دونه مانع ولا عن فتحه وازع »[2] .

وفي الوقت الذي استعد فيه الصليبيون للهجوم ، كان صلاح الدين ـ كما ذكر الاصفهاني ـ يسهر الليل ، ويعين مواضع القتال لاجناده ، ويأمر بملأ الجعاب وكنائنها بالنبال ، حتى انه فرق من النشاب اربعمائة حمل ، كما عين سبعين موضعا ملأها بالنشاب ، ليقصدها من عسكره من خلت جعابه منها[3] .

وفي صباح يوم الجمعة ٢٤ ـ ربيع الآخر ـ ٥٨٣هـ/٣ تموز ـ

---

(١) Lane Pool, Saladin, PP. 205-206; Rosebault, op. cit., P. 184.

(٢) العماد الاصفهاني في البرق الشامي . انظر : الروضتين : ٧٦/٢ .

(٣) نفس المصدر والمكان السابق .

١١٨٧م وصل العسكر الصليبي على جبل طبرية في منطقة تعرف باللوبيا ، فاسرع صلاح‌الدين الى التقدم نحوهم والاصطدام بهم ، قبل ان ينتقلوا الى موضع آخر يتحصنون فيه ، لان المنطقة التي وصل اليها الصليبيون كانت أرضا مكشوفة خالية من كل شيء ، عدا حرارة الشمس المحرقة والحصى والرمال ، وكان صلاح‌الدين قد ردم من هذه المنطقة صهاريج المياه ، ومنع الصليبيين من القرب من المياه القريبة من طبرية ، لذلك وجد الصليبيون من العطش كثيرا ، ولما وجدوا بأنهم لا يقوون على المسير بسبب الانهاك والعطش قرروا المبيت فوق الهضبة بعيدا عن خطر المسلمين .

وفي صباح اليوم التالي الموافق السبت ٢٥ ـ ربيع الآخر / ٤ ـ تموز اكتشف الصليبيون بأنهم محاصرون بعيدا عن المياه ، فنزلوا مسرعين الى قرون حطين وهناك دارت معركة رهيبة انتصر فيها العسكر الايوبي انتصارا عظيما بعد ان احرق تحت أقدام الصليبيين الاعشاب « فاجتمع عليهم العطش وحرّ الزمان وحرّ النار والدخان وحرّ القتال »[١] .

---

(١) ابن الاثير ، الكامل : ١١/٥٣٦ ، ولمعرفة المزيد عن تفاصيل هذه المعركة الفاصلة التي اعتبرت حدا حاسما في العلاقات السياسية بين صلاح‌الدين والصليبيين . انظر : العماد الاصفهاني ، الفتح القدسي : ١٢ـ١٤ ؛ ابن شداد ، النوادر السلطانية : ٧٦ـ٧٩ ؛ ابن ايوب ، المنتخبات : ٢٨٩ ـ ٢٩٢ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب : ٢/١٨٩ـ١٩٤ ؛ ابو شامة ، الروضتين : ٢/٧٦ـ٧٩ ؛ المقريزي ، السلوك : ١/٩٣ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب : ٣/٩٣ـ٩٥ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة : ٦/٣٢ـ٣٤ ؛ تاريخ ابن الوردي : ٢/١٣٨ـ١٣٩ ؛ ابو الفداء ، المختصرة : ٥/٩٥ـ٩٧ ؛ سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان : ق١ ، جـ٨/٣٩٢ـ٣٩٤ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية : ١٢/٣٣٠ـ٣٣٢ ؛ الظاهري ، كتاب زبدة كشف الممالك : ٤٣ ؛ العليمي ، الانس الجليل : ١/٣٢٠ـ٣٢٣ ؛ القلقشندي ، ماثر الانافة : ٣/٣٠٤ـ٣٠٨ .
LanePool, A History of Egypt, PP. 207-208;

ولذلك فقـد تمكن صلاح الدين من قتـل عدد كبير منهـم ، واسر مقدميهم ، وكان منهم الملك جفرى[1] الذي فقد كل فرسانه ، ولم يبق حوله الا مائة وخمسون فارسا ، فالتف المسلمون حولهم وأسروهم[2] ، كما اسروا البرنس ارناط وأخا الملك وابن الهنفرى وابن صاحبة طبرية ، ومقدم الداوية والاسبتارية ، وصاحب جبيل ولم ينج الا القومص الذي هرب الى صور في بداية المعركة ، بعد ان عرف امارات الخذلان عليهم • وقد أمر صلاح الدين بقتل مقدمي الداوية والاسبتارية ، كما قتل هو بيده البرنس ارناط لانه كان قد نذر دمه لاعتداءاته المتكررة على قوافل المسلمين وتهجمـه على النبي محمـد (ص) ، بينمـا اكـرم الملك جـاى وعومل بالاحسان[3] •

ومن الجدير بالملاحظة ان العسكر الصليبي كان يفـوق في العـدد والعدة العسكر الايوبي ، وكان المقاتل الصليبي محميا بواسطة سلاح ثقيل هو وحصانه وكان الفارس منهم يحمل من الاقنعة ما يجعل السهم والرمح لا يؤثر فيه ، وكان الخطر الوحيد الذي يتهدده هو السقوط من على ظهر

LanePool, Saladin, PP. 197-216; Grousset, op. cit., 11, PP. 793-798; Stevenson, op. cit., PP. 243-248.

(١) الملك جفري اوجي ، هو الملك جاى لوزجنان ملك بيت المقدس وقد اطلقت عليه المصادر العربية التسمية الاولى • وقد تولى الملك بعد وفاة بلدوين الخامس سنة ١١٨٦م•

(٢) Besant, Joruslem, P. 384.

Besant, op. cit., P. 391.

(٣) ابن شداد ، النوادر السلطانية : ٧٧ــ٧٨ ، وانظر ما فات من مصادر في هامش رقم (١) من الصفحة السابقة •

الفرس[1] .

لذلك لم تكن الهزيمة التي أصابت الصليبيين نتيجة لضعف أو فساد كان فيهم انما كانت قيادتهم ضعيفة ، وقابلهم جيش موحد من المسلمين له قائد محنك هو صلاح الدين[2] . الذي أصبح معروفا في أوربا النصرانية بعد انتصاره هذا ، وأصبحت سياسته حديث الساعة التي يتناقلها الناس ، حتى ظهرت في العصور الوسطى اسطورة أدبية تدعي بأن صلاح الدين سافر الى اوربا واعتنق النصرانية ، الا انـه تركها بسبب تصرف القس ورجال الدين السيء ، ثم عاد الى الشرق ليحاربهم بعـد ان تعرف على أساليبهم وسياستهم[3] .

ولذلك أيضا ، فان انتصار صلاح الدين هذا ، لم يكن نتيجة لضعف الصليبيين أو لقلة عددهم وعددهم ، انما للخطة العسكرية الجيدة والسياسة الحكيمة التي اتبعها في اعداده للمعركة ومشاركته الفعلية فيها . فقد احسن اختيار أرض المعركة وزمن وقوعها ، الذي كان في شهر تموز اشد اشهر السنة حرارة وأقله مـاء في الصهاريج اضافة الى انـه خيّم بعسكره على طبرية ، وبذلك أصبح بقواته العسكرية حائلا بين الصليبيين وبين الماء ، علمـا بأنه كان قـد أمر بردم الكثير من الصهاريج التي كانت منتشرة في المنطقة ، فأصبح العطش والحر من بين الاسلحة التي استخدمها صلاح الدين ضده عدوه . اضافة الى ان وجوده وسط ساحة المعركة كان ، من العوامل المهمة التي دفعت بالعسكر الى الاستماتة في القتال ، خاصة وانه كان اذا

---

(١) Rosenbault, op. cit., P. 185.

(٢) لامب ، شعلة الاسلام : ١١١/هامش رقم (٣) .

(٣) Daniel, Islam and the Weast (Edinburgh, 1966) P. 246.

ما وجد ضعفا في جماعة من أجناده ، كان يتقدم اليها ويصيح بأعلى صوته مكررا « كذب الشيطان »[1] ، فيعيد الثقة الى نفوسهم ، ويذكرهم بأن الهزيمة من الشيطان ، وان المعركة انما هي جهاد في سبيل الله ومضى فيه حتى النهاية ، ومن الادلة على ذلك ما ذكره الملك الافضل نورالدين عن والده صلاحالدين قال : « كنت الى جانب ابي في ذلك المصاف ... فلما رايت الفرنج قد عادوا والمسلمون يتبعونهم ، صحت من فرحي : هزمناهم ... فالتفت الي والدي فقال : اسكت ما نهزمهم حتى تسقط تلك الخيمة ـ يعني خيمة الملك »[2] .

ولقد كان لانتصار صلاحالدين في حطين صدى بالغ الاثر في نفوس المسلمين عامة ، واهالي دمشق خاصة ـ لان دمشق كانت في تلك الفترة مركز اعمال صلاحالدين ومقره وفيها قضاته وكتابه ـ الذين كانوا طوال أوقات المعركة ساجدين لله وقائمين يدعونه النصرة على الاعداء ، ولما سمعوا بنبأ الانتصار عبروا عن فرحتهم بقطرات الدموع التي أخذت تتساقط من عيونهم تارة وبالكلمات المؤثرة التي تضمنت عبارات الشكر والحمد لله تارة أخرى ، حتى ان من أراد دخول الحمام بدمشق عوّل عنها بدخول الحمام في طبرية . وقد جاء بنص الكتاب الذي أرسله القاضي الفاضل من دمشق الى صلاحالدين ما يدل على ذلك :

« ليهن المولى ان الله قد أقام به الدين القيم ، وانه كما قيل أصبحت مولاي ومولى كل مسلم ... الرؤس الى الآن لم ترفع من سجودها والدموع لم تمسح من خدودها ، وكلما فكر الخادم ان البيع تعود مساجد والمكان الذي كان يقال فيه ان الله ثالث ثلاثة يقال اليوم فيه انه الواحد ، جدّد لله شكرا تارة يفيض من لسانه وتارة يفيض من جفنه ... والمماليك

---

(١) الكامل : ٥٣٦/١١ ، مفرج الكروب : ١٩١/٢ .
(٢) نفس المصدرين والمكان السابق .

ينتظرون أمر المولى فكل من أراد ان يدخل الحمام بدمشق قد عوّل على دخول حمام طبرية ••• وللالسنة بعد في هذا الفتح شرح طويل وقول جليل ••• »[1] •

ولم يكن من نتائج معركة حطين أسر الملك جاي لوزجنان ، ملك بيت المقدس وضياع هيبة مملكته ، ووقوع العسكر الصليبي بين القتل والاسر فحسب ، بل كانت هذه « مفتاح الفتوح الاسلامية »[2] في المنطقة فقد اتجه صلاح الدين بعدها الى سائر المدن والقلاع الصليبية ، وأخذ يسقطها الواحدة تلو الاخرى ، وبدا وكأن « روح الجهاد الذي كان قد استولى على النصارى في سبيل استرجاع الارض المقدسة من أيدي المسلمين ، قد انتقلت الآن الى العسكر الثاني »[3] •

ففي يوم الاحد ٢٥ ـ ربيع الآخر ـ ٥٨٣/٥ تموز ١١٨٧م نزل صلاح الدين على طبرية ، بعد ان كانت أصوات عسكره طوال الليل ترتفع بالحمد والتكبير لله تعالى ، مما احدث قلقا لدى زوجة ريموند التي كانت قلعة طبرية بيدها لذلك لم يسعها ـ بعد ان تخلى زوجها عنها وتعذر رجوعه اليها ـ الا ان تطلب الامان لها ولاصحابها ، فأمنها صلاح الدين ووفى بوعده ، فخرجت بمالها ورجالها وسارت الى طرابلس بلد زوجها[4] • علما

---

(١) الروضتين : ٢/٨٢ـ٨٣ •

(٢) مفرج الكروب : ٢/٨٨ •

(٣) حتي ، فليب ، لبنان في التاريخ ، ترجمة أنيس فريحه ، (بيروت ١٩٥٩) : ٣٦٦ وبالرغم من سلامة قول حتي في هذا الخصوص ، الا ان روح الجهاد لم تنتقل الى المسلمين بعد هذه المعركة • انما ظهرت فيهم منذ دخول الصليبيين الغزاة بلادهم سنة ٤٩١ هـ/١٠٩٧م •

(٤) النوادر السلطانية : ٧٩ ؛ مفرج الكروب : ٢/١٩٥ ؛ LamePool, Saladin, P. 223.

بان صلاح الدين أمر أيضا بأن لا يلحق أي أذى بفرسانها وان يعاملوا باللطف والاحترام • وأقام بالقلعة الى يوم الثلاثاء يرتب أمورها ، ثم ولاها لصارم الدين قايماز النجمي[1] •

وفي يوم الاربعاء ٢٨ ـ ربيع الآخر/٨ تموز سنة ١١٨٧م تقدم صلاح الدين نحو عكا[2] • وما ان وصلها حتى خرج اليه اهلها يتضرعون ويطلبون الامان ، فأمنهم على انفسهم وأموالهم ، وخيرهم بين الاقامة والرحيل ، فاختاروا الرحيل ، وأخذوا ما امكنهم حمله وتركوا الباقي في المدينة ، حيث دخلها العسكر الايوبي يوم الجمعة ٢ جمادى الاولى[3] • واستنقذوا من كان فيها من اسرى المسلمين ، وكانوا أربعة آلاف ، من دون ان يلحقوا أذى بأهالي البلد وتجاره من البنادقة والبيازنة والجنوية • وكان لهذه السياسة السمحة التي اتبعها صلاح الدين مع أهالي البلد فوائد كثيرة ، فقد حافظت على استمرار الحياة الاقتصادية ، لان اولئك التجار الاوربيين استمروا بأعمالهم التجارية بعد ان لمسوا من صلاح الدين العدل

---

(١) الروضتين : ٢/٧٩ ؛ مفرج الكروب : ٢/١٩٦ •

(٢) عكا : مدينة واسعة كثيرة الضياع ، لها مرسى مأمون • ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، ق٢، ج٢/١٧٥ • وقد ورد ذكرها في التوراة ، وهي من اعمال سبط آشر ، وتقع في أول حدود فلسطين ، في موقع ملائم من البحر لها ثغر كبير ترسو عنده السفن المسافرة الى اطراف القدس ، فتحها عمر بن الخطاب (رض) سنة ٦٦٨م واستولى عليها الصليبيون سنة ١١٠٤م واستعادها منهم صلاح الدين بعد معركة حطين سنة ١١٨٧م • انظر : رحلة بنيامين ، ترجمة عزرا حداد (بغداد ١٩٤٥): ٩٣ •

(٣) ينفرد ابن شداد بالقول ان صلاح الدين دخل عكا بعد أن قاتلها • انظر : النوادر السلطانية : ٧٩ •

والصلاح[1] • اضافة الى ان تلك السياسة المعتدلة ، ساعدت على تسهيل مهمة فتح المدن التي كانت تحت السيطرة الصليبية ، كما ان هذه المعاملة الحسنة ـ أتاحت للنصارى مغادرة عكا وغيرها من الحصون فتخلص المسلمين من الصليبيين دون حرب •

وتتضح سياسة صلاح الدين الحكيمة وبعد نظره العسكري ، بتوجهه نحو الساحل الشامي بعد معركة حطين وفتحه المدن والحصون الصليبية المنتشرة هناك وعدم توجهه مباشرة نحو تحرير القدس • فقد اختار « ان يحرم الصليبيين من قواعدهم البحرية التي تربطهم بالعالم الخارجي ، وبخاصة الغرب الاوربي ، فيمسوا محصورين داخل بلاد الشام »[2] • وربما قصد أيضا تسهيل الاتصال البحري السريع بين موانئه البحرية الموجودة في الساحل المصري ، وبين تلك الموانيء المنتشرة في الساحل الشامي[3] •

ولذلك بعد ان فتحت عكا تقدم العسكر الايوبي نحو فتح الحصون المجاورة لها امثال الناصرة ، قيسارية ، حيفا ، صفورية ، الشقيف ، الفولة والطور وغيرها ثم تقدم حسام الدين بن لاجين ، بأمر من خاله صلاح الدين ، نحو مدينة نابلس وحاصرها واستنزل من كان بها من الصليبيين بالامان ، وتسلم قلعتها ، واقرّ أهالي البلد على أموالهم وأملاكهم ، لانهم كانوا مسلمين ، وقد مكثوا في مدينتهم بعد استيلاء الصليبيين عليها[4] •

---

(١) Grousset, op. cit., 11, P. 803.

(٢) عاشور ، الحركة الصليبية : ٢/٨١٣ •

(٣) Stevenson, op. cit., P. 249.

(٤) الروضتين : ٢/٨٧ـ٨٨ ؛ مفرج الكروب : ٢/٢٠٢ـ٢٠٣ ؛ السلوك : ١/٩٤ـ٩٥ •

وفي الوقت الذي دخل فيه صلاح الدين عكا وفتحت نابلس ، كان الملك المظفر تقي الدين عمر يحاصر تبنين ، ولما لم يتمكن من فتحها - لانها كانت قلعة حصينة على رأس جبل - كتب الى عمه صلاح الدين يستدعيه ليتولى امر فتحها بنفسه ، وهذا اعتراف ضمني من امراء الاجناد بمقدرة صلاح الدين العسكرية الممتازة ، التي لا يقف أمامها أي حصن مهما كانت مناعته .

وقد خرج صلاح الدين الى تبنين استجابة لنداء الملك المظفر ، وحاصرها حصارا شديدا حتى اضطرها الى طلب الامان ، وتسلمها يوم الاحد ١٨ جمادى بعد ان استمهله الصليبيون خمسة أيام لينزلوا بأموالهم ، وقد بذلوا رهائن من مقدميهم وتقربوا الى صلاح الدين باطلاق ما كان عندهم من اسرى المسلمين ، وكانوا يزيدون على مائة رجل « فكساهم السلطان ، وسيرهم الى اهلهم ، ولما أخلى الفرنج البلد سيرهم السلطان الى مأمنهم ، ومعهم جماعة من العسكر ، فاوصلهم الى صور »[١] .

وفي النص السابق ما يدل على سياسة صلاح الدين وخلقه . فبالرغم من احتياجه للعسكر في هذه الاوقات الحرجة ، نجده يرسل بالاسرى المسلمين الذين اطلق سراحهم ، الى اهليهم بعد ان كساهم ، ليكسب ودهم وثقتهم ، وليكونوا هم بانفسهم أيضا دليلا ماديا على انتصاره ، حيث سينقلون أخبار انتصاره الى المدن سوف يمرون بها ، ثم لا يخفى بأن ارسال بعضا من عسكره لحماية القوة الصليبية المغلوبة على امرها ، وايصالها الى مأمنها - صور - مكرمة من دون الحاق أي ضرر بها ، كانت سياسة في غاية النبل والشهامة ، وبعد النظر ، وربما أراد صلاح الدين بذلك ان يبرهن للصليبيين عامة ، ولاهالي صور خاصة ، بأنه انما جاء ليعيد البلاد لاصحابها الشرعيين ،

---

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب : ٢/٢٠٦ .

وان أهدافه سامية تترفع عن اراقة الدماء الا عند الضرورة كمعاملة لأولئك الذين يغدرون بالمسلمين ويخونون العهود ، كما فعل بارناط مثلا ، ومن ثم ليدفع بصليبي صور الى طلب الامان قبل ان يتقدم لفتحها لان فتح صور كان هدفه الثاني بعد فتح القدس[١] ٠

وبعد ان استعاد صلاح‌الدين تبنين خرج نحو مدينة صيدا[٢] ، فلما علم صاحبها الخبر ، غادرها هاربا ، وتركها من غير مدافع ، وجاءت رسل صاحبها بمفاتيح البلد الى صلاح‌الدين فدخلها آمنا مطمئنا ، ونصب على سورها أعلامه الصفر وكان ذلك يوم ٢١ جمادى الاولى سنة ٥٨٣هـ[٣] ٠

---

(١) ذكر ابن القادسي بأن صلاح‌الدين ارسل الى بعض اهله كتابا أوضح لهم فيه انتصاراته واهدافه ومما جاء فيه : « ٠٠٠ ولم يبق في الساحل من جبيل الى اوائل حدود مصر سوى القدس وصور ، والعزم مصمم على قصد القدس ٠٠٠ فاذا يسر الله فتح القدس ملنا الى صور والسلام » انظر : الروضتين : ٢/٩١ ٠

(٢) كانت مدينة صيدا من المعاقل الاسلامية القوية والمهمة لدى المسلمين ، وقد قاومت لوحدها الغزو الصليبي ولم تستسلم خوفا كباقي الحصون الاخرى في الساحل الشامي ، الا ان المدينة نتيجة للضغط الشديد الذي لاقته من الجموع الكثيرة والعدة الوفيرة سقطت بيد الصليبيين سنة ٥٠٤ هـ بالامان بعد ان اخذ اهالي البلد على انفسهم من بلدوين الاول عهدا بعدم الغدر بهم ، الا ان الصليبيين لم يلبثوا ان وضعوا على رؤوس المسلمين المقيمين بصيدا ٢٥ ألف دينار واستحصلت أموالهم بالباطل ٠ انظر ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ١٧١ ، سالم ، عبدالعزيز ، دراسة في تاريخ مدينة صيدا (بيروت : ١٩٧٠) : ٩٢-٩٣ و٩٧ و١٠١-١٠٣ ٠

(٣) الكامل : ١١/٥٤٢ ، الاصفهاني ، الفتح القدسي : ١٠٢-١٠٣ ، الروضتين ٢/٩٠ ، مفرج الكروب : ٢/٢٠٦ ، ولمعرفة المزيد عن فتح صلاح‌الدين لمدينة صيدا وأحوال المسلمين فيها انظر : صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت ، نشره الاب لويس شيخو (بيروت ١٨٩٨) : ٣٤ - ٣٨ ، سالم ، دراسة في تاريخ مدينة صيدا : ١١٤-١١٨ ٠

ومن صيدا خرج صلاح الدين الى مدينة عسقلان ، ولم يتجه نحو صور ، لانها أصبحت في هذه الفترة مركز تجمع صليبي الساحل الشامي ، فرأى صلاح الدين قصد عسقلان لان امرها أيسر[1] . وربما لانتشار عسكره على الساحل ، وعدم اجتماع كلمتهم على صور ، ففضل عسقلان لانها تقع في ملتقى الطرق بين سوريا ومصر[2] ، علما بأنه دخل الى صور المركيز (كونراد دي مونتفرات) في هذه الفترة وكان شديد القوة كثير الحيلة والمال . فلما دخل صور وجد ان كلمتها متفرقة ـ رغم الاعداد الكثيرة التي بداخلها ـ لانه لم يكن لهم أمير ، ولا مقدم يجمعهم فعمل على توحيد كلمتهم بعد ان اشترط عليهم البيع والطاعة له ، فأجابوه الى ذلك فشرع في تحصين البلد وتجديد حفر الخندق ، استعدادا لملاقات صلاح الدين[3] .

ومن الجدير بالملاحظة ان عددا من المسلمين كان يسكن صور بجوار الصليبيين في هذه الفترة ، اذ بعد ان احتلها الصليبيون ، استهوى حب البلدة بعض المسلمين فبقوا فيها مع معاناة الذلة والمسكنة ، ومشاهدة اسرى المسلمين يرسفون في القيود « ويصرفون في الخدمة الشاقة تصريف العبيد ، والاسيرات المسلمات كذلك في اسوقهن خلاخيل الحديد فتنفطر لهم الافئدة ولا يغني الاشفاق عنهم شيئا »[4] .

ولما خطط صلاح الدين عسكريا بان يكون فتح صور بعد فتح القدس ، لذلك ركز جهده الآن على فتح عسقلان ، واستحضر أثناء فتحها الملك جاى

---

(١) النوادر السلطانية : ٨٠ .

(٢) Lanepool, Saladin, P. 223.

(٣) مفرج الكروب : ٢/٢٠٨ـ٢٠٩ .

(٤) رحلة ابن جبير (ليدن ، ١٩٠٧) : ٣٠٧ .

لوزجنان وجيرارد دي مونثورات مقـدم الداوية من سجنهما بدمشـق ، ووعدهما باطلاق سراحهما ان هما ساعداه في فتح الحصون الصليبية . فاستجابا لـه ، وأرسـلا أهـالي عسقلان وطلبـا منهم تسـليم البلد الى صلاح الدين ، غير ان أهالي عسقلان رفضوا ، فشدّد عليهم الحصار ، حتى تمكن النقابون من جزء من السور ، فاضطر أهالي البلد الى طلب الامان ، فأمنهم صلاح الدين . وسيرهم ونساءهم الى بيت المقدس[1] .

وقد أطلق صلاح الدين سراح جيرارد ايفاء بالعهد ، لانه ساعده في فتح حصن غزة . اما الملك جاي فقد اعاده الى نابلس مسجونا ، وبعث الى زوجته سيبل كتابا دعاها فيه للحضور الى نابلس والاقامة مع زوجها ان شاءت ، فرحبت بالعرض وقدمت الى نابلس[2] .

وقد امتازت سياسة صلاح الدين العسكرية تجاه الصليبيين في هـذه المرحلة ، بعـدم استخدام القـوة ، ومنح الامان للبلد الراغب في السلام ، والايفاء بالعهد عن طريق ايصال المغلوبين الى مأمنهم (صور أو القدس) من دون الحاق أي ضرر بهم . وقد عاب بعض المؤرخين على صلاح الدين هذه السياسة ، واتهمه ابن الاثير بتحمل مسؤولية عدم التمكن من فتح صور فقال : « ولم يكن لاحد ذنب في أمرها غير صلاح الدين ، فانه هو جهز اليها جنود الفرنج ، وامدها بالرجال والاموال من أهل عكا وعسقلان وغير ذلك ، كان يعطيهم الامان ويرسلهم الى صور »[3] .

والحقيقة ان صلاح الدين لم يكن مخطئا في اتباعه هذه السياسة ، لان

---

(١) النوادر السلطـانية : ٨٠ـ٨١ ؛ الروضتين : ٢/٩ ؛ مفرج الكروب : ٢/٢٠٩ـ٢١٠ .

(٢) عاشور ، الحركة الصليبية : ٢/٨١٨ـ٨١٩ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل : ١١/٥٥٥ .

هدفه الاول كان تحرير القدس ، وكان عليه ان يتخذ أحد السبيلين : اما ان يتجه مباشرة بعد معركة حطين نحو القدس ويحررها ، ومن ثم يفتح بقية الحصون والمدن المجاورة • أو ان يفتح المدن والحصون المجاورة ثم يتجه نحو القدس •

وقد فضل صلاح الدين الخطة الثانية ، لانه في حالة تنفيذه الخطة الاولى ستكون خطوط رجعته عندئذ مهددة ، وسيتطلب منه لتنفيذ هذه المهمة قوات عسكرية كبيرة لمحاصرة المدن والحصون المجاورة ، أو قطع طرق مواصلاتها المؤدية للقدس كي يتمكن من التصدي لفتح القدس بسلام • كما ان هجومه على القدس مباشرة يؤدي الى استنفار قوات الصليبيين كافة ، فتكون عندئذ قوى الصليبيين مع قوات القدس مجتمعة ضده •

ولما عزم صلاح الدين على تنفيذ خطته الثانية ـ فتح الحصون أولا ثم القدس ثانيا ـ واجه أمامه عدة مدن وحصون كان عليه ان يفتحها مثل عكا ، صور ، عسقلان بيروت وصيدا وغيرهم ، ولو لم يتبع صلاح الدين السياسة السلمية ، لكان عليه ان يضرب بقوة تلك المدن والحصون ، وفي هذا نتائج خطيرة على مستقبل فتوحاته وسمعته • ثم لو اتبع صلاح الدين السياسة الحربية القاسية ضد الصليبيين ، لامتنعت عليه كثير من تلك المدن والحصون ، ولاشغلته طويلا عن تحقيق مهمته الاولى فتح القدس •

ومن جهة ثانية ، فان صلاح الدين لو لم يمنح الامان للصليبيين ويرسلهم الى صور لاصبح الزخم في القدس شديدا ، ولاستعصى عليه فتحها ، ثم لو لم يعلم الصليبيون ان صلاح الدين يسمح لهم بمغادرة حصونهم بسلام مكرمين الى القدس أو صور ، لقاتلوا ضد صلاح الدين حتى الموت •

ولما كان صلاح الدين قد خطط لفتح القدس أولا ثم صور ، لذلك

فان ارساله للصليبيين المغلوبين على أمرهم الى هذين المدينتين كان تكتيكا عسكريا منه ، قصد به اشغال الصليبيين بمهمة الانتقال ، واضعاف مقاومتهم ، لان القدس وصور سوف تصبحان بيده اذا ما نجحت سياسته •

اما ما قدّر لصور من ان تبقى ، بعد فتح القدس ، عاصية ، وان تكون معقلا للصليبيين ، فان صلاح‌الدين لم يكن يتوقع مجرى الاحداث في المستقبل ، ولم يكن لـه علم بأن حملة صليبية ثالثـة ، ستكون قوية ، وستضم اعظم ملوك اوربا النصرانية آنئذ ، ستتجه الى صور وتتحصن فيها قبل ان يتمكن صلاح‌الدين من فتحها • ولذلك « فمن غير التاريخي ان نتصور صلاح‌الدين وكأنه يعـدّ الخطط ويوزع قواته للتصدي للهجوم الوشيك من الغرب »[1] •

(١) جب ، صلاح‌الدين : ١٥٢ •

ثالثا : فتح القدس وشمال الشام (٥٨٣ـ٥٨٤ هـ)

اقتضت سياسة صلاح الدين الا يتقدم لفتح القدس ، الا بعد ان يفتح الحصون والمدن المجاورة لها ، كي يؤمن خطوط تقدمه اليها ، ويمنع التفاف الاعداء حوله • وقد تمكن من تحقيق هذا الهدف ، وفتح كل الحصون والمدن التي تقع في فلسطين ولم يبق « في الساحل من جبيل الى أوائل حدود مصر سوى القدس وصور »[1] •

كما اقتضت سياسته أيضا ان يعبىء كل قواه قبل ان يتقدم لفتح القدس لانها « كرسي دين النصرانية »[2] ، ولان فتحها سيحدث قلقا شديدا في أوساط العالم النصراني الغربي ، الذي ربما اندفع بكل قواه لمحاربة صلاح الدين • ولذلك كان عليه ان يكون مستعدا وقادرا على مواجهة ذلك التحدي قبل ان يفتح القدس ، لان عدم تمكنه من مواجهة ذلك التحدي ، بعد فرحة العالم الاسلامي الكبيرة بفتح القدس ، سيؤدي ـ من غير شك ـ الى خيبة أمل مريرة في نفوس المسلمين • لذلك اجّل صلاح الدين فتح القدس ، حتى تمكن من تحطيم القوى العسكرية الصليبية المجاورة • بعد ان كان قد اجل تحطيم تلك القوى حتى تمكن من توحيد مصر والشام وبلاد الجزيرة •

وفي ١٥ رجب سنة ٥٨٣هـ/٢٢ـ٩ـ١١٨٧م وصل صلاح الدين بقواته الى ظاهر بيت المقدس ، وبقي خمسة أيام يطوف حول سور المدينة لينظر من اين يهاجمه ثم وقع اختياره أخيرا على جهة الشمال فانتقل اليها في العشرين من رجب ، وبقي طوال الليل يعبىء قواته ، وينصب المجانيق •

---

(١) ابن القادسي ، تلخيص ابي شامة ، الروضتين : ٩١/٢ •

(٢) الظاهري ، عزالدين ، كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك (باريس ١٨٩٣) : ١٩ •

وحدث في بكرة اليوم التالي قتال شديد بين الطرفين ، فقد كان « كل واحد من الطرفين يرى ذلك دينا وحتما واجبا ، فلا يحتاج فيه الى باعث سلطاني بل كانوا يمنعون ولا يمتنعون ، ويزجرون ولا ينزجرون »[1] .

ومن النص السابق يتبين ان المهاجمين للمدينة والمدافعين عنها كان يدفعهم للقتال الحمية الدينية ، وانهم كانوا يستميتون في القتال من غير ان يدفعهم اليه أحد ، بل كانوا يمنعون من قبل قادتهم عن الهجوم المستمر خوفا عليهم من الموت ؟ بينما كانوا هم طواعية يقاتلون . ورغم هذا الاندفاع الواضح الذي تفعله العقيدة في النفوس ، فان الظاهري (ت ٨٧٢هـ) نقل رأيا مفاده ان صلاح الدين تقدم لفتح القدس ، وذلك لان شابا دمشقيا كان مأسورا في القدس ، ارسل الى صلاح الدين قصيدة دعاه فيها لتحرير القدس ، وكانت تلك الابيات الداعية للفتح[2] .

وسواء ما قيل ان صلاح الدين فتح القدس لتأثره بأبيات من الشعر ، أو لانه أراد ان يجعل لنفسه شهرة كبيرة في العالم الاسلامي يذكرها له التاريخ حتى النهاية فان كونه رجلا عقائديا محباً للجهاد وفنونه ، ينفي عنه مثل تلك المزاعم ، ثم هل كان صلاح الدين بتلك البساطة والعاطفية بحيث يتقدم لفتح مدينة ، ويتحمل مسؤولية اساءة علاقة دولته بالعالم الاوربي

---

(١) الكامل : ٥٤٧/١١ ؛ مفرج الكروب : ١٢/٢ ؛ تاريخ مختصر الدول : ٢٢١ .

(٢) جاء في القصيدة التي ذكرها الظاهري ما يلي :

يا ايها الملك الذي	لمعالم الصلبان نكّس
جاءت اليك ظلامة	تسعى من البيت المقدّس
كل المساجد طهّرت	وأنا على شرفي مدنّس

كتاب زبدة كشف الممالك ، المصدر السابق : ١٩-٢٠ ؛ انظر : العليمي ، الانس الجليل : ٣١٨/١-٣١٩ .

لاجل عدة أبيات من الشعر !! وربما الذي حصل ان صلاح‌الدين لما تكاملت عنده أسباب الفتح وصلته هذه الابيات ـ ان صحت الرواية ـ ففسرها البعض ـ نتيجة لتأثرهم بالشعر ـ على انها السبب في فتح القدس .

والحقيقة ان صلاح‌الدين لم يعنيه أمر القدس وفتحها واخراج الصليبيين من أرض الشام ، لولا تفاعله مع العقيدة الاسلامية التي تعتبر الجهاد في سبيل الله من أقدس الامور التي يجب على المسلم تأديته عند اشتداد الاخطار[1] . أضف الى ذلك ان القدس كانت تتمتع بفضائل دينية كبيرة وشريفة في الاسلام . لذلك اعتبر صلاح‌الدين فتح القدس ، بحكم عقيدته الاسلامية ، فرض عين واجب عليه تحقيقه ، ولم يكن صلاح‌الدين جاهل بأمور الجهاد واحكامه ، فلم يكن له حديث الا فيه « وكان الرجل اذا أراد ان يتقرب اليه يحثه على الجهاد ويذكر شيئا من اخبار الجهاد »[2]، حتى انه كان يستفتي قاضيه ابن شداد ويقول له :

... « انا استفتيك : ما اشرف الميتات ؟

فقلت : الموت في سبيل الله .

فقال : غاية ما في الباب ان أموت أشرف الميتات »[3] .

---

(١) لمعرفة المزيد عن رأي الاسلام في الجهاد ومدى حثه للمسلمين على القيام به انظر : الدهلوي ، الشيخ احمد ، حجة الله البالغة ، تحقيق السيد سابق (مطبعة الاستقلال لم يذكر السنة) : ٢/٧٨٤ـ٨٠٤ ؛ برهان الدين ، ابي الحسن الهداية (القاهرة ، لم يذكر السنة) : ٢/١٣٥ـ١٣٨ ؛ السلمي ، كتاب الجهاد انظر المختارات التي نشرها المؤرخ الفرنسي سيفان عمانوئيل في مجلة :

Journal Asiatique, Torne (cliv, 2, 1966), PP. 200-214.

(٢) النوادر السلطانية : ٢١ .

(٣) النوادر السلطانية : ٢٣ .

على أية حال فالمناوشات القريبة من القدس ، انتهت بوصول العسكر الايوبي سور المدينة ، وتمكنه من احداث ثقب فيه • ورغم كثرة الصليبيين الموجودين في القدس[1] ، فقد احدث ذلك الثقب قلقا شديدا في نفوسهم ، طلبوا الامان على أثره • غير ان صلاح‌الدين رفض طلبهم – ولاول مرة – وقال : « لا افعل بكم الا كما فعلتم بأهله حين ملكتموه من المسلمين سنة احدى وتسعين واربعمائة من القتل والسبي وجزاء السيئة بمثلها »[2] • وبعد ان عقد صلاح‌الدين مجلسا استشاريا مع أصحابه وقادة عسكره غيّر موقفه ، ووافق على منح الامان للصليبيين •

ويكمن السبب في ذلك ، ان باليان بن بارزان طلب الامان لنفسه وقدم الى صلاح‌الدين مفاوضا ، ولما وجد منه اصرارا على رفض اعطاء الامان للصليبيين ، هدده بقتل اسرى المسلمين الذين كانوا بالقدس ، وهم خمسة آلاف أسير ، مقل قتل نسائهم وابنائهم ، ثم قال له بانهم سيخرجون لقتال المسلمين ، قتال من يريد ان يحمي دمه ونفسه • فاستشار صلاح‌الدين أصحابه واجمعوا على اعطائهم الامان ، بعد ان وضعوا على كل رجل من الصليبيين عشرة دنانير ، وعلى المرأة خمسة ، وعلى الطفل دينارين ، يدفعها الصليبي في مدة أقصاها أربعين يوما فمن أدى ذلك نجا ، ومن لم يؤدها

---

(١) قيل ان اعداد الصليبيين الذين كانوا بالقدس ستين ألف رجل ما بين فارس وراجل ، سوى من يتبعهم من النساء والولدان • فقد هاجرت للمدينة اعداد كبيرة من عسقلان والداروم والرملة وغزة وغيرها بحيث امتلأت الطرق والكنائس ، حتى كان الانسان لا يقدر ان يمشي • انظر : الكامل: ١١/٥٤٩ ؛ الفتح القسي : ٥٢ ؛ النوادر السلطانية : ٨١ ؛ السلوك : السلوك : ١/٩٦ ؛ زبدة الحلب : ٣/٩٨ •

(٢) الكامل : ١١/٥٤٨ ؛ الروضتين : ٢/٩٥ ؛ مفرج الكروب: ٢/٢١٣ •

صار مملوكا[١] .

وهكذا فتح صلاح الدين القدس في يوم الجمعة ٢٧ - رجب ٥٨٣هـ/ ١٢-١٠-١١٨٧م . « ولم يكن صلاح الدين عظيما كعظمته في هذا الموقف فقد أمر بانتشار الامراء والجنود ليمنعوا أي اعتداء أو اهانة تقع لاي مسيحي ... وقد توجه اليه آلاف من النساء وبنات الفرسان الذين اسروا أو قتلوا في تلك المعارك وخدمهم يسألنه الرحمة ، فأمر باطلاق سراح أزواجهن واخوانهن ومنح بعضهن هبات مالية مناسبة »[٢] .

وكان في القدس احدى نساء ملوك الروم قد ترهبت ومعها من العبيد والجواري خلق كثير ، اضافة الى ابنة الملك أموري وامرأة البرنس ارناط ، وكثيرات غيرهن ، فاطلقهن صلاح الدين أحرارا يخرجن من القدس بأموالهن وجواريهن ، كما سمح للبطريرك الكبير ان يخرج من القدس بسلام ، ومعه كل أموال البيع والكنائس ، وكانت تلك الأموال عظيمة لدرجة انها جلبت أنظار المسلمين ، فتدخلوا لدى صلاح الدين وطلبوا منه السيطرة على تلك الاموال وانفاقها في مصالح العسكر الاسلامي . غير ان صلاح الدين رفض اقتراحهم وقال : « لا أغدر به » ولم يأخذ منه غير عشرة دنانير ، وسيّر العسكر مع من اطلقهم أحرارا للحفاظ عليهم حتى يصلوا الى مأمنهم[٣] . بعد ان قسمهم الى ثلاثة مجموعات : مجموعة قادها الداوية ، وأخرى قادها الاسبتارية والمجموعة الثالثة قادها باليان بن بارزان وأرسلهم الى صور وطرابلس مخفورين حفاظا عليهم من اعتداءات البدو

---

(١) الكامل : ٥٥٩ ، مفرج الكروب : ٢/٢١٤ .

(٢) Lanepool, Saladin, P. 235.

(٣) مفرج الكروب : ٢/٢١٦-٢١٧ ؛ عاشور ، الحركة الصليبية: ٢/٨٢٢-٨٢٣ ؛ العريني، الشرق الاوسط والحروب الصليبية: ١/٨٥٥ .

المنتشرين على الطريق بين القدس وصور وطرابلس[1] .

وهكذا منح العسكر الاسلامي المنتصر الرحمة للمدينة المقدسة ، ولم تتعرض دار من الدور للنهب ، ولم يحل بأحد من الصليبيين مكروه ، بينما كان الصليبيون منذ ثماني وثمانين سنة يخوضون في دماء ضحاياهم[2] . ونتيجة لهذه المعاملة الحسنة ، فقد طلب نصارى الشرق الذين كانوا داخل بيت المقدس من صلاح الدين السماح لهم بالمكوث داخل القدس ، ولما وافق صلاح الدين ، عمدوا الى شراء ذخائر وأموال الصليبيين الذين خرجوا من القدس .

ولما لم يعمد صلاح الدين الى ايذاء نصارى الشرقيين ومنهم « الارثذوكس » لذلك وقفت الدولة البيزنطية منه موقفا ايجابيا ، خاصة وانها كانت على عداء مع الصليبيين لاسباب دينية[3] . وقد ذكر الدكتور سعيد عاشور بان صلاح الدين أرسل سفارة الى الامبراطور اسحق الثاني ، أخبره عن طريقها بما تم على يديه من فتوحات منها فتح بيت المقدس ، وانه أرسل اليه مع السفارة (١٩٠) فردا من رعايا دولته ، ممن كان قد اسرهم أثناء الحروب التي خاضها ضد الصليبيين[4] .

وقد استقبل اسحق الثاني سفارة صلاح الدين بالاكرام نظرا للشكوك التي انتابته من الصليبيين ، فقد كان الامبراطور فردريك قد راسله وطلب

---

(١) Besant, Jerusalem, P. 400.

(٢) Look: Lanepool, Saladin, P. 235; Grousset, op. cit., 11, PP. 818-819.

(٣) انظر : اسد رستم ، الروم وصلاتهم بالعرب (بيروت ، ١٩٦٥) : ٢/١٦٦ ـ ١٦٧ ؛ عمر كمال ، تاريخ الامبراطورية البيزنطية (القاهرة ، ١٩٦٧) : ١٤٦ ـ ١٤٧ .

(٤) عاشور ، الحركة الصليبية : ٢/٨٨٧ .

منه عقد تحالف ضد صلاح الدين ، والسماح للقوات الصليبية بالمرور عبر أراضيه • غير انه وثق ، على ما يبدو ، من صلاح الدين أكثر من الصليبيين لغدرهم ، فعقد تحالفا مع صلاح الدين مما أثار جوا من القلق في أوساط الممالك الصليبية[1] •

اما السياسة الداخلية التي اتبعها صلاح الدين داخل بيت المقدس ، فقد تمثلت بازالة التغيرات التي احدثت بعد احتلال المدينة من قبل الصليبيين سنة ٤٩١هـ • من ذلك كشف الجدار الساتر لمحراب المسجد الاقصى الذي كان الصليبيون قد بنوه في وجه المحراب ، كما أعاد نصب المنبر في المسجد الاقصى لاقامة خطبة الجمعة ، وامر بفرش صحن الجامع بالبسط النفيسة بدلا من الحصر ، كما أضاء المسجد الاقصى بتعليقه القناديل بداخله[2] • اضافة الى ان صلاح الدين رتب في المسجد الاقصى من يقوم بوظائف الخطبة والامامة ، ورتب في قبة الصخرة اماما ، واوقف عليها دارا وارضا وبستانا ، وحمل الى كل المساجد المصاحف والختمات ، كما امر بصنع ربعات تنصب على الكراسي للجلوس عليها داخل المساجد ، كما رتب لكل المساجد أيضا القومة والمؤذنين[3] • وقد أمر صلاح الدين أيضا بفتح المدارس في القدس ، لتدريس الفقه على المذهب الشافعي ، بينما أعاد دار البطريرك هرقل ، الذي غادر القدس بعد الفتح ، رباطا للفقراء الصوفية[4] •

وفي يوم الجمعة الثانية لافتتاح القدس الموافق ٤ شعبان ـ ٥٨٣هـ/

---

(١) رستم ، المصدر السابق : ٢/١٧١ـ١٧٢ •

(٢) الروضتين : ٢/١٠٨ـ١٠٩ ، ١١٢ـ١١٣ ؛ مفرج الكروب : ٢/٢١٧ •

(٣) ابن واصل ، مفرج الكروب : ٢/٢٣٠؛ العابدي ، محمود، مأساة بيت المقدس (عمان ١٩٦٩) : ٤٩ •

(٤) ابو شامة ، الروضتين : ٢/١١٤ •

٩-١٠-١١٨٧م اقيمت في المسجد الاقصى أول خطبة بحضور صلاح‌الدين وجميع الاجناد والعلماء والمسلمين الذين كانوا في القدس ، بعد ان انشغل المسلمون طوال أسبوع باعادة معالم المسجد الاقصى وبناء المنبر والمحراب ، وكان الامام والخطيب هو القاضي محيي‌الدين بن الزكي بأمر من صلاح‌الدين ، ونظرا لان هذه الخطبة هي أول خطبة تقام في المسجد الاقصى بعد تحريرها وكونها تعبر عن روح العصر والاسباب التي دفعت صلاح‌الدين لاكمال الفتوح ، اذكر بعض ما جاء فيها :

« ... (فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين)[1] ... ايها الناس ابشروا برضوان الله الذي هو الغاية القصوى والدرجة العليا ، لما يسره الله على ايديكم من استرداد هذه الضالة من الامة الضالة ، وردها الى مقرها من الاسلام بعد ابتذالها من أيدي المشركين قريبا من مائة عام ... وهو [أي البيت المقدس] موطن ابيكم ابراهيم ، ومعراج نبيكم محمد عليهما السلام وقبلتكم التي كنتم تصلون اليها في ابتداء الاسلام ، وهو مقر الانبياء ... وهو أول القبلتين ، وثاني المسجدين ، وثالث الحرمين ، لا تشد الرحال بعد المسجدين الا اليه ... جددتم للاسلام أيام القادسية والوقعات اليرموكية والمنازلات الخيبرية والهجمات الخالدية ... اليس هو البيت الذي أمر الله تعالى موسى أن يأمر قومه باستنقاذه فلم يجبه الا رجلان ، وغضب عليهم من اجله ، والقاهم في التيه عقوبة العصيان ؟

... فاحفظوا - رحمكم الله - هذه الموهبة فيكم ، واحرسوا هذه النعمة عندكم بتقوى الله التي من تمسك بها سلم ، ومن اعتصم بعروتها نجا وعصم ، واحذروا من اتباع الهوى ... واياكم ان يستذلكم الشيطان ،

---

(١) القرآن : ٦/٤٥ .

وان يتداخلكم الطغيان ، فيخيّل اليكم ان هذا النصر بسيوفكم الحداد ، وبخيولكم الجياد وبجلادكم في موضع الجلاد ، والله ما النصر الا من عند الله ، ان الله عزيز حكيم .

... واحذروا - عباد الله - بعد ان شرفكم الله بهذا الفتح الجليل ان تأتوا عظيما من معاصيه ، فتكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة انكاثا ... والجهاد الجهاد ، فهو أفضل عباداتكم واشرف عاداتكم انصروا الله ينصركم ... جدوا في حسم الداء ، وقطع شأفة الاعداء وتطهير بقية الارض التي اغضبت الله ورسوله ، واقطعوا فروع الكفر واجتثوا اصوله ... واعلموا - رحمكم الله - ان هذه فرصة فانتهزوها ومهمة فاخرجوا اليها هممكم وابرزوها ... (ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين)[1] ... »[2] .

ولهذه الخطبة أهمية كبيرة ، فقد عبرت عن وجدان المسلمين ، وهي ما زالت الى اليوم محور تفكير المسلمين . فقد اوضحت ان النصر هو من عند الله ، وان هذا الفتح دليل على محبة الله ورضوانه للمسلمين ، لانه أعاد اليهم البيت المقدس ، ذا الفضائل الدينية الكبيرة التي تطرقت اليها الخطبة .

مكث صلاح‌الدين في القدس ثمانية وعشرين يوما ، كان خلالها قد أعاد للمدينة وجهها الاسلامي ، ثم خرج منها في **٢٥** شعبان **٥٨٣**هـ/ **٣-١٠-١١٨٧**م لاتمام المهمة فوصل الى عكا صحبة أخيه العادل في أول رمضان . ثم غادرها الى صور فنزل عليها يوم الجمعة **٩** رمضان **٥٨٣**هـ/

---

(١) القرآن : ٨/٦٥ .

(٢) انظر نص الخطبة التي القاها محي‌الدين بن الزكي في المسجد الاقصى بعد فتحها سنة ٥٨٣ هـ . الروضتين : ٢/١١٠-١١١ ؛ مفرج الكروب : ٢/٢١٨-٢٢٨ ؛ الانس الجليل : ١/٣٣٢-٣٣٦ ؛ وفيات الاعيان: ٦/١٨٠-١٨٢ .

١٥-١١-١١٨٧م بعد ان عسكر بازاء سورها بعيدا منه على النهر مدة ثلاثة عشر يوما ، حتى تصل اليه العساكر وتأتيه الامدادات لفرض حصار شديد على صور من البر والبحر[٢] •

كانت صور - كما تبين من قبل - مركز تجمع الصليبيين الهاربين من أيدي العسكر الايوبي ، أو الذين خرجوا من قلاعهم باذن من صلاح‌الدين • وقد تولى قيادة الصليبيين الموجودين فيها المركيس « كونراد مونتفرات » الذي استغل انشغال صلاح‌الدين بفتح بيت المقدس وعمل على حفر خندق حول صور من البحر الى البحر ، كما جدد بناء السور واحكم امره واستظهر بالعدد والعدة[١] •

ولما اكتشف صلاح‌الدين الوسائل الدفاعية التي انشأها كونراد في مدينة صور ، اتبع خطة حكيمة تقوم على دراسة أوضاع البلد وأسواره قبل اتخاذ موقف نهائي بمحاصرته ، وبالاضافة الى ان صلاح‌الدين لم يحاصر البلد الا بعد ثلاثة عشر يوما من النزول عليه ، فقد وزع امراءه العسكريين على جهات مختلفة من السور ليجعل بينهم التنافس من اجل الاسراع في اقتحام البلد • فقد وزع الافضل والعادل وتقي‌الدين على أسوار المدينة ، ووكل كلا منهم بناحية خاصة به ، كما قسّم العسكر الى ثلاثة أقسام ، وقسّم القتال بحيث يكون لكل قسم منه وقت معلوم لقتال الاعداء حتى يستمر القتال ويكلّ الاعداء فيضطرون الى التسليم[٣] •

---

(١) ابن شداد ، النوادر : ٨٣ ؛ الروضتين : ٢/١١٩ ؛ مفرج الكروب ٢/٢٤٢ •

(٢) مفرج الكروب : ٢/٢٤٣، العريني ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية : ١/٨٦١ •

(٣) الكامل : ١١/٥٥٣-٥٥٤ ، سعداوي ، التاريخ الحربي المصري : ١٩٥-١٩٦ •

غير ان صور لم تفتح لشدة حصانتها ، ورغبة صلاح الدين في عدم مواصلة الحصار الطويل ، ففضل مغـادرتها لاسباب عسكرية ومناخية . ففي الوقت الذي كانت فيـه السفن الاسلامية محاصرة للبلد عـن طريق البحر ، اذا بالاسطول الصليبي يهجم ، على حين غفلة في الليل ، عليهـا ويظفر بخمسة شواني منها[1] . فلما علم صلاح الدين بالحادث أمر باقي السفن الحربية بالتوجه الى بيروت ، ثم ان فصل الشتاء كان قد دخل وكثرت الامطار ، فأمر العسكر بالتفرق الى اهليهم للاستراحة ، والاستعداد لمواصلة الجهاد في المستقبل القريب ، وسار هو الى عكا حتى دخلت سنة ٥٨٤هـ[2] .

ومنذ بداية سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م واصل صلاح الدين الجهاد واستمر طوال ستة أشهر يقاتل من دون توقف . فخرج منذ بداية شهر ربيع الاول حتى نهاية شهر رمضان من سنة ٥٨٤هـ . ولم يعد الى مقر أعماله في دمشق والقدس الا بعـد ان فتح اللاذقية وجبله وانطرطوس وصـهيون وبكاس وبرزيه ودربساك ، بغراس وصفد وكوكب وعـددا كبيرا من الحصـون والقلاع المجاورة[3] .

---

(١) يقول كلاري ان صلاح الدين لما حاصر صور ، اشتد بها الغلاء كثيرا ، فعمل المركيس حيلة حيث امر باخراج بعض سفنهم لتسير بعيدا عن صور لخداع المسلمين وجعلهم يتصورون ان هذه السفن تحاول الهرب ، فلما لحقت السفن الاسلاميـة بهـا دون تأهب ، خرجت عليهـا المراكب الصليبية من صور محملة بالعدد والعدة ، ثم عادة عليها المراكب الاخرى وضربوا الاسطول الاسلامي والحقوا به خسائر فادحة فأضطر صلاح الدين الى مغادرة حصار صور . انظر فتح القسطنطينية : ٧٥ـ٧٦ .

(١) النوادر السلطانية : ٨٤ ؛ الفتح القسي : ٧٧ـ٨٠ .

(٢) انظر : عن فتح هذه الحصون : النوادر السلطانية : ٨٤ـ ٩٦ ؛ الروضتين : ٢/١٢٥ـ١٣٧ ؛ الكامل : ١٢/٧ـ٢٣ ؛ مفرج الكروب:

وقد امتازت سياسة صلاح‌الدين في هذه المرحلة بالمزيد من الأعتدال والبعد عن التطرف ضد الاعداء ، واظهاره التزهد وعدم الخلود الى الراحة ، لافهـام العسكر بأن الهدف الاول هو الجهاد في سبيل الله ، وان الدعـة والترف هو سبيل الملوك المحبين لزخرف الدنيا ، بينما التزهد في الدنيا يدفع الى مواصلة الجهاد وعدم التوقف من دون الالتفات الى مقدار التضحيات • اذ بعد ان فتح صلاح‌الدين حصن كوكب في شهر ربيع الاول خرج الى انطرطوس لفتحها ومرّ في طريقه بمدينة دمشق ، فوجد متولي الديوان فيها (الصفي بن القابض) قد هيأ له دارا جميلة مطلة على الشرفين ، كان انفق فيهـا أموالا طائلة ، فلمـا رآهـا صلاح‌الدين أعرض عنهـا وقـال لصفي‌الدين : « ما يصنع بالدار من يتوقع الموت ؟ »[1] •

وكان صلاح‌الدين أيضا اذا ما طلب منه العسكر الخلود الى الراحة قليلا في احدى الحصون المفتوحة قبل الانتقال لغيرها يرفض ويلفت انظارهم للحصن الآخر الذي صمم على فتحه ، ويدعوهم الى تناول الغداء فيـه • ليكسب العسكر الاستمرارية في العمل من أجل مواصلة الجهاد من جهة ، وليكسبهم العزم والثقة بالنفس من جهة ثانية • كما حدث هذا الامر عند فتح حصن انطرطوس في شهر جمادى الاولى • فبعد ان عزم صلاح‌الدين على دخول ساحل الشام الاعلى وجد انشغال العسكر بالاسرى والاموال ولما عرض عليه تناول الغداء في حصن كوكب قال : « نتغذى بانطرطوس

٢/٢٥٢ـ٢٧٤ ؛ تاريخ ابن خلدون : ٥/٦٧٩ـ٦٨١ ؛ النجوم الزاهرة : ٦/٤١ـ٤٢ ؛ السلوك : ١/٩٩ـ١٠٠ ؛ زبدة الحلب : ٣/١٠٢ـ١٠٨ ؛
Champdor, Saladin, PP. 193-199; Lanepool, Saladin PP. 236-250.

(١) مفرج الكروب : ٢/٢٥٤ •

ان شاء الله »[1] . وفعلا صدق وعد صلاح الدين وفتحت انطرطوس ومد الطعام فيها وحضر الناس الغذاء ، وكان صلاح الدين وسطهم فرحا مسرورا[2] .

ولم يندفع صلاح الدين هذا الاندفاع في مواصلة الفتوح ، الا بدافع العقيدة التي كان يحملها والتي اعطته ثقة بالنفس عالية ، جعلته لا يخاف الموت والقتال ولو اجتمع عليه سائر ملوك الصليبيين . والدليل على ذلك انه بعد ان فتح مدينة اللاذقية في ٢٣ جمادى الاولى سنة ٥٨٤هـ كانت شواني صقلية قد قابلت في البحر اللاذقية ، فطلب مقدم تلك الشواني الصقلي امانا لنفسه وصعد الى صلاح الدين وقابله واعلن له ان الصليبيين المنتشرين في مدن وحصون الساحل الشامي خائفين على انفسهم منه ، رغم اشتهاره بالعدل والاحسان ، وانهم يطلبون منه اعلان الصفح عنهم ليطيعوه ويكونوا له عبيدا ، والا سيستدعون ملوك الصليبيين جميعا لحربه فقال له صلاح الدين : « قد أمرنا الله بالجهاد لاعداء الدين ، وافترضه علينا ، فنحن قائمون في طاعته بأداء ما افترض علينا من الجهاد ، وهو الذي يقدرنا على فتح البلاد ولو اجتمع علينا أهل الارض لتوكلنا على الله تعالى »[3] .

وبالرغم من اصرار صلاح الدين على مقاومة الصليبيين في كل مكان ، الا انه كان يجنح للسلم ويمنح الامان للقلاع والمدن التي تسعى الى مصالحته . ففي يوم الجمعة ٣ ـ ربيع الاول ـ ٥٨٥هـ خرج صلاح الدين لمحاصرة حصن شقيف ارنون ، فنزل على مرج عيون وكان هذا الحصن بين الامير الصليبي ارناط صاحب حصن صيدا ، الذي كان من اعظم الناس

---

(١) ابن شداد ، النوادر السلطانية : ٨٨ .
(٢) أبو شامة ، الروضتين : ٢/١٢٦ .
(٣) الروضتين : ٢/١٢٩ ، مفرج الكروب : ٢/٢٦١ .

مكرا ودهاءاً فقد طلب الاجتماع بصلاح الدين واظهر له الطاعة وقال : « أخاف ان يعرف المركيس ما بيني وبينك فينال أولادي وأهلي منه أذى ، فانهم عنده ، فاشتهي ان تمهلني حتى أتوصل في تخليصهم من عنده ، وحينئذ ... نسلّم الحصن ... فظن صلاح الدين صدقه فأجابه الى ما سأل ... على ان يسلم شقيف في جمادى الآخرة »[1] .

ورغم معارضة المسلمين لصلاح الدين على منحه الامان لارناط لأنهم اكتشفوا خديعته ، فقد كان ينزل الى سوق العسكر الايوبي ويشتري الاقوات والسلاح وغير ذلك مما يقوى به حصنه حتى يأتيه المدد من الصليبيين ، غير ان صلاح الدين لم يغدر به ، وانتظر عليه حتى انتهت المدة . فلما وجد منه مماطلة جديدة ، قبض عليه ورتب على حصن شقيف من يحاصره صيفا وشتاء حتى تمكن من فتحه بالامان بعد سنة في الخامس من ربيع الاول سنة ٥٨٦هـ بعدما فُنِي ما فيه من الازواد[2] .

---

(١) ابن الاثير ، الكامل : ١٢/٢٧-٢٨ .

(٢) مفرج الكروب : ٢/٢٨٢-٢٨٤ و٢٨٩-٢٩٠ و٣١٢ ؛ زبدة الحلب : ٣/١٠٨-١١٠ ، انظر : الاصفهاني ، الفتح القسي : ١٧٦-١٧٧ و٢٣٨ ؛ مرآة الزمان ق١ ، ج ٨/٤٠١ .

رابعا : موقف صلاح الدين من الحملة الصليبية الثالثة

« فشلت الحملة الصليبية الثالثة ۰ لانه ليس في استطاعة جيش تجرد من القيادة ، ومزقته المنازعات السياسية وباشر القتال على أرض أجنبية ، ان يحرز النصر على جيوش جمع بينها ووحدها الحماس الديني، وانضوت تحت لواء قائد مثل صلاح الدين۰»

ارنست باركر ، الحروب الصليبية : ۹۲

كان لهزيمة الصليبيين في حطين وما اعقبها من سقوط بيت المقدس بيد صلاح الدين ، وفتح الساحل الشامي ، أثر كبير في احداث رد فعل عنيف لدى العالم المسيحي ، خرج على أثره القسوس والرهبان الى جميع دول العالم الغربي يدعونه النصرة على المسلمين واعادة بيت المقدس الى النصارى[۱] ۰

وكان أول داع للحملة الصليبية هذه هو رئيس اساقفة صور جوسياس الذي أرسله كونراد (المركيس) الى غرب اوربا في أواخر صيف سنة ۱۱۸۷م[۲] ۰ وقد التقى جوسياس بالبابا اوريان الثالث واوضح

---

(۱) Look, Grousset, op. cit., 11, P. 747, 111, P. 8.

وكان من صدى ذلك القصيدة التي القاها الحكيم ابي الفضل الجلياني سنة ٥٨٥ هـ والتي وصف فيها الدعوة للحرب الصليبية الثالثة نذكر منها :

« لما سبى القدس قالوا كيف نتركها	والرب في حضرة منهـا تمثلـه
فكم مليك لهم شق البحار سرى	لينصروا القبر والاقـدار تخذلـه
استصرخوا الاهل والعدوى تمزقهم	واستكثروا المال والهيجا تنفله »

الروضتين : ۲/۱٥۱ ۰

(۲) Nouveaue Petit larousse Illustre (Paris, 1939), P. 1307-1308.

له حقيقة موقف الصليبيين بالشام ، ويقال ان البابا صدم من الانباء التي وصلته وتوفي على اثرها لانه كان كبير السن[*] وقد بادر البابا كريكوري الثامن بارسال الكتب الى كل من ملك انكلترا وفرنسا وامبراطور المانيا ، دعاهم فيها الى ان يتناسوا ما كان بينهم من خصومات ، ويعبئوا قواهم من أجل محاربة صلاح‌الدين ، وكان الاسقف الصوري جوسياس هو الرسول الموفد الى فرنسا وانكلترا[١] .

ورغم الخلافات التي كانت بين الدول الاوربية وعلى الخصوص بين فرنسا وانكلترا ، فانهما نسيا كل شيء من أجل الاعداد للحرب الجديدة ، بعد ان اتفقا على وجوب الذهاب للمشرق الاسلامي واقتسام كل ما يحصل لديهما من غنائم[٢] وعلى فرض ضريبة عشرية على كل من لم يشترك من رعاياهما في الحرب ضـد المسلمين . وقـد اطلق على هذه الضريبة اسم « عشور صلاح‌الدين »[٣] .

(*) Look: Wiet (G) : Histoire de la nation Egyptione, P. 327; Campbell, (G.A.): The Crusades, P. 286.

نقلا عن : سعداوي ، التاريخ الحربي المصري : ٢١٦ هامش رقم (٣) .

(١) Archer (T.), Kingsford (c.): The crusades (London 1894, P. 309.

(٢) Champdor, Saladin, P. 268.

ولمعرفة المزيد عن الخلافات التي كانت بين ملك فرنسا وانكلترا وأسبابها انظر :

(٣) Runciman, op. cit., Vol, 111, PP. 8-9; Besant, Jerusalem, P. 405.

ويقال بأن هذه الضريبة كانت من اولى الضرائب التي فرضت على الاموال المنقولة في انكلترة ، بولارد ، بريطانيا والشرق الاوسط : ٦ .

وكان للاساليب الدعائية التي تقوم على اثارة العواطف الدينية التي اتبعها الصليبيون ، اثر كبير في استقطاب قوى العالم النصراني ضد المسلمين، فقد لبس الرهبان والقسوس وخلق كثيرون من مشهوريهم وفرسانهم السواد ، ودخل بهم البطريرك الذي كان بالقدس دول اوربا النصرانية ، وأخذ يطوف بهم ويثير[1] ، مما اشعلوا روح العداء ضد المسلمين ، ودفعوا بالكثيرين ، نساء ورجالا ان يتطوعوا في الحرب او يقدموا ما عندهم من أموال عوضا عن انفسهم ، حتى ان أربع شواني امتلأت بالاموال من مدينة رومية الكبرى لوحدها ، بعد ان اثير لدى الصليبيين الباعث النفساني والديني[2] .

كان صلاح الدين في هذه الفترة مخيما على شقيف ارنون ، فأتاه الخبر ان الصليبيين خرجوا من صور لمحاصرة عكا بزعامة الملك جاي لوجزنان الذي قطع على نفسه عهدا ، قبل ان يطلق سراحه ، بالا يحارب المسلمين ، غير أنه نكث العهد وعمد الى تجميع القوات الصليبية في محاولة لاستعادة أملاكه[3] ، حتى قيل بأنه جمع تحت لوائه ما يقرب من ٢٠,٠٠٠ من المقاتلة[4] . غير ان صلاح الدين لم يصدق الخبر « ولم ير المسارعة خوفا من ان يكون قصدهم ترحيله عن الشقيف لا قصد المكان ، فأقام مستكشفا للحال »[5] عدة أيام حتى تيقن صدق الخبر فسارع الى استدعاء العساكر

---

(١) الكامل : ١٢/٣٢-٣٣ ؛ مفرج الكروب : ٢/٢٨٨-٢٨٩ ؛ الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل : ١/٣٣٠-٣٣١ .

(٢) الكامل : ١٢/٣٣ ؛ انظر عاشور ، اوربا العصور الوسطى (القاهرة ، ١٩٦١) ١/٤٦٦-٤٦٧ .

(٣) Archer, The Crusades, P. 317.

(٤) Lanepool, A History of Egypt, P. 251.

(٥) النوادر السلطانية : ١٠٣ .

اليه ، وقرر منازلة الصليبيين عند حدود صور ، وعدم فتح الطريق أمامهم للوصول الى عكا ، « فانهم ان نزلوا صعب ازالتهم واتعب قتالهم ، فخالفه امراؤه في ذلك ، وقالوا : بل نمضي على أسهل الطرق »[1] وبذلك اضاع هؤلاء الامراء على المسلمين فرصة طيبة • فلو نفذت خطة صلاح الدين لتمكن العسكر الايوبي القضاء على القوة الصليبية قبل ان يستفحل أمرها ، فقد كان « من الاكيد ان يتمكن صلاح الدين من سحق تلك الشراذم الصليبية في سهولة لولا وصول بشائر الحملة الصليبية الثالثة من الغرب الاوربي ، مما أمدّ الصليبيين أمام عكا بقوة كبيرة غيرت الموقف تغييرا تاما »[2] •

ونتيجة لعدم تنفيذ خطة صلاح الدين ، فقد وصل الصليبيون عكا وحاصروها حصارا شديدا من البحر الى البحر من الجانب الآخر ، ولم يبق للمسلمين اليها طريق • ولذلك انقطع الطريق أمام صلاح الدين للدخول الى عكا فخيّم على تل كيسان وأخذ في استدعاء العساكر اليه ، فأتاه عسكر الموصل وديار بكر وسنجار وغيرها من بلاد الجزيرة ، كما أتاه تقي الدين ابن أخيه من حماة ومظفر الدين أمير حرّان والرها وكانت الامدادات تصل المسلمين من البر ، وتأتي الصليبيين من البحر[3] •

وقد وصف الشاعر الصليبي امبروز ــ وهو من المعاصرين للاحداث ــ ما جرت عليه الاحوال حول عكا ، والامدادات التي كانت تصل كلا الجانبين واوضح بأن اسطولا كبيرا وصل من شمالي فرنسا بعد ان باع قائده كل أراضيه وممتلكاته ، وجلب معه أربعة عشر ألف فارس • كما وصل اسطول من الدنمرك وبيزا ، وبلغ عدد الصليبيين الذين اجتمعوا حول

---

(٤) مفرج الكروب : ٢/٢٩١ •
(٥) الحركة الصليبية : ٢/٨٥٦ •
(١) الكامل : ١٢/٣٤ ، الروضتين : ٢/١٤٢ •

عكا آنشذ أكثر من ثلاثين ألف جندي . غير ان العسكر الاسلامي لم يدعهم في اطمئنان ، كما ذكر امبروز ، « فقد غير ان العسكر الاسلامي لم يدعهم في اطمئنان ، كما ذكر امبروز ، « فقد كان رجالنا يحملون السلاح طوال الليل لصد هجمات المسلمين ، فقد جاءت قوات صلاح‌الدين وكانت مؤلفة من العرب والترك والكرد واستولت على جميع البلاد ... كان الاتراك يهاجمونهم ليل نهار ، وضايقوهم حتى لم يجدوا لديهم وقتا للاكل »[١] .

وخلال فترة التقارب هذه بين العسكرين الاسلامي والصليبي قرب عكا حدثت عدة وقعات عسكرية مهمة ، كان النصر في أغلبها للعسكر الايوبي[٢] ، وكانت سياسة صلاح‌الدين ترمي الى منازلة الصليبيين منازلة جادة للقضاء عليهم ، ولذلك كان يستخدم كل الوسائل العسكرية لاخراجهم من تحصيناتهم وابعادهم عن حصار عكا ليتمكن من دخولها ، غير ان الصليبيين كانوا على علم بأبعاد الموقف وخطورته عليهم ، لذلك لم يشاؤوا

---

(١) لامب ، شعلة الاسلام : ١٥٧ و١٥٨ .

(٢) تحدث ابن شداد عن عدد الوقعات التي حدثت بين العسكرين الايوبي والصليبي حول عكا وعدها بأربعة وقعات ، وأهمها وقعة المصاف الاعظم التي انتصر فيها صلاح‌الدين انتصارا ساحقا ، وقدر عدد ضحايا الصليبيين بأربعة الاف ومائة . وللاطلاع على حوادث هذه الوقعات أنظر : الكامل : ١٢/٣٤_٣٥ و٣٨_٤٠ ؛ النوادر السلطانية : ٩٨_١١٥ ؛ الروضتين : ٢/١٤٣_١٤٧ ؛ مفرج الكروب ٢/٢٩٠_٣٠٢ ؛ السلوك: ١/١٠٢_١٠٥ ؛

Lanepool, Saladin. PP. 259-263; Cahen, Lesyrie du nord., PP. 430-433.

الاصطدام بالعسكر الايوبي اصطداما جدّيا الا بعد ان تصلهم الامدادات الاوربية الكبيرة .

ومن بين الوسائل التي استخدمها صلاح الدين ضد الصليبيين ما عرف باسم قتال الكمائن . فقد علم ان بعض الصليبيين يخرجون من مدينة صور للاحتطاب ، فرتب لهم كمينا هدف من ورائه اخراج الصليبيين من عكا لمساندة الصليبيين المنهزمين في صور ، وعندما يخرج هؤلاء يكون صلاح الدين قد اطبق بقواته العسكرية على الصليبيين وقضى عليهم . فقد أمر ان يخرج عسكر تبنين في نفر يسير من العربان ، فاذا تبعهم الصليبيون ينهزمون أمامهم ، بعد ان ارسل الى عسكر عكا من أخبرهم ان يكونوا على اهبة الاستعداد ، فاذا تحرك الصليبيون لنصرة أصحابهم يكون العسكر الايوبي هو القريب من عكا قد هجم على الصليبيين المحاصرين لعكا .

استعد صلاح الدين لتنفيذ هذه الخطة العسكرية استعدادا كاملا فرتب عسكره ثمانية أطلاب ، واستخرج من كل طلب عشرين فارسا وأمرهم ان يناوشوا أمام العدو ثم ينهزموا بين يديه حتى يصلوا الى الكمين ، ففعلوا ذلك ونشبت الحرب بين الطرفين وكانت الخسائر قليلة ، غير ان الخطة لم تحقق أهدافها كاملة ، نظرا لمخالفة الفرسان الايوبيين خطة صلاح الدين ، وعدم انهزامهم أمام العسكر أنفة ، ثم دخل الليل فانسحب كلا الطرفين الى مواقعهم[1] .

واضافة الى المساعدات التي تلقتها القوة الصليبية المحاصرة لعكا من المدن والمقاطعات الاوربية ، فقد وعد اعظم ملوك الغرب آنئذ الاشتراك بحملة عسكرية لاستنقاذ بيت المقدس من أيدي المسلمين ـ على حدّ رأيهم ـ وهم فردريك بربروسه امبراطور المانيا ، وفيليب اغسطوس الثاني ملك

---

(١) الروضتين : ٢/١٤١ .

فرنسا وريتشارد قلب الاسد ملك انكلترا • وكان امبراطور المانيا اسرع للعمل من غيره ، لان ريتشارد وفيليب كانا متنافسين ويتبادلان الريبة ، ولذلك لم يرد احدهما الابحار قبل الثاني ، خوفا مما قد يحدث في غيابه ، لذلك تأخرا عن الابحار حتى تموز ١١٩١م(١) •

اما امبراطور المانيا فقد تحرك في جمادى الاولى سنة ٥٨٥ / أيار سنة ١١٨٩م بما يقرب من مائة ألف محارب عن طريق البر مارا بالقسطنطينية ، غير ان الحملة الالمانية باءت بالفشل ولم يصل من رجالها الى عكا الا القليل في أوائل شهر تشرين من سنة ١١٩٠م بعد ان توفي قائد الحملة ، وأصاب اتباعه الانشقاق ، بالاضافة الى ما تعرضت له الحملة الالمانية من هجمات شديدة كان يشنها السلاجقة الاتراك وأهالي حلب والدولة البيزنطية(٢) •

ورغم ما اشيع عن الحملة الالمانية من قوة البطش وكثرة العدد ، فان صلاح الدين كان ثابت العزيمة ، تمكن بحـزمه السياسي والعسكري ان يتغلب على الموقف • اذ ما ان وصلته أخبار هذه الحملة حتى عمـد الى ارسال العيون والجواسيس وكتب يستنفر الامصار والاقطار ويستنصرهم ،

---

(١) رنسيمان ، المدينة البيزنطية : ٢٠٦ـ٢٠٧ ؛ المطوي ، محمد ، الحروب الصليبية : ٦٢ـ٦٣ •

(٢) للاطلاع على سير الحملة الالمانية والصعوبات التي لاقتهـا واسباب فشلها انظر: النوادر السلطانية : ١١٥ و١٢٣ـ١٢٤ و١٢٤ـ١٢٨؛ الفتح القسي : ٢٦٠ـ٢٨٨ ؛ مفرج الكروب : ٢/٣١٧ـ٣٢٥ و٣٢٩ ؛ الروضتين : ٢/١٥٠ و١٥٤ـ١٥٥ ؛ تاريخ ابن خلدون : ٠/٥٠٧ـ٥٠٩ ؛ البداية والنهاية : ١٢/٣٣٦ الانس الجليل بتـاريخ القـدس والخليل : ١/٣٦١ـ٣٦٢ ؛ تاريخ الشعوب الاسلامية : ٣٥٩ـ٣٦١ ؛

cahen, op. cit., PP. 431-432.

Grousset, op. cit., PP. 10-17, Rneiman, op. cit., 111, PP. 13-17.

وبعث بالقاضي بهاءالدين بن شـداد الى الخليفة العباسي ببغـداد الناصر لدين الله لاعلامه بتطورات الموقف • وقد استجابت الاطراف المعنية كافة لكتب صلاحالدين ، فأرسلت بغداد مثلا حملين من النفط وجمـاعة من النفاطين ورقة موقعة من الخليفة العباسي يقترض فيهـا صلاحالدين من التجار عشرين الف دينار • وفي ٢٧ ربيع الاول سنة ٥٨٦هـ وصل اليه الملك الظاهر بعسكر حلب ، ثمـا وصـل اليه عمادالدين بعسكر سنجار ومظفرالدين بعسكر الجزيرة ، اضافة الى عزالدين اتابك الموصل ارسل عسكر الموصل بقيادة ابنه علاءالدين كما ارسلت مصر باساطيلها العسكرية الى سواحل الشام لمساندة القوات البرية[١] واستجابة هذه المدن والامصار لنداءات صلاحالدين دليل عملي على نجاح الوحدة التي أعادها صلاحالدين، بقدر ما هو دليل على ان شعور المسلمين كان حيّا وواحدا •

واضافة الىسياسة الاستنفار والاستنصار التياتبعهاصلاحالدين، فقد أمر امراءه بعدم بيع غلة اراضيهم من الحبوب واستجماع التبن ليكون علفا لخيولهم ، لعل الحرب يطول امدها مع الالمان • ولذلك آخذ الامراء يرسلون الى متولي أمورهم بمنـع بيع الغلال • يقـول ابن الاثير : « ان بعض أمراء صلاحالدين كان لـه ببلد الموصل قرية ، وكان أخي رحمـه الله يتولاها فحصل دخلها من حنطة وشعير وتبن • فأرسل اليه في بيع الغلة • ثم وصل اليه كتاب يقول : لا تبع الحبّة الفرد ، واستكثر لنا من التبن ؟ ثم بعد ذلك وصل كتابه يقول : تبيع الطعام فما بنا حاجة اليه ، ثم ان الامير قدم الى الموصل فسألناه عن المنع من بيع الغلة ثم الاذن فيها بعد مدة يسيرة فقال : لما وصلت الاخبار بوصول ملك الالمان أيقنا اننا ليس لنا بالشام مقام • فكتبت

---

(١) النـوادر السلطـانيـة : ١١٥و١١٨ـ١٢٠ و١٢١ـ١٢٣ ؛ الروضتين : ٢/١٥٠ـ١٥١ •

بالمنع لتكون ذخيرة لنا اذا جئنا اليكم فلما اهلكهم الله واغنى عنهم ، كتبت بيعها والانتفاع بثمنها »[1] • وهذا يدل على ان الحملة الالمانية كان لها ردود فعل قوية وقاسية في نفوس المسلمين لما أشيع عنها من قوة وبطش ، بحيث ان المسلمين آيسوا من المقام بالشام • غير ان عقدة الخوف من هذه الحملة ازيلت بسرعة نظرا لفشلها وللسياسة الجيدة التي اتبعها صلاح الدين •

ومن غير شك ، فالحملة الالمانية اوثقت التقارب البيزنطي الايوبي ، المتفق عليه من قبل[2] • فقد دفعت بالامبراطور البيزنطي اسحق الثاني ان يراسل صلاح الدين ويعرفه بكل تحركات الحملة الالمانية • نظرا للاضرار التي الحقها الالمان بالاراضي البيزنطية ، وايذائهم لفلاحيها ، لذلك كله فضل اسحاق الثاني محبة صلاح الدين وصداقته على عداوة الصليبيين • وفي نص الكتاب المرسل من القسطنطينية الى صلاح الدين ما يدل على ذلك :

« ••• قد سار في بلادي الالمان وما هو عجب فان الأعداء يرجفون بأشياء كذب على قدر اغراضهم ، ولو تشتهي ان تسمع الحق فانهم قد تأذوا وتعبوا أكثر مما آذوا فلاحيّ بلادي ، وقد خسروا كثيرا من المال والدواب والرحل والرجال ، ومات منهم كثير ، وقتلوا ، وبالشدة قد تخلصوا من أيدي أجناد بلادي وقد ضعفوا بحيث انهم لا يصلون بلادك ، وان وصلوا كانوا ضعافا بعد شدة كثيرة ، ولا يقدرون ينفعون جنسهم ••• ما ربح ملكي من محبتك الا عداوة الفرنج وجنسهم ••• »[3] •

وفي الوقت الذي وصلت فيه الحملة الالمانية منطقة الشام عن طريق

---

(١) الكامل : ١٢/٥٠ •

(٢) انظر : اسد رستم ، الروم وصلاتهم بالعرب : ٢/١٦٦ و ١٧١ ؛ عاشور ، الحركة الصليبية : ٢/٨٨٧ •

(١) النوادر السلطانية : ١٣٣ •

البر ، وصل فيه عن طريق البحر سفينة صليبية فيها ثلاثمائة امرأة صليبية « مستحسنة بشبابها وحسنها متزينة قد اجتمعن من الجزائر وانتدبن للجرائر ••• وتأهبن لاسعاد الاشقياء وتلهين على السفاح والسفاد ، من كل زانية مازية ••• فاجرة نجلاء كحلاء فوصلن وقد سبلّن انفسهن ، وقدّمن للتبذل اصونهن وانفسهن ، وذكرن انهن قصدن بخروجهن تسبيل فروجهن ••• وتفردن بما ضربنه من الخيم والقباب »[1] وهذا النص يدلنا على ان الصليبيين استخدموا الجنس كسلاح أيضا في الحملة الصليبية الثالثة ضد المسلمين لاشغالهم عن متابعة مهمة الجهاد • وقد نصبن الخيم والقباب بمناطق قريبة من العسكر الاسلامي • مما دفع ببعض الجنود الشبان الى الذهاب الى تلك الخيم والقباب وتعاطي المحرمات • وقد وصفهم الاصفهاني في قوله : « وتسامع أهل عسكرنا بهذه القضية ••• وابق من المماليك الاغبياء ، والمدابير الجهلاء ، جماعة جدّبهم الهوى ، واتبعوا من غوى ، فمنهم من رضى للذلة ومنهم من ندم عن الزلة فتحيل في النقلة »[2] •

ولم تنقطع الامدادات الصليبية من الغرب الاوربي للصليبيين المحاصرين لعكا ، وكان بين الفترة والاخرى يصل الى الشام عدد لا بأس به من السفن الحربية المحملة بالفرسان والعدد الحربية • ففي ١٢ ربيع الاول سنة ٥٨٧هـ/٢٠ ابريل سنة ١١٩١م وصل الى عكا فيليب اغسطس

---

(١) الفتح القسي : ٢٢٨_٢٢٩ ؛ الانس الجليل : ٣٦٢/١ ، وانظر :

Bercovici (K.): The Crusades (New York, 1929) P. 154.

نقلا عن : سعداوي ، التاريخ الحربي المصري : ٢٣٢ هامش رقم (٢) •

(٢) الفتح القسي : ٢٣٠ •

ملك فرنسا[١] ، وريتشارد قلب الاسد ملك انكلترا[٢] • الذي دخل جزيرة جزيرة قبرص في ٢٦ ربيع الآخر واستولى عليها ، ثم وصل الى الشواطيء السورية في أوائل حزيران واحرق اسطولا للمسلمين[٣] • ومنذ هذه اللحظة التي وصل فيها ريتشارد الشام بدأ ميزان القوى يتغير لصالح الصليبيين ، وأصبحت جزيرة قبرص من المراكز المهمة بعد فتحها لتموين بقايا الصليبيين بالشرق ، ومحطة للاتصال بين صليبي الشرق والغرب[٤] •

وقد ازداد الضغط على عكا حتى سقطت بأيدي الصليبيين ظهر يوم الجمعة ١٧ جمادى الآخرة سنة ٥٨٧هـ / ١٢ تموز ١١٩١م بعد ان احدق الصليبيون بالمدينة من جهاتها الاربع[٥] • وبعد ان كان ريتشارد يشاغل

---

(١) المصدر السابق نفسه ، ان العبري ، تاريخ مختصر الدول: ٢٢٢ ، الروضتين : ٢/١٨٢ ، العريني ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية : ١/٩٢٢ •

(٢) ريتشارد قلب الاسد : نظرا لاهمية انجلترا والدور الايجابي الذي قامت به في مساندة الحروب الصليبية ، فقد اضيفت على ملكها ريتشارد صفات مبالغ فيها بشكل كبير • فهو بدون شك كان من ملوك انكلترا العظماء ، وكان قائدا ذكيا الا انه كان غادرا وما اضفي عليه من خيال جعله في عداد اصحاب الاساطير • ومن ذلك ما جاء به المؤرخ الصليبي جوانفيل في كتاب (الارض المقدسة) قوله : اذا ما انحرفت خيول المسلمين نحو شجرة او اجمه ، فان فرسانها يصرخون بها : ويحكم اتحسبون الملك ريتشارد في اثركم » بولارد ، بريطانيا والشرق الاوسط : ٥ •

(٣) Champdor, Saladin, P. 271.

(٤) عاشور ، قبرص والحروب الصليبية : ٢٩-٣٠ •

الصليبيين لها وما جرى حولها من قتال انظر : الكامل : ١٢/٦٥ ؛ النوادر

(٥) لمعرفة المزيد عن اسباب سقوط عكا وكيفية محاصرة

صلاح الدين ببعض المراسلات كأن يطلب منه طيرا وبعض الفاكهة والثلج وذلك « تفتيرا للعزمات وتضيعا للوقت على المسلمين ، وهم مع ذلك يشتغلون بمجاهدة البلد ومواترة رميه بالمجانيق »[1] ومن دراسة للنصوص التاريخية يمكن توضيح الاسباب التي أدت الى سقوط عكا بيد الصليبيين :

قاومت عكا الحصار مدة سنتين كاملتين (٥٨٥ - ٥٨٧هـ/١١٨٩ - ١١٩١م) شهدت خلالها أضخم عمليات حربية ، اشتركت فيها كل قوات اوربا الغربية تقريبا بما امتازت به من أساطيل قوية وآلات حربية ضخمة . وعلى الرغم من وحدة القيادة الاسلامية التي كانت بيد صلاح الدين ، الا ان بعض امراء الاجناد ملوا الانتظار الطويل ورغبوا في العودة للاهل والاوطان ، رغم معارضة صلاح الدين المتكررة لهم . غير ان بعضهم أصر على العودة مما احدث نقصا في القوات العسكرية الموجودة قرب عكا امثال عماد الدين زنكي الثاني اتابك سنجار الذي شكا الى صلاح الدين « هجوم الشتاء عليه مع عدم الاستعداد له »[2] ، بالاضافة الى ان تقي الدين استأذن من صلاح الدين بعض الوقت لاستجماع العساكر ، غير انه انشغل بأمور جانبية مما أدى الى نقصان في القوات العسكرية التي كانت مع صلاح الدين . وقد اوضح

السلطانية : ١٧١-١٧٢ ؛ الروضتين ٢/١٨٤-١٨٩ ؛ وفيات الاعيان : ٦/١٩٣-١٩٥ ؛ البداية والنهاية : ١٢/ ٣٤٢-٣٤٣ ؛ تاريخ ابن الوردي: ٢/١٤٤-١٤٥ و١٤٧-١٤٨ ، مرآة الزمان ق١ : ٨/٤٠٧-٤٠٩ التاريخ المختصر : ٥/١٠١-١٠٤ ؛ النجوم الزاهرة : ٦/٤٥ ؛ تاريخ ابن الفرات : م٤ ، ج١/٢٢٢-٢٢٤ ؛ تاريخ ابن خلدون : ٥/٤٧١-٤٧٢ ؛ العسجد المسبوك : ٤٣ ؛ شعلة الاسلام : ٢٠٠-٢١٢ ،
Lanepool, Saladin, PP. 267-273.

(١) تاريخ ابن الفرات : م٤ ، ج٢/١٢-١٣ .

(٢) النوادر السلطانية : ١٤٦ .

الاصفهاني هذا الأمر فقال : « ونسب السلطان ذلك [أي سقوط عكا] بعد قضاء الله الى تقي‌الدين ... فانه مضى على ان يعود باضعاف عسكره فاشتغل بقصد خلاط وآثار في ديار بكر الاختباط والاختلال ، فنتج تأخر نصف العساكر فوات الغرض المروم وكذلك لم يكن في البلد عدد يفي بصونه »[1] .

واضافة الى نقص عدد الجند المدافعين عن عكا ، فان ابن الاثير والاصفهاني يوحيان بأن من أسباب سقوط عكا تواطؤ بعض النصارى الذين كانوا بداخل عكا . فقد كان على خزانة المال الموجودة في عكا قوم من النصارى عمدوا الى المماطلة في صرف الاموال لتجنيد العسكر وكان « اذا جاءهم جماعة قد جندوا تعنتوهم بأنواع شتى تارة باقامة معرفة وأخرى بغير ذلك ، مما جعل الكثير يتفرق »[2] . في الوقت الذي خرج فيه بعض نقابي البلد واعان نقابي الصليبيين حتى وقعت أبدان السور وأبراجه[3] .

وفي الوقت الذي قلت الاقوات على المسلمين المحاصرين بداخل عكا[4] لشدة الحصار الذي ضرب عليها ، وعدم تمكن العسكر الاسلامي من ايصال الامدادات اليهم كانت الامدادات الصليبية ـ كما ذكر شامبدور ـ تصل الى الصليبيين المحاصرين لعكا حتى أصبح عددهم لا يقل عن خمسة آلاف فارس ومائة ألف راجل . وكان البحر يحميهم ويمدهم بالعدد والعدد من مختلف البلدان الغربية . وكان المسلمون اذا ما أسروا فردا من الصليبيين ، فانهم كانوا لا يقدرون على التفاهم معهم لاختلاف لغاتهم ، مما

---

(١) الفتح القسي : ٣٥٧ـ٣٥٨ .
(٢) ابن الاثير ، الكامل : ١٢/٥٥ .
(٣) الفتح القسي : ٣٦٦ .
(٤) اليافعي ، مرآة الجنان : ٣/٤٣٢ .

جعل من الصعوبة كشف أسرارهم(١) •

اما ابن الاثير فيعزى أسباب سقوط عكا الى عوامل نفسية أصابت المسلمين المحاصرين بعكا ودفعتهم الى التواني وعدم الاستماتة في المقاومة وكانت هذه العوامل هي :ـ

١ ـ عجز صلاح الدين من دفع الصليبيين عن ضرب عكا ، أو ابعادهم عن محاصرتها •

٢ ـ ان الامير سيف الدين الهكاري المعروف بالمشطوب ، طلب من فيليب ملك فرنسا ان يطلق اسرى المسلمين ويمنحهم الامان ويسلم اليه عوضا عن ذلك عكا ، فلم يجبه فيليب مما احدث في نفوس أهالي عكا وهنا •

٣ ـ ان اميرين ممن كانوا بعكا لما رأوا فعل المشطوب ، اتخذوا من الليل سترا لهما وركبوا في سفينة صغيرة وخرجوا سراً مع اصحابهم ولحقوا بعسكر المسلمين وهما عزالدين ارسل الاسدي وابن عزالدين جاولي • فلما شاع الخبر في اليوم التالي ازداد أهالي عكا وهنا الى وهنهم ، مما دفع بأهالي عكا الى طلب الامان من الصليبيين(٢) •

وكان من نتائج سقوط عكا ان أصبح أهاليها جميعا اسرى ، رغم انهم أخذوا الامان لانفسهم من الصليبيين حين سلموا البلد اليهم ، الا ان الصليبيين نكثوا العهد الذي قطعوه على انفسهم وقبضوا على جميع المسلمين ووضعوهم في جهة من البلد واستولوا على كل متاعهم وأموالهم • وقد وصف الرحالة ابن جبير ، الذي زار عكا في ١٤ جمادي الآخرة سنة ٥٨٠هـ / ١٨ ابرل سنة ١١٨٤م الحالة التي أصبحت عليها فقال : « عادت

---

(١) Saladin le plus pursheros de l'Islam, P. 279.

(٢) ابن الاثير ، الكامل : ١٢/٦٦ـ٦٨ •

مساجدها كنسائس ، وصوامعها مضارب للنواقيس ... ولم يبق بأيدي المسلمين الا مسجدا صغيرا يجتمع الغرباء منهم فيه لاقامة فريضة الصلاة ... بعد ان وضع الافرنج في شرقيه محرابا لهم ، فالمسلم والكافر يجتمعان فيه يستقبل هذا مصلاه وهذا مصلاه »[1] مما يدلنا على المعاملة القاسية التي عامل بها الصليبيون الاسرى المسلمين المغلوبين على أمرهم ، بحيث انهم استولوا على كل أملاكهم ومساجدهم ولم يبقوا لهم الا مسجدا واحدا ، وحتى هذا المسجد الواحد قاسموهم فيه ليشوشوا على المسلمين عباداتهم .

ولم يكتف الصليبيون بذلك ، بل قبض ريتشارد ـ الذي تزعم الحملة الصليبية الثالثة ، بعد انسحاب فيليب اغسطس الى بلاده ـ[2] على الاسرى المسلمين وساقهم الى جنوب تل العياضية وأمر بذبحهم جميعا ولم ينج منهم الا بعض الامراء ليفتدى بهم ريتشارد ببعض اسرى الصليبيين[3] . وكانت المذبحة عظيمة لدرجة ان جميع المؤرخين شرقيين وغربيين استنكروها . يقول هارولد لامب « جاءوا بألفين وستمائة من المسلمين الى السهل واحيطوا ببطانيات علقت فوق حبال واوثقت أيديهم وذبحوا بالسيوف ، أو علقوا

---

(١) رحلة ابن جبير (ليدن ، ١٩٠٧) : ٣٠٣ .

(٢) بعد سقوط عكا بيد الصليبيين حدثت بعض الاختلافات بين الملكين فيليب اغسطس وريتشارد قلب الاسد . وقد انسحب فيليب الفرنسي على اثرها الى صور في شهر تموز سنة ١١٩١/٩ رجب سنة ٥٨٧ هـ ومنها عاد الى بلاده بعد ان اقسم امام اللوردات بالحفاظ على العهد القاضي بألا يلحق ضررا بانكلترا أو بسكانها ، وبذلك تزعم ريتشارد الحركة الصليبية الثالثة في منطقة الشام . لامب ، شعلة الاسلام: ٢١٥ ؛ انظر :

Stevenson, op. cit., P. 274.

(٣) Lanepool. Saladin. P. 306.

شنقا على مرأى من اليزك(*) الاسلامي »[1] • ويعلل لامب أسباب هـذا الغـدر والمذبحة الرهيبة فيقول : « ان الصليبيين كانوا واقعين حتى ذلك الحين تحت وطأة المرارة بخسائرهم في عكا ، وان أغلبهم أي الصليبيين ••• كـانوا يرون في أعدائهـم أي المسـلمين كفـارا يجب قتلهـم انى وجدوا »[2] •

ورغم هـذا الاعتراف من المؤرخ الغربي لامب بأن الصليبيين كانوا يرون في المسلمين أعداء حقيقيين وكفارا يجب قتلهم ، الا ان بعض المراجع العربية شاءت ان تظهر العلاقة بين الطرفين بأنها كانت علاقة حسنة • يقول الدكتور نظير حسان سعداوي : « كانت العلاقات الاجتماعية السلمية بين الايوبيين والصليبيين ودية عموما رغـم ما بين الفريقين من حـرب »[3] وبالرغم من اعتماد الدكتور سعداوي على نص تاريخي لابن جبير يوضح حسن العلاقة بين المسلمين والصليبيين في عكا قبل الفتح • الا ان نصـا تاريخيا واحدا لا يكفي للتدليل على مثل هذا الرأي الخطير ، علما بأنه اذا كانت العلاقـة حسنة في منطقة واحدة فان ذلك لا يعني ان العلاقـة بين الصليبيين والمسلمين كانت حسنة في سائر المناطق الاخرى • فهذا ابن جبير مثلا ـ الذي تحدث عن حسن العلاقة في عكا يصور العلاقة السيئة والمعاملة اللا انسانية التي كان يلاقيها المسلمون في مدينة صور ، حتى انه

(*) اليزك : لفظ فارسي معناه الطلائع ، وتستعمل للدلالة على الفرقة التي تكلف بعملية الاستطلاع ، وكان افرادها يتمرنون تمرينا خاصا على جلب الاخبـار من معسكر العدو ، سعداوي ، التـاريخ الحربي المصري : ٢٢٠ •

(١) شعلة الاسلام : ٢١٧ •

(٢) نفس المصدر السابق : ٢١٨ •

(٣) التاريخ الحربي المصري : ٢٦٢ـ٢٦٣ •

يستنكر على المسلمين بقاءهم الى جوار الصليبيين وذلك لان الحرّ الذي يسير منهم في المدينة يشاهد اخوانه من المسلمين يرسفون في القيود ويصرفون في الخدمة تصريف العبيد[1] ٠

وبالرغم من المعاملة اللا انسانية التي عومل بها اسرى الحرب من المسلمين في عكا ، فان صلاح الدين لم يقابل الصليبيين بالمثل ٠ اذ بعد أيام من مذبحة عكا اسر العسكر الايوبي جماعة من الصليبيين قرب عكا وجيء بهم الى صلاح الدين منهم خازن الملك وجماعة من الافرنسيين ، وكان من الطبيعي ان يأمر صلاح الدين بقتلهم ، كما قتل اسرى عكا ، الا انه باسطهم واطعمهم وكساهم ، ثم سيرهم الى دمشق ليودعوا في سجنها[2] ٠ وشتان بين سلوك الصليبيين الهمجي الذي اتبعه ريتشارد ، وبين السلوك الانساني الذي اتبعه صلاح الدين ، ليس فقط في عكا أو القدس بعد فتحها سنة ٥٨٣هـ ، انما في كل المدن والحصون الصليبية التي فتحها ، والتي كان يمنح أهاليها الامان ثم يرسلهم مكرمين الى مأمنهم ٠ وكان لهذه السياسة أثر كبير في استسلام الحصون الصليبية ٠

وقد وصف الراهب أودو الدويلي معاملة المسلمين للاسرى الصليبيين ، بأنها كانت رحيمة وانسانية ، تختلف عن قسوة الصليبيين على اخوانهم الصليبيين ، بحيث ان المسلمين كانوا يقدمون الخبز والمأوى لاعدائهم الصليبيين ، مما دفعهم الى نبذ دينهم واعتناق عقيدة الاسلام[3] ٠

وقد حدث هذا الامر عند حصار الصليبيين لمدينة عكا سنة ٥٨٦هـ

---

(١) رحلة ابن جبير (ليدن ، ١٩٠٧) : ٣٠٧ ٠

(٢) ابن الفرات ، التاريخ ، م٤ ، ج١/٢٤٢ ٠

(٣) ارنولد ، سير توماس ، الدعوة الى الاسلام ، ترجمة حسن ابراهيم حسن ، (القاهرة ، ١٩٥٧) : ١٠٨-١٠٩ ٠

حيث وجد الصليبيون لهم طريقا الى المعسكر الايوبي ، بعد ان وجدوا فيه المأوى والطعام بعد ان كانت امداداتهم الصليبية قد تأخرت ، وكان حصار عكا قد طال • وازداد سعر المواد الغذائية ، حتى بلغ سعر غرارة الحنطة بأكثر من مائة دينار[1] • لذلك أخذت الاعداد الكبيرة من الصليبيين تسعى للانضمام الى المعسكر الاسلامي طمعا في المعاملة الانسانية ، وخوفا من الموت جوعا ويعلق السير توماس ارنولد على اولئك المسلمين الذين اهتموا بكسب النصارى وتحويلهم للاسلام فيقول : « وقد يكون من الممتع ان نعرف من هم هؤلاء ••• على اننا نعلم ان صلاح الدين العظيم نفسه كان على رأسهم »[2] •

معركة ارسوف :

بعد ان غدر ريتشارد بأسرى المسلمين في عكا ، خرج منها بجموع الصليبيين قاصدا استرداد الساحل الشامي الذي كان قد فتحه صلاح الدين وجعل طريقه نحو عسقلان[3] • بعد ان اتبع خطة عسكرية جيدة اقتضت مسيره على البرّ قريبا من الساحل ، بينما تسير سفنه الحربية في البحر

---

(١) لمعرفة سوء الاحوال الاقتصادية التي اصابت الصليبيين عند حصار عكا ومدى الغلاء في الاسعار الذي تعرضوا له والذي دفعهم لاعلان اسلامهم انظر : الاصفهاني ، الفتح القدسي : ٣٠٠ ؛ سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ق١ ج١ ٨/٤٠٤ ؛ ابن الفرات ، التاريخ ، م٤ ، ج١/٢٤٤ •

(٢) ارنولد ، المصدر السابق نفسه : ١١٠ •

(٣) عسقلان : مدينة بالشام من اعالي فلسطين على ساحل البحر بين غزة وبيت جبرين ، ويقال لها عروس الشام ، استولى عليها الصليبيون سنة ٥٤٨ هـ ، واستنقذها صلاح الدين منهم سنة ٥٨٣ هـ ، ثم خربها سنة ٥٨٧ هـ خوفا من استيلاء الصليبيين عليها • تاريخ ابن الفرات (تحقيق حسن محمد الشماع) م٤ ج٢/٢٩ هامش رقم (١٠٠) •

لتسانده . ولما علم صلاح الدين بهذه التحركات الصليبية عبأ قواته العسكرية وسار في أعقابهم ، رغبة بمضايقة العسكر الصليبي ومنع تقدمه نحو الساحل بسلام[1] .

وفي الوقت الذي ابتعدت فيه الجيوش الصليبية عن الساحل ، نتيجة للظروف الطبيعية ، عزم صلاح الدين على الاشتباك معهم بمعركة فاصلة ، وقد اختار قرية دير الراهب موضعا له فنزل بعساكره عليها ، وعند هذا الموضع طلب ريتشارد الاجتماع بالملك العادل ـ أخي صلاح الدين ـ وعرض عليه عقد صلح بين الطرفين شريطة ان يعاد الساحل الشامي الى الصليبيين ، فرفض العادل ، وعندها تأهب الطرفان للحرب ، وكان ذلك في يوم السبت ١٤ شعبان سنة ٥٨٧هـ/٧ سبتمبر سنة ١١٩١ ـ بعد ان كان العسكر الايوبي قد ازعج العسكر الصليبي كثيرا وضايقه ـ فحمل الصليبيون حملة رجل واحد على العسكر الاسلامي وهزمه[2] . ولولا دخول العسكر الاسلامي في موضع كثير الشجر عند ارسوف ، لتعرض لخسارة فادحة ، فقد ظن ريتشارد انسحاب المسلمين مكيدة ، فلم يتعقبهم داخل الغابة ولم يتابع انتصاره[3] .

وكان لوجود صلاح الدين في ساحة القتال أهمية كبيرة ، نظرا لانه كان يتنقل بين جماعة وأخرى من عسكره ويثبتهم على القتال بعد ان كادوا ينهزمون . يقول ابن شداد « فلما رأى السلطان ما نزل بالمسلمين سار حتى اتى طلبه ، فوقف فيه والناس يفرون من القتال ، وكلما رأى فارا من

---

(١) النوادر السلطانية : ١٧٥ ؛ الروضتين : ٢/١٩٠ ـ ١٩١ ؛ مفرج الكروب : ٢/٣٦٥ـ٣٦٦ .

(٢) مفرج الكروب : ٢/٣٦٦ـ٣٦٧ .

(٣) ابن خلدون ، التاريخ : ٥/٤٧٨ ؛ العريني ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية : ١/٩٦٣ـ٩٦٤ .

الحرب يحضره عنده ، فاجتمع في الطلب خلق عظيم ، ووقف العدو في مقابلتهم على رؤوس التلول والروابي ، وخاف العدو ان يكون في الشعرا كمين فتراجعوا يطلبون المنزلة »[1] اما باقي العسكر المنهزم ، فان كل من رأى صلاح‌الدين مع جماعة من الجند واقفين مقابل العدو يعود الى العسكر مسرعا ولا يتجاوزه استحياء من صلاح‌الدين والهزيمة[2] .

وقد لعب عسكر الموصل في هذه المعركة دورا مهما ، وبقي من دون سائر العساكر الاسلامية الاخرى صامدا في المعركة لم ينهزم ، حتى جلب أنظار صلاح‌الدين له ، فتقدم الى مقدمه علاءالدين بن عزالدين مسعود ـ اتابك الموصل ـ وشكره على ثبات عسكره[3] . وكانت معركة ارسوف هي المعركة الاولى التي تحسس فيها صلاح‌الدين قوة ريتشارد وكان من نتيجتها ان اضطر الى تبديل خطتـه العسكرية في القتـال كما سنجد من تخريبه لمدينة عسقلان والرملة .

تخريب مدينة عسقلان :

وبعـد هـذه الكسرة رحل صلاح‌الدين الى الرملة في ١٧ شـعبان واجتمعت الاثقال والعساكر بها ، فتداول مع أخيه العادل وكبار الامراء في الخطة العسكرية الواجب اتخاذها في المستقبل ، وكان أمر مدينة عسقلان من بين المواضيع التي تطرق اليها المجلس[4] . وقد اشير على صلاح‌الدين بخرابها خوفا من ان يدخلها الصليبيون ويقتلوا من بها من المسلمين كما فعلوا بعكا ، فلم يرض بذلك صلاح‌الدين وندب الناس لدخولها فلم يجبه

---

(١) النوادر السلطانية : ١٨٤ .
(٢) الروضتين: ٢/١٩١ ؛ ابن‌واصل ، مفرج الكروب : ٢/٣٦٨ .
(٣) ابن شداد ، نفس المصدر والمكان السابق .
(٤) ابو شامة ، نفس المصدر والمكان السابق .

أحـد[1] .

ولما وجد صلاح الدين من عسكره هذا الامتناع من دخول عسقلان ، ورغبتهم في خرابها ، لم يسارع باصدار أوامره في البدء بخرابها ، وبقي طوال الليل مستيقظا يفكر بالامر ، كما استدعى اليه القاضي الفاضل ابن شداد وبدأ الحديث معه في معنى خرابها ، كما احضر ابنه الملك الافضل وشاوره في الامر ، وكان يعرض عن خرابها ويقول : « والله لان افقـد أولادي كلهم أحبّ اليّ من ان اهدم منها حجرا واحدا ، ولكن اذا قضى الله بذلك وعيّنه لحفظ مصلحة المسلمين طريقا فكيف اصنع ؟ »[2] .

وهكذا فضل صلاح الدين مصلحة المسلمين على محبته للبلد فاستدعى الوالي قيصر - وهو من كبار مماليكه وذوي الآراء منهم - وأمره بهدم أسوار البلد وذلك ليلة الخميس ١٩ شعبان سنة ٥٨٧هـ ، كما قسّم السور على العسكر وجعل لـكل أمير وطائفـة من العسكر جزءاً وبرجا معلوما يخربونه ، وكان صلاح الدين وابنه الافضل وسط العسكر يستحثونهم على الاسراع في الخراب قبل ان يسمع الصليبيون بالخبر فيتقدمون اليهم ولا يتمكن من اتمام خرابها فيستولون عليها « وهي عامرة فيأخذ بها القدس وينقطع بها طريق مصر »[3] .

وقد استمر تخريب واحراق البلد الى نهاية شهر شعبان[4] ، ولما تم

---

(١) ابن الاثير ، الكامل : ١٢/٧١-٧٢ .

(٢) ابن شداد ، النوادر : ١٨٦ ؛ ابو شـامة ، الروضتين : ١٩٢/٢ .

(٣) ابن تغرى بردي ، النجوم الزاهرة : ٤٦/٦ .

(٤) الروضتين : نفس المصدر والمكان السابق ؛ السلوك (القاهرة، ١٩٣٤) ، ق١ : ١٠٦/١ .

خرابها وقع الضجيج والبكاء بين أهلها ، لما لحق بهم من الحزن العظيم نظرا لجمال البلد وعظم بنائه وكمال استحكاماته واضطرار اهله الى بيع ما لا يمكن حمله ، حتى بيع مثلا ما يساوي عشرة دراهم بدرهم واحد ، كما بيع اثنا عشر طيرا من الدجاج بدرهم واحد ، وسار أهله الى مصر والشام متفرقين[1] .

والاسئلة التي يمكن اثارتها : اذا كان خراب عسقلان قد أضرّ بأهل البلد كثيرا . فهل كان بالامكان تفادي الامر من دون تدمير البلد ؟ وهل نجحت هذه السياسة في حل المشكلة أم لا ؟ وهل كان صلاح‌الدين مصيبا في اتباعه لهذه السياسة ؟ .

ان نظرة سطحية للمشكلة ، ربما تدفع الباحث الى اتهام صلاح‌الدين وتحمله مسؤولية خراب عسقلان . لان خراب بلد ليس بالامر اليسير وبخاصة مثل عسقلان البلد الذي قيل فيه « كان بلدا خفيفا محكم الاسوار عظيم البناء مرغوبا في سكناه »[2] غير ان صلاح‌الدين لم يأمر بخرابه الا مضطرا ، على كره شديد منه وألم عظيم أحسّ به ، وبعد تداول الامر مع مستشاريه الذين أصروا على خرابها خوفا على المسلمين مما قد يقع عليهم ، كما وقع لاهالي عكا .

ولا يخفى بأن موقع مدينة عسقلان المهم بين طريق مصر والقدس هو الذي دفع الى تخربها اضافة للعوامل السابقة ، فلو سيطر الصليبيون على البلد لتحكموا بالطريق الواصل بين مصر والشام من جهة ولامكنهم اتخاذه مركزا لشن الهجمات على القدس من جهة ثانية . لذلك اختار صلاح‌الدين الاهم على المهم وفضّل القدس على عسقلان وقدّم الثانية ضحية لسلامة

---

(١) ابن شداد ، النوادر : ١٨٧ ؛ ابن كثير ؛ البداية والنهاية : ١٢/٣٤٥-٣٤٦ .

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب : ٢/٣٦٩ .

الاولى فعندما قرر صلاح‌الدين ، بعـد تفكير ومشاورة ، ضرورة تخريب المدينة ، عجل في هدمهـا ، وهـذا منتهى الحزم والصواب ، فلو سـمع الصليبيون بالامر قبل الانتهاء من انجازه لسارعوا اليهـا واحتلوها وبذلك يخسر صلاح‌الدين من جهتين : الاولى وقوع المدينة بيد الصليبيين ، والثانية نقمة اهل البلد على تخريب بلدهم • علما بان القائد العسكري لا يدع للظروف والمصادفات ان تتحكم في خططه ، وللحرب أحكام مؤلمة يضطر القائد اليها اضطرارا •

وبعـد تخريب عسقلان سـار صلاح‌الدين نحو الرملة فوصلها في ٣ رمضـان سنة ٥٨٧هـ وأمر بتخريب حصنها ، ثم خرج منهـا الى البيت المقدس فوصله يوم الخميس وخرج منه يوم الاثنين ٨ رمضان وتقدم نحو حصن النطرون وأمر بتخريبه أيضا فهدم[1] •

العلاقة بين ريتشارد وصلاح‌الدين :

عندما انتهى صلاح‌الدين من تخريب حصن النطرون وصل اليه من المركيس (كونراد دي منتفرات) رسولا يطلب عقد الصلح معه شريطة منحه بيروت وصيدا وان تكون عكا مقرا لاعماله بعد ان يأخذها من الصليبيين ويجاهرهم العداوة ، كما طلب الرسول ان يبذل له صلاح‌الدين اليمين على ذلك • فوافق صلاح‌الدين على هذه الشروط رغبة منه في ان يحدث انشقاقا في القـوة الصليبية غير انـه اشترط على المركيس ان يحاصر عكا ويستلمها من‌الصليبيين أولا ، ثم يمنحه صور وبيروت كأساس لتنفيذ الاتفاقية وبعث بالعـدل النجيب يوم الجمعـة ١٢ رمضان لاخباره بالامر[2] • كي

---

(١) ابن شداد ، النوادر السلطانية : ١٨٩ـ١٩٠ •

(٢) المصدر السابق : ١٩٠ ؛ الروضتين : ٢/١٩٣ ؛ ابن واصل، مفرج الكروب ٢/٣٧٢ •

لا يخسر صلاح الدين صور وبيروت خديعة •

وعندما سمع ريتشارد بما حدث من تقارب بين كونراد وصلاح الدين عزم على تجديد الاتصال مع الملك العادل علّه يظفر بصداقة صلاح الدين فيفوّت الفرصة على كونراد • لذلك راسل العادل ولاطفه وقدّم له اقتراحا للسلام يتزوج بمقتضاه العادل بالملكة جوان Joan – اخت ريتشارد وأرملة وليم الثاني ملك صقلية – شريطة ان تكون القدس عاصمة ملكهما ، وان تعود اليهما المدن الساحلية المهمة مثل عكا ويافا ، وان يسكن القدس مع جوان القسوس والرهبان ، اضافة الى انه يجب على العادل ان يرضي فرسان الداوية والاسبتارية ببعض القرى[1] • وكان على الطرفين أيضا ان يطلقا سراح المسجونين ، وان يعيد صلاح الدين الصليب المقدس للصليبيين ، بينما يغادر ريتشارد الى انجلترا[2] •

والحقيقة ان هذه عملية مدبرة خطط لها للايقاع بين الأخوين (صلاح الدين والملك العادل) • وكانت ذكية بشكل كبير ، فلو رفض صلاح الدين طلب العادل لوقع الفراق بينهما ، وكان لابد ان يعقب الفراق خصومه تسبب ضعف الجيش الاسلامي وانقسامه • ولو وافق صلاح الدين على طلب العادل ، لأثار ريتشارد مشكلة جديدة وهي ان اخته لا تقبل الزواج من مسلم • فان رضي العادل بدين النصرانية فمعنى هذا عودة القدس وما فتحه صلاح الدين من ساحل الشام الى أيدي الصليبيين ، وان رفض العادل قبول دين النصرانية فسوف تعود الحالة الى وضعها الاول

---

(١) ابن الاثير ، الكامل : ٧٢/١٢ ؛ الاصفهاني ، الفتح القدسي: ٣٩٣–٣٩٥ ؛ العليمي ، الانس الجليل : ٣٨١/١ •

(٢) Rosebault, Saladin Prince of Chivalry, PP. 280-281.

قبل المفاوضات « ولم يكن هنـاك ادنى شك بأن ريتشارد كان يحـاول السخرية من ضحيته ، ولابد انه كان يمزح عندما كتب للسلطان في مسألة عقد الزواج بين جوان والعادل »[1] •

ومهما يكن من أمر هـذه العملية الخطيرة ، فان الملك العادل وثق بكلام ريتشارد واحضر عنده جماعة من الامراء وهم علم الدين سليمان وسابق الدين وعزالدين ابن المقدم وحسام الدين بشارة بالاضافة الى القاضي بهاءالدين ابن شداد وشرح لهم ما ذكره له رسول الصليبيين من مسألة زواجه باخت الملك ريتشارد وطلب منهم الذهاب الى صلاح الدين واخباره بالامر ، وجعل ابن شداد المتكلم باسـمه والباقين شهودا • فلمـا سمعهـا صلاح الدين وافق عليها ، غير انه كان معتقدا ان الملك ريتشارد لا يوافق على ذلك اصلا وان هذا منه مكر وحيلة[2] • فأجاب أخاه على طلبه كي لا يحدث انشقاقا في عسكره •

ولما أخبر العادل بموافقة صلاح الدين على عرضه ، انفذ رسولا الى ريتشارد يعرّفه بالموافقة على الشروط التي عرضها ، غير ان ريتشارد أجابه بامتناع أخته عن الزواج من مسلم وعرض عليه دين النصرانية كبديل لحل المشكلة ، غير ان العادل رفض النصرانية وبقي الامر على سابق عهده[3] •

وفي نفس الوقت الذي كانت تجرى فيـه المفاوضات كان كل جانب مشغولا بالحاق الاضرار بخصمه ، فقـد استولى الاسطول الاسلامي على مراكب صليبية كان في احدها خمسمائة جندي ، قتل منهم جماعة وأسر

---

(١) Rosebault, op. cit., P. 280.

(٢) ابن شداد ، النوادر : ١٩٥ــ١٩٦ ؛ الاصفهـاني ، الفتح القدسي ٣٩٣ــ٣٩٤ ؛ مفرج الكروب : ٢/٣٧١ــ٣٧٢ •

(٣) نفس المصادر والامكنة السابقة •

الباقين[١] • علما بأنه اعقب ذلك تبادل الولائم بين العادل وريتشارد ، وقد ظهر بأنهما كانا يقضيان يومهما بالتحدث عن تحضير الطعام عند كل منهما مع توجيه نقد ملائم ، واحيانا كان يجد ان الوقت مناسبا فيتحدثان عن حالة الحرب بين الجانبين وعن كيفيه التوصل الى انهائها • يقول ابن شداد : « ولما كان يوم الجمعة ثامن عشر شوال من السنه ٥٨٧هـ سار الملك العادل الى اليزك ••• وسار الانكتار الى خيمته ••• ووصل معه شيء من طعامهم الذي يختصون به ، فاتحف به الملك العادل على وجه المطايبه ، فتناول منه الملك العادل ، وتناول هو واصحابه الواصلون معه من طعام الملك العادل ، وقدم اليه ما كان حمل اليه وتحادثا معظم ذلك النهار ، وتفاصلا عن تواد ومطايبة ومحبة اكيدة »[٢] •

ورغم المناوشات التي كانت تجرى بين الفريقين والاضرار التي كان يلحقها العسكر الاسلامي والاعراب بمؤخرات العسكر الصليبي[٣] ، فان ريتشارد كان يحاول بعد فشل كل محاولة للصلح ان يتقرب للعادل ويراسل صلاح الدين بطلب عقد الهدنة وذلك للمشكلات الداخلية التي كان يعاني منها الصليبيون وخوف ريتشارد على ممتلكاته في انجلترا ، والمنافسات التي كانت دائرة بينه وبين المركيس وجاي لوزجنان[٤] • هذا بالاضافة الى ان

---

(١) ابن شداد ، النوادر : ١٩٦ ؛
Rosebault, op. cit., P. 282.

(٢) ابن شداد ، المصدر السابق : ٢٠١ •

(٣) كان من بين الاعراب رجال اشداء يدخلون على مخيمات الصليبيين ويسرقون الرجال وهم احياء بعد ان يضعوا الخناجر على نحورهم فيضطر الصليبي ان يسكت ولا يتجاسر على الكلام ، وكانوا يسرقون مع الرجال معداتهم وأموالهم وخيولهم ، انظر : ابن شداد ، النوادر السلطانية : ١٩٢-١٩٣ •

(٤) لمعرفة المزيد من المشكلة التي وقعت بين كونراد دي مونتفرات

الكتاب الذي أرسله ريتشارد الى اسقف كليرفو يدل على انه كان يعاني من شـدة الحرارة وكثرة الانفـاق على العساكر اللذين استنفذا قوته وصحته • علما بأن سائر القادة الغربيين قرروا العودة الى بلادهم اذا لم يصلهم الامداد بالاضافة الى تداعي الروح المعنوية للعسكر الصليبي[1] •

وهكذا كتب ريتشارد الى صلاح‌الدين ، رغم فشل محادثات السلام التي اجراها مع الملك العادل ، وارسل اليه كتابا جاء فيه :

« ان المسلمين والفرنج قد هلكوا ، وخربت البـلاد وتلفت الاموال والارواح ، وقد اخذ هذا الامر حقه ، وليس هناك حديث سوى القدس والصليب ، والقدس متعبدنا ما ننزل عنه ولو لم يبق منا واحد ، واما البلاد فيعاد الينا ما هو قاطع الاردن ، واما الصليب فهو خشبة عندكم لا مقدار له ، وهو عندنا عظيم ، فيمن السلطان علينا ونستريح من هذا العناء الدائم »[2] • غير ان صلاح‌الدين لم يرض بأنصاف حلول او تقديم أية تنازلات لاعدائه ولذلك كتب الى ريتشارد جوابا لرسالته :

« القدس لنا كما هو لكم ، وهو عندنا اعظم مما هو عندكم ، فانه مسرى نبينا ، ومجتمع الملائكة ، فلا يتصوران ننزل عنه ، ولا نقدر على التلفظ بذلك بين المسلمين ، اما البلاد فهي لنا في الاصل ، واستيلاؤكم كان طارئا عليها لضعف من كان بها من المسلمين في ذلك الوقت ، واما الصليب فهلاكه عندنا قربة عظيمة ، ولا يجوز لنا ان نفرط فيه الا لمصلحة راجعة

وجاي لوزجنان والتي هددت وحدة الصليبيين بالشام ، وموقف ريتشارد من هذا النزاع • انظر :

Archer, op. cat., P. 329, 339-340; Setton, op. cit., 1, P. 89.

(١) العريني ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية : ١/٩٧٠ـ٩٧١ •

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب : ٢/٣٧٢ـ٣٧٣ •

الى الأسلام هي أوفى منها »[1] ٠

وفي عشية يوم السبت ١٩ شوال سنة ٥٨٧هـ وصل الى صلاح الدين رسول من الملك ريتشارد صحبة شيخ كبير جاوز المائة عام واوضح له بأن ريتشارد يرغب بصداقته وطلب منه ان يكون حكما بين ريتشارد والعادل في اقتسام ساحل الشام الذي كان صلاح الدين قد منحه لاخيه العادل ، كي لا يوقع على العادل لوما من جانب المسلمين ، ولا على ريتشارد من الصليبيين، فأجابه صلاح الدين بوعد جميل تضمن عبارات الرضاء ٠ فعاد الرسول مسرورا الى ريتشارد فارسل الى صلاح الدين رسولا آخر يفاتحه بشأن أسرى الحرب ٠ غير ان صلاح الدين لم يكن راغبا في الصلح مع أعدائه خوفا على مستقبل الارض الاسلامية والمسلمين من غدر الصليبيين ، ولذلك رفض الحديث مع الرسول بشأن الاسرى واوضح له بأنه اما ان يكون صلحا عاما بين الطرفين ، واما لا يكون حديث صلح بشأن الاسرى فقط ٠ وكان هدف صلاح الدين من هذه السياسة فسخ قاعدة الصلح التي لوّح بها لرسول ريتشارد من قبل ٠ وقد اوضح للقاضي ابن شداد أسباب تغيير موقفه بقوله : « متى صالحناهم لم تؤمن غائلتهم ، فاني لو حدث لي حادث الموت ما تكاد تجتمع هذه العساكر ، ويقوى الفرنج ، والمصلحة الا نزال على الجهاد حتى نخرجهم من الساحل ، أو يأتينا الموت »[2] ٠ ولذلك فان ما ذكره المؤرخ الفرنسي شامبدور Champdor من ان صلاح الدين كان يرفض حديث الصلح مع ريتشارد ، لانـه كان يهدف الى توسيع دولته توسيعا لا نهائيا ، وهي وضعية جعلته يكون بين الحرب والسلم[3] ٠ قول

(١) نفس المصدر السابق : ٢/٣٧٣ ٠

(٢) ابن شداد ، النوادر : ٢٠٣ ٠

(٣) Saladin le plus purherous de, Ilslam, P. 306.

بعيد عن حقيقة صلاح الدين وما كان يهدف اليه • فهو لم يكن يهدف الى توسيع دولته توسيعا لا نهائيا بقدر ما كان يهدف الى اخراج الغزاة من الاراضي التي احتلوها لضعف مقاومة المسلمين في ذلك الوقت • ومن هنا كان يرفض اي حديث للصلح يحل المشكلة حلا شكليا مؤقتا •

اذن ، فان صلاح الدين كان يريد حل المسألة جذريا عن طريق مغادرة الصليبيين للاراضي التي احتلوها ، ولذلك كان يرى ضرورة استمرار القتال ، غير ان ريتشارد كان يريد ان يتوقف القتال وان يتوصل الى عقد هدنه للسلام ، لا لخدمه الحق الاسلامي ، انما لخدمه القضية الصليبية عن طريق الاعتراف بقوة الصليبيين في جزء من القدس وساحل الشام • وكان مستعدا لنيل هدفه بالتضحيه حتى بابنه اخته البكر ، التي راسل صلاح الدين وعرض عليه تزويجها للملك العادل كاساس لحل المشكلة والوصول الى عقد هدنة للسلام[1] ، ثما عرض على العادل من قبل تزويجه باخته الأرملة جوان • غير ان صلاح الدين كان مصرا على عدم تغيير موقفه ، ولذلك كانت المناوشات مستمرة بين الجانبين حتى دخلت سنة ٥٨٨هـ/١١٩٢م • ففي ٣ محرم اغار ريتشارد على سرية للمسلمين وغنم ما كان بها • وفي ١١ محرم كبس الامير عزالدين جرديك تبنى ـ من أعمال دمشق ـ على من نزل بها من الصليبيين واوقع بها وأسر منهم اثني عشر رجلا ، وفي ٢ صفر أغار على عسقلان وجاء بثلاثين أسيرا[2] •

في هذه الفترة أصبح ريتشارد القائد الاول للصليبيين من دون منازع ، فقد قتل المركيس في ١٣ ربيع الآخر سنة ٥٨٨هـ[3] ، وانضم اتباعه لقوات

---

(١) ابن شداد ، النوادر : ٢٠٣ـ٢٠٤ •

(٢) ابو شامة ، الروضتين: ٢/١٩٦ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب: ٢/٣٨٠ـ٣٨١ •

(٣) الكامل : ١١/٧٨ـ٧٩ ؛ تاريخ ابن خلدون : ٥/٧١٣ •

ريتشارد الصليبية • كما زال بمقتله الخطر الذي كان يهدد ريتشارد نتيجة للاتفاق الذي حصل بين المركيس وصلاح‌الدين[1] •

وقد استغل ريتشارد فترة تزعمه للحركة الصليبية ، وانشغال صلاح‌الدين بتفريق عساكره لاخذ قسط من الراحة ، فنزل في ٢٤ـ٥ـ١١٩٢ على قلعة الداروم الواقعة على بعد ٣٠كم جنوب عسقلان على طريق مصر واحتلها رغم مقاومة الامير علم‌الدين جندر القوية له[2] • ثم تقدم في ١٤ جمادي الاولى الى مجدل يابا وجرت عندها معركة صغيرة قتل فيها فارس اسلامي واحد • ولما رأى صلاح‌الدين حركة الصليبيين هذه وانبساطهم في البلاد مع وصول أخبار تقول بأن الصليبيين عزموا على قصد البيت المقدس كتب الى العساكر من جميع الاطراف ان تسابق بالحضور اليه[3] •

محاولة الصليبيين حصار القدس وفشلهم :

كان من بين المتسابقين للمثول أمام صلاح‌الدين تلبية لنداء الجهاد العسكر المصري الذي تجهز بكل ما يملك من عدد وعدّة وخرج طالبا البلاد الشامية ، فعلم الصليبيون بأخبار هذه القافلة وبيّتوا لها مكيدة ، واستخدموا العرب البدو الرّحل المنتشرين في المنطقة الواقعة بين مصر والشام لنقل أخبارها اليهم خطوة بخطوة ، حتى قيل بان ريتشارد ـ ملك انجلترا ـ طاف حول القافلة بصورة عربي ، ورأى ما كانت تحويه من عدد ومتاع[4] لتقدير قوتها • ومن المرجح ان اولئك الاعراب كانوا هم الذين

---

(١) Look: Rosebault, op. cit., P. 282.

(٢) Champdor, Saladin, P. 313.

(٣) ابن شداد ، النوادر : ٢١٠ـ٢١١ ؛ ابو شامة ، الروضتين: ٢/١٩٧ •

(٤) ابن واصل ، مفرج الكروب : ٢/٣٨٤ •

ساعدوا ريتشارد على القيام بمهمة الاستطلاع ضد القافلة المصرية • يقول ابن شداد : « واما الانكتار الملعون فأنه بلغنا انه لما بلغه الخبر [أي خبر وصول القافلة المصرية] لم يصدق به ، فركب مع العرب بجمع يسير وسار حتى أتى القفل وطاف حوله في صورة عربي ، ورآهم ساكتين قد غشيهم النعاس فعاد واستركب عسكره وكانت الكبسة قريبة الصباح »[1] مما يدلنا على تحمل اولئك الاعراب للمسؤولية نكبة العسكر المصري ، ومدى خطورتهم في المنطقة ، ولهذا أجبر صلاح‌الدين بعضهم على الهجرة الى الشام في عهد نورالدين كما تبين ذلك في الفصل الاول • وقد خسر المصريون كثيرا نتيجة لهذه الكسرة • فقد اسر منهم خمسمائة رجل ، واستولى ريتشارد على ما يناهز ثلاثة آلاف جمل[2] • كما قوت هذه الكسرة معنوية الصليبيين ودفعتهم للمسير نحو القدس في محاولة للاستيلاء عليها من جديد •

رتب ريتشارد جماعة من عسكره على لدّ ليحفظوا الطريق على من سيمدهم بالميرة وانفذ الكند هرى ـ الذي احتل مكانة المركيس في مدينة انطاكية ـ الى صور وطرابلس وعكا لاستجماع العساكر والمسير بها نحو القدس[3] • وقد صمم الصليبيون في هذه الغزوة على احتلال القدس واعلنوا أنهم سوف ينسون كل الآلام التي أصابتهم ويقومون برسالتهم في محاربة المسلمين محاربة جادة ، بعد أن أثار فيهم قادتهم روح الحماس الديني ، ومن ذلك قول ريموند لتجمعات الصليبيين السائرة نحو القدس

---

(١) ابن شداد ، النوادر : ٢١٤ •

(٢) ابن شداد ، نفس المصدر والمكان السابق ؛ ابو شامة ، الروضتين : ٢/١٩٨ •

(٣) ابن واصل ، مفرج الكروب : ٢/٣٨٥ •

« ان الذي سينهي حياته في سبيل خدمة المسيح لا يعتبر ميتا »[1] .

ونتيجة للتحركات الصليبية هذه ، فقد استدعى صلاح الدين العساكر من مختلف الجهات ، وقام بالاسراع باكمال ترميماته لسور القدس ، حتى انه كان يشتغل مع العسكر بنفسه لاتمام المهمة . كما عمد الى افساد المياه الموجودة في ظاهر القدس ، فاخرب كل الصهاريج المنتشرة هناك بحيث لم يبق حول القدس ما يشرب أصلا[2] . ومن جهة أخرى فقد التفت صلاح الدين الى العمل من أجل رفع الروح المعنوية للمقاتلين ودفعهم للقتال بحزم وقوة عن طريق تذكيرهم باليوم الآخر والجهاد في سبيل الله وتعلق رقاب المسلمين وآمالهم بذمم المقاتلين . لذلك أمر القاضي بهاء الدين ابن شداد بتجميع العساكر وحثهم على الجهاد ، فاستجمعهم قرب الصخرة في المسجد الاقصى ليلة الخميس ١٩ جمادى الآخرة سنة ٥٨٨هـ وكان من بينهم أبو الهيجا والمشطوب وجميع الاسدية وطلب منهم مبايعة صلاح الدين على الموت في لقاء العدو كما بايع الصحابة النبي محمد (ص) . وبينما كان ابن شداد ينتظر الجواب من العسكر ، خرج صلاح الدين اليهم والقى فيهم كلمة مؤثرة جاء فيها : « الحمد لله والصلاة على رسول الله ، اعلموا انكم جند الاسلام اليوم ومنعته ، وأنتم تعلمون ان دماء المسلمين وأموالهم وذراريهم معلقة في ذممكم . فان لويتم اعنتكم ـ والعياذ بالله ـ طوى البلاد كطي السجل للكتاب ، وكان ذلك في ذمتكم فانكم أنتم الذين تصديتم لهذا وأكلتم مال بيت المسلمين ، فالمسلمون في سائر البلاد متعلقون بكم والسلام »[3] . وقد تأثر العسكر الايوبي كثيرا بكلمة قائده فقام سيف الدين

---

(١) Champdor, op. cit., P. 314.

(٢) ابو شامة ، الروضتين : ١٩٨/٢ ؛ ابن واصل ؛ مفرج الكروب : ٣٨٥/٢ ؛ ابن الفرات ، التاريخ ، م٤ ، ج٢/٦٨ـ٦٩ .

(٣) ابن شداد ، النوادر : ٢١٦ .

المشطوب وقال في بعض ما قاله : « والله ما يرجع احد منا عن نصرتك الى ان نموت »[1] .

ولم يمض الا يوم واحد على اجتماع كلمة الامراء في مساندة صلاح الدين حتى وقع الاختلاف بينهم في الطريقة الواجب اتخاذها للدفاع عن القدس ، وابلغ الامير أبو الهيجا بكتاب أرسله الى صلاح الدين رفض الامراء الدفاع عن القدس من الداخل خوفا مما قد يحدث لهم كما حدث لاهالي عكا[2] . واقترحوا عليه مواجهة العدو في سهول الجليل الواسعة التي تسمح للعسكر بالتحرك[3] .

وقد جاءت الظروف مواتية لصلاح الدين عندما وصلته أخبار في صبيحة يوم السبت ٢١ جمادى الآخرة / ٤ تموز تخبر بأن الصليبيين مختلفون فيما بينهم ، وان ريتشارد يعارض بشدة حصار بيت المقدس لتعذر الحصول على الماء والكثرة من بداخل البلد وخارجه من العساكر[4]. وبعد ان كان ريتشارد قد درس وضعية القدس ، والقى نظرة فاحصة على أسوارها من بعد اعلن للصليبيين « بأنه لم يعد البحر على يميننا ولا المستنقعات لكي تحمينا ... وانه يستحيل تطويق أي مكان ما دام صلاح الدين حياً ، وما دام المسلمون محدين مع بعضهم ، واننا لن نستطيع محاصرة القدس لاننا سنواجه في الوقت نفسه قوات صلاح الدين في المعركة »[5].

هكذا تقرر الرحيل عن القدس ليعود ريتشارد من جديد الى مفاتحة

---

(١) نفس المصدر والمكان السابق .

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب : ٣٧٨/٢ .

(٣) Champdor, op. cit., P. 319.

(٤) ابن شداد ، النوادر : ٢١٧ ؛ ابو شامة ، الروضتين : ١٩٩/٢ .

(٥) Champdor, op. cit., P. 315.

صلاح الدين بحديث الصلح ، خاصة وان أخبارا جديدة وصلت اليه من الغرب تؤكد حدوث بعض الاضطرابات الداخلية ، مما دفعه الى الاسراع بالعمل ليتمكن من العودة الى بلاده غير انه لم يكن من المعقول ان يعود بدون حل للمشكلة التي كانت بينه وبين صلاح الدين[1] ، لذلك أرسل الى صلاح الدين كتابا اوضح له فيه حسن نواياه ومحبته له ورغبته الاكيدة بالوصول الى السلام عن طريق عقد هدنة تضمن مصالح الجانبين فاستشار صلاح الدين أصحابه بالامر ، فأجابوه بالمصالحة لتعب العساكر الاسلامية وضجرها من الحرب ، وانتهت المحادثات بأن تكون القدس للمسلمين ويكون للصليبيين فيها الزيارة فقط من دون ان يؤخذ منهم ضريبة ، وان تخرب عسقلان وما وراءها من البلاد كي لا تكون ملجأ للصليبيين ومركزا يشنون منها غاراتهم على القدس في المستقبل . غير ان ريتشارد رفض تخريب عسقلان ، فانهى المحادثات بالاتفاق على ان لا يتفقوا[2] .

فتح يافا :

ولما فشلت محادثات السلام بين ريتشارد وصلاح الدين ، تقدم صلاح الدين الى يافا يوم الثلاثاء ١ رجب سنة **٥٨٨هـ/٢٧** تموز سنة **١١٩٢م** وتمكن عسكره من ان يحدث ثقبا في سورها ، ثم اسقطت بعض أبدان السور ، مما دفع بالصليبيين الى طلب الامان ، غير ان صلاح الدين اوضح لرسول الصليبيين بأنه لا يقدر على ايقاف القتال بعد ان تمكن العسكر من السور ودخلوا المدينة ، وطلب منه ان ينحاز الصليبيون الى جهة من البلد أو يدخلوا القلعة . فانحازوا اليها ، ودخل العسكر الاسلامي البلد

---

(١) عاشور ، الحركة الصليبية : ٢/٨٨٥ .

(٢) انظر : ابن شداد : النوادر السلطانية : **٢١٩ـ٢٢١** ؛ ابو شامة ، الروضتين ٢/١٩٩ـ٢٠٠ .

واستولى على ما به من أموال وعدد واثاث وبقايا قماش مما كان قد نهبه العسكر الصليبي من القافلة المصرية التي استولى عليها ريتشارد أثناء عبورها للشام[1] .

وما ان علم ريتشارد باستيلاء صلاح الدين على يافا حتى تقدم اليها ، فانسحب صلاح الدين منها ، لانه لم يشأ الاصطدام مع عدوه داخل حدود المدينة وفضل الاشتباك معه في ساحات القتال المكشوفة ، ولما وصل ريتشارد ربض يافا التي كانت بيد صلاح الدين قال : « والله انه لعظيم [أي صلاح الدين] ، والله ما ظننته يأخذ يافا في شهرين ، فكيف أخذها في يومين »[2] .

ونظرا للضغوط الشديدة التي كان يلاقيها ريتشارد من الصليبيين في الشام ومن الانكليز الذين كانوا يحثونه على العودة الى وطنه[3] ، بالاضافة الى شدة صلاح الدين ونشاطه في العمليات العسكرية التي كان استيلاؤه على يافا آخرها ، لذلك فضل عقد هدنة مع صلاح الدين بأي وسيلة كانت ، وارسل اليه رسولا يطلب منه يافا وعسقلان ويتنازل عن القدس كحل للمشكلة ، غير ان صلاح الدين رفض طلبه وقدم له اقتراحا بمنحه من قيسارية الى صور ، فرضي بذلك ريتشارد ، غير انه طلب من صلاح الدين

---

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب : ٢/٣٩٥ .

(٢) ابن واصل ، المصدر السابق : ٢/٣٩٩ . ولم اجد في المصادر الغربية ما يدل على هذا المعنى . غير ان هذا النص ان دل على شيء انما يدل على ان يافا كانت بلدا منيعا يتطلب فتحها على الاقل شهرا واحدا ، غير ان صلاح الدين تمكن من فتحها بيومين من القتال المستمر وفي هذا مدح لصلاح الدين وتمجيد لسياسته العسكرية .

(٣) لامب ، شعلة الاسلام : ٢٤٧ ؛
Champdor, Saladin, P. 322.

ان يكرمه بيافا وعسقلان وقال له : « ان قاعدة الفرنج انه اذا أعطى واحد لواحد بلـدا صـار تبعـه وغلامه ، وأنا أطلب منك هذين البلدين يافـا وعسـقلان ، وتكـون عساكرهما في خدمتـك دائمـا ... »[1] فأجـابه صلاحالدين الى طلبه غير انه جعل البلدين مناصفة بين الطرفين : يافا وما وراءها لريتشارد وعسقلان وما وراءها للمسلمين[2] .

ولم يقنع ريتشارد بذلك وارسل طالبا عسقلان ، وجعلها أساسا لحل المشكلة . الا ان صلاحالدين أصر على بقائها بيد المسلمين أو تخريبها ، وكان يتكلم من مركز القوة نظرا للامدادات العسكرية الكبيرة التي وصلته في تلك الفترة من أطراف مختلفة اذ وصل اليه عسكر الموصل في ٢٦ رجب بقيادة علاءالدين بن عزالدين مسعود ـ أتابك الموصل ـ كما وصل اليه عسكر مصـر في ٩ شعبان وفيهم سيفالدين يازكوج وجماعة الاسدية ، فاضطر ريتشارد الى قبول الصلح والتنازل عن عسقلان ، بعـد ان وجـد اصرار من صلاحالدين بعدم منحه اياها ، وكان ذلك في ٢٠ شعبان سنة ٥٨٨هـ/٣١ـ٨ـ١١٩٢م وتضمنت شروط الاتفاقية ما يلي :ـ

١ ـ تكون الهدنة عامة في البر والبحر ومدتها ثلاث سنوات وثلاث شهور أولها الموافق ٢١ شعبان/٢٢ـ٩ـ١١٩٢م .

٢ ـ تكون مدينة عسقلان خرابا .

٣ ـ تكـون بلاد الاسماعيلية داخلـة في شروط الصـلح باقتـراح صلاحالدين .

٤ ـ اشتراط الصليبيون دخول أميري انطاكية وطرابلس الصليبين

---

(١) ابن شداد ، النوادر : ٢٢٨ .

(٢) نفس المصدر والمكان السابق ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب : ٣٩٩/٢ .

في الصلح •

٥ ـ تكون مدينة الرملة واللد مناصفة بين الطرفين الصليبي والاسلامي •

٦ ـ تتم هذه الاتفاقية بعد ان يحلف عليها ملوك وأمراء كلا الطرفين[١] •

حلف كلا الطرفين على مضمون الاتفاقية ، وامر صلاح الدين ان ينادى في معسكرات الجند والاسواق بأن الصلح قد تم فمن شاء من الصليبيين ان يدخل بلاد المسلمين فليفعل • ومن شاء من المسلمين ان يدخل بلاد الصليبيين فليفعل • وكان يوم الصلح يوما مشهودا عمت فيه الفرحة الطائفتين ، واختلط العسكر الصليبي بالاسلامي وذهب جماعة من التجار المسلمين الى يافا في طلب التجارة ، ووصل عدد كبير من الصليبيين الى القدس لاداء الحج ، فعاملهم صلاح الدين معاملة حسنة للغاية ومدّ لهم موائد الطعام وكان هدفه من ذلك ان يقضي الصليبيون وطرهم من الزيارة ، ثم يعودوا الى بلادهم وليس في نفوسهم شيء على المسلمين فيأمن شرهم • حتى ان ريتشارد لما علم بكثرة النصارى الذين عمدوا الى زيارة القدس ، كتب الى صلاح الدين يخبره بمنع أي نصراني يدخل القدس الا بموافقته ، غير ان صلاح الدين رفض طلبه واعتذر اليه بأن الحجاج النصارى يصلون الى القدس من مكان بعيد متحملين متاعب الطريق لذلك لا أتمكن من

---

(١) ابن شداد ، النوادر : ٢٣٠ـ٢٣٥ ؛ ابن ايوب ، المنتخبات : ٣٠٣ـ٣٠٤ ؛ ابن الاثير ، الكامل : ١٢/ ٨٥ـ٨٦ ؛ ابو شامة ، الروضتين : ٢/ ٢٠٢ـ٢٠٣ ، ابن واصل ، مفرج الكروب : ٢/ ٤٠٢ـ٤٠٤ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة : ٦/ ٤٨ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية : ١٢/ ٣٥٠ـ٣٥١ ؛ ابن الوردي ، التاريخ ٢/ ١٥٠ـ١٥١ ؛ ابو الفداء ، المختصر : ٥/ ١٠٨ـ١٠٩ •

ردهم[1] .

والسؤال الذي يمكن اثارته : اذا كان صلاح الدين قد هدف من قبل الى منع الاتفاق مع الصليبيين ، ورغب باستمرار القتال معهم حتى يخرجوا من الاراضي الاسلامية التي احتلوها جميعا . فلماذا اذن قبل مهادنتهم في هذه المرة ؟

حقيقة ان التوصل الى عقد هدنة بين الصليبيين والمسلمين ، في هذه الفترة خدمت الطرفين ، لما تمخض عنه الاتفاق من نتائج ايجابية أفاد منها ريتشارد وصلاح الدين على السواء . ولو لم يقع الصلح وحدثت حادثة وفاة صلاح الدين ـ التي وقعت بعد أقل من سنة من عقد الصلح ـ لوقع على المسلمين خطر كبير ، ولضاعت على ريتشارد من جهة ثانية ممتلكاته في انجلترا لعدم تمكنه من العودة اليها . ثم ان صلاح الدين لم يقبل بالصلح الا بعد الحاح الامراء عليه وطلبهم منه عقد الصلح مع الاعداء واحتجوا بقولهم : « فانظر الى أحوال البلاد فانها خربت ... والاجناد فانها تعبت ... والجياد فانها عطلت وقد اعوزت العلوفات ... وغلت الآلات ولا جلب الا من الديار المصرية مع ركوب المخاطر ... وهؤلاء الفرنج اذا يئسوا من الهدنة بذلوا وسعهم في استفراغ المكنه واستنقاذ المنه ... والصواب ان تقبل من الله الآية التي انزلها (وان جنحوا للسلم فاجنح لها)[2] وحينئذ تعود الى البلاد سكانها وعمارها وتكثر في مدة الهدنة غلاتها وأثمارها ... فاذا عادت أيام الحرب عدنا وقد استظهرنا وزدنا »[3] .

---

(١) الاصفهاني ، الفتح القدسي : ٤٤٠ـ٤٤١ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب : ٤٠٥ـ٤٠٦ ؛ العليمي ، الانس الجليل : ١/٣٩٠ .

(٢) انظر : الانفال : ٨/٦١ .

(٣) الاصفهاني ، الفتح القدسي : ٤٣٤ـ٤٣٦ .

لذلك فان قبول صلاح الدين للهدنة مع أعدائه كان لتعب العسكر وملله من الحرب المستمرة ، ثم تعب الخيول التي اجهدها الجهاد ، وفقدان العدة وغلاء أسعار الغلات والعلوفات • ولاستخدام فترة الهدنة لتعبئة القوى والاعداد للمعارك القادمة من جهة ثانية • ولذا يمكن القول بأن صلاح الدين قبل الهدنة مع الصليبيين لمصلحة المسلمين ، كما كان قد رفضها من قبل لمصلحة المسلمين •

ونتيجة لعقد هذه الهدنة ، فقد عاد صلاح الدين الى القدس في ٤ رمضان واشتغل بعمارة أسوارها وترميم حصونها وتعميق خنادقها ، ولم يغتر بما وقع من صلح مع الصليبيين خوف المكر والخديعة[١] • وكان يجلس بالقدس بحضرة أهل العلم والدين يناقش ويذاكر في كيفية بناء الاسوار وحفر الخنادق وقد وصف لنا البغدادي ، متوفى حوالي سنة ٦٣٢هـ ، مجلسا من مجالس صلاح الدين الذي حضره بنفسه بعد عودة صلاح الدين للقدس فقال « ••• وأول ليل حضرته وجدت مجلسا حفلا بأهل العلم يتذاكرون في أصناف العلوم وهو [صلاح الدين] يحسن الاستماع والمشاركة ، ويأخذ في كيفية بناء الاسوار وحفر الخنادق ويتفقه في ذلك ويأتي بكل معنى بديع »[٢] •

ومن جهة ثانية ، فان ريتشارد اطمئن أيضا لنتائج الصلح مع صلاح الدين فعاد الى بلاده في ٩-١٠-١١٩٢م عن الطريق البري الى انجترا[٣] • كما عاد صلاح الدين أيضا الى دمشق - مقر أعماله الاول في

---

(١) الاصفهاني ، الفتح القدسي : ٤٤٠ •

(٢) زيادة ، الجغرافيــة والرحلات عند العــرب (بيروت ١٩٦٢): ١٨٢ •

(٣) Grousset, op. cit., 111, P. 103.

الشام ومحل سكنى أولاده ـ فخرج من القدس على طريق الثغور الاسلامية كنابلس وطبرية وصفد وتبنين ثم قصد بيروت وتعهد هذه البلاد وامر باحكامها ، وفي بيروت نزل في خدمته البرنس ـ صاحب انطاكية ـ واجتمع به فاكرمه صلاح الدين وطيب قلبه ، ثم خرج من بيروت الى دمشق فدخلها في ٢٦ شوال سنة ٥٨٨هـ ، ولم يمكث فيها طويلا حيث توفي في فجر يوم الاربعاء ٢٧ صفر سنة ٥٨٩هـ بعد مرض أصابه دام ثمانية أيام[١] .

هكذا انتهى موقف صلاح الدين من القوى الصليبية ، بعد ان قضى سنيّ حياته يصد هجماتهم المتكررة على منطقة الشام . وقد برهن ـ استنتاجا مما سبق ـ على مقدرة عسكرية كبيرة وفائقة ، وقسوة على النفس في الاخلاص « فقد صان شرفه وحافظ عليه أكثر من حفاظ الصليبيين على قانون الفروسية »[٢] وكان رجلا مستقيما يعرف بظاهره وحسن نواياه ، لم يستخدم المكر والخديعة حتى مع أعدائه[٣] بينما استغل أعداؤه تلك الصفات فيه ، فكانوا يشاغلونه بالمواعيد والمراسلات الكاذبة ليسوفوا بها الاوقات ، كما فعل ريتشارد أثناء حصار عكا ، وارناط صاحب الشقيف ارنون[٤] .

---

(١) لمعرفة المزيد عن المرض الذي عانى منه صلاح الدين وتوفي على اثره ، ومدى تأثر الناس وحزنهم على فقد صلاح الدين انظر : ابن الاثير ، الكامل : ١٢/٩٥ ؛ الاصفهاني ، الفتح القدسي : ٤٥٤ـ٤٥٦ ، ابن الحسين ، غاية الاماني ، تحقيق سعيد عبدالفتاح عاشور (القاهرة ١٩٦٨) ق١/٣٣٨ـ٣٣٩ ؛ ابن خلكان ، الوفيات : ٦/٢٠٠ـ٢٠٢ .

(٢) لامب ، شعلة الاسلام : ٣٠٣ ؛ انظر : الكامل : ١٢/٩٦ ؛
Engy. Britanica, vol, 19, PP. 864-865.

(٣) كنز الدرر : ٧/١٠٤ـ١٠٥ .

(٤) لمعرفة المزيد عن تسويف ريتشارد للمسلمين اثناء حصار عكا انظر : الاصفهاني الفتح القدسي : ٣٤٩ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب:

غير ان صلاح الدين ، رغم مكر الصليبيين ، وكثرة اعدادهم وامداداتهم ، تمكن من الانتصار عليهم ، فقد حرر القدس ، ومناطق تواجد الصليبيين الاخرى المنتشرة في الشام ، ولم يبق الا مدينة صور وطرابلس مع بعض قلاع نائية .

ولم يكن ذلك الانتصار لولا الصفات المعنوية والمادية التي تحلّى بها صلاح الدين وجنده . فاضافة الى بناء صلاح الدين لتلك الوحدة القوية ، التي امتدت من النيل الى الفرات ، والتي اعتمدت على جمهور المسلمين ، على على القيادات والامراء ، فقد كان الجميع يحاربون أعداءهم بعقيدة ، وكانوا يدخلون المعارك لا حبا بها ، او اشباعا لرغباتهم ، أو للحصول على الغنائم . انما كانوا يقاتلون طمعا في تحرير القدس ، تلك البقعة التي شرفتها عقديتهم . فكانوا يرون في القتال « دينا وحتما واجبا ، فلا يحتاج الى باعث سلطاني ، بل كانوا يمنعون ولا يمتنعون ... »[1] والقتال من أجل العقيدة لا يمنع حصولهم على مغانم أعدائهم ، تمشية لعجلة القتال ، وسدا لنفقات الجيش ، ومعاملة بالمثل كما يفعل الاعداء .

اضف الى ذلك الخطط العسكرية الجيدة التي اتبعها صلاح الدين ، ومشاركته الفعلية في الحرب الى جانب قواته العسكرية ، وقد برزت له هـذه الميزة حتى في أشـد الايام الدامية ، حيث كان يتنقل وسط ميدان المعركة ، يوقظ الهمم ويحيّ في الجند الروح الاسلامية[2] .

٣٥٥/٢ . ولمعرفة المزيد عن تسويف ارناط لصلاح الدين الذي قصد به مشاغلة صلاح الدين حتى يأتيه المدد من الغرب النصراني ، انظر :الروضتين: ١٣٩/٢-١٤٠ ؛ مفرج الكروب ٢٨٢/٢-٢٨٣ .

(١) الكامل : ٥٤٧/١١ ، مفرج الكروب : ١٢/٢ .

(٢) انظر : الروضتين : ٢٥٨/١ ؛ سنا البرق الشامي : ٢١٠/١-٢١١ ؛

Champdor, op. cit., P. 277.

كما ان اتباع خطة الحرب الخاطفة ومباغتة الاعداء ، كانت من أساليب صلاح الدين . وقد تبين هذا واضحا بعد معركة حطين سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م في هجماته المتلاحقة على عكا وصفد وغزة وغيرها من المناطق . وكان صلاح الدين باعتراف أعدائه يقاتل ليل نهار ، بحيث لا يدع للصليبيين وقتا للاكل والراحة[١] .

ثم ان في استخدام الجيش الايوبي للنار في حروبهم الاثر الواضح في الانتصار على الصليبيين ، خاصة وان استخدام النار قد تطور في عهد صلاح الدين وكان يخلط بمواد أخرى كالفحم والجير والدودة[٢] Salpetre لرفع حرارته بحيث ان الصليبيين لم يكونوا يقدرون على اطفاء السهام المحترقة بتلك النيران . كما حدث ذلك سنة ٥٨٦هـ عند محاصرة الصليبيين لمدينة عكا[٣] .

وقد اوضح المستشرق هاملتون جب بعض تلك المميزات الاخرى التي ساعدت صلاح الدين على تحقيق انتصاراته على أعدائه فقال : « جاءت بفضل امتلاكه لصفات معنوية (أدبية) لا تشترك مع المواهب الاستراتيجية الا في القليل . كان رجلا يستمد وحيه من مثال أعلى ذي قوة وثبات ... وايمان ديني راسخ الاركان . وعندما جاء دور المدن والقلاع المسيحية ، فقد استسلمت هذه بتلك السهولة لسبب رئيسي يعود الى شهرة صلاح الدين في المراعاة الدقيقة للعهود التي يأخذها على نفسه ، وفي سماحة النفس التي

---

(١) الشاعر أمبروز ، المعاصر لصلاح الدين ، نقلا عن شعلة الاسلام : ١٥٦ ، ١٦٣ ، ١٦٦ ، ١٦٧ .

(٢) الدودة : هي المواد السوداء التي تتكون على جدران المنازل القديمة والرخام انظر :

Dictionnarie du Francais contsmparain, P. 1044.

(٣) انظر : ابن شداد ، النوادر السلطانيه : ١٣٦ .

لا تعرف المكر والحذر »[1] .

ومما سبق يتبين ان موقف صلاحالدين من الصليبيين كان موقفا حازما . فقد عاملهم معاملة الاعداء الحقيقيين الذين جاءوا الى أرض لم تكن لهم فاغتصبوها ، وكان يجد نفسه المسؤول عن اخراجهم منها . ولذلك تميزت سياسته نحوهم بأنها كانت منحصرة في اعداد العدة وجمع الكلمة ، ومحاربة الصليبيين من اجل اخراجهم من أرض الشام ، ومن ثم ملاحقتهم الى بلادهم لنشر كلمة التوحيد فيما اذا تيسرت الامور . ولذلك خاض العديد من المعارك ضدهم ، وانتصر في أغلبها .

وانتهت علاقته بهم ، بالتوصل الى عقد هدنة للسلام مؤقتة ، اضطر الى الموافقة على قبولها ، بحكم طبيعة الظروف القاسية ، واستمرارية الحرب التي انهكت القوى وانفذت العدد والعدد ، وكثرت الامدادات التي كانت تصل الى أعدائه من دول عديدة أوربية .

---

(٤) صلاحالدين : ١٥٠ــ١٥١ .

الفصل الرابع
سياسة صلاح الدين نحو الخلافة العباسية والحركة الاسماعيلية

« صلاح الدين والحركة الاسماعيلية »

تنحصر العلاقات السياسية بين صلاح الدين والاسماعيلية في نطاق فترة البحث (٥٧٠ ـ ٥٨٩هـ/١١٧٤ ـ ١١٩٧م) بمجموعة أعمال تمثلت في محاولتين للقضاء على صلاح الدين سنة ٥٧٠ ـ ٥٧١هـ/١١٧٥ ـ ١١٧٦م ، اعقبهما هجومه غير المتكامل على حصن مصياف الاسماعيلي سنة ٥٧٢هـ/١١٧٦م والانتهاء بعقد صلح بين الطرفين انسحب بموجبه من حصار القلعة ، وقد وردت روايات عن رسائل تهديد كان يرسلها الاسماعيليون الى صلاح الدين في تلك الفترة • ثم في عملية مقتل المركيس (كونراد) صاحب صور سنة ٥٨٨هـ/١١٩٢م وعلاقة صلاح الدين بمقتله • وسوف اتطرق الى تبيان ذلك بالتفصيل ، مقدما لذلك بتاريخ موجز لنشوء الحركة الاسماعيلية ، وعلاقاتها بالفئات المناوئة لصلاح الدين ليكون البحث وحدة متكاملة •

يبدأ تاريخ الاسماعيلية بوفاة الامام جعفر الصادق (ع) سنة ١٤٨هـ حيث انقسم أتباعه الى فرقتين أساسيتين[١] : الاولى جعلت الامامة الى موسى الكاظم فالائمة من نسله حتى الامام الثاني عشر ـ الامام الغائب ـ وهم المعروفون الاثني عشرية • والفرقة الثانية جعلت الامامة الى اسماعيل بن جعفر الصادق ثم الى ابنه محمد بن اسماعيل فالائمة من أبنائه وهم المعروفون بالاسماعيلية[٢] الذين « شكلوا بعد عمل طويل بالسر ، فرقة فاقت في

---

(١) وقيل ايضا انقسم اتباع جعفر الصادق بعد وفاته الى ست فرق منها ثلاث رئيسة ، وقيل اثنتان • فبالاضافة الى الفرقتين المنوه عنهما اعلاه ذكرت الفرقة الناوسية وهم الزاعمون بأن جعفرا لم يمت ولا يموت وهو القائم المهدي وسوف يرجع • لويس ، اصول الاسماعيلية :٩٥ـ٩٦ •

(٢) الكرماني ، راحة العقل ، انظر مقدمة المحقق مصطفى غالب:

التحامها وتنظيمها في كل من الجذب التثقيفي والانفعالي كل منافسيها • ففي مكان التوقعات المشوشة والايمان البدائي بالخوارق للفرق السابقة ، أحكم عدد من العلماء المتميزين نظاما للعقيدة الدينية على مستوى فلسفي عال »[1] •

وعلى أية حال فان بوادر الدعوة الاسماعيلية ظهرت منذ عهد الامام جعفر الصادق ، وكانت سرية يعمل على ترويجها في الخفاء الامام اسماعيل في حياة أبيه[2] ، وبمساعدة دعاته الاربعة وهم ميمون القداح ، ومبارك بن جعفر ، والفضل بن عمر ، وحمدان بن احمد • وفي عهد محمد بن اسماعيل ، الذي كان على جانب كبير من الثقافة والعبقرية ، انتقل مركز الدعوة الى (سملا) التي اطلق عليها فيما بعد اسم (محمد آباد) نسبة اليه[3] •

وقد استقر محمد بن اسماعيل أخيرا في مدينة تدمر ، وعمل منها على نشر دعوته وتنظيمها • وعند وفاته سنة ١٩٣هـ خلفه ابنه (أحمد الوفي) الذي نقل مركز الدعوة الى مدينة سلمية في سوريا التي أصبحت في عهده

٢٢ـ٢٣ ؛ سرور ، مصر في عصر الدولة الفاطمية : ٤ـ٥ ؛ انظر : جب ، صلاح الدين : ١٦ •

(١) لويس ، الحشيشية : ٤٠ •

(٢) درس المستشرق برنارد لويس الحركة الاسماعيلية ، وناقش العديد من المصادر التي تحدثت عن اسماعيل بن جعفر الصادق الذي يعتبر مؤسس الدعوة الاسماعيلية وتوصل الى ما يلي :ـ

١ ـ ان اسماعيل مات في حياة ابيه جعفر • ٢ ـ ان جعفرا نزع عن اسماعيل حق الامامة بسبب اخلاقه الذميمة • انظر : اصول الاسماعيلية : ١٠٧ـ١٠٨ •

(٣) الكرماني ، راحة العقل ، انظر مقدمة المحقق مصطفى غالب : ٢٢ـ٢٣ ؛ سرور ، مصر في عصر الدولة الفاطمية : ٥ـ٦ •

مركز الدعوة والدعاة ودار هجرة للائمة المسورين • وعند وفاة الامام الوفي سنة ٢١٢هـ تسلم الامامة ابنه رضي الدين عبدالله الذي انتقلت في عهده الدعوة الاسماعيلية من طور التأسيس الى طور العمل والظهور من أجل تأسيس دولة اسماعيلية قوية • وقد نص على ولده من بعده (عبدالله) الذي توجه الى المغرب واعلن الخلافة الفاطمية هناك • وبذلك قامت الدولة الفاطمية التي انتقلت الى مصر سنة ٣٥٧هـ[١] •

استمر خلفاء الدولة الفاطمية حتى مجيء المستنصر بالله الذي ازداد في عهده نفوذ الوزراء الفاطميين ، فقد استأثر الوزير بدرالدين الجمالي بالسلطة في مصر ، وغالى ابنه الافضل باغتصاب حقوق ولي العهد نزار[٢] ، والبيعة لاخيه الاصغر (المستعلى بالله) • وقد انسحب فريق من الناس اثر هذه البيعة ، وأعلنوا ولائهم لامامة نزار وأولاده من بعده[٣] • وكان على رأس هؤلاء « الحسن بن الصباح[٤] » الذي بدأت في عهده الحركة

---

(١) انظر : الحشيشية : ٤٣-٤٤ ، مصر في عصر الدولة الفاطمية: ٧-٩ ، احسان طبري ، نبذة عن الحركة الاسماعيلية ، مجلة العلوم ، ع٨ ، السنة ١٢ (بيروت ١٩٦٧) : ٣٥ •

(٢) قيل ان الامام المستنصر نص على امامة نزار من بعده ، الا ان الوزير الجمالي ، لحقد قديم بينه وبين نزار ، عين المستعلي بدلا عنه ، ولان المستعلي كان حفيداً للوزير ، لذلك غادر نزار القاهرة صحبة اتباعه المخلصين ، وهذا هو سبب انقسام الدعوة الاسماعيلية ، غالب، مصطفى ، تاريخ الدعوة الاسماعيلية : ١٨٢-١٨٣ •

(٣) القلقشندي ، صبح الاعشى : ١٣/٢٣٦ ؛
Ency. Britannica, 11. P. 621

(٤) الحسن بن الصباح :هو الحسن بن علي بن محمد الحميري، ولد في مدينة قم وكان كوالده من الشيعة الاثني عشرية ، غير انه وقع تحت تأثير احد الدعاة الفاطمية واسمه (عامر دراب) وتنقل على عدد من

الاسماعيلية بطور جديد ، ربما كان السبب في ذلك ان الدعوة الاسماعيلية كانت قد فشلت في تحقيق أهدافها ، والدولة الفاطمية كانت في طريقها الى الانهيار ، لذلك كان لابد من التفكير بأسلوب جديد للعمل من أجل ابقاء روح الثورة ضد الكيان العباسي • وقد أصبحت الحركة الاسماعيلية الجديدة أكثر فعالية وتنظيما من الدعوة الاسماعيلية القديمة ، فقد غدت « جمعية سرية لم يكن واقفا على أغراضها وطرقها الا زعماؤها الاقلون وقادة أفكارها المقربون ، بعد ان قطعوا مراحل التكريس واقسموا القسم الغليظ »[1] • بينما كانت الاكثرية الساحقة من الاتباع لا تعرف عن أمر هذه الجمعية الا الشيء القليل ، والذي كان يطلعهم عليه الدعاة وبقدر معلوم[2] •

الدعاة الاسماعيلية • وفي رمضان سنة ٤٦٤ هـ حزيران ١٠٧٢م جاء الداعي (ابن العطاش) الى الري والتقى بالحسن بن الصباح ورجاه الذهاب الى القاهرة عاصمة الدولة الفاطمية ، فذهب اليها بعد ان عمل كوكيل لابن عطاش في مدينة اصفهان لمدة سنتين الحشيشة : ٥٢ ؛

Brown, Aliterary History of Persia, 11, PP. 262-203.

وكان الحسن هذا ، رجلا طموحا ، لم يقنع ان يكون مبعوثا يدعو الى مذهبه ، بل كان يحلم باقامة دولة جديدة ، وكان يقول انه يستطيع ومعه ستة من المؤمنين بمذهبه ان يكون سيد العالم ، وقد تمكن من العودة من مصر الى فارس ثم تسلل الى قلعة الموت واحتلها وبعدها تمكن اتباعه من السيطرة على عدد من القلاع الحصينة في جبال فارس • صبح الاعشى: ١٣/٢٣٧ ، شعلة الاسلام : ٤٢ ، انظر : دائرة المعارف الاسلامية : ٧/٤٣٥ ، مصطفى غالب ، اعلام الاسماعيلية (بيروت ، ١٩٦٤) : ٢٢٢-٢٢٨ •

(١) بندلي جوزي ، من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام (القدسي : ١٩٢٨) ٩٢ •

(٢) انظر : محمد عبدالفتاح عليان ، قرامطة العراق (القاهرة ، ١٩٠٧) ١٨-١٩ •

وقد اطلق المؤرخون على هذه الحركة الجديدة تسميات عديدة منها : الحشـاشين Assassins وهو اصطلاح عام للجماعات الفدائية السرية ، وقد عني به في معظم اللغات الاوربية (المغتال) الذي يقتل خلسة أو بالخيانة « والذي يكون ضحيته شخصية مرموقة ، ودافعة الى ذلك غيرة عمياء أو جشـع »[1] .

واعتقد آخرون بأن كلمة حشاشين ، جاءت صفة للاسماعيلية لانهم كانوا يتعاطون الحشيش المخدر ، وان جماعة الفدائية الذين كانوا يدفعون للاغتيالات ، يدفعون الى تعاطي الحشيش المخدر ، حتى يصبحوا كالآلات لتنفيذ مهماتهم[2] . وقد وصف الرحالة ماركوبولو المنظمة الاسماعيلية بعد مائة عـام وأكـد ما قيـل من ان الاسماعيليين كانوا يتعاطون الحشيش المخـدر[3] .

غـير ان بعض دارسي تاريخ الحـركة الاسـماعيلية ، وبخاصـة الاسماعيليين منهم قالوا بأن الذين زعمـوا بأن الاسماعيلية كانوا يتعاطون الحشيش المخدر واهمون لان الرأي قديم[4] ، ولم يرد في كل المصادر

---

(١) الحشيشية : ١٢-١٣ ، انظر :
Ency. Britannica (Art. Assasins) 11, P. 621,
DuBors, Dictionnaira du France, P. 83.

(٢) هيوارس . ا: دائرة المعارف الاسلامية (مادة حشاشين): ٤٣٤/٧ ، انظر احمد امين ، يوم الاسلام : ١٠٣ .

(٣) Look: Rosebault, op. cit., 109-111.

(٤) ممـا يدل على قدم الرأي القـائل بتعـاطي الاسماعيليـة للحشيشة مـا وجدته عند مقـارنتي للقـاموس الفرنسي Larousse ما بين طبعة سنة ١٩٣٩ وسنة ١٩٦٨ لكلمة Assassins . فقد اكدت

الاسماعيلية ما يؤكده[1] ، وان انصياع الفدائية التام لشيخهم ـ كما ذكر الاسماعيلي مصطفى غالب ـ كان بسبب الثقة والايمان القوي بالعقيدة والامام المعصوم[2] .

وقد سمّي الاسماعيلية أيضا بالسبعية ، لان الامام محمد بن اسماعيل هو الامام السابع لهم ، ولتميزهم عن طائفة الاثني عشرية[3] . ولان الدور التام سبعة ، كما يعتقد الاسماعيلية ، بدليل ان السماوات والارضين سبع وأيام الاسبوع سبع والاعضاء سبع[4] ... الخ مما هو متكون من العدد (سبعة) .

وقد سمّوا أيضا « الباطنية » وذلك لانهم يقولون لكل ظاهر باطن ولكل تنزيل تأويل ، وقد جعلوا هذه النظرية عقيدة شاملة لكل أمور الحياة اطلقوا عليها اسم « المثل والممثول » أي الظاهر والباطن[5] هذا بالاضافة

الطبعة الاولى القول بتعاطي الاسماعيلية للحشيش المخدر ، بينما حذف هذا الرأي من طبعة سنة ١٩٦٨ انظر :

Nouveau petit larousse Illustre (Paris, 1939) P. 1197.

وقارن هذه الصفحة من نفس المصدر السابق مع طبعة سنة ١٩٦٨ صفحة رقم (١١٤٤) .

(١) Look: Ency. de I'slam (Art. Hashishiyya (Paris, 1971) 111, P. 276.

(٢) تاريخ الدعوة الاسماعيلية : ١٩٢ .

(٣) انظر : دائرة المعارف الاسلامية (مادة السبعية) ١١/٢٤٥ـ ٢٥٩ .

(٤) النشار ، نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام (القاهرة : ١٩٦٥م) ١/٣٨٤ .

(٥) انظر : الشهرستاني ، الملل والنحل (القاهرة : ١٣٢ هـ) ٢/٢٩ . تاريخ ابن الفرات ، م٤ : ٢/١٥٥ ، راحة العقل : ٤٩ ؛ محمد

الى ما اطلق عليهم من تسميات أخرى كالقرامطة والبابكية والمحمرة والملاحدة[1] وغيرها مما اسماهم بها أعداؤهم ٠

ورغم هذه التسميات المتعددة ، فاني اعتمدت تسميتهم بالاسماعيلية لانه أقرب الاسماء لواقع الحركة التاريخي ، نسبة للامام اسماعيل بن جعفر الصادق ، ولان كلمة حشاشين مختلف في امرها ، وهي تسمية حديثة واذا صح ما قيل في استخدام الاسماعيلية للحشيش المخدر ، فهناك جماعات أخرى تستخدم الحشيش أيضا ، كذلك فالباطنية مصطلح يطلق على كل من يستخدم التأويل الباطني للنصوص المقدسة سواء كان اسماعيليا أو لم يكن ، علما بأن الصوفية تعتمد التأويل الباطني ٠

وعلى أية حال فان الحركة الاسماعيلية الجديدة « الحشاشين » ظهرت بشخص الحسن بن الصباح الذي تمكن من احتلال (قلعة آلموت) سنة ٤٨٣هـ/١٠٩٠م[2] الواقعة في سلسلة جبال البز باقليم مازندان[3] على بعد خمسين فرسخا شمالي بحر قزوين ٠ والتي ترتفع عن سطح البحر بحوالي ١٠ آلاف قدم[4] ٠ وقد أصبحت مركزا للدعوة ما بين سنة ٤٨٣هـ/١٠٩٠م الى

كامل حسين ، طائفة الاسماعيلية (القاهرة : ١٩٥٩) : ١٤٨ و١٦٣ ؛
Ency, of Islam (Art. Albatinyy), 1, PP. 1098-1099

(١) الملل والنحل : ٢/٢٩ ؛ محمد الديلمي ، بيان مذهب الباطنية وبطلانه (استانبول : ١٩٣٨) : ٣ ٠

(٢) هيوارس ٠ ا : دائرة المعارف الاسلامية (مادة حشاشين): ٧/٤٣٥ ؛
Ency. Britannica (Art. Assassins) Vol. 11,

(٣) وليم لانجر ، موسوعة تاريخ العالم ، اشرف على ترجمتها محمد مصطفى زيادة (القاهرة ، ١٩٥٩) ٢/٩٥ ٠

(٤) Ency. of Arabic Civilization (The Arab East) P. 63.

سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٦م[١] • وقد ساعد سوء الاحوال الاقتصادية والادارية على نشاط هذه الحركة ، كما وجد البعض في هذه الحركة السبيل للتعبير عن سخطهم السياسي تجاه الخلافة العباسية علما بان الدعوة اتخذت لها ـ في هذه الفترة ـ اسلوبا جديدا في العمل والتنظيم فاستخدمت الاغتيال وبذلك تحولت من جمعية نظرية تؤمن بالاسلوب السلمي ، الى جماعة حركية تؤمن بالاغتيال والتنظيم السياسي الدقيق[٢] •

ولم يكتف الحسن بن الصباح بنشر دعوته في ايران ، بل أخذ يرسل الدعاة الى سوريا لدعوة الاسماعيلية القدماء الموجودين فيها ، والعمل على ضمهم للدعوة الجديدة ، وقد وجد الحسن في سوريا منطقة ملائمة أكثر من غيرها ، فبالاضافة الى وجود عدد من الدعاة فيها ، فقد كانت منطقة سوريا نادرا ما عرفت الوحدة السياسية كما ان طبيعة أراضيها المتموجة وجبالها العصية تساعد على اتخاذها مركزا للدعوة والدعاة[٣] •

ومثلما عمل الاسماعيليون في ايران ، حاول اتباعهم في سوريا ، منذ البداية ، العمل بمختلف الوسائل للسيطرة على الحصون والقلاع الحصينة لاتخاذها مقرا لاعمالهم ، واستخدامها « كقواعد في حملة الارهاب »[٤] التي شنوها ضد أعدائهم من القادة والامراء السنيين ، ومن وجدوا فيه خطرا يهدد دعوتهم •

فقد سيطروا على حصن مصياف والقدموس وفامية ، وكونوا لهم

---

(١) Ency. de Islam (Arat Alamut) Vol. 1, PP. 364-365.

(٢) انظر : محمد كامل حسين ، طائفة الاسماعيلية : ٦٣ ؛ طه احمد شرف ، دولة النزارية (القاهرة : ١٩٥٠) : ١٢٧ـ١٢٨ •

(٣) الحشيشية : ١١٣ـ١١٤ •

(٤) الحشيشية : ١١٥ •

جمعيات علنية في دمشق وحلب ، وقاموا بسلسلة من عمليات الاغتيال كان ضحيتها الكثير من كبار رجال الدولة العباسية وامرائها منهم الامير خلف بن ملاعب سنة ٤٩٩هـ/١١٠٦م[1] • واتابك الموصل مودود سنة ٥٠٧هـ[2] ، كما قتلوا أيضا آق سنقر البرسقي ـ اتابك الموصل ـ سنة ٥٢٠هـ/١١٢٦م في جامع الموصل العتيق أثناء تأديته صلاة الجمعة[3] •

ونتيجة لهذه الاغتيالات التي قام بها الاسماعيلية في الشام ؛ فقد عظم أمرهم وقويت شوكتهم وخشيهم الناس وامتلأوا منهم رعبا ، وتمكنوا من دخول عدد من الحصون بأعمال الحيلة ، كسيطرتهم على مدينة بانياس سنة ٥٢٠هـ[4] • غير انهم سلموا هذا الحصن للصليبيين سنة ٥٢٤هـ بعد تواطؤهم معهم[5] • فقد كان الاسماعيلية قد نكبوا في ذلك العام ، حيث ثار

---

(١) كان الامير خلف بن ملاعب صاحب حصن أفاميه الذي استولى عليه الاسماعيلية بعد مقتله • ولمعرفة المزيد عنه انظر : ذيل تاريخ دمشق : ١٤٩ ؛ زبدة الحلب ١٥١/٢ •

(٢) كان الامير مودود رجلا مجاهدا عرف بحسن تقواه ، قتله الاسماعيلية بعد انتهائه من صلاة الجمعة في شهر ربيع الاخر سنة ٥٠٧ هـ في دمشق عندما كان عازما على توحيد الجيوش الاسلامية لمحاربة الصليبيين ولمعرفة المزيد عنه انظر : الكامل : ٤٩٦/١٠ـ٤٩٧ ؛ ذيل تاريخ دمشق : ١٨٧ •

(٣) كان الامير آق سنقر البرسقي من كبار الامراء المجاهدين ضد الصليبيين ، تقيا عادلا كما وصفته جميع المصادر ، وكان قد كسب مودة اهل الشام ، حتى تبوأ قيادة المسلمين في الدفاع عن اراضيهم ضد الغزاة، غير ان الاسماعيلية اغتالته لانه هدد مصالحها ، وربما ذلك بتأثير من الصليبيين •

أنظر : الكامل : ٣٣٦/١٠ـ٣٣٧ ؛ ذيل تاريخ دمشق : ٢١٤ ؛ زبدة الحلب : ٢٣٥/٢ ، مرآة الزمان : ١١٦ـ١١٧ ؛ ابن ميسر ، اخبار مصر (القاهرة ١٩١٩) : ٢٠ •

(٤) انظر : الكامل : ٦٣٢/١٠ ؛ ذيل تاريخ دمشق : ٢١٥ •

(٥) ذكر ابن شداد ان الاسماعيلية سيطرت على قلعة بانياس سنة

عليهم الاحداث والعامة بدمشق وفتكوا بهم وقدر عدد قتلاهم بألف رجل[1] ، وقيل ستة آلاف[2] • مما يدل على اعدادهم الكبيرة التي كانت بدمشق ، وقد تعلم الاسماعيلية بعد هذه النكبة ان المدن الكبيرة لا تصلح ان تكون مركزا لحركتهم •

تجدد نشاط الحركة الاسماعيلية في منطقة الشام ، بعد تلك النكبات ، بوصول داعيتهم الجديد « راشدالدين سنان »[3] اليهم • فقد عمل على تنظيم الاسماعيلية في نظام واضح ووضعها في مركز قوي « حتى اعتبر المؤسس والقائد لفرقته »[4] • ونقل مقر عمله من حلب الى قلعة مصياف ،

---

٥٢٠ هـ بقيادة داعيتها بهرام ، ولما قتل بهرام سنة ٥٢٤ هـ ارسل نائبه الاسماعيلي ابو صالح العجمي الصليبيين وبذل لهم تسليم الحصن اليهم ، فوصلوه وتسلموه منه • الاعلاق الخطيرة بذكر امراء الشام والجزيرة : ق٢ ج٢/١٤١ •

(١) تاريخ الازمنة : ٣٥ •

(٢) الكامل : ١٠/٦٥٧ ؛ المختصر في اخبار البشر : ٥/٧ •

(٣) راشد الدين سنان : وهو مقدم الاسماعيلية في الشام ،اصله من اهالي عقر السودان ، قرية قرب البصرة ، ذهب الى حصن الموت ، ولما ظهرت له نباهة وعقل سيره صاحب الموت الى حصون الشام لتزعم قيادة الاسماعيلية • وقد جرت له مع سلطان الشام انئذ وهو نورالدين محمود عدة وقعات وتوفي سنة ٥٨٩ هـ / ١١٩٣م • انظر : مرآة الزمان : ق١، ج٨/٤١٩ ؛ النجوم الزاهرة : ٦/١١٧ مرآة الجنان : ٣/٤٤٨ ؛ ايفانوف دائرة المعارف الاسلامية : ٩/٤٦٩ غير ان ابن جبير وصفه بشيطان الانس، ويرى ان اتباعه قد اتخذوه الها للاباطيل التي كان يزعمها والسحر الذي كان يفعله (رحلة ابن جبير : ٢٢٥) ويذكر الدويهي بأنه استغوى خلائق من اهالي جبال الشام واباح لهم المحرمات (تاريخ الازمنة : ٩٥)•

(٤) Hodgson, The order of Assassins, P. 185.

وأسمي من بداية هذه الفترة (بشيخ الجبل)[١] وكانت مرتبته في الدعوة (داعي دعاة) ويليه في المقام (الداعية الكبير) ويليه (الداعية العادي) ثم يليه (الرفيق) وأخيرا الفداوية الذين اشتهروا بطاعتهم العمياء في تنفيذ أوامر سيدهم شيخ الجبل[٢] ٠

وقد جعل سنان الدعوة الاسماعيلية دقيقة في تنظيمها ، تامة في سريتها وبراعة دعايتها ، تلك الدقة التي آمنت بمبدأ « التدرج في الدعوة لما له من اغـراء في نفوس الاتباع »[٣] ، وتلك الدعاية التي اضلت الكثيرين لان الدعاة « كانوا يتكلمون مع الناس على قدر عقولهم ٠٠٠ وكانوا يدخلون على كل فرقة من جهتهم »[٤] ٠ فقد قدموا للورعين احتراما للقرآن والسنة ، وقدموا للمثقفين شرحا فلسفيا معتمـدا على مصادر القدماء ، كما قـدموا للحانقين على الحكم العباسي فلسفة حركة معارضة حسنة التنظيم وقوية[٥] ٠ ولذلك تمكنت هذه الحركة من كسب الكثير من الاتباع ٠ وقد عدد أبو حامد الغزالي[٦] الطوائف التي انخرطت في سلك الحركة ، وذكر بأنهم

---

(١) تاريخ الدعوة الاسماعيلية : ٢٠٧ و٢١٢ ؛
Elisseeff, Nur-Din, 1, P. 42

(٢) Brown, Aliteray History of Persia, 11, P. 209.

(٣) علبان ، قرامطة العراق (القاهرة ، ١٩٧٠) : ١٩ ٠

(٤) الديلمي ، بيان مذهب الباطنية : ١٥ ٠

(٥) الحشيشية : ٤٠ ٠

(٦) ابو حامد الغزالي : فقيه وعالم صوفي سني له العديد من المؤلفات عاصر الحسن بن الصباح والوزير نظام الملك ، وحارب الاسماعيلية فكريا ٠ توفي سنة ٥٠٥هـ/١١١١م وللاطلاع على موقفه من الاسـماعيلية انظر :

Watt. Muslim Intellectual, P. 73-74

ولمعرفة المزيد عن حياة الغزالي انظر : المنوفي الحسيني ، جمهـرة الاولياء (القاهرة ١٩٦٧) ١/١٩٧ـ٢٠٠ ٠

ثمانيـة أصناف وهم : السذج من الناس الذين قلت بصائرهم في أمـور الدين ، وأصحاب العاهات من الذين يريدون الوصول الى المراكز بطرق غير شرعية ، واولئك الذين انقطعت الدولة عن اسلافهم بدولة الاسلام من المجوس والنصارى ، كذلك جماعة الملاحدة وأصحاب الملاهي والفسوق وبعض الفلاسفه من الذين وجدوا في رجال الحركة الاسماعيلية اعوانا لهم وانصارا ، وكان المجتمع الاسلامي من قبل قد نبذهم ، اضف الى ذلك جماعة من المسلمين ممن انخدع بمذهبهم وحسبه انه يمثل الحق ![1] .

وقد اتبع الاسماعيلية أساليب دقيقة وجديدة في الدعوة الى مذهبهم اطلقوا عليهـا اسـم (البلاغ الاكبر) يمـّر فيهـا الشخص المراد كسبه للدعوة . قيل هي تسع مراتب واهمها : التغريس والتأنيس ثم التشكيك ثم الربط واخيرا الخلع ثم المسخ . نجملها بما يلي :ـ كان الدعاة يبحثون عن الشخص الملائم حتى اذا ما اطمأنوا الى انه أصبح يضع ثقته فيهم اظهروا له ما تناقض من أمور عقيدته ، بعدما يخفون عقيدتهم هم . ثم بعد ذلك يجعلون الشخص يرتبط بهـم ، ويقسم لهـم القسم الغليظ بعدم اباحـة الاسرار ، ليدخل أخيرا في دور المصارحة والتنظيم بعدما يكون قد سلخ من عقيدته الاصلية »[2] .

وتاريخ الاسماعيلية في الشام ، هو تاريخ الاغتيالات التي قاموا بها ضد المؤسسات السنية بصورة عامة « فلم يقاتل الحشيشية عادة الاثني عشرية أو الشيعة الآخرين ، ولم يديروا سكاكينهم ضـد النصارى أو اليهـود

---

(١) فضائح الباطنية ، الدار القومية للطباعة والنشر (القاهرة ، لم يذكر السنة): ٣٣ـ٣٦ .

(٢) انظر : العلوي ، يحيي بن حمزة ، الافحام لافئدة الباطنية الطغام ، تحقيق فيصل بد يزعون ، شركة الاخسكندرية للطباعة (القاهرة، لم يذكر السنة) : ١٧ـ١٩ ؛ الديلمي ، بيان مذهب الباطنية : ٥ .

المحليين »[1] ، وهذا مما يدفع الى التساؤل عن حقيقة التعاون بين الاسماعيلية والصليبيين من جهة ، وبينهم وبين اليهود من جهة ثانية •

ان اتهام الحركة الاسماعيلية بالتواطؤ مع الصليبيين ربما أثير من قبل أعداء الحركة للطعن فيها • الا ان الاغتيالات التي قاموا بها ضد جماعة السنة ، وتعاون اليهود معهم ، ووجود بعض الادلة التي تثبت تعاونهم مع الصليبيين في مراحل مختلفة ، لهي أدلة ترجح صحة تلك التهمة •

ففي سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م ارسل راشدالدين سنان ـ كما ذكر المؤرخ الصليبي وليم الصوري ـ وفدا الى املريك ملك بيت المقدس لعقد اتفاق بين الطرفين ضد نورالدين ولوّح له بأنه وقومه يفكرون بالتحول نحو النصرانية ، وطلب منه مقابل ذلك الغاء الضريبة التي فرضها فرسان الداوية من الصليبيين على بعض القرى الاسماعيلية • وقد استقبل املريك وفد الاسماعيلية بحفاوة بالغة واكرام ، لانه أدرك النتائج الايجابية التي ينطوي عليها ذلك الاتفاق[2] •

ولما عاد وفد الاسماعيلية من القدس سقط في كمين لفرسان الداوية دمر على أثره ، مما أثار غضب أملريك ، فبعث بكتاب توبيخ للجناة ، وطلب من مقدم الداوية سجنهم ، كما ارسل الى سنان معتذرا واعلمه ان الجناة نالوا عقابهم ، فدفع موقف ملك بيت المقدس الايجابي هذا ، الى بقاء العلاقات طيبة بين الجانبين[3] •

---

(١) الحشيشية : ١٥٣ •

(٢) Elisseeff, Nur Ad-Din, 11, P. 688.

(٣) نفس المصدر والمكان السابق ؛ الحركة الصليبية : ٢/٧٣٤ـ ٧٣٥ ؛ دراسة في تاريخ مدينة صيدا : ١١٣ـ١١٤ ؛
Runciman, op. cit., 11, PP. 396-397.

وبعد وفاة نورالدين تجدد العهد المعقود بين الصليبيين والاسماعيليين على مناهضة صلاح الدين ، والقيام بانقلاب داخل القاهرة للاطاحة بالحكم الايوبي واعادة الخلافة الفاطمية(١) .

ويعتقد المؤرخ « كاهين » ان هناك علاقة بين الاسماعيلية وجماعة الاسبتاريين الذين اصبحوا حماة للاسماعيلية ، وان اولئك الذين اغتيلوا من الصليبيين انما كانوا أعداء للاسبتاريين(*) . وقد أيد المؤرخ الانكليزي هدجسون وجود مثل تلك العلاقة ، واعتقد بأن هناك اشارات واضحة تدل على ذلك(٢) .

اما علاقة الاسماعيلية باليهود ، فكما يبدو ان عددا كبيرا من اليهود ـ ممن كان مدفوعا من قبل رأس الجالوت ـ كان يعمل بين صفوف الحركة الاسماعيلية لخدمة أهدافها . وقد ذكر الرحالة اليهودي بنيامين الذي زار

---

(١) انظر : الكامل : ١١/٤١٢ ؛
Elisseeff, Nur Ad-Din, 11, PP. 688-690.

(*) من الادلة التاريخية التي اوردها « كاهين » على اثبات وجود علاقة بين الاسماعيلية والاسبتاريين ما يلي :ـ

١ ـ في منطقة الرها كانت هناك أملاك لفرسان الاسبتارية ، وكان للاسماعيلية في الرها ايضا مركز لدعوتهم وكان ذلك المركز تحت سلطان الاسبتارية اداريا في القرن ١٣م
(Cahen, la Syrie du-nord, P. 562).

٢ ـ قتل الامير الصليبي ريموند سنة ١٢١٣م في كنيسة انطرطوس بيد الاسماعيلية مدفوعين من قبل الاسبتارية (نفس المصدر السابق : ٦٢٠) وكذلك مقتل بوهيمند الرابع ، الذي قتل بسبب الاختلافات التي كانت بينه وبين جماعة الاسبتارية، الذين استخدموا الاسماعيلية لقتله ، وقد اكد كاهين ان اولئك الاسماعيلية كونوا مع جماعة الاسبتارية حلفا واحدا ـ ايضا ـ ضد المسلمين ، (المصدر السابق : ٣٤٤) .

(٢) Hodgson, The order of Assassins, P. 208.

منطقة الشام حوالي سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م بأنه كان يقيم بين الأسماعيليين في الشام نحو أربعة آلاف يهودي « يسكنون الجبال مثلهم ويرافقونهم في غزواتهم وحروبهم ، وهم أشداء لا يقدر احد على قتالهم ، وبينهم العلماء التابعون لنفوذ رأس الجالوت ببغداد »[١] مما يدل على وجود علاقة راسخة بين زعماء اليهود ببغداد وقادة الحركة الاسماعيلية ، ولولا وجود تلك العلاقة لما ارسل راس الجالوت ببغداد العلماء اليهود لمساندة الحركة الاسماعيلية •

ومن الجدير بالملاحظة ان علاقة مماثلة كانت بين الاسماعيلية ويهود القدس[٢] • علما بان كاتب الرسائل الاسماعيلية ، الموجهة الى ملك بيت المقدس الصليبي للاتفاق معه على القضاء على الحكم الايوبي في مصر سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م أثناء المؤامرة سابقة الذكر ، كان يهوديا[٣] •

وقد علل بعض المؤرخون هذا الجانب في الحركة الاسماعيلية ، واعتبره مذهبا من مذاهب الشمول في العقيدة Interconfessionalism[٤] لان الدعوة الاسماعيلية كانت عالمية لم تقتصر على الانتشار بين تابعي دين واحد فقط •

وقد وجد هؤلاء الاسماعيليون في صلاح الدين عدوا كبيرا لهم ، فقد قضى على دولتهم الفاطمية في مصر ، وتقدم الى الشام لتوحيده وضمه الى

---

(١) رحلة بنيامين : ١٥٣ـ١٥٤ •

(٢) Hodgson, Loc. cit

(٣) العماد الاصفهاني ، البرق الشامي تلخيص البنداري ، سنا البرق الشامي : ١/٨٢ •

(٤) انظر : اصول الاسماعيلية : ١٩٤ـ١٩٨ ؛ من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام : ١٠٩ـ١١٠ •

مصر ، اضف الى ذلك انه من القادة السنيين • وفي هذا ما يهدد الكيان الاسماعيلي في منطقة الشام تهديدا خطيرا ، لذلك تعاونوا مع الصليبيين والزنكيين لاجل القضاء عليه ، غير ان محاولاتهم لم تفلح • ففي سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م عندما توجه صلاح الدين لحصار حلب ، راسل سعدالدين كمشتكين ـ اتابك الملك الصالح بن نورالدين ـ راشدالدين سنان ، وبذل له أموالا كثيرة[١] ، وعددا من القرى[٢] ، ثمنا لقتل صلاح الدين • فأرسل سنان جماعة من فداوييه الى المعسكر الايوبي ، فلما وصلوا رآهم أمير اسمه خمارتكين ، فعرفهم لان بلاده قريبا من بعض حصونهم ، فقال لهم : « ما الذي اقدمكم وفي أي شيء جئتم ؟ »[٣] و « كيف تجاسرتم على الوصول وما خشيتم »[٤] • فهجموا عليه وقتلوه ، وحمل احدهم على صلاح الدين ليقتله ، فقتل دونه وقاتل الباقون من الاسماعيلية حتى قتلوا جميعا ، بعد ان قتلوا جماعة من العسكر الايوبي[٥] •

وقد اعتبرت هذه العملية ناجحة بصورة عامة ، لان صلاح الدين لم يتمكن من فتح حلب في تلك السنة ، على أقل تقدير ، فالمحاولة كانت خطيرة ، لانها كانت مفتاح العلاقة بين الجانبين في منطقة الشام ، فقد أوضحت لصلاح الدين ان له أعداء حقيقيين من غير الزنكيين والصليبيين ، وانه يجب عليه ان يحسب لهم الحساب •

---

(١) الكامل : ٤١٩/١١ •

(٢) الروضتين : ٢٣٩/١ ، نقلا عن ابن ابي طيء ؛ سنا البرق الشامي : ١٨١/١ •

(٣) الكامل : نفس المصدر والمكان السابق •

(٤) سنا البرق الشامي : ١٨١/١ •

(٥) الكامل : نفس المصدر والمكان السابق ، الروضتين : ٢٣٩/١ ؛ مفرج الكروب ٢٤/٢ ؛ مرآة الزمان : ٣٢٨/٨ ؛ نهر الذهب : ١٠٠ـ١٠١ •

وعلى الرغم مما قيل من تحريض كمشتكين لراشدالدين سنان ، غير أنه من المستبعد ان يكون ذلك التحريض هو المحرك الاساس الوحيد للقيام بتلك العملية لان سنان كان يعمل لاسباب خاصة به ، وهو ان صلاحالدين منذ ان دخل الشام اصبح العدو الرئيس للحركة الاسماعيلية ، لانه كان يهدف الى اقامة وحدة السنيين هناك ومن الواضح ان اقامة مثل تلك الوحدة سيهدد كيان الحركة الاسماعيلية تهديدا خطيرا ، كما ان تحقيق الوحدة السياسية بين مصر والشام يهدد امارات الزنكيين ، لذلك أصبح التقارب بين الامراء الزنكيين والاسماعيلية أمرا طبيعيا ، لان صلاحالدين أصبح بالنسبة لهما العدو المشترك • وعلى هذا الاساس قبل سنان مساعدات كمشتكين المادية الى جانب كسبه لتأييد امراء حلب الزنكيين في سبيل تنفيذ مهمة قتل صلاحالدين •

غير ان فشل هذه المحاولة دفعت بسنان ـ مقدم الاسماعيلية ـ الى التخطيط مجددا للنيل من صلاحالدين • فأرسل اليه في ٤ ذي القعدة سنة ٥٧١هـ[1] ٢٢ أيار سنة ١١٧٦م جماعة من اتباعه بزي الاجناد ، دخلوا بين العسكر الايوبي وباشروا الحرب معهم ، حتى امتزجوا بهم ، انتظارا لفرصة مواتية يجهزون فيها على صلاحالدين فيقتلوه[2] •

وفي أثناء محاصرة قلعة عزاز التي كانت أهم حصون حلب ـ لان « حصارها حصار حلب على الحقيقة »[3] ـ تقدم صلاحالدين الى خيمة

---

(١) النوادر السلطانية : ٥٢ • وقيل ان سنان ارسل الى صلاح الدين جماعة من فدائييه في ١١ ذي القعدة ، الروضتين : ١/٢٥٨ •

(٢) الروضتين ، نفس المصدر والمكان السابق نقلا عن ابن ابي طيء •

(٣) سنا البرق الشامي : ١/٢٠٩ •

الامير جاولي الاسدي لتشجيع العسكر على مواصلة القتال، وفي أثناء ذلك هجم عليه أحد الاسماعيلية وضربه بسكينة على رأسه[1] ، وكان صلاح الدين محترزا « لا ينزع الزرديه عن بدنه ولا صفائح الحديد [من[2]] على رأسه »[3] فأحسّ الاسماعيلي بصفائح الحديد ، فمدّ بالسكينة الى خد صلاح الدين فخدشه ، وجرى منه بعض قطرات من الدم • فامسك صلاح الدين يد الاسماعيلي بيده ، وجعله لا يقدر على الضرب بالكليه • ثم أدركه الامير سيف الدين يازكوج وقتله • ثم هجم اسماعيلي ثان على صلاح الدين فاعترضه الامير داود بن منكلان وقتله ، غير انه اصيب بضربة سكين توفي على أثرها بعد عدة أيام • ثم هجم اسماعيلي ثالث لتنفيذ المهمة ، غير ان الامير علي أبو الفوارس عانقه ولم يطلق سراحه حتى طعنه ناصر الدين محمد بن شيركوه بسيفه وقتله ، وخرج آخر من الخيمة منهزما ، فثار عليه أهل سوق العسكر وقتلوه •

واما صلاح الدين ، فانه عاد من وقته الى خيمته وقد أذهلته المفاجئة ثم استعرض جنده فمن انكره ابعده ومن عرفه أقره • وبعد ذلك أخذ بالاحتراز الشديد حتى أنه ضرب حول خيمته « على مثال خشب الخركاة[4]

---

(١) الروضتين ، نفس المصدر والمكان السابق ، نقلا عن العماد الاصفهاني • وقد لخص البنداري نفس الرواية السابقة في : سنا البرق الشامي : ١/٢١٠ •

(٢) اضيفت (من) الى النص ليستقيم المعنى ، لانها ساقطة من الاصل •

(٣) الروضتين ، نفس المصدر والمكان السابق ، نقلا عن ابن ابي طيء •

(٤) الخركاه : لفظ فارسي معناه نوع من الخيم يتكون من قطع الخشب معقود بينها على شكل قبة • ويقال انه ايضا قبة تركية وتغطيها

تآزيرا وأوثقه تحجيرا وجلس في بيت الخشب وبرز للناس كالمحتجب »[1]، ثم أقام على عزاز واحكم محاصرتها ثمانية وثلاثين يوما حتى فتحها بكرة الاربعاء ١١ ذي الحجة[2] من سنة ٥٧٢هـ/١١٧٦م • ولما فرغ منها سار الى حلب لمحاصرتها ، لان من فيها من الامراء كانوا أحد أسباب هـذه الغدرة[3] •

كان لهذه الهجمة صدى بالغ الاثر في نفوس العسكر الايوبي ، فقد توقف القتال بسببها ذلك اليوم[4] ، وهاج الناس واضطرب الجند حتى خاف بعضهم من بعض « فالجأت الحال الى ركوب السلطان ليشاهده الناس فركب حتى سكن العسكر »[5] •

حققت هجمة الاسماعيلية الثانيـة على صلاح‌الدين بعض أهدافها ،

قطع من البلد • سنا البرق الشامي ١/٢١١ هامش رقم (٧) ، انظـر : النوادر السلطانية : ٢٨ ، هامش (٣) •

(١) سنا البرق الشامي : ١/٢١٢ •

(٢) وقيل فتح صلاح‌الدين عزاز في ١٢ ذي الحجة ، زبدة الحلبيب : ٣/٢٩ •

(٣) الروضتيس : ١/٢٥٨ـ٢٥٩ ، مفرج الكروب : ٢/٤٤ـ٤٥ ، سنا البرق الشامي ١/٢١٢ـ٢١٣ ولمعرفة المزيد من المصادر والمراجع التي تحدثت عن هجمة الاسماعيليـة الثانية على صلاح‌الدين انظر : النجوم الزاهرة : ٦/٧٦ ؛ البداية والنهاية : ١٢/٢٩٣ ؛ السلوك : ١/٦١ـ٦٢؛ تاريخ ابن الوردي : ٢/٢٢٣ شذرات الذهب : ٤/٢٣٨ـ٢٣٩ ؛ كنز الدرر: ٧/٦٠ • الاخبار السنية : ١٢٩ ؛ نهر الذهب : ٣/١٠١ـ١٠٢ ؛ تاريخ الدعوة الاسماعيلية : ٢١٢ ،

Hodgson, op. cit., P. 188; Lewis, The Assassins, P. 14;

(٤) البداية والنهاية : ١٢/٢٩٣ •

(٥) Rosebult, Saladin, PP. 107-108.

(٦) الروضتين : ١/٢٥٨ـ٢٥٩ نقلا عن ابن طيء •

ودلت من غير شك ، على ان الحركة الاسماعيلية كانت دقيقة في تنظيمها وسريتها ، وبراعة أساليبها في عمليات الاغتيال • فبالرغم من وجود عدد من الأسماعيلية داخل العسكر الايوبي غير المعروفين ، فانهم لم يهجموا على صلاح‌الدين جميعا دفعة واحدة • فربما حقق أحدهم هدف مجيئهم ، فيظل الباقون غير مكشوفين لتنفيذ مهمات أخرى • ولذلك فلا داعي لاشتراكهم جميعا في هذه العملية • ولما لم يحقق الاول الهدف هجم الثاني ثم الثالث •

دفعت هاتان العمليتان صلاح‌الدين الى ان يضع حدا لاولئك الاسماعيلية ، الذين وضح خطرهم في الشام ، وباتوا يهددون حياته وحياة امرائه وأمنهم وكانت قلاعهم ممتدة على طول صفحة جبل لبنان ، الذي كان حدا بين بلاد المسلمين ومناطق تواجد الصليبيين ، كوجودهم في انطاكية واللاذقية[١] • وأهم تلك القلاع والحصون الاسماعيلية الممتدة هناك : مصياف[*] والقدموس والكهف[٢] والعليقة والرصافي والمنيقة وغيرها[٣] •

---

(١) رحلة ابن جبير : ٢٥٥ •

(٢) كان حصنا القدموس والكهف من الحصون التابعة لمعاملة طرابلس • وهما حصنان منيعان الظاهري ، زبدة كشف الممالك : ٤٨ •

(*) يقع حصن مصياف على الساحل الشامي قرب مدينة طرابلس (معجم البلدان ٥/١٤٤) وكان من امنع الحصون ولذلك اتخذه سنان مركزا لحركته • وقد ملكه سنة ٥٣٥ هـ بطريق الحيلة ، ودخلوا فيه وقتلوا صاحبه مملوك بني منقذ اصحاب شيزر (الكامل : ١١/٣٩ ؛ ذيل تاريخ دمشق : ٢٣٣ ؛ الكواكب الدرية : ١١٣) وقد ورد هذا الحصن في الروضتين باسم « مصياف » (١/١٢٦) وفي الكامل «مصياب» (١١/١٣٦) وفي البداية والنهاية «مصيات» (١٢/٢٩٥) •

(٣) القلقشندي : ٤/١٤٦ـ١٤٧ •

لذلك كله رحل صلاح الدين في ٢٠ محرم سنة ٥٧٢هـ/١١٧٦م الى هذه الحصون بعزم خرابها وقتل الاسماعيلية فيها • وقد تمكن عسكره من حصار بعضها ونصب عليها المجانيق الكبار ، ثم اوسع من بداخلها قتلا وأسرا وساق أبقارهم وخرّب ديارهم[١] •

غير ان صلاح الدين لم يتمكن من فتح قلعة مصياف ، التي قاومت الحصار اسبوعا • وتختلف الروايات فيما حدث ، ولماذا انسحب صلاح الدين منها قبل ان يتم فتحها ! وقد ذكر المؤرخ الاسماعيلي أبو فراس عدة روايات خيالية مفادها ان صلاح الدين انسحب من مصياف خوفا من سنان وحفاظا على حياته مما رآه وسمعه من الخوارق التي كان يقوم بها سنان ضده[٢] • ومن الروايات التي قيلت ان صلاح الدين راسل سنان وطلب منه التسليم ، فأجابه سنان بالرفض ، وذكر استعداده لمحاربته وفي الليلة نفسها ارسل اليه سنان أحد فدائييه ، فتمكن من دخول خيمة صلاح الدين ووضع له عند رأسه اشعارا تنطوي على بعض التهديد[٣] • وفي الليلة التي

---

(١) الكامل : ١١/٤٣٦ ؛ الروضتين : ١/٢٦١ ؛ تاريخ الازمنة: ٧٧ •

(٢) انظر النص العربي للمؤرخ الاسماعيلي ابو فراس الذي تحدث عن المولى راشد الدين سنان في المجلة التالية :

Journal Asiatique, 7th Series, Vol, IX, 1877, PP. 455-459.

وقد نقلت بعض روايات ابو فراس في كل من المصادر التالية : تاريخ الدعوة الاسماعيلية : ٢١٢-٢١٣ ؛ شذرات الذهب : ٤/٢٩٤-٢٩٥ ،

Runciman, op. cit, 11, P. 410.

Rosebault, Saladin, PP. 122-114;

لويس ، الحشيشية : ١٣١-١٣٣ ،

(٣) ومن امثلة الاشعار التي ارسلها سنان الى صلاح الدين ما

اعقبها ضرب صلاح‌الدين حول خيمته نطاقا من الحراس ، وامر بنشر الطحين حواليها • وفي الصباح وُجد صلاح‌الدين سليما ، وقد بدّل محل مصابيح خيمته • علما بان أحدا من الحراس لم يشاهد أي زائر من البشر يدخل الى الخيمة ، فاستولى على العساكر الرعب ، سيما وقد هبطت اليهم رسالة بواسطة سهم من مصياف جاء فيها : « ألا فاعلموا اننا نروح ونغدو كما كنا في السابق ، ولن تعوقونا بحال من الاحوال »[1] •

وقد نقل المؤرخ الانكليزي روزبلت Rosebault عددا من الروايات الاسماعيلية حول سبب مغادرة صلاح‌الدين مصايف ، نذكر منها ما يلي : حاصر صلاح‌الدين سنان مع اثنين من مساعديه ، وعندما أراد التقدم اليهم ببعض امرائه للقبض عليهم وجدوا انفسهم غير قادرين على التقدم ، لقد سيطرت عليهم قوة مخدرة جردتهم من قدرتهم • وقد انزعج صلاح‌الدين مما حصل ، واعتقد ان هناك قوة خفية تعمل لصالح عدوه ، لذلك طلب مصالحة سنان وكسب جانبه[2] •

اذن يرى الاسماعيلية ان الخوارق التي كان يعملها سنان والتهديدات التي كان يرسلها صلاح‌الدين ، هي التي عملت على فشل حصار مصياف • والحقيقة ان هذه الروايات ضعيفة ، فبالاضافة الى عدم وجود ما يسندها تاريخيا وعقليا ، فان الاسماعيلية حاولت اغتيال صلاح‌الدين أكثر من مرة

قيل :ـ

قام الحمام على البازي يهدده   وكشرت لاسود الغاب اضبعه
انا منحناك عمرا كي تعيش به   ان رضيت والا سوف ننزعه

شذرات الذهب : ٤/٢٩٤ـ٢٩٥ •

(١) شعلة الاسلام : ٧١ـ٧٢ •

(٢) Saladin prince of chivlary, PP. 112-114

ولم تفلح في مسعاها • ولو صح انها تمكنت منه ـ كما قالت هذه الروايات لقتلتــه •

اما الرواية الثانية ، فتقول ان عساكر صلاحالدين لما قتلت الاسماعيلية وخربت ديارهم ، شفع فيهم خاله شهابالدين ـ صاحب حماة ـ اذ كان راشدالدين سنان قد راسله في ذلك لانه جيرانه ، فقبل صلاحالدين شفاعة خاله فيهم وترك حصار مصياف[1] • خاصــة وانه رأى من بعض امرائه « ميلا الى الانكفاء »[2] •

وقــد أشار ابن الاثير الى هــذه الرواية الثانية ، غير انــه ذكر ان راشدالدين ســنان ، لم يراسل شهابالدين ويطلب منــه التوسط لدى صلاحالدين بالكف عن حصار مصياف من باب الترجي أو التوسل انما قال له : « ان لم تفعل قتلناك وجميع أهل صلاحالدين وامرائه »[3] • ويضيف ابن الاثير الى ذلك بان العسكر الصلاحي ملّ من طول الانتظار لعــدم التمكن من فتح مصياف ، وكانت أيديهم مملوءة بالغنائم التي كسبوها من عسكر الموصل وبلد الاسماعيلية ، فطلبوا العودة الى بلادهم للاستراحة ، فاذن لهم صلاحالدين وســار هــو الى مصر[4] • ولذلك انتهى حصار مصياف •

والواقع ان فشل حصار مصياف لم يكن لتهديدات سنان لصلاحالدين ولخاله شهابالدين فحسب ، انما كان خوفا من هجوم الصليبيين على بلاد المسلمين ورغبة في عدم استنزاف المزيد من الوقت • ففي الوقت الذي كان

---

(١) الروضتين : ١/٢٦١ •

(٢) سنا البرق الشامي ، نقلا عن العماد الاصفهاني : ١/٢١٨ •

(٣) الكامل : ١١/٤٣٦ •

(٤) نفس المصدر والمكان السابق •

فيه صلاح‌الدين محاصرا للبلد ، أغار الصليبيون على بعض البقاع فخرج اليهم شمس‌الدين محمد بن عبدالملك ابن المقدم ـ متولي بعلبك ـ فقتل منهم جماعة واسر أكثر من مائتين ، واحضرهم عند صلاح‌الدين على مصياف . فخاف ان يهيج الصليبيون في الشام الاعلى ، وهو بعيد عنهم ، فصالح سنان وعاد الى دمشق[(١)] .

ومما يدل على صحة هذا الرأي ما ذكره العماد الاصفهاني في البرق الشامي بقوله : « لولا هذا الحادث لم يصرف عنها الاحداث »[(٢)] أي لولا هجوم الصليبيين ـ سابق الذكر ـ لم ينصرف صلاح‌الدين من حصار مصياف . وربما كانت وساطة شهاب‌الدين قد جاءت في الوقت الذي كان صلاح‌الدين عازما على مصالحة الاسماعيلية .

وقد وقع ابن الاثير في أخطاء حيث ذكر اشارات تدل على وجود تعاون بين صلاح‌الدين والاسماعيلية ، وانه استخدمهم لاغتيال أعدائه من الصليبيين . ففي ١٣ ربيع الآخر سنة ٥٨٨هـ/١١٩٢م قتل المركيس (كونراد) أمير مدينة صور[(٣)] . وكان سبب قتله ـ كما اكر ابن الاثير ـ ان صلاح‌الدين هو الذي راسل مقدم الاسماعيلية في الشام ـ راشدالدين سنان ـ وبذل له عشرة آلاف دينار ثمنا لقتل ريتشارد فلم يمكنه قتله ، ولم ير سنان مصلحة له في ذلك ، فعدل عنه الى قتل المركيس . فأرسل اليه

---

(١) الروضتين ، نقلا عن ابن ابي طيء : ١/٢٦١ .

(١) سنا البرق الشامي ، نقلا عن الاصفهاني : ١/٢١٩ ؛ البداية والنهاية : ١٢/٢٩٥ .

(٣) كان المركيس احد كبار تجار الصليبيين قدم الى صور سنة ٥٨٣ هـ بعد معركة حطين ، وتمكن من تحصين البلد ، وحفر حوله خندقا عميقا من البحر الى البحر في وقت انشغال صلاح‌الدين بفتح القدس والساحل الشمالي . البداية والنهاية : ٢/٣٢٧ .

اثنين في زي الرهبان الى صور ، مكثا في خدمته ستة أشهر حتى تمكنا منه وقتلاه[1] •

والحقيقة ان صلاح الدين لم يكن لـه أية علاقـة بقتل الاسماعيلية للمركيس ، لان العملية كانت مدبرة بين راشدالدين سنان وريتشارد قلب الاسد • ومما يدل على ذلك ما يلي :

أولا ـ ان المركيس كان قد عقد مع صلاح الدين معاهدة اظهر له فيها الطاعة من أجل التصدي لريتشارد الذي عاداه ورغب بالانفراد بزعامة الصليبيين في الساحل الشامي دونه[2] • وكان صلاح الدين من جهته يرغب بالاتفاق مع المركيس ومن مصلحته أيضا ان يبقى المركيس حيّا لتستمر المعاهدة بين الجانبين ، من أجل اضعاف قوى الصليبيين في الشام عن طريق اثارة النزاع بين المركيس وريتشارد • وقد دلّ على ذلك العماد الاصفهاني بقوله : « ولم يعجبنا قتله وان كان من طواغيت الضلالة ، لانه كان عدو ملك الانكليز ومنازعه »[3] •

ثانيا ـ بعد استقراء المصادر التاريخية ظهر بأن ثمانية مصادر رجحت الرواية القائلة بان مقتـل المركيس كان بتعاون ريتشارد مع راشدالدين سنان ، وان روايتين فقط اتهمتا صلاح الدين بتدبير تلك العملية[4] •

---

(١) الكامل : ١١/٧٨ـ٧٩ ، تاريخ ابن خلدون : ٥/٧١٣ •
Champdor, Saladin, P. 311.

وقد اعتمد كل من ابن خلدون وشامبدور الفرنسي على رواية ابن الاثير •

(٢) الاصفهاني ، الفتح القدسي : ٣٩٨ •

(٣) الاصفهاني ، الفتح القدسي : ٤٢١ •

(٤) كانت المصادر التي رجحت تبرئة صلاح الدين من الاشتراك في عملية قتل المركيس هي : الفتـح القـدسي : ٤٢٠ـ٤٢١ ؛ النـوادر

ثالثا ــ من الواضح ان اتفاقا بين صلاح‌الدين والمركيس يهدد مصالح ريتشارد في منطقة الشام ، ولذلك فمن الطبيعي ان يتعاون ريتشارد مع سنان لاجل قتل المركيس خاصة وان الاسماعيلية كانوا من أنصار فرسان الاسبتارية الصليبيين ، وكان المركيس من جماعة فرسان الداوية الصليبيين[1] .

على أية حال فان الصلح تم بين الاسماعيلية وصلاح‌الدين ، ولم أجد في المصادر التاريخية ، بعد هذه الفترة ، أية اشارة لهجوم الاسماعيلية على صلاح‌الدين أو بالعكس . والذي يبدو ان صلاح‌الدين اتبع معهم سياسة حكيمة جعلهم يقفون على الحياد ليتفرغ لصليبيين بعد ان قضى على الدولة الفاطمية[2] .

علما بأن الاسماعيلية رغبوا في الصلح قبل صلاح‌الدين ، لفشل محاولاتهم المتكررة لاغتياله ، وعدم وجود قوة عسكرية اسماعيلية تتمكن من التصدي للقوات الايوبية لذلك فضلوا وقوف صلاح‌الدين على الحياد ،

السلطانية : ٢٠٨ ؛ الروضتين : ٢/١٩٦ ؛ مفرج الكروب : ٢/٣٨٢ ؛ مرآة الزمان : ق١ جـ٨/٤٢٠ ؛ الانس الجليل : ١/٣٨٥ ؛ تاريخ الازمنة : ٩٣ ؛ انظر : مختصر تاريخ العرب : ٣٢١ــ٣٢٢ ؛

Rosebault, Saladin, P. 283; Hodgson, The order of Assassins, P. 189, Lewis, The Assassin's P. 117.

اما الروايتان اللتان اتهمتا صلاح‌الدين بتدبير العملية ، فهما في الحقيقة رواية واحدة ، لان ابن خلدون نقل روايته عن ابن الاثير ، وابن الاثير، كما تبين من قبل لم يكن من محبي صلاح‌الدين ، انظر : الكامل : ١١/٧٨ــ٧٩ ، تاريخ ابن خلدون : ٥/٧١٣ .

(١) Cahen, la Syrie du nord.., P. 562.

(٢) Kritzeck, Anthology of Islam, P. 162.

على ان يكـون عدوا مباشرا لهـم • وكان صلاح الدين من جهتـه يرغب بمصالحتهم لحصانة قلاعهم وتهديدهم لحياته وأمنه ، ورغبته في التفرغ الى الجانب الاكثر خطـورة على مستقبل سـياسته ودولته • وكانت تلك الخطورة متمثلة في تفكك الامارات الزنكية ورغبته بتوحيدها وضمها اليه أولا والقضاء على قوى الصليبيين في الشام وتحرير القدس ثانيا •

ثانيا : صلاح الدين والخلافة العباسية ٥٦٧ ــ ٥٨٩ هـ/١١٧١ــ١١٩٣م

كانت الخلافـة العباسـية في بداية امرهـا تملك القـوة العسـكرية والسياسية ولهـا رياسة المسلمين الدينية والدنيوية طبقـا لمفهوم الخلافـة المعروف[1] وكان الخليفة هو الذي يعيّن الولاة والسلاطين الذين كان عليهـم الاعتراف بالسيادة العليا للدولة ، وعدم مخالفة أوامر الخليفـة ، وتقديم الولاء له ، بالدعاء له في المساجد ، ونقش اسمه على النقود وتقديم الاموال اليه في كل عام • وكان للخليفة الحق في محاسبة امرائه ، بينما لم يتمكن احد من الامراء تجاوز حقوق الخليفة •

غير ان الضعف الذي انتاب الخلافة العباسية دفع ببعض الامراء الى شق عصا الطاعة عليها ، وكان أول من خرج على القاعدة المألوفة ، عمليا ونظريا ، هم الفاطميون الذين لم يكتفوا « بأن يكونوا امراء ذوي سلطة دنيوية فقط ، بل أرادوا ان يكونوا الخلفاء الحقيقيين للنبي صلى الله عليه وسلم ، فاتخذوا لانفسهم لقب الخلافة بعد فتح القيروان سنة ٢٩٧هـ ــ

---

(١) عرف ابن خلدون الخلافة بأنها « حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الاخروية والدنيوية الراجعة اليها اذ احوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع الى اعتبارها بمصالح الاخرة فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به » • مقدمة ابن خلدون ، مطبعة الكشاف (بيروت ، لم يذكر السنة)/١٩١ •

٩٠٩م »[1] .

وبعد ذلك استمر ضعف الخلافة العباسية ، مما جعلها تفقد حقوقها الدنيوية في القرن الخامس الهجري ، وصار الخليفة حينئذ رئيسا روحيا لم يبق له سوى بغداد ينازعه عليها المتنازعون[2] . غير ان الامراء والسلاطين السنيين احتفظوا بولائهم وطاعتهم لتلك السلطة ، ومن اولئك الزنكيون والايوبيون .

عاش صلاح الدين في كنف البيت الزنكي ، الذي كانت علاقته بالخلافة العباسية حسنة للغاية بصورة عامة ، فقد كان نورالدين مثلا يحترم الخليفة العباسي المستضيء بأمر الله[3] كثيرا ، وكان الخليفة العباسي من جهته ايضا يستجيب لكل نداءات نورالدين ، ويرسل الكتب الى امراء الاطراف يستحثهم فيها على مساندة نورالدين في حربه ضد الصليبيين ، كما كان يرسل اليه في كل مناسبة الخلع الجميلة . ففي سنة ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م مثلا وصل لنورالدين من المستضيء بأمر الله خلعة عندما دخل

---

(١) متز ، آدم ، الحضارة الاسلامية : ١/٢٧٧ .

(٢) لمعرفة المزيد عن كيفية سلب اولئك المتغلبين الخلافة العباسية سلطانها ، وكيف ناضل الخلفاء من اجل البقاء . انظر :القزاز، الحياة السياسية في العراق : ١٣ـ٤١ ؛ لامب ، شعلة الاسلام : ٤٨ .

(٣) المستضيء بامر الله : هو الحسن ابو محمد بن المستنجد بالله ، ولد سنة ٥٣٦ هـ وامه ام ولد أرمنيه ، بويع له بالخلافة يوم موت ابيه سنة ٥٦٦ هـ ، وخطب له بالديار المصرية واليمن ، وكان ذا سيرة حسنة واماما عادلا رفع المكوس والمظالم ، توفي سنة ٥٧٥ هـ بعد ان عهد الى ابنه احمد (الناصر لدين الله) بالخلافة في نهاية شوال من السنة . وكانت مدة خلافته تسع سنين وسبعة اشهر . الكامل ١١/٤٥٩ ؛ السيوطي ، تاريخ الخلفاء : ٢٩٤ـ٢٩٥ ، الديار بكر ، تاريخ الخميس في احوال انفس نفيس : ٢/٣٦٦ .

الموصل فلبسها ولما ملك الموصل خلعها عن ابن أخيه سيف الدين[1] .

وقد حرص نورالدين ، بصورة عامة ، على كسب رضى الخلافة العباسية ، وربما كان حرصه تابعا من ايمانه بقدسية الخلافة ، ورغبته في الفوز بتأييدها الروحي والمعنوي عند جماهير المسلمين ، ليتمكن من الوقوف بحزم ضد اعدائه امصيبين ، وبعض الامراء المسلمين الذين كانوا لايساهمون في الجهاد[2] . ومن الطبيعي جدا ان يستفيد صلاح الدين من سياسة نورالدين هذه ، وان يتعلم منه الطريقة التي يجب بها على السلطان احترام الخليفة وطاعته .

ومن جهة ثانية ، فان صلاح الدين قدّم للخليفة العباسي ولاء وطاعة ، كما ينبغي للمسلم المتمسك بعقيدته ان يقدمهما لامام عصره ، خاصة وان صلاح الدين قرأ القرآن والحديث[3] ورافق الصوفية ، ودرس مذهب

---

(١) الكامل : ١١/٣٦٤- ولمعرفة المزيد عن حسن العلاقة بين نورالدين والخلافة العباسية انظر : ابن الاثير ، الباهر : ١٥٤ ؛ ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ٢٩٣-٢٩٤ ؛ ابو شامة ، الروضتين : ١/٨٤ و١٨٨؛ ابن واصل ، مفرج الكروب : ١/٦٩-٧٠ و١٩٦؛ ابن العديم ، زبدة الحلب : ٢/٢٦٤-٢٦٥ .

(٢) القزاز ، الحياة السياسية : ٢٥٠-٢٥١ .

(٣) جاء في تفسير ابن كثير بأن الله سبحانه وتعالى قال : (واطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الامر منكم) الذين يأمرون ما أمر به الله ورسوله ، ويحرمون ما حرم الله ورسوله . وقد جاء في الحديث ايضا ان الرسول محمد (ص) قال : « كانت بنو اسرائيل تسوسهم الانبياء كلما هلك نبي خلفه نبي ، وانه لا نبي بعدي وسيكون خلفاء فيكثرون ، قالوا : يا رسول الله فماذا تأمرنا ؟ قال : اوفوا بيعة الاول فالاول واعطوهم حقهم ، فان الله سائلهم عما استرعاهم » . تفسير القرآن العظيم (القاهرة : ١٩٣٧) : ١/٥١٧ . انظر : طبارة ، روح الدين الاسلامي ط ١ (بيروت ، لم تذكر السنة) : ٢٩٤ .

الامام الشافعي ، كما تبين ذلك من قبل ، مما جعله يتفقه بمعنى اطاعة الخليفة ، ويعتبر ذلك جزء من عقيدته ، ففي سنة ٥٧٧هـ كتب صلاح الدين كتابا الى مجدالدين بن الصاحب استاذ دار الخلافة جاء فيه : « ... ونحن لا نتدين الا بطاعة الامام ، ولا نرى ذلك الا من أركان الاسلام ، هذا ما نعدّ في الملة الحنيفية والدولة الهادية العباسية مما لا يعد مثله »(١) .

صلاح الدين والمستضيء بالله :

في سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م بدأت علاقة صلاح الدين بالخلافة العباسية فقد كان وزيرا للخليفة الفاطمي وجاءه كتاب من نورالدين بقطع خطبة الخليفة الفاطمي والدعوة للمستضيء بالله العباسي ، ففعل ذلك صلاح الدين طاعة لنورالدين ، واحتراما للخليفة العباسي ، السني المذهب الذين يدين له بالولاء والطاعة .

وقد كاتب صلاح الدين الخليفه المستضيء بامر الله العباسي بمناسبة اسقاطه للدولة الفاطمية ، واوضح له بأن الخلافة العباسية أصبحت هي الظاهرة ، وان أهل البدعة والخلاف اذا سمعوا بها لم يخروا عليها صما وعميانا « وان الجمعة أصبحت جامعة والمذلة في شيع الضلال شائعة ، وذلك بأنهم اتخذوا عباد الله من دونه أولياء ، وسموا أعداء الله أصفياء »(٢) .

وصل الكتاب الى بغداد ، ففرحت به كثيرا ، وضربت البشائر بها عدة أيام وزينت الطرقات والمحلات ، وظهر من الفرح ما لا حدّ له ، وسيّرت الخلع الى نورالدين وصلاح الدين ، مع عدد من الاعلام السود(٣) ـ شعار

---

(١) ابن شاهنشاه ، مضمار الحقائق وسر الخلائق : ٦٤ .

(٢) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة : ٥/٣٤٣ـ٣٤٤ .

(٣) الكامل : ١١/٣٦٩ـ٣٧١ وانظر : الروضتين : ١/١٩٩ ؛ مفرج الكروب : ١/٢١٨ ؛ شذرات الذهب : ٤/٢١٩ـ٢٢٠ .

العباسيين ـ لرفعها فوق المساجد والدواوين ايذانا بسقوط الدولة الفاطمية ، واعترافا بالتبعية لبغداد •

بعد وفاة نورالدين سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م واضطراب الاحوال في منطقة الشام ، كاتب صلاح الدين الخليفه المستضيء بامر الله العباسي[١] واوضح له أحوال الشام السياسية المضطربة وتكالب الصليبيين على بلاد المسلمين ، والاعمال الحسنة التي قام بها بمصر كازالته للدولة الفاطمية ، كما ذكّره بأعمال والده وعمه البطولية ضد الصليبيين ، وبيّن له الاعمال العسكرية التي قام بها في اسكات صيحات الخصوم في القسطنطينية وصقلية الذين كانوا ينوون ضرب الاسلام واحتلال الاسكندرية ، وأوضح له أيضا سبب فتحه لليمن وضرب المهدي المبتدع الذي ادعى الضلال ، واعقب صلاح الدين بعد كل ذلك برجائه من الخليفة العباسي ان ينعم عليه بتقليد « جامع لمصر والمغرب واليمن والشام وكل ما تشتمل عليه الولاية النورية ، وكل ما يفتحه الله للدولة بسيوفنا ، وسيوف عساكرنا ولمن نقيمه من أخ وولد من بعدنا ، تقليدا يضمن للنعمة تخليدا ، وللدعوة تجديدا مع ما ينعم به من السمات التي يقتضيها الملك »[٢] •

استجابت الخلافة لمطاليب صلاح الدين ، لذلك انعمت عليه بالسلطنة

---

(١) ذكر القلقشندي ان صلاح الدين ارسل بالكتاب المشار اليه اعلاه الى الخليفة الناصر لدين الله العباسي ، وليس للمستضيء بأمر الله• وقد وهم القلقشندي فيما نسبه ، ذلك لان المستضيء بأمر الله توفي في سنة ٥٧٥ هـ/١١٨٠م ، والكتاب مرسل من القاهرة الى بغداد سنة ٥٧٠ هـ/١١٧٤م • انظر صبح الاعشى : ٨٢/١٣ وقارن مع ما ذكر عن وفاة المستضيء في : الكامل : ٤٥٩/١١ ؛ السلوك : ٦٠/١ •

(٢) انظر نص الكتاب الذي ارسله صلاح الدين الى المستضيء بأمر الله في: صبح الاعشى : ٨٢/١٣ـ٩٠ •

على مصر والشام وارسلت اليه رسل دار الخلافة عندما كان محاصرا لحماة سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م « بالتشريفات السنية والامثلة الرضية والجنائب العربية والتحف الامامية والتقليد والتمليك والتحكيم والتفويض ، فأفاضوا على السلطان وأقاربه الخلع »[١] • وفي استجابة الخلافة لمطاليب صلاح الدين دليل على رغبتها بالاعتماد عليه لانها وثقت من قوته ، خاصة وان نورالدين قد توفي فأرادت ان يكون صلاح الدين خلفه • وقد كسب هذا التقليد صلاح الدين مهابة وتقدير امراء المسلمين بوجه عام والصليبيين بوجه خاص •

وقد صوّر الشاعر ابن الدهان ، بلغة الشعر ، العلاقة الحسنة التي كانت بين صلاح الدين والخلافة العباسية في هذه الفترة ، ومدى تأييد بغداد لصلاح الدين والمحبة التي اكنتها لـه ، وأكد بأن منشور الخلافة والخلع التي ارسلت اليه دليل على اعترافها له بالسلطنة ، وانه أصبح بنظرها معيد الحق لاصحابه الشرعيين ، وأوضح بان الخلافة مقلة وان صلاح الدين أصبح سوادها ومحجرها والحارس الامين لها[٢] •

---

(١) العماد الاصفهاني ، البرق الشامي ، تلخيص البنداري ، سنا البرق الشامي : ١/١٩٢-١٩٣ ؛ الكامل : ١١/٤٢٢ ؛ الروضتين: ١/٢٥٠ ؛ وانظر: البداية والنهاية: ١٢/٢٩٠-٢٩١ ؛ السلوك : ١/٦٠ •

(٢) مما جاء في قصيدة ابن الدهان التي صور فيها علاقة صلاح الدين بالخلافة العباسية سنة ٥٧٠ هـ/١١٧٤م ما يلي:-

« وأتاك منشور الخلافة شاكرا	لك ان اعدت الحق حيا منشرا
لما اعدت الحق في اربابه	ورددت للمستوجبيه منبرا
بعث الامام لك الشعار مصورا	للناس انك في الضمير مصورا
واراهم ان الخلافة مقلة	اصبحت انت سوادها والمحجرا
فأفخر بما فعل الامام على الورى	وكفى بما فعل الخليفة مفخرا
خلع اتتك وللعلى في طيها	نشر وطي عداك في ان تنشرا

ديوان ابن الدهان : ١/٥٣-٥٤ •

ونظرا لاهتمام صلاح الدين باعادة الوحدة بين مصر والشام وما يمكنه ضمه اليهما من البلاد الاسلامية ، فقد كان بحاجة الى مساندة الخلافة العباسية لـه أكثر من نورالدين ، رغم امتلاكه قوة عسكرية كبيرة برية وبحرية لا تقاس بها قوة نورالدين ، ذلك لان أعداء نورالدين كانوا من غير المسلمين ، سوى بعض الامراء الذين انخرطوا تحت سلطانه بعدئذ ، اما صلاح الدين فقد عاداه الامراء المسلمون وبخاصة من الزنكيين الى جانب الصليبيين ، وكثيرا ما تعاونوا مع الاسماعيلية والصليبيين ضده[1] .

لهذا كان صلاح الدين يطلع الخلافة العباسية على كل تحركاته ومنجزاته ليكسب تأييدها ضد الامراء النوريين . ففي سنة ٥٧١هـ/١١٧٥م اتفق صلاح الدين مع الملك الصالح ـ اتابك حلب ـ على شروط معينة انسحب بموجبها من حصار حلب ، منها الا يدخل الحلبيون باتفاق مع طرف ثالث الا بعد موافقة الطرف الثاني غير ان سيف الدين غازي ـ اتابك الموصل ـ كاتب الملك الصالح ودفعه الى نقض الهدنة فاعلن صلاح الدين الحرب عليهما ـ كما تبين ذلك في الفصل الثاني ـ . وقبل البدء بها كاتب الخلافة العباسية ليطلعها على حقائق الامور . واوضح لها بأنه اتفق مع الملك الصالح ليستخدم عساكره ضد الصليبيين ، غير ان سيف الدين غازي جعله ينقض العهد لذلك طلب من الخليفة العباسي ان يرسل اليه يحذره من نقض عهد الله من بعد ميثاقه ، وان يعطيه الحق في قتالهم وتضيق الخناق عليهم ، وان اصروا على غوايتهم يكون صلاح الدين معذورا في مقاتلتهم ، وكي لا يتهم بقتال المسلمين وترك قتال الصليبيين[2] . بعد ان اوضح

---

(١) القزاز ، الحياة السياسية : ٢٥٦ـ٢٥٧ .

(٢) انظر نص الكتاب الذي ارسله صلاح الدين الخليفة المستضيء بأمر الله العباسي سنة ٥٧١ هـ/١١٧٥م في الروضتين : ١/٢٥٤ .

للخليفة العباسي ان أهدافه سامية ، وانه لا يريد من الامراء المسلمين الا ان يعضدوه بما يملكون من قوى لتحرير القدس من رجس الشرك • ثم ليسدّ الطريق على سيف‌الدين غازي والملك الصالح وغيرهما من الامراء المسلمين الذين ربما راسلوا الخليفة العباسي واتهموا صلاح‌الدين بأنه يقاتل طلبا للدنيا ، فيضطر الى اعلان الحرب ضده ، وبذلك يخسر تاييد المسلمين •

صلاح‌الدين والناصر لدين الله :

استمرت علاقة صلاح‌الدين بالخليفة العباسي المستضيء بامر الله حسنة حتى وفاته • وعندما تولى الناصر لدين‌الله[1] الخلافة في مستهل ذي القعدة سنة ٥٧٥هـ/١١٧٩م ، قام صلاح‌الدين من جانبه بواجب البيعة له ، وارسل الى بغداد رسوله للتعزية بوفاة والده والتهنئة له بمناسبة توليه مهام الخلافة ، كما جرت العادة عليه[2] • وكان في تلك الفترة قد توفي سيف‌الدين غازي

---

(١) الناصر لدين الله : هو ابو العباس احمد بن المستضيء بأمر الله ، ولد سنة ٥٥٣ هـ وامه ام ولد تركية اسمها زمرد ، وبويع له بالخلافة في مستهل ذي القعدة سنة ٥٧٥ هـ ، وتوفي سنة ٦٢٢ هـ ودامت خلافته حوالي سبع واربعين سنة ولم يل الخلافة اطول مدة منه وقد نشأ نظاما للفتوة وفي ايامه ظهرت القسي ببغداد والرمي بالبندق ولعب الحمام وتفنن الناس في ذلك • وكانت له عيون على كل سلطان يأتونه بالاخبار ، حتى كان بعض الكبار يعتقد فيه ان له كشفا واطلاعا على المغيبات / الديار بكري ، تاريخ الخميس : ١/٣٦٦-٣٦٧/ ويرى ابن الاثير انه هو الذي اطمع التتر في البلاد لانه راسلهم في ذلك «فهو الطامة الكبرى التي يصغر عندها كل ذنب عظيم » الكامل : ١٢/٤٤٠ • ولمعرفة المزيد عن هذا الخليفة وسبب انشائه لنظام الفتوة انظر : ابن شاهنشاه، مضمار الحقائق : ٤-٨ ، السيوطي ، تاريخ الخلفاء : ٢٩٧-٣٠٤ ؛ سنبط قنيتوا ، خلاصة الذهب المسبوك : ٢٨٠-٢٨١ •

(٢) الاصفهاني ، البرق الشامي ، تلخيص البنداري ، سنا البرق الشامي : ١/٣٤٢-٣٤٣ ؛ مفرج الكروب : ٢/٩٢ •

ـ اتابك الموصل ـ وجلس أخوه عزالدين مكانه ، فكتب صلاحالدين الى الخليفة يسأله ان يفوّض اليه الامور[1] . فوصل اليه شيخ الشيوخ صدالدين أبو القاسم عبدالرحيم وشهابالدين بشير الخاص « بالتفويض والتقليد والتشريف الجديد في رجب »[2] من السنة ، فتلقاهم صلاحالدين بالتعظيم والتمجيد ، وكان قد عرف ما بين شيخ الشيوخ والعماد الاصفهاني من محبة وصداقة فأرسله لاستقباله نيابة عنه ، ثم دعاه لزيارة مصر ، الا انه اعتذر لعزمه الذهاب للحج ، ثم وافق على مرافقة صلاحالدين الى القاهرة ، لزيارة ضريح الامام الشافعي والسير من هناك الى جدّة[3] .

ويرى القلقشندي ان الخليفة العباسي الناصر لدين الله كان متغيرا على صلاحالدين لتلقبه « بالملك الناصر » ، وانه لما بعث اليه كتاب التقليد افتتحه بجملة « ان اولى من جادت رباعه سحب الاصطناع ... » ، وان افتتاح الكتب بـ : ان أولى ، أو ان أحق ، انما يكتب « لاصحاب الرتب السافلة التي لا تقارب رتبة الملك ولا ما دونها »[4] . غير ان نص كتاب التقليد فيه من الادلة ما يثبت خطأ ما ذكره القلقشندي ، اذ فيه لقب الخليفة الناصر صلاحالدين بـ « الملك الاجل السيد صلاحالدين ، ناصر الاسلام عمادالدولة ، جمال الامة ، فخر الملة ، صفي الخلافة ، تاج الملوك والسلاطين ، قامع الكفرة والمشركين ، قاهر الخوارج والمرتدين ، عز

(١) الروضتين : ٢/١٧ ؛ السلوك : ١/٧٠ ؛ انظر السيوطي ، تاريخ الخلفاء : ٢٩٥ .

(٢) سنا البرق الشامي : ١/٣٥٢ ؛ انظر : الروضتين :٢/١٩؛ مفرج الكروب : ٢/٩٥ . شذرات الذهب : ٤/٢٥٤ـ٢٥٥ ، البداية والنهاية : ١٢/٣٠٧ ، الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الاخير : ٢٥٨ .

(٣) سنا البرق الشامي : ١/٣٥٢ـ٣٥٣ .

(٤) مآثر الاناقة في معالم الخلافة : ٣/٨٦ .

المجاهدين الب غازي يوسف بن أيوب ـ ادام الله علوه ـ على هذه السجايا مقبلا ... »[1] . وهذه النعوت الجليلة فيها ما يثبت رضاء الخليفة عن صلاح الدين رضاء تاما ، فقد جعله تاج الملوك والسلاطين . ثم لو صح ان كلمة « ان اولى » تكتب للرتب السافلة ، فانها قليلة الاهمية في هذا الكتاب نظرا لاحتوائه على أكثر من عشرين كلمة تعظيم . علما بانه لو كان في نفس الخليفة الناصر لدين الله مما قصده القلقشندي لاشار الى ذلك في كتابه هذا ولو تلميحا وتعريضا .

ومما هو جدير بالملاحظة ان الخليفة العباسي أمر صلاح الدين بكتابه السابق بتقوى الله والحفاظ على الصلاة ، وقصد المساجد الجامعة ولزوم نزاهة الحرمات واجتناب المحرمات ، واحسان السيرة في الرعايا واظهار العدل في الرعبة وحفظ الثغور ومجاهدة الكفار والاعتماد في ادارة شؤون البلاد على أصحاب الدين والعفاف ، ثم أشار اليه بواجب شكر الخلافة على ما اسبغت عليه من التأييد والاحترام . وكانت الصيغة مبتدأة ب « وآمره باظهار العدل ... » وامره بكذا[2] . ولم يكن في تلك الصيغة ما يدعو الى الشك في حسن العلاقة بين الطرفين ، لانها كانت اسلوب الخلافة في تلك الفترة التي لم يكن فيها للخليفة سلطان على سلاطينه ، اذ لم يكن يملك الا ان يأمرهم بالعدل والاحسان بين الرعية . وقد أورد القلقشندي أربعة كتب موجهة من الخليفة العباسي الى بعض سلاطينه تضمنت نفس الاسلوب[3] .

على أية حال فان صلاح الدين كان مطمئنا لكتاب الخليفة ، وقد تقبّله

---

(١) مآثر الانافة في معالم الخلافة : ٣/٨٧ـ٨٨ .

(٢) القلقشندي ، مآثر الانافة : ٣/٨٩ـ٩٦ .

(٣) نفس المصدر السابق : ٣/٩٩ و١٠٧ـ١١٩ و١٥٢ .

بقبـول حسن وكتب اليه يقول : « الخادم ولله الحمد يعـدد سوابق في الاسلام ، والدولة العباسية لا يعمرها أولية أبي مسلم لانه والى ثم وارى ، ولا آخرية طغرلبك لانه نصر ثم حجر ، والخادم خلع من كان ينازع الخلافة رداءها وأساغ الغصة التي أذخر الله للاساغة في سيفه ماءها فرجل الاسماء الكاذبة الراكبة على المنابر ، واعز بتأييد ابراهيمي فكسر الاصنام الباطنة بسيفه الظاهر »[1] .

وقـد أدل صلاح‌الدين على خضوعه للخلافة العباسية بنعت نفسـه بالخادم لها كما تبين في افتتاحية كتابه السابق[2] . كما كانت كل المساجد الواقعـة تحت سلطانه تلهج بالدعـاء للخليفة العباسي على المنابر ، وكان خطباؤها في كل مناسبة يلبسون شارات الدولة العباسية ، ويرفعون اعلامها السود ، وقد شاهد الرحالة ابن جبير ذلك عيانا سنة ٥٧٨هـ ، وذكر ان الخطيب كان يلبس بردة سوداء عليها طيلسان شرب أسود وعمامة سوداء متقلدا سيفا ، ويقف بين رايتين سوداوين[3] .

ولم يمنح الخليفة الناصر لدين‌الله العباسي من جهته ، الخلع السوداء والعمامة السوداء لاحـد من المقربين أو الامراء ممن يدخل في سـلطنة صلاح‌الدين ، احتراما وتقديرا لصلاح‌الدين وتمييزا له عن غيره ، وكان اذا طلبها منه احدهم رفض طلبه . ففي سنة ٥٧٨هـ هرب الامير جمال‌الدين

---

(١) السيوطي ، تاريخ الخلفاء : ٣٠٠ .

(٢) كان صلاح الدين ينعت نفسه (بالخادم) للخليفة العباسي في كل كتاب كان يرسله اليه ، ومثال لذلك الكتـاب الذي ارسله سنـة ٥٧٩ هـ بعد فتح حلب والذي جاء فيه : الخادم ينهي ان الذي يفتتحه من البلاد ... و » و « سار الخادم الى قلعة حلب » . انظر الروضتين: ٢/٤٨؛ القلقشندي : ١٣/٣٠٤ .

(٣) رحلة ابن جبير : ٥١ .

خشترين من الموصل الى بغداد صحبة ثلاثمائة فارس ، وطلب العمل لدى الديوان العزيز ببغداد ، غير ان الخليفة العباسي رفض طلبه حجة ان الارزاق كانت مقررة ولا يوجد زيادة فيها ، واعتقد انه تذرع بهذه الحجة ، لانه لم يرد ان يفقد صداقة أتابكة الموصل ، ولذلك طلب جمال‌الدين توصية من الخلافة والسماح له بالعودة الى الشام ، للعمل مع صلاح‌الدين الذي كانت علاقته باتابك الموصل غير حسنة ، وترجى ان يمنحوه خلعة سوداء وعمامة سوداء ، غير ان الخليفة رفض رجاءه وقال : « ان الذي تريد ان تمضي اليه [أي صلاح‌الدين] ... اذا رأى قد اعطيناك مثل ما اعطيناه ما يطيب له ذلك »[1] ، مما يدل على رغبة الخليفة الصادقة بالحفاظ على علاقات طيبة مع صلاح‌الدين .

ورغم ما كان بين الطرفين من صفاء ، الا ان الخليفة العباسي لم يمنح صلاح‌الدين تقليد ولاية الموصل ، وأرسل اليه رسولا من عده سنة ٥٧٨هـ للتفاوض معه بشأن عقد صلح مع سيف‌الدين غازي اتابك الموصل والانسحاب من حصار البلد . غير ان صلحا لم يتم مع أتابك الموصل ، وانسحب صلاح‌الدين الى سنجار في ١٦ شعبان سنة ٥٧٨هـ/١٥ كانون الاول سنة ١١٨٢م استجابة الامر الخلافة[2] . ولعل السبب في ذلك ، انها لم تنظر بعين الارتياح لتحركات صلاح‌الدين وانتصاراته ولم ترد ان يمتد سلطان صلاح‌الدين القوى على حدود أملاكها ، وربما لم تكن قد وثقت بمقاصده بعد ، فأرادت ان تكون الموصل خطا دفاعيا لحدودها من ناحية الشمال .

وقد عاتب صلاح‌الدين الخلافة العباسية على تصرفها السابق نحوه ،

---

(١) ابن شاهنشاه ، مضمار الحقائق : ١٢٨ـ١٢٩ .

(٢) الكامل : ٥٠١/١١ ؛ السلوك ٨٤/١ـ٥٠ .

بعـد فتح آمد في ١٤ محـرم سنة ٥٧٩هـ/٦ أيار سنة ١١٨٣م وكتب الى الخليفة يقول : « وهذه آمد لما ارسل اليه مفتاحها ، وهو التقليد فتحها ... ولو قبلت مسألته في تقليد الموصل لكان قـد ولجها ولو بدرجة ادلجهـا وأخذها ولو بحصاة نبذها »[1] .

غير ان صلاح الدين لم يرتد عن طاعة الخليفة بسبب عدم منحه تقليد الموصل ، واستمر بمكاتبته عن كل ما كان يقوم به ، فمثلا بعد انتصاره في معركة حطين سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م كاتب الخليفة الناصر لدين الله واطلعه على كل تحركاته ، والانتصارات التي حققها ضد الصليبيين بعد ان خاطبه بـ : « الخادم يشرح من نبأ هذا الفتح العظيم والنصر الكريم »[2] .

وقد قدّرت الخلافة اخلاص صلاح الدين هذا ، وارسلت اليه بعد فتح القدس لوحا منقوشا مكتوبا عليه بعض الآيات والكلمات لتعليقه بباب المسجد الاقصى ، كان من جملة ما كتب عليه « ... اجـرى هـذا الفتح على يدي محيي دولتـه [أي محيي دولة الناصر لدين الله] وسيف نصرته والقائم بطاعته المخلص في عبوديته والمجاهد تحت رايته يوسف بن أيوب معين أمير المؤمنين »[3] . ممـا يدل على مدى ثقـة الخلافة بصلاح الدين ومحبتها لـه ، فقد اعتبرته محيي دولتها وسيف نصرتها ، واعترفت لـه باخلاصه في طاعتها .

ورغم ما كان بين الناصر لدين الله وصلاح الدين من محبة وتقارب ،

---

(١) الروضتين : ٢/٤٠ـ٤١ .

(٢) انظر نص كتاب صلاح الدين المرسل الى الناصر لدن الله سنة ٥٨٣ هـ بعد معركة حطين في: القلقشندي ، مآثر الانافة : ٣/٣٠٢ـ٣٠٨ .

(٣) ابن الكازروني ، مختصر التـاريخ ٢٤٦ ؛ خلاصـة الذهب المسبوك : ٢٨٠ـ٢٨١ .

الا انـه كان في الديوان العزيز ببغداد من كان يحمل الحقـد والحسد لصلاح‌الدين ، وينتظر الفرصة الملائمة للايقاع بينه وبين الخلافة • فبعـد ان فتح صلاح‌الدين القدس امر بانشاء كتـاب بشارة للخليفة العباسي ، وكان مع العسكر الايوبي شاب بغـدادي من الاجناد يعرف بالرشيد بن البوشنجي ، سأل ان يكون هو السفير الى بغداد وتوسط في ذلك ، فأفره صلاح‌الدين ، ليس الا لانه من أهالي بغداد ، وهو ادرى بمسالكها من غيره ، ولم يكن صلاح‌الدين يعلم بأن هذا الشاب كان محقرا في بلاده • فلما وصل الى بغداد حقروه وما وقروه • وقد وجد أعداء صلاح‌الدين حينئذ ـ كما قال العماد في البرق الشامي ـ « الى السعاية طريقـا وطلبوا الشمل استعادة بالخدمة تفريقا واختلقوا أضاليل ولفقوا أباطيل وقالوا هذا يزعم انه يقلب الدولة ويغلب الصولة وانه ينعت بالملك الناصر »[1] •

وقـد تأثر الخليفة العباسي بما جرى ، غير انـه لم يتسرع باصدار حكمه على صلاح‌الدين ، وارسل بتاج‌الدين أبو بكر حامد ـ اخو العماد الاصفهاني ـ الى صلاح‌الدين استقبالا حسنا اكراما للخليفة ومكانته • ولما عرض عليه تاج‌الدين كتاب الخليفة بالعتب اليه ، انكره صلاح‌الدين وردّه ، ثقة منه بالمحبة المتبادلة بين الطرفين ، وادعى بان علاقته بالخلافة حسنة وانه قد أقام لها الدعوة في مصر واليمن • وان ما ينعت به من اسم « الملك الناصر » ، انما هو من عهد الخليفة المستضيء بامر الله • وقال للرسول : « والآن كل ما يشرفني به أمير المؤمنين من السمة ، فهو اسمى لي من الذي هو اسمي ••• وما عزمي الا استكمال الفتوح لامير المؤمنين »[2] •

---

(١) الروضتين : ١٢٧٢ ؛ انظر : مفرج الكروب : ٢/٢٤٨ـ ٢٥٠ •

(٢) الروضتين : ٢/١٢٢ •

وقد شعر الديوان العزيز في بغداد بالتسرع في عتابه لصلاح‌الدين ، في هـذا الوقت غير المناسب ، فأرسل لـه كتاب اعتذار ، بخط الصاحب قوام‌الدين بن زياده ـ استاذ الدار العزيزة ـ اوضح له فيه المكانة الجليلة والمحبة الكبيرة التي اكنتها الخلافة له ، وانه لولا تلك المحبة لما جوهر بالعتاب ، ولترك معه الامر على اختلاله ، كما اعترف له الخليفة بالمنجزات التي حققها ولم ينكرها عليه ، ووصفه بأنه :

« رجل وقته ونسيج وحده والمربي على من سلف من صنائع الدولة وعلى من يأتي من بعده ، وهو الولي المخلص الذي عهد فوفا ، واستكفى فكفا ، وطبّ فشفا ، فكيف يجوز لـه بسعادته ان يهجن مساعيه الغرّ المحجلة ويخرج من مكانته المكرمة المبجلة ... »[1] .

هكذا اذن لم تصدق الخلافة العباسية ما روجه أعداء صلاح‌الدين عليه في الديوان العزيز ، ولذلك اعترفت به رجل عصره الذي يجب على معاصريه ومن يأتي من بعده الاقتداء به لصدقه واخلاصه ، بعد ان وثقت منهما ، فاستمرت علاقتها به حسنة ، ففي الاول من سفر سنة **٥٨٥هـ/١١٨٩م** قدم الى صلاح‌الدين من جهة الخليفة العباسي ضياء‌الدين عبدالوهاب بن سكينة لاعلامه بولاية العهد لابن الناصر لدين‌الله ، أبي نصر محمد الملقب بالظاهر ، وكان صلاح‌الدين يومئذ بدمشق فأمر الخطيب عبدالملك بن زيد الدولي ان يخطب له ، ثم اعلم كافة اولي الامر التابعين لسلطنته بالخطبة لولي العهد الجديد ، ثم جهز الرسول وارسل معه هدايا وتحفا واسارى من الصليبيين للخليفة ، اضافة الى تاج ملك الصليبيين الذي اسر في معركة حطين سنة **٥٨٣هـ/١١٨٧م** وصليب الصلبوت الذي رفع من القدس بعد

---

(١) الروضتين : ٢/١٢٢ .

فتحا[1] . مما يدل على مدى تقدير صلاح الدين للخليفة العباسي ، وتعظيمه له ، وعدم التفاته للعتاب الذي ارسل اليه من قبل .

غير ان العلاقة على ما يبدو بين الطرفين اخذت بالتدهور بعد سنة **٥٨٥**هـ/**١١٨٩**م وذلك ان صلاح الدين طلب مساعدات من الخليفة العباسي ، كجزء من الاستنفار بعد أمر وزيره وقاضيه ابن شداد من القيام به في الحادي عشر من رمضان سنة **٥٨٥**هـ/الثالث والعشرين من تشرين الاول سنة **١١٨٩**م لجمع الاجناد وتعبئة القوى ضد الصليبيين ، بعد مجيء الحملة الصليبية الثالثة الى الشام ، وخاصة بعد وصول فردريك بربروسا ـ الامبراطور الالماني ـ في مائة الف مقاتل الى الشرق[2] . غير ان الخلافة العباسية لم تعبىء طاقاتها العسكرية والمعنوية للوقوف بجانب صلاح الدين ، واكتفت بارسال حملين من النفط وخمسة من الزراقين ، ورقعة موقعة من الخليفة العباسي تتضمن الاذن لصلاح الدين باقتراض عشرين ألف دينار من التجار ينفقها في الجهاد ، ويحيلهم بها الى الديوان العزيز ، فقبل صلاح الدين جميع ما وصل مع الرسول ، لانه كان بحاجة اليه ، ورد الرقعة الى الخليفة[3] . وقال : « انا في يوم واحد اخرج مثل هذا واضعافه »[4] . غير ان ابن الفرات يرى بأن صلاح الدين تقبل كل ما وصل اليه من الخليفة وقال « كل ما معي من نعمة أمير المؤمنين ، ولولا صرف

---

(١) الاصفهاني ، الفتح القدسي : ١٧٠ـ١٧٢ ؛ البداية والنهاية: ٣٣٢/١٢ ؛ السلوك ١/١٠١ـ١٠٢ .

(٢) انظر : النوادر السلطانية : ١١٥ ، ١٢٤ـ١٢٨ ؛الروضتين: ١٥٠/٢ ، ١٥٤ .

(٣) ابن شداد، النوادر السلطانية : ١١٥ و١١٨ و١١٩، البداية والنهاية ٣٣٥/١٢ .

(٤) مرآة الزمان ، ق٠ جـ٨/٤٠١ .

أموال هذه البلاد الى الجهاد ، لكانت محمولة الى الديوان »[1] .

الا ان انفراد ابن الفرات بتلك الرواية ، وكونه من المؤرخين المتأخرين يرجح اعتماد الرأي الاول ، خاصة وان ابن شداد ، وهو من المعاصرين للاحداث يقول : « قبل السلطان جميع ما وصل مع الرسول واستعفى عن الرقعة والتثقيل بها »[2] ، مما يدل على ان صلاح الدين استصغر مساعدات الخليفة واستقلها .

وربما اثر استصغار صلاح الدين واستقلاله لمساعدات الخليفة على العلاقة بين الطرفين . ففي الثاني عشر من شوال سنة ٥٨٧هـ/الثاني من تشرين الثاني ١١٩١م وصل الى صلاح الدين كتاب من بغداد تقول فيه الخليفة على صلاح الدين بعض الاقاويل ، منها انه انكر عليه حركات ابن أخيه تقي الدين عمر في شمال الجزيرة وقصد خلاط ومحاصرتها ، وطلب منه ارسال القاضي الفاضل الى بغداد لتوضيح بعض الامور المتعلقة بين الجانبين . فأجاب صلاح الدين على رسالة بغداد ، بأنه غير راض عن تصرفات ابن أخيه ، وانه انما بعثه لجمع العساكر واستنفارها للجهاد في سبيل الله ، واعتذر عن ارسال القاضي الفاضل الى بغداد لاصابته ببعض الامراض ، وعدم تمكنه من تحمل مشقة السفر[3] .

هكذا اذن ضعفت علاقة صلاح الدين بالخلافة العباسية في آخر أيامه ، بعدما كانت قوية . فقد كان صلاح الدين رجلا سنيا متدينا يعتقد بشرعية الخلافة الروحية ، ويعلم مدى أهمية الخلافة عند جمهور المسلمين . لهذا حاول الاتصال بها والانتفاع من علاقته الطيبة بالخليفة ذاته .

---

(١) تاريخ ابن الفرات : م٤ ، ج١/٢١١ .

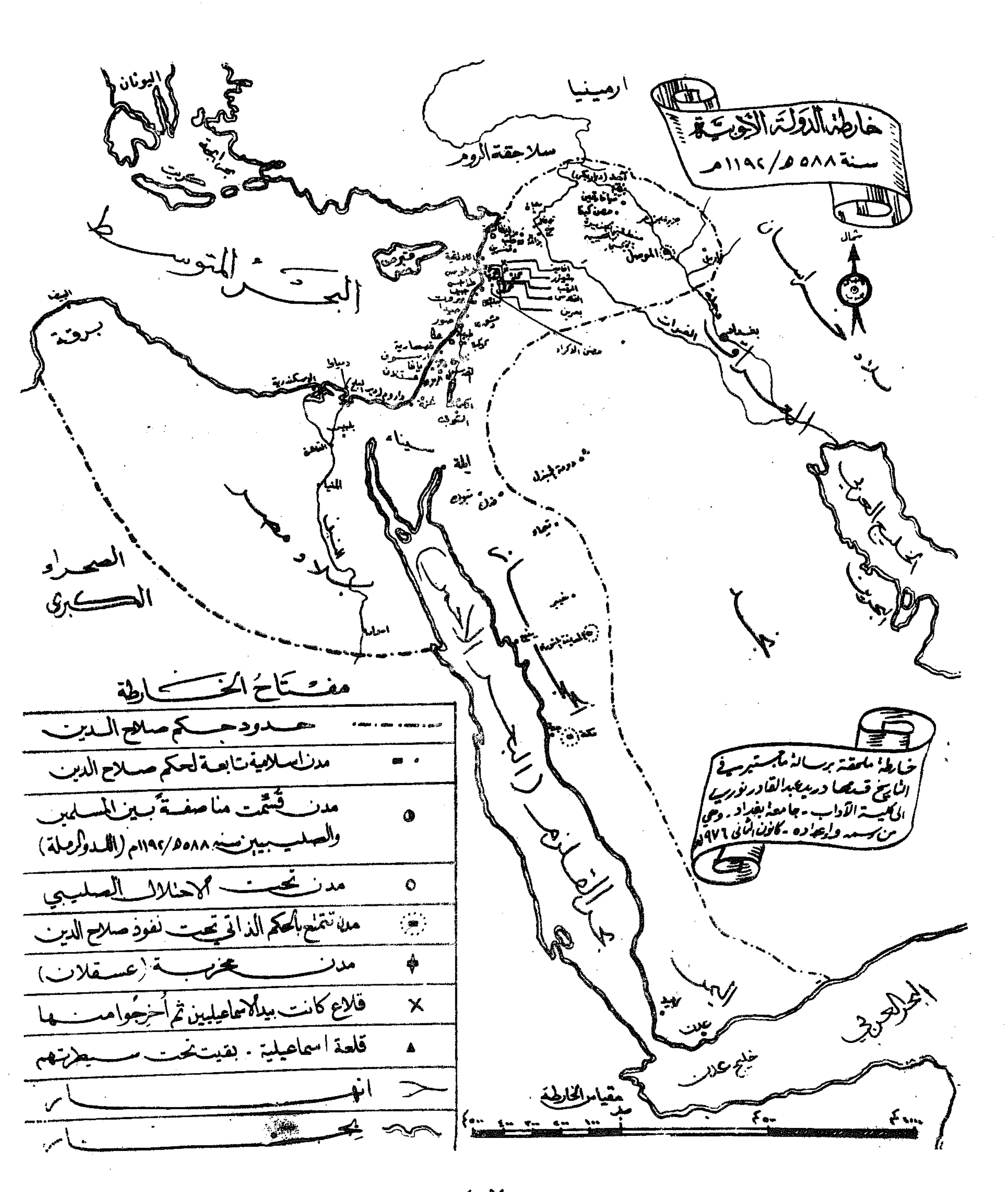
(٢) ابن شداد ، المصدر السابق : ١١٩ .

(٣) الروضتين : ٢/١٩٣ .

والخليفة ، على ضعف منــه ، كان يهمه ان يكون ثمــة أمير قوي مجاهد ، كصلاح الدين ، ممن يدين بالولاء له • لهذا أيده في الظاهر على أقل تقدير • غير ان الخليفة الناصر لدين الله كان يطمح الى أكثر من العلاقة الشكلية بينه وبين صلاح الدين فلما لم ير من صلاح الدين علائم الامتثال التامة ، ظهرت منه بوادر البرود فاضطر صلاح الدين الى التعامل مع الامراء المستقلين عنه مباشرة ومن دون الرجوع الى الخلافة • وقد عبّر القاضي الفاضل عن رأي صلاح الدين في سبب تعطيل مكاتبة بغداد عندما وصف الخلافة بأنها تضرب في حديد بارد عند طلب الذهب الحار[1] •

---

(١) انظر : القزاز ، الحياة السياسية : ٢٦٨ ؛ وهامش رقم (٥) من نفس المصدر والمكان السابق •



خارطة الدولة الأيوبية
سنة ٥٨٨هـ/١١٩٢م
شمال
اليونان
ارمينيا
سلاجقة الروم
البحر المتوسط
قبرص
برقة
الصحراء الكبرى
بلاد مصر
الاسكندرية
دمياط
سيناء
اسوان
ايلة
تبوك
تيماء
خيبر
دومة الجندل
المدينة المنورة
مكة
حصن الاكراد
الموصل
الفرات
دجلة
بغداد
البحر الاحمر
الخليج العربي
زبيد
عدن
خليج عدن
البحر العربي
خارطة ملحقة برسالة ماجستير في التاريخ قدمها دريد عبد القادر نوري الى كلية الآداب - جامعة بغداد . وهي من رسمه واعداده - كانون الثاني ١٩٧٦م
مفتاح الخارطة
حدود حكم صلاح الدين
مدن اسلامية تابعة لحكم صلاح الدين
مدن قسمت مناصفة بين المسلمين والصليبيين سنة ٥٨٨هـ/١١٩٢م (اللد والرملة)
مدن تحت الاحتلال الصليبي
مدن تتمتع بالحكم الذاتي تحت نفوذ صلاح الدين
مدن مخربة (عسقلان)
قلاع كانت بيد الاسماعيليين ثم أخرجوا منها
قلعة اسماعيلية . بقيت تحت سيطرتهم
انهار
بحار
مقياس الخارطة

الفصل الخامس
السياسة الداخلية

ردّ صلاح الدين على أحد مماليكه ، بعد ان طلب منه شفاعة ضد خصمه فقال له :

« ما عسى ان صنع لك ، وللمسلمين قاض يحكم بينهم والحق الشرعي مبسوط للخاصة والعامة ، وأوامره ونواهيه ممتثلة ، وانما أنا عبد الشرع وشحنه ... فالحق يقضى لك أو عليك » .

صلاح الدين

رحلة ابن جبير : ٢٩٨

« السياسة الداخلية »

ان التنظيمات الادارية والاقتصادية والثقافية في دولة صلاح الدين ، وثيقة الترابط بسياسة صلاح الدين وعلاقته الخارجية ، سواء كان ذلك في تعامله مع الامارات الاسلامية أو الصليبية • اذ ان هذه التنظيمات (السياسة الداخلية) كانت الى حد ما القاعدة التي استند اليها صلاح الدين في توجيه نشاطه نحو التوسع في الشام والتمكن من اتمام الوحدة بين مصر والشام وبلاد الجزيرة •

فعن طريق هذه السياسة استطاع صلاح الدين السيطرة على الوضع الداخلي للامارات الاسلامية التي انضمت اليه ، والسير وفق نظام معين تمكن عن طريقه من استغلال الوسائل الاقتصادية والبشرية والحربية لمحاربة الصليبيين وتحرير القدس •

لذلك فان معرفة السياسة الداخلية والاطلاع على كيفية تعامل صلاح الدين مع امرائه ، على قلة المعلومات أمر ضروري لتوضيح الاساس الداخلي الذي استندت اليه علاقات صلاح الدين الخارجية ، السياسية والعسكرية • وقد تبين ان صلاح الدين أخذ جهاز الدولة النورية والفاطمية وتنظيماتها ، ولم يغير منها الا القليل • وهذا واضح في نظم ادارة البلدان والجيش والتعبئة • والسؤال الذي يمكن ان يطرح هو : هل ان صلاح الدين أقام تنظيماته الادارية والاقتصادية على انقاض جهاز الدول التي سبقت حكمه دون تبديل وتحوير ، ام انه انشأ بالكلية نظما جديدة ؟ ام انه أخذ النظم السابقة وكيفها لحاجاته ؟

اتبع صلاح الدين سياسة خاصة به فيما يخص مصروفات الدولة وارداتها ، وكيفية جمع تلك الواردات ، وكذلك في الاسلوب الذي اتبعه لتغيير نظم الفاطميين في مصر غير انه ، من غير شك ، اقتبس الكثير من نظم

الدولة النورية والفاطمية ، وان سكوت المصادر التاريخية عن بعض التنظيمات والامور الادارية والاقتصادية ... الخ ، في فترات معينة من التاريخ ، لا يعني عدم وجودها . بل من المحتمل ان المصادر باهتمامها بالقضايا العسكرية والسياسية ، قد انشغلت عن ذكر النظم الحضارية . لذلك فان حدوث تحول سياسي أو حربي ، والانتقال من عهد الى عهد آخر ، لا يعني - كما هو واضح من استقراء التاريخ - سقوط التنظيمات القديمة وقيام أخرى جديدة لا علاقة لها بسابقتها ، لان ذلك يناقض استمرارية التماسك الاجتماعي والنظامي والبيروقراطي (الوظيفي) بعد حدوث تلك التغيرات[1] .

وقد ظهر هذا الجانب واضحا عند صلاح الدين في سياسة تولية الامارة على البدان ، حيث اكتفى في أغلب الاحيان بأخذ البيعة له من الامراء المسلمين وابقاهم في مناصبهم ، بعد ان اشترط عليهم الاشتراك معه في الحرب ضد الصليبيين[2] . غير انه في مصر عمل على ازالة الموظفين الفاطميين الموالين للحكم الفاطمي ، ونصب محلهم موظفين سنيين ، حفاظا على أمن الدولة الجديدة ، ورغبة منه في نشر المذهب السني ، كما سيتبين ذلك فيما بعد . وهكذا يمكن القول ان صلاح الدين لم ينشىء مؤسسات ونظما جديدة ، بل أخذ ما كان موجودا منها واكتفى باجراء التعديلات الملائمة عليها .

---

(١) انظر بهذا الصدد :
عمادالدين ، امارة بني ارتق ، رسالة دكتوراه : ٢٩٢ . ٢٩٢ .

(٢) انظر مثلا نص المنشور الذي ارسله صلاح الدين سنة ٥٨٠هـ الى زين الدين كوجك امير اربل بخصوص منحه الامارة . مفرج الكروب : ٢/١٦٣-١٦٤ .

اولا : الكتابة والكتاب

أبدى صلاح الدين اهتماما شديدا بمكاتبة أصحابه وامرائه خاصة فيما يتعلق بأمور الجهاد والدعوة اليه . وحفاضا منه على سريتها فقد كان يتفرغ اليها ليلا بعد انصراف اصحابه عنه ، وكذلك ليتمكن من ان يمليها على كتابه بالاسلوب الذي يفضله .

وكان على الكاتب ان يقدم لصلاح الدين مسودة ذلك الكتاب في الصباح الباكر فاذا رضي به وقعه وامر بارساله فورا للجهة المقصودة ، والا امره بتبديله واعادة صياغته ، وقد ذكر العماد الاصفهاني - كاتب صلاح الدين - في البرق الشامي ما يدل على ذلك :

« كان صلاح الدين مشغوفا بمجالسة خواصه من العقلاء ، ومؤانسة ذوي اختصاصه من الفضلاء . فاذا اراد الانصراف بعد هزيع من الليل قام الى صلاة العشاء ، واذا فرغ من الصلاة جماعة تفرق الجمع ورفع الشمع فان كان له حاجة الى انشاء كتاب أو البوح بسر صواب أجلسني وأملى علي مقاصده . وقمت وسهرت تلك الليلة لتحرير الكتب . ثم أبكر اليه واعرضها عليه ، فان رأى الزيادة فيها أو تبديل شيء من معانيها وصل بي الى مقاطعها ، ووقفني على مواضعها . فما ابرح حتى أسوى قوامها واروى أوامها . واذا استضيائها وقد أتممت نصابها توجها بتوقيعه ويقول [أي صلاح الدين] : نوجهها ولا نعوقها ونسددها الى الاغراض ولا نعوقها »[1].

اما طريقته في ارسال الاجوبة للكتب الواردة اليه ، فقد كان يعمد اما الى تظهيرها وتوقيعها ، أو كتابة كتاب جديد بتوقيع جديد ، ثم يصدره للجهة الوارد منها الكتاب ومن أمثلة تظهيره للكتب ما وجد على كتاب في سطر البسملة لكتاب أرسله اليه القاضي الفاضل سنة ٥٧٤هـ بعد استعداده

(١) البنداري ، سنا البرق الشامي : ١/٢٣٣-٢٣٤ .

للذهاب للحج ، وكان قد التمس فيه الفاضل من صلاح الدين الأذن في السفر • وعندما وصل الكتاب الى صلاح الدين ظهره بما يلي : « على خيرة الله تعالى يا ليتني كنت معكم فأفوز فوزا عظيما »[1] •

ومن أمثلة الكتب المستقلة التي كان يرسلها صلاح الدين لذوي الحاجة ، الكتاب الذي أرسله بخطه الى بعض امرائه جوابا على كتاب القاضي الفاضل ، سابق الذكر ، وقد اوضح فيه صلاح الدين بأن على الفاضل الا يسير للحج وحده ، بل برفقة جماعة من العسكر خصصهم لحمايته خشية الوقوع بيد الصليبيين • ثم كلفه بانفاق ثلاثة آلاف دينار من مال الجوالي[2] على فقراء مكة والمدينة ، وجعل هذين الشرطين لزاما على الفاضل اذا ما أراد الحصول على موافقته في السفر الى الحج[3] •

ويدل كتاب صلاح الدين السابق على مدى تقديره لكتابه الذين كانوا بنفس الوقت مستشاريه وقضاته ، بحيث انه يرسل العسكر لايام معدودات ، تنتقل من منطقة الى أخرى حفاظا على قافلة الحجاج التي فيها كاتبه القاضي الفاضل حتى لا يقع أسيرا بيد أعدائه من الصليبيين •

ومن مميزات الكتب في عهد صلاح الدين التزامها الشديد بالصناعه البلاغية والمحسنات البديعية ، كما يتمثل ذلك واضحا في انشاء القاضي الفاضل والعماد الاصفهاني • والتمثل بالشعر ، والاستشهاد بالآيات القرآنية الكريمة والاحاديث النبوية الشريفة • وفي نص الكتاب المرسل الى امراء

---

(١) ابو شامة ، الروضتين : ٧/٢ •

(٢) مال الجوالي : هو المال الذي تجبيه الدولة من اهل الذمة من اليهود والنصارى البالغين دون الاطفال والنساء والشيوخ والرهبان والعبيد والمجانين والفقراء (ابن مماتي ، قوانين الدواوين ، تحقيق ونشر عزيز سوريال عطية (القاهرة ، ١٩٤٣) : ٣١٧ •

(٣) ابو شامة ، نفس المصدر والمكان السابق •

دمشق سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م ، بخصوص العفو عنهم ما يدل على ذلك : « ان الله ملكنا دمشق عناية لا عنوة ولم يكتب فيها بحمد الله الى خطيه خطوة ولا حدثت عثرة ... فعلموا ... الحق اعزّ بناء والباطل يضمحل عفاء ، والزبد يذهب جفاء ، الا وانا رأينا العفو أقرب للتقوى ... »[١] .

ويتمثل الاسلوب القرآني في الكتاب السابق بالاعتقاد ان الله هو الذي ملّك صلاح الدين دمشق[٢] ، ثم بالقول وان الزبد يذهب جفاء[٣] . وفي جملة وان العفو أقرب للتقوى[٤] .

ومن أمثلة الابيات الشعرية التي زيّن بها صلاح الدين كتبه ، التي كان يرسلها لاقربائه وامرائه ، تلك الابيات التي كلف العماد الاصفهاني ان يعملها له أثناء حصاره لمدينة بعلبك سنة ٥٧٤هـ وهي :

يا ساكني مصر لا والله مالكم	شوقي الذي لذعت قلبي لواعجه
اصبحت اطلب طرق الصبر أسلكها	هيهات قد خفيت عنيّ مناهجه »[٥]

وما شغف صلاح الدين بتضمين الشعر في كتبه ومراسلاته ، الا لملازمته للشعراء ومحبته لهم ، ومطالعته لدواوينهم . وقد ذكر العماد الاصفهاني قوله : « وكنت ليلة عند السلطان وهو يذكر جماعة من الشعراء

---

(١) البنداري ، سنا البرق الشامي : ١٧٧/١-١٧٨ .

(٢) اقتبست هذه الجملة من سورة ال عمران : «قل اللهم مالك الملك ، تؤتي الملك من تشاء ...» ٣/٢٦ انظر : المعجم الفهرست (القاهرة ١٣٦٤ هـ) ٤٦٧ .

(٣) اقتبست هذه الجملة من سورة الرعد : « فأما الزبد فيذهب جفاء ... » ١٣:١٧ (المعجم المفهرست ، ٣٢٩) .

(٤) اقتبست هذه الجملة من سورة البقرة : « وان تعفوا أقرب للتقوى ، ٢:٢٣٧ ، (المعجم المفهرست ، ٤٦٦) .

(٥) البنداري ، سنا البرق الشامي : ٣١٢/١ ؛ وانظر : تاريخ ابن الفرات : م٤ ، جـ٦٦/١ .

وعنده ديوان الامير مؤيد الدولة اسامة بن منقـذ وهو به مشغوف وقـد استحسن قصيدة له طائية ••• »[1] • وكان الشاعر عرقلة الكلبي من بين الشعراء الذين لازموا صلاح الدين قبل ذهابه الى مصر صحبة عمه أسدالدين شيركوه[2] •

ورغم ان صلاح الدين لم يقل الشعر ، الا انه ـ كما ذكر الاصفهاني ـ كان ناقدا خبيرا به ، يعجبه المعنى المعرّى واللفظ السهل الابيّ ، وكان يحفظ من محاسن العرب وقصائد القدماء ، وشوارد الحكماء وكان يكرم على الشعر الجيد[3] • ومن ذلك انه اكرم الشاعر سعادة الاعمى الف دينار لانه القى أمامه قصيدة طائية فاعجبته • كما اكرم أحد الشعراء أيضا ألف دينار لانه انشد امامه :

الله اكبر جـــاء القـــوس باريهـا ورام أسـهم دين الله راميهـا[4]

وكان صلاح الدين يكرم الكتّاب ويحرص عليهم ، وكان قد خصص في كل يوم ساعة يجلس فيها معهم ، اما في الليل أو في النهار ، يوقع لهم كل كتاب معد للتصدير[5] •

ومن شـدة حرص صلاح الدين على الكتاب انه خصص لهم بعض المنح والمخصصات والاقطاعات ، كما حكّم بعضهم في الديوان السلطاني أيضا ، وقد وصف الاصفهاني لقاء صلاح الدين له ، عند تركه للزنكيين والتجائه لصلاح الدين فقال : « فتلقاني الملك الناصر برحبـه ، وبرحبـه ورفع حظوظي من الحضيض واهـدى الصحة لرجائي المريض ، واعـاد

(١) سنا البرق الشامي : ١/١٨٦ •
(٢) الاصفهاني ، خريدة القصر ، ق٣ ، جـ١/١٧٨ •
(٣) نفس المصدر والمكان السابق •
(٤) بدوي ، الحياة الادبية في عصر الحروب الصليبية ، ٢٥ •
(٥) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ١٣ •

المدرسة التي كنت مدرسها اليّ ، وحكمني في ديوانه وعوّل في سلطانه عليّ ... وجعل السعود في جميع المقاصد من احلافي »[1] .

وممن نبغ في الكتابة في عهد صلاح الدين ، الى جانب العماد الاصفهاني وابن شداد ، القاضي الفاضل عبدالرحيم البيساني المتوفى سنة ٥٩٦هـ/١١٩٩م . وقد كان من كتاب ووزراء صلاح الدين المعتمد عليهم . خلفت لنا رسائله الممتازة ، مادة تاريخية قيمة ، وقد امتازت بغزارة المادة وسلامة الاسلوب ووضوحه[2] .

ثانيا :ـ القضاء

اولى صلاح الدين القضاء عناية كبيرة ، فخصص له منزلة عظيمة لما فيه للمصيب من اجر عظيم في الاسلام[3] بالاضافة الى انه استخدم القضاء ركيزة من الركائز الفكرية ، الى جانب المدارس ، لمحاربته التشيع في مصر وتشجيع المذاهب السنية ، وخاصة المذهب الشافعي الذي كان ينتمي اليه ، لذلك لما أسقط الخلافة الفاطمية في مصر سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م صرف جميع قضاة الشيعة ، وعين بدلهم قضاة سنيين[4] .

واذا كان صلاح الدين قد خصص للكاتب ساعة من نهار في كل يوم ، فانه خصص يومين كاملين في الاسبوع ، يجلس للعدل بين الناس كل يوم اثنين وخميس في مجلس عام يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء حتى يصل

---

(١) خريدة القصر وجريدة العصر ، القسم ٣ ، الخاص بالشام والجزيرة ، ١٤ .

(٢) حسن ابراهيم حسن ، النظم الاسلامية : ١٦٠ .

(٣) انظر الاحاديث التي ذكرها ابن شداد فيما يخص الحاكم والقاضي العادل في الاسلام ، النوادر ، ١٣ .

(٤) ابن الفرات ، التاريخ : م٤ ، ج١/١٢٥ ؛ حسن ابراهيم ، المصدر السابق ٣٠٦ .

اليه كل احد ، من كبير وصغير ورجل أو امرأة ، وكان هذا المجلس يعقد في كل اسبوع مهما كانت الاحوال ، سواء كان في سفر أو في حضر . ولم يستغيث به انسان الا وقف وسمع قضيته وكشف ظلامته وأخذ بقصته[1] .

اشتكى اليه يوما رجل في دمشق اسمه ابن زهير علي تقي‌الدين ـ ابن أخيه ـ فانفذ اليه صلاح‌الدين في الحال واجلسه في مجلس الحكم رغم محبته له ، ولم يحـابه حتى ساواه في المحاكمة واحلفه اليمين بعـد ادلاء الخصم بدعواه[2] . وكان دائما يقول قولته المشهورة : « اما انا فلأن أخطىء في العفو أحبّ الي من ان اصيب في العقوبة »[3] .

اعترف صلاح‌الدين الرعية عنده ودائع ، لذلك كان يجهد نفسه في العدل بينهم ويوصي ولاته بذلك . اما القضاة ، فقد اعتبرهم أوتادا للشريعة واجنـادا لحفظ كنوزها . وكانت سياسته ان يختـار للقضاء قاضيا واحدا لا اثنين ، ليديم استقامة الحكم ، وكان يوصي ولاته ان لا يختاروا للقضاء من الرجال الذين يطلبون الحكم ، بل ممن أغفل قلبه عن مشاغل الدنيـا وطلب نيل الرياسة . وكان يوصي ولاته بأن يغلظوا بالقول والملامة للرجال الذين يطلبون الوصول لكرسي القضاء . وفي نص الكتاب الذي أرسـله صلاح‌الدين لاخيه الملك العادل ما يدل على ذلك :

« واما القضاة الذين هم للشريعة اوتاد ، ولامضاء احكامها أجناد ، ولحفظ علومها كنوز لايتطرق اليها النفاذ ، فينبغي ان يعوّل فيهم على‌الواحد دون الاثنين ، وان يستعان منهم في الفصل بذي الايدي وفي اليقظة بذي اليدين ، ومن رام هـذا سائلا فليلمـه وليغلظ القول في تجريع ملامه ، وليعرف انه ممن رام امرا فأخطأ الطريق في استجلاب مرامه ، وامر الحكام

---

(١) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ١٣ .
(٢) نفس المصدر السابق : ١٤ .
(٣) ابن جبير ، الرحلة : ٢٩٨ .

لا يتولاه من سأله ، وانما يتولاه من غفل عنه واغفله »[1] .

ومن القضاة الذين اعتمد عليهم صلاح الدين قاضي القضاة صدرالدين ابن عبدالملك بن درباس الشافعي المذهب الذي ولي قضاء مصر سنة ٥٦٧هـ[2] والقاضي ابن أبي عصرون الذي ولي القضاء في دمشق سنة ٥٧٢ ـ ٥٧٣هـ/١١٧٦ ـ ١١٧٧م[3] . والقاضي بهاءالدين بن شداد الذي اتصل بخدمة صلاح الدين سنة ٥٨٣هـ . ونظرا لاهتمام ابن شداد بأمور الجهاد ، وتأليفه لصلاح الدين كتابا يشمل فضائل الجهاد فقد ولاه صلاح الدين قضاء العسكر ، ثم القضاء في مدينة القدس بعد فتحها سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م[4] . كما اعتمد صلاح الدين في تمشية أمور القضاء على الفقيه المفسّر عزالدين بن عبدالسلام (المتوفى سنة ٦٦٠هـ) فولاه القضاء والتدريس في المدرسة الصالحية في مصر[5] .

ولم يحكم صلاح الدين بهواه ، انما كانت الشريعة الاسلامية الاساس الذي يستند اليه . وكان يعتبر نفسه خادما للشريعة ، مطبقا لاحكامها ، منفذا لحدودها . لذلك لم يكن لصديق أو قريب منزلة عنده في حدود الله . حضر عنده أحد مماليكه المقربين اليه والمتميزين لديه بالحظوة ، وكان قد اعتدى على جمّال ، ذكر انه باعه جملا معيبا ، فلم يدافع عنه صلاح الدين وقال له : « ما عسى ان اصنع لك وللمسلمين قاض يحكم بينهم والحق الشرعي مبسوط للخاصة والعامة وأوامره ونواهيه ممتثلة ، وانما

---

(١) القلقشندي ، صبح الاعشى : ١٣/١٤٦ـ١٤٧ .
(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية : ١٢/٣٦٣ ؛ ابن الفرات ، التاريخ ، م٤ ، جـ١/١٢٥ .
(٣) ابن واصل ، مفرج الكروب : ٢/٤٩ .
(٤) بدوي ، الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية : ١٦ .
(٥) المصدر السابق نفسه : ١٦٣ .

أنا عبد الشرع وشحنته ... فالحق يقضى لك أو عليك »[1] .

ولم يكن الحكم بالعدل بين الرعية فحسب ، بل بينه وبين الرعية أيضا . فلم يميّز نفسه عنهم ، وكان يعتبر نفسه كأي فرد من أفراد المسلمين ، بل أكثرهم حملا وثقلا لانه مكلف بخدمتهم وخدمة الشرع . اشتكى عليه لدى القاضي بهاءالدين ابن شداد في القدس بعد فتحها سنة **٥٨٣هـ/١١٨٧م** تاجر يدعى (عمر الخلاطي) واتهمه بأنه استولى على مملوك له مع أملاكه ، فلم يغضب صلاحالدين ، وانما ردّ الدعوى حسب الاصول . فقد أتى بالبينة ، واستشهد بالشهود على بطلان دعوى خصمه ، بعد ان جلس الى جانب خصمه حتى ساواه في الجلوس . ولما علم ان الرجل انما ادعى بدعواه السابقة طمعا في كرمه ، اكرمه غاية الاكرام وتقدم له بخلعة ونفقة بالغة[2] .

ونتيجة لعدل صلاحالدين هذا ، فقد أمن الناس الشرور ، وأخذوا يعملون الى ساعات متأخرة من الليل دون خوف على حياتهم أو ممتلكاتهم ، وقد شاهد الرحالة ابن جبير ذلك عيانا ووصف لنا البلدان التي زارها ، وكيف كان الناس يعملون في الليل ، ومن ذلك قوله في مدينة الاسكندرية سنة **٥٨٧هـ** :ـ

« ومن الغريب أيضا في أحوال هذا البلد تصرف الناس فيه بالليل كتصرفهم فيه بالنهار في جميع أحوالهم »[3] .

---

(١) ابن جبير ، الرحلة : ٢٩٨ .

(٢) انظر نص المحاكمة التي جرت امام القاضي بهاء الدين ابن شداد بين صلاحالدين والتاجر عمر الخلاطي في النوادر السلطانية : ١٤ـ١٦ .

(٣) رحلة ابن جبير (بيروت : ١٩٦٤) ٤٣ .

ثالثا ـ واردات الدولة

واردات الدولة هي الشريان الرئيس الذي يديم حيويتها ونشاطها • ويعتمد تقدم البلاد ، وتطورها ، ورفاه شعبها ، على حسن استخدام الدولة لمواردها • وهذا هو السبب الذي جعل الدولة العباسية في بداية امرها تقوى على صد هجمات المعتدين ، بينما لم تتمكن من صد تلك الهجمات في الفترة المتأخرة بعد ان ضعفت ميزانيتها نتيجة لقلة مواردها ، بعد انقسامها على نفسها وظهور الدويلات المتعددة •

ولما تمكن صلاح‌الدين من توحيد مصر والشام وبلاد الجزيرة ، وغيرها من المناطق الاخرى ، ارتفعت واردات دولته ، لذلك تقدم نحو تحقيق هدفه (تحرير القدس) •

ولو لم يكن لصلاح‌الدين الوارد الكافي الذي يتمكن به من الانفاق على الجيش وبناء التحصينات العسكرية لما تمكن من فتح القدس • وقد اوضح الدكتور محمد ضياء‌الدين الريس ما عليه واردات الدولة من علاقة في نسبة قوة الدولة وضعفها فقال : « ان المركز المالي لاية دولة يعكس لدرجة كبيرة ما عليه الدولة من قوة أو ضعف ، فالمال دعامة كبرى للملك »[1] •

وقد تعمق ابن خلدون في بيان تلك العلاقة وربط هرم الدولة ، ومن ثم سقوطها بقلة وكثرة الجبايات في الفصل الذي عقده « ان من طبيعة الملك الترف » واوضح بأن الدولة اذا عظمت كثرت وارداتها وبالتالي زاد مصروفها واسرافها ، واذا زاد اسرافها اقبلت على الهرم ثم السقوط ، لان الاسراف يزيد في مقدار الجبايات في أول الدولة عندما تكون قوية ، بينما لا تستطيع الدولة الضعيفة ان تفرض ضرائب جديدة أو أن تقاسم أرباب

---

(١) الخراج والنظم المالية للدولة الاسلامية (القاهرة ١٩٦٩): ٣٠

العمل انتاجهم عند حدوث الازمات[1] .

والاسئلة التي يمكن ان تثار : اذا كان صلاح الدين قد وسّع سلطانه واضاف الى ملكه مدنا كثيرة ، وتمكن من تحرير الشام من أيدي الصليبيين . فما هي واردات دولته ؟ ومن اين كان يجمعها ؟ وما هي أنواعها ؟ وما هي الطرق التي استخدمها في جمعها وتحصيلها ؟

اعتمد صلاح الدين على الواردات الكثيرة الضخمة التي كانت تجبى من الناس في مصر والشام والجزيرة ، ولكنه الغى الضرائب الجائرة التي كانت تؤخذ منهم عسفا خلافا للشريعة والاعراف المتبعة . فاسقط عن أهالي مصر مثلا سائر المكوس غير الشرعية سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م[2] حتى قدر ما أبطله منها في كل سنة مائة الف دينار[3] ، مما دفع بالناس في مصر الى الالتفاف حوله .

ومن الجدير بالملاحظة ان واردات مصر كانت بالنسبة لصلاح الدين المصدر الاول الذي كان يعتمد عليه فيما ينفقه على جيشه ومصروفاته الشخصية . لان البلاد الاخرى انما كان قد منحها استقلالا ذاتيا شريطة الاشتراك معه في حروبه ضد الصليبيين . والغى أيضا مكوس الحجاج في مكة سنة ٥٧٢هـ التي كان يأخذها أمير مكة من حجاج المغرب على عدد الرؤوس . ولم يكن يسمح لاحد بالدخول الا بعد ان يدفع المكس الذي عليه ، والا يحبس فيفوته الوقوف بعرفة . وعوض أمير مكة مبلغ ثمانية آلاف اردب قمح ينقل سنويا الى ساحل جدة[4] . وكان مقدار الضريبة

---

(١) مقدمة ابن خلدون (بيروت ١٩٧١) : ١٤٠ و٢٣٥ .

(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية : ٢٦٨/١٢ .

(٣) المقريزي ، السلوك : ٧٠/١ .

(٤) الاصفهاني ، البرق الشامي ، انظر تلخيص البنداري ، سنا البرق الشامي : ٣٠٤/١ ؛ ابو شامة ، الروضتين : ٣/٢ ؛ سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان : ق١ ، جـ٨/٣٣٨ .

التي يدفعها الحاج سبعة دنانير ونصف من الدنانير المصرية على كل رأس[1] .

كان الفاطميون ، وخاصة في أواخر أيام دولتهم ، يفرضون ضرائب ثقيلة على حجاج المغرب . وقد دفعت سياسة الفاطميين الحجاج السنيين الى الامتناع عن الذهاب الى الحج عبر الاراضي الفاطمية ، فبقي الحرمان الشريفان مهجورين – كما ذكر القاضي الفاضل – الى ان جاء صلاح الدين فاسقط تلك المكوس ، فتقدم للحج خلق لا يحصى[2] .

وقد وصف الرحالة ابن جبير الحالة التي كان يعامل بها الامراء الفاطميون حجاج المغرب واوضح بأنهم كانوا يمنعونهم من المرور الى مكة عبر الاراضي المصرية ويعنفونهم وكأنهم أسرى بأيديهم فقال :

« رفعت مغارم مكس الحجا	ز بانعامك الشامل الغامر
وآمنت اكناف تلك البلا	د فهان السبيل على العابر
فكم لك بالشرق من حامد	وكم لك في الغرب من شاكر
وكم بالدعاء لكم كل عا	م بمكة من معلن جاهر
يعنّف حجاج بيت الاله	ويسطو بهم سطوة الجابر
ويكشف عما بأيديهم	وناهيك من موقف صاغر
وقد دفعوا بعدما كشفوا	كأنهم في يد الاسر »[3]

وقد اسقط صلاح الدين أيضا المكوس التي كانت تؤخذ من حجاج وتجار اليمن[4] . كما اسقط في سنة ٥٧٨هـ مكوس وضرائب سنجار[5]

---

(١) ابن جبير ، الرحلة : ٥٦٨ .
(٢) ابو شامة ، الروضتين : ٢/٤ .
(٣) رحلة ابن جبير ، : ٨و٣٠ .
(٤) المقريزي ، السلوك : ١/٧٤ .
(٥) المنصور ، مضمار الحقائق وسر الخلائق : ١١١ .

وأزال في سنة ٥٧٩هـ كل المكوس والضرائب غير الشرعية التي كان يأخذها عمادالدين زنكي الثاني ـ أخو عزالدين مسعود ـ اتابك الموصل ـ من أهالي حلب . وفي نفس السنة أيضا اسقط مكوس الرقة وأصدر منشورا لاهاليها أوضح لهم الاسباب الداعية الى الغاء هذه المكوس . وقد جاء في نص المنشور ما يلي :

« ان اشقى الامراء من سمن كيسه واهزل الخلق ، وابعدهم من الحق من أخذ الباطل من الناس وسماه الحق ، ومن ترك الله شيئا عوضه ، ومن اقرض الله قرضا حسنا وفاه ما اقرضه ولما انتهى امرنا الى فتح الرقة اشرفنا منها على سمن يؤكل وظلم مما أمر الله به ان يقطع ، وامر الظالمون ان يوصل فاوجبنا على انفسنا وعلى كافة الولاة من قبلنا ان يضعوا هذه الرسوم باسرها ويلقوا الرعايا من بشائر أيام ملكنا باسرها ونعتق بلد الرقة من رقها ونثبت احكام المعدلة فيها بمحو هذه الرسوم ومحقها وقد أمرنا بأن تسدّ هذه الابواب وتعطل وتنسخ هذه الاسباب وتبطل ... ويعفى خبر هذه الضرائب من الدواوين ويسامح بها جميعها جميع الاغنياء ، والمساكين مسامحة ماضية الاحكام مستمرة الايام ... »[1] .

ويدل هذا النص على ان صلاحالدين اعتبر المكوس ضرائب غير شرعية ، وان آخذيها ظلام ، وانه الغاها احتسابا لله تعالى . كما يدل على ان سياسة صلاحالدين في الغاء المكوس كانت سياسة عامة اتخذها في كل المناطق التي أصبحت تابعة لحكمه سواء كانت بيد الامراء المسلمين أو الصليبيين ، لانه الزم كافة ولاته بالغائها ، وعدم جبايتها من الفقراء والاغنياء على السواء . ففي سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م مثلا اسقط صلاحالدين الضرائب التي كان يستحصلها الصليبيون من الصلت والبلقا وجبل عوف والسواد

---

(١) ابو شامة ، الروضتين : ٢/٤٧ .

والجولان • وكان متولو هذه المناطق من الصليبيين يأخذون نصف حاصل البلاد[1] •

اذن لم يقرّ صلاح الدين من المكوس والضرائب الا ما هو شرعي امثال ضريبة (مكس الخمس والمتجر) ففي سنة **٥٧٧هـ/١١٨١م** كان عامل صلاح الدين يجبي ضريبة مكس الكارم من تجار اليمن القادمين الى مصر[1] • غير اني لم احصل على اي معلومات تؤيد اقرار صلاح الدين لهذه الضريبة ، او جبايتها من مناطق اخرى • كما فرض عامل صلاح الدين في ميناء الاسكندرية ضريبة الخمس والمتجر على التجار الاجانب الذين كانوا يفدون من ايطاليا وغيرها من المدن الاوربيه الاخرى الى الاسكندرية بقصد التجارة • وقد تراوح مقدار هذه الضريبة بين **٢٠٪** و **٣٥٪** من قيمة البضائع التي كان يجلبها اولئك التجار[2] • وربما كانت هذه الضريبة بديل للضرائب التي كانت تأخذها الدول الاوربية من التجار المسلمين الذين كانوا يتاجرون مع بعض الدول كايطاليا وصقلية وفرنسا مثلا •

وكانت هذه الواردات الكثيرة التي يجبيها أمير الاسكندرية من التجار الاجانب تنفق في مصالح اهل البلد ، ولا يأخذ منها صلاح الدين شيئا ، لذلك اصبح اهالي الاسكندرية ـ كما ذكر الرحالة ابن جبير ـ في نهاية الرفه واتساع الاحوال « لا يلزمهم وظيف البته ولا فائدة للسلطات بهذا البلد سوى الاوقاف المحبسة المعينة من قبله لهذه الوجوه ، وجزية اليهود والنصارى وما يطرأ من زكاة العين خاصة ليس له منها سوى ثلاثة اثمانها والخمسة اثمان مضافة للوجوه المذكورة »[3] •

---

(١) الروضتين : ٢/٧٩ ؛ مفرج الكروب : ٢/١٩٦ •
(٢) ابن مماتي ، قوانين الدواوين : ٣٢٥ـ٣٢٦ •
(٣) رحلة ابن جبير : ٤٢ •

اما الزكاة ، فقد اعادها صلاح الدين سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م بعد اسقاطه للدولة الفاطمية والمذهب الشيعي في مصر ، ايذانا منه للناس بأن مذهب السنة قد عاد ، وان احكام الشريعة الاسلامية تطبق في مصر • وان الزكاة سوف تكون البديل للضرائب والمكوس غير الشرعية التي احدثها الفاطميون[1] •

اهتم صلاح الدين بجمع واردات الزكاة ، فانشا في مصر ديوانا يعرف باسم « ديوان الزكاة » وكان يقوم عليه موظف يعرف باسم «متولي الزكاة» • وقد وجد صلاح الدين في الزكاة الطريق الشرقي لتسديد ما عليه من مصروفات • ففي سنة ٥٨٦-٥٨٧هـ/١١٩٠-١١٩١م كانت حصيلة الزكاة ما يقرب من ١١٫٨٦١ دينارا ، فاراد صلاح الدين زيادتها ، نظرا لان دولته بحاجة الى نفقات كثيرة في تلك الفترة[2] ، فعين رجلا اسمه ابن حمدان للاشراف على جبايتها ، بعد ان تعهد ابن حمدان بجمع اثنين وخمسين الف دينار في سنة واحدة[3] •

اما الوجوه التي كان يأخذ منها صلاح الدين الزكاة ، فقد عددها القاضي ابن مماتي من الذهب والفضة وعروض التجارة والماشية بانواعها وكذلك من المزروعات مع اعفاء بعض المواد الغذائية الضرورية التي كانت كثيرة الاستهلاك مثل السمسم وبذر الكتان والزيتون والخضر[4] •

---

(١) انظر المقريزي ، الخطط : ١٠٨/١ •

(٢) في سنة ٥٨٦-٥٨٧ هـ كان صلاح الدين يعاني من ضائقة مالية نظرا لكثرة الامدادات الاوربية التي وصلت الى الصليبيين المحاصرين لعكا ، ومن ثم الخسارة التي تكبدها بعد سقوط عكا ولذلك احتاج الى اموال طائلة • انظر : ابن شداد ، النوادر : ١٤٨-١٥٣ •

(٣) المقريزي ، الخطط : ١٠٨/١ •

(٤) قوانين الدواوين : ٣١٠-٣١٦ •

اهتم صلاح الدين ايضا بضريبة الخراج[1] اهتماما كبيرا ، فقد أمر بالنظر في الخراج ، وطريقة جمعه وأوقاته ، ووجد ان طريقة الجمع غير شرعية لاختلاف السنة الشمسية[2] • وما يتحمله الفلاح بسبب ذلك الاختلاف من خسارة ، لذلك كتب منشورا بالانشاء الفاضلي بتحويل السنة القبطية الى السنة العربية سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م وقد جاء فيه :

« ولما استهلت سنة كذا الهلالية ، وقد تباعد ما بينها وبين السنة الخراجية الى ان صارت غلاتها مستوية الى ما قبلها ، وفي ذلك ما فيه : من أخذ الدراهم المنقود عن غير الوقت المفقود ، وتسمية بيت المال ممطلا وقد انجز ، ووصف الحق المتلف بانه دين وقد اعجز واكل رزق اليوم وتسميته منسوبا الى أمسه ، واخراج المعتد لسنة هلاله الى حساب المعتد سنة شمسه •

وكان الله تعالى قد اجرى امر هذه الامة على تاريخ منزه عن اللبس موقرّ عن الكبس ، وصرح كتابه العزيز بتحريمه ••• وقد رأينا باستخارة الله سبحانه والتيمن باتباع العوائد التي سلكها السلف ، ولم تسلك فيها السرف ، ان ينسخوا أسماءها من

(١) ضريبة الخراج : هي الضريبة السنوية المفروضة على الاراضي التي تزرع حبوبا ونخلا وعنبا وفاكهة ، والتي يدفعها المزارع لصاحب الارض والذي كان بدوره يؤديها لخزينة الدولة بعد استقطاع مصروفات الارض ، ربيع ، النظم المالية في مصر : ٤١ •

(٢) ان تسابق الشهور العربية عن الشهور الشمسية ، يجعل خراج السنة منسوبا للسنة السابقة ، واستحقاقه في السنة اللاحقة • لذا كانت العادة في مصر انه اذا مضى ثلاث وثلاثون سنة قام المكلفون بشؤون الخراج باعتبار السنة الثالثة والثلاثين السنة الخامسة والثلاثين والغاء ما بينهما • ربيع ، نفس المصدر والمكان السابق •

الخراج ويذهب ما بين السنين من الأضطراب والأعوجاج ... »[١] .

اما المناطق الاخرى غير المصرية ، فان صلاح الدين كان يأخذ منها الخراج حسب مساحة الارض التي تقاس بالفدان ، وكانت الضريبة على القمح والشعير أردبين ونصف للفدان الواحد . وكانت الطريقة ان يجمع الضريبة المنتفعون بالارض ، ومن ثم يسلمونها بدورهم لديوان السلطان[٢] . وهناك ضرائب أخرى كانت موجودة قبل قيام الدولة الايوبية ، وابقاها صلاح الدين على وضعها كالضريبة المفروضة على الفول والحمص ، وتراوحت قيمتها بين (٢،٥) الى (٣) أرادب للفدان الواحد . بينما كانت هناك ضرائب نقدية على الحاصلات الزراعية الاخرى تراوحت بين دينار وخمسة دنانير على الفدان . اما الشجر والكروم فقد كان يفرض عليها في السنة الاولى ربع دينار للفدان الواحد ، وفي السنة الرابعة ثلاثة دنانير مساعدة للفلاح لان حمولة الاشجار في السنوات الاولى أقل منها في السنوات التالية .

اما ضريبة الجزية ، فقد كان يأخذها صلاح الدين من أهل الذمة من اليهود والنصارى البالغين ، دون الصبيان والنساء والرهبان والعبيد والمجانين والشيوخ والفقراء ، وكانت تسمى ضريبة الجوالي ، وتختلف باختلاف أحوال الافراد المالية فكان على الشخص من الطبقة العليا ٤½ دينار ، ومن الطبقة الوسطى ديناران ومن الطبقة السفلى دينار وجزء من الدينار ، باضافة درهمين ونصف لكل الطبقات رسما لمصروفات الحياة[٣] . ولم يكن في هذه الضريبة ما يرهق أهل الذمة ، فقد كان مقدار ما يدفعونه ، يعادل

---

(١) القلقشندي ، صبح الاعشى : ٧٣/١٣ .

(٢) Elisseeff, Nur Ad-Adin, 11, P. 801.

(٣) ابن مماتي ، نفس المصدر السابق ، ٣١٨ .

رسوم الزكاة التي تؤخذ من المسلمين •

ونظرا لان المعادن والاخشاب من المصادر المهمة جدا التي تستخدم في صنع الادوات الحربية كالاقواص والنشاب والسيوف والسفن وغيرها ، لذلك منع صلاح الدين ان يكون لاحد فيها تدخل او اختصاص ، خاصة وان الحرب مع الصليبيين كانت مستمرة • وكان نوع الخراج الذي يؤخذ على غابات الاشجار يعرف باسم « مقرر السنط » • وقد شدد صلاح الدين كثيرا في الحفاظ على تلك الغابات ، وفرض أنواع العقوبات والمصادرات على من يجد في حوزته شيئا منها[1] •

ومن الضرائب التي كان يستحصلها صلاح الدين أيضا ضريبة (دار الضرب) ، التي تؤخذ من أصحاب الاموال الذين يملكون الذهب والفضة ، لقاء سك الذهب ، وكان مقدارها ثلاثا وثلاثين دينارا عن كل ألف دينار ، وعلى العملة الفضية كان الرسم $14\frac{1}{2}$ درهما عن كل ألف درهم[2] •

رابعا ـ مصروفات الدولة

لم يكن صلاح الدين مهتما بجمع المال والثروة ، وقد صرّح بواضح العبارة ان قيمة الاموال عنده لا تزيد على قيمة التراب[3] ولذلك كان ينفقها جميعا ولم يبال الافلاس ، وكثيرا ما كان يعطي ما في خزانته ليستلف من امرائه والتجار الكبار لحين وصول الاموال اليه ، رغم ان الواردات التي كانت تجبى كبيرة • ففي سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م مثلا حصل صلاح الدين على خزائن الفاطميين بعد اسقاطه لدولتهم ، غير انه انفقها

---

(١) نفس المصدر السابق ، ٣٤٥ و٣٤٧ •

(٢) نفس المصدر السابق ، ٣٣٢ـ٣٣٣ ؛ ربيع ، النظم المالية ، ٤٩ •

(٣) ابن شداد ، النوادر السلطانية : ١٨ ؛ ول ديورانت ، قصة الحضارة : ٤٥/١٥ •

جميعا[١] • وبعد استيفاء قطيعة القدس سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م أنفذ اليه الملك العادل سبعين ألف دينار في ليلة فعاد الرسول بكرة ذلك اليوم وطلب منه أموالا لانه لم يبق لديه ما يخرجه في الانفاق ، فانفذ اليه العادل في الحال ثلاثين الف دينار اخرى فانفقها[٢] •

وهذا الاسراف في الانفاق دفع نواب خزانته لان يخفوا عنه شيئا مما كان يرد اليهم من اموال « حذرا ان يفاجئهم مهم ، لعلمهم بانه متى علم به اخرجه »[٣] • وكانت سياسة صلاح الدين في الانفاق ، مبنية على صرف الاموال للمستحقين بل وغير المستحقين احيانا ، لانه لم يرد ان يكدر على ذوي الآمال موارد العطاء • كتب اليه أحد الولاة بدمشق سنة ٥٧٤هـ/١١٧٨م « ان الاموال ضائعة ، وان الاطماع فيها راتعة وقد افنى الجود مجموع الموجود ، وأنا عند الاحتياج الى كف ملم وكفاية مهم لا نجد ما ننفقه ، وان في أربات الصدقات اغنياء لا يستحقونها ••• وكانت مبلغ أحد عشر ألف دينار ومائتين ••• فقال [صلاح الدين لكاتبه الاصفهاني] اكتب عليها جميعا بالامضاء ولا تكدر على ذوي الامال موارد العطاء ••• فبقيت تلك الرسوم داره والامال بها ساره ، بل تضاعفت عن السنين اضعافا واستضافت الافها الافا »[٤] •

وقد تجاوزت سياسة صلاح الدين هذه في انفاق الاموال ، وعدم اهتمامه بكنزها الى عدم محاسبة موظفي ديوان بيت المال • فقد كان يشرف

---

(١) انظر البنداري ، سنا البرق الشامي : ١/١٢٣ ؛
LanePool, A history of Egypt, P. 193.

(٣) ابن واصل ، مفرج الكروب : ٢/٢٤٢ •

(٤) ابن شداد ، النوادر السلطانية : ١٧ •

(٤) الاصفهاني ، البرق الشامي ، تلخيص البنداري ، سنا البرق الشامي : ١/٣١١-٣١٢ •

على ديوانه كاتب يعرف بصفي الدين ، فسعي به اليه ، وقدّر ما كان قد أتلفه من الاموال سبعين ألف دينار فلم يطلبها منه ولا ذكّره بها ، ثم لم يرض له العطلة فولاه ديوان الجيش[1] ثم ان رجلا اتهمه باطلا بانه استولى على مملوكه ، ولما علم انه فعل ذلك طمعا في كرمه ، اكرمه غاية الاكرام ومنحه اقطاعا[2] .

ولذلك لم تكن لصلاح الدين سياسة مالية منظمة ، ولم يكن يهتم بميزانية دولته أو يحاول التقريب بين ما يرد اليه وبين ما يصرفه . وكل همه كان منصرفا الى الجهاد والتخفيف عن الناس ، وكسب مودتهم ، الا انه مع ذلك كانت لـه دواوين خاصة تهتم بشؤون الصرف والانفاق على مرافق الدولة . وقد خصصت أغلب تلك المصروفات فيما يتفق وسياسة الدولة عن طريق صرفها على التحصينات العسكرية وبناء السفن ، والانفاق بسخاء على بناء الزوايا والمدارس والمساجد والخانات والبيمارستانات ومنح المخصصات لليتامى والفقراء كما يتبين ذلك فيما بعد .

كان الديوان السلطاني يشرف على شراء الخيول السلطانية والصرف على الاصطبلات وشراء السلع والآلات التي يحتاجها السلطان ، والانفاق على مرتبات الخدم ومصروفات موائد الطعام[3] التي كان يقدّمها صلاح الدين يوميا لضيوفه ، وكانت العادة ان يجتمع عند صلاح الدين الامراء والاجناد كل يوم بعد صلاة المغرب لتداول الامور ذات الجانب المهم ، وبعد الانتهاء منها يتفرق الجمع ، ليختلي صلاح الدين بكتّابه ان كانت لديه حاجة في مراسلة أحد ولاته[4] .

---

(١) ابن الابار ، اعتبار الكتاب ، ٢٣٠ .

(٢) ابن شداد ، النوادر السلطانية : ١٤-١٦ .

(٣) ابن مماتي ، قوانين الدواوين ، ٣٥٤ .

(٤) الاصفهاني ، البرق الشامي ، تلخيص البنداري ، سنا البرق

ومن أموال الديوان السلطاني كان صلاح الدين يمنح الاموال للشعراء والفقراء ومن يرد اليه طالبا كرمه[١] . وأحيانا كان يدفع من أموال هذا الديوان للعسكر تشجيعا لهم عند قيامهم ببعض الاعمال العسكرية المجيدة وترغيبا لهم على مواصلة الفتوح والجدّية في المعركة كما حدث عند هدم حصن بيت الاحزان سنة ٥٧٥هـ . اذ نادى صلاح الدين في العسكر « من اتانا بقربة من الماء اعطي دينارا » ليتسابق الجند بجلب المياه لاطفاء النيران التي اوقدها الصليبيون في الثقب الذي احدثه العسكر الايوبي في سور الحصن المنيع[٢] . ومن هذا الديوان أيضا خرجت الهدايا التي كان يرسلها صلاح الدين للخليفة العباسي والحرم المكي ونورالدين محمود بن زنكي[٣] .

اما ديوان الجيش فكان يتولى الانفاق على الامور التي تتعلق بالقضايا العسكرية كالتعبئة وتوزيع الرواتب على الجند والصرف على الاسلحة وبناء الحصون والقلاع[٤] . الا ان منح صلاح الدين الاستقلال الذاتي لولاته في حكم الولايات والمدن ، جعل كل أمير يتصرف بواردات مقاطعته بحرية تامة للانفاق على عساكره وبناء الاستحكامات العسكرية التي تزيد في قوة البلد الدفاعية .

غير ان اهتمام صلاح الدين بأمور الجهاد ، دفعه للاهتمام كثيرا

الشامي : ١/٢٣٤ .

(١) انظر : ابن الاثير ، الكامل : ١٢/٩٧ ؛ ابن ابي الاصبع ، تحرير التحبير ٦١٦ـ٦١٧ .

(٢) لامب ، شعلة الاسلام ، ٧٣ .

(٣) انظر : علي مبارك، الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة (القاهرة : ١٩٦٩) ١/٧٢ .

(٤) انظر : ربيع ، النظم المالية : ٦٢ـ٦٣ .

بالجيش والصرف عليه ، لذلك نجده يخصص المبالغ الطائلة لديوان الجيش ، لانفاقها في بناء الحصون العسكرية ودفع رواتب الجند وما كان يتبعهم من قضاة وصوفية وعربان وسوقه الى غير ذلك . ففي سنة ٥٧٧هـ/ ١١٨١م مثلا بلغت مصروفات صلاح الدين على جيشه ثلاثة ملايين وخمسمائة وسبعين الفا . هذا بالاضافة الى مليون دينار أخرى صرفت على العربان والقضاة والصوفية والفقهاء[1] . وكانت مصروفاته اليومية تزيد أحيانا على أربعين ألف دينار[2] .

ومن الدواوين الاخرى التي كان لها حرية الصرف على مرافق الدولة في عهد صلاح الدين ، ديوان الاحباس ، الذي « اختص بشؤون الاوقاف الخاصة والعامة وهو ديوان فاطمي الاصل ابقاه الايوبيون فيما أبقوه من دواوين . ولما كان ذلك الديوان مختصا في الواقع بأوقاف خيرية ودينية ، فان متولي ذلك الديوان كان يختار من بين العلماء المشهورين بالتقوى والفضائل والقدرة على الفتيا »[3] .

كان ناظر هذا الديوان يشرف على رواتب العلماء والفقهاء وأئمة المساجد أيضا ، فضلا عن المدرسين الذين يعملون في المدارس التي اوقفها أصحابها للتعليم ، وكذلك يشرف هذا الديوان على الانفاق على المدارس الصلاحية والمارستانات الثلاثة التي شيدها صلاح الدين بالقاهرة والفسطاط

---

(١) المقريزي ، السلوك ، ق١ج١/٧٥ .

(٢) يمكن ان نستنتج مقدار تلك المصروفات اليومية من رد صلاح الدين على كتاب الخليفة العباسي له سنة ٥٨٦ هـ عندما ارسل له توقيعا بعشرين الف دينار يستلفها من التجار مساعدة منه على حرب الصليبيين. غير ان صلاح الدين شق عليه ذلك وقال : « انا في يوم واحد أخرج مثل هذا واضعافه » مرآة الزمان : ق١ ، ج٨/٤١ .

(٣) ربيع ، النظم المالية : ٧٣ .

والاسكندرية[1] .

خامسا ـ المدارس والتعليم :

كان صلاح الدين شديد الاهتمام بنشر العقيدة الاسلامية الصحيحة ، ومحاربة أهل البدع والزيغ[2] ، لذلك اهتم بانشاء المساجد ومراكز العبادة والعلم . ومن العوامل التي دفعته الى الاهتمام بالمدارس رغبته في محو آثار الثقافة الفاطمية التي اعتمدت التعليم اسلوبا لنشر دعوتها وتوطيد سلطانها في مصر والمناطق التي كانت تابعة لحكم الفاطميين . فعمد الى انشاء المدارس التي تدّرس الفقه والدين على المذاهب السنية وبخاصة المذهب الشافعي ، الذي كان ينتمي اليه صلاح الدين ، بعد ان اغلق المدارس الشيعية[3] ، وعلى رأسها الجامع الازهر الذي كان أول مساجد القاهرة الذي بناه الوزير الفاطمي جوهر الصقلي سنة ٣٦١هـ وأصبح موطنا لنشر الدعوة الشيعية هنـاك[*] .

غير انه مما لاشك فيه ان تلك الدعوة أخذت بالاختفاء منذ ان اسقط

---

(١) نفس المصدر والمكان السابق .

(٢) الجبرتي ، مظهر التقديس : ١٩ .

(٣) انظر : العريني ، مصر في عصر الايوبيين : ٢١٩ ؛ علام ، نعمت اسماعيل ، فنون الشرق الاوسط في العصور الاسلامية (القاهرة ١٩٧٤) : ١٣٦ .

(*) اتخذ الفاطميون من المساجد ، التي كانت مراكـز العلـم آنئذ ، مجالات لنشر علوم الشريعة . ولما كان الازهر اول مسجد لهم ، لذلك اهتموا به واتخذوه جامعة عملية ويرجع الفضل في ذلك الى الوزير يعقوب بن كلس الذي عمل دراسات منظمة للفقه الاسماعيلي في الازهر ورتب خمسة وثلاثين رجلا من الفقهاء ، كانوا يتحلقون في المسجد بعـد الصلاة من كل يوم جمعة . المناوي ، الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي (القاهرة ١٩٧٠) : ١٠٥ـ١٠٦ .

صلاح الدين الدولة الفاطمية ، ومن ثم ابطاله لاقامة خطبة الجمعة في الجامع الازهر ، بعد ان ولي القضاء في مصر صدرالدين بن عبدالملك بن درباس ، الشافعي المذهب الذي نقل الخطبة الى الجامع الحكمي لاتساعه[1] . واستمرت الخطبة مقطوعة في هذا الجامع قرابة مائة عام حتى اعيدت سنة ٦٦٥هـ في عهد ركن الدين بيبرس[2] .

وقد انشأ صلاح الدين عدة مدارس في أنحاء مختلفة ، ومنها المدرسة التي عمّرها بالقرافة الصغرى ، مجاورة لضريح الامام الشافعي[3] . وكانت هذه المدرسة عظيمة وقد زارها الرحالة ابن جبير ووصفها بقوله : « لم يعمّر بهذه البلاد مثلها لا اوسع مساحة ولا أحفل بناء ، يخيل لمن يطوف عليها انها بلد مستقل بذاته بازائها حمام ... والنفقة عليها لاتحصى. تولى ذلك بنفسه الشيخ العالم المعروف نجم الدين الخوباشي وسلطان هذه الجهات صلاح الدين يسمح له بذلك كله ويقول زد احتفالا وتأنقا وعلينا القيام بمؤنة ذلك كله »[4] . مما يدلنا على اهتمام صلاح الدين الكبير لهذه المدرسة محبة بأمامه الشافعي وتقديرا له .

خصص صلاح الدين لهذه المدرسة مبالغ طائلة من الاموال ، فكان راتب المدرس فيها أربعين دينارا وستين رطلا من الخبز في الشهر الواحد . هذا عدا رواتب المعيدين والخدام فيها[5] . وقد اوقف صلاح الدين لهذه

---

(١) بدوي ، الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية ، ١٥ .

(٢) ابن ظهيره ، الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة ، تحقيق مصطفى السقا (القاهرة ١٩٦٩) ، ١٨٣-١٨٤ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل : ١١/٤٤٠ ؛ المقريزي ، السلوك : ١/٦٣ .

(٤) رحلة ابن جبير ، ٤٨ .

(٥) المقريزي ، المواعظ والاعتبار : ٢/٤٠٠ .

المدرسة حماما بجوارها وفرنا أمامها وحوانيت خلفها وبعض الرباع وأراضي جزيرة الفيل خارج القاهرة[1] .

وقد انشأ صلاح الدين مدرسة أخرى مجاورة للمشهد المنسوب للحسين بن علي (رض) ، وجعل أيضا دار عباس[2] الوزير الفاطمي مدرسة ، كما بنى مدرسة للشافعية ، وهي التي عرفت بمدرسة ابن زين التجار[3] ، أحد أعيان الشافعية الذي درّس بها مدة طويلة ، وكانت تقع بجوار جامع عمرو بن العاص ، وعرفت أولا بالمدرسة الناصرية ، ومن أشهر مدرسيها بعد ابن زين التجار الشريف قاضي العسكر[4] وفي القدس انشأ صلاح الدين مدرسة للشافعية بعد فتحها سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م وقد فوض أمر التدريس فيها للقاضي بهاء الدين بن شداد[5] .

وهناك مدارس أخرى كثيرة أنشئت لتدريس المذاهب السنية الاخرى غير الشافعية ، كالمدرسة السيوفية التي انشأها صلاح الدين بمصر سنة ٥٧٧هـ/١١٧٦م وكانت أول مدرسة حنفية انشئت بمصر ، واصلها دار الوزير الفاطمي المأمون الشطائحي[6] ، وسميت بالسيوفية نسبة لسوق

---

(١) ربيع ، النظم المالية ، ٧٧ .

(٢) الوزير عباس : هو عباس بن يحيى بن باديس ، مغربي الجنسية يرجح انه سني المذهب لانه كان صديق القاضي الشافعي ابن السيلار ، وما قيل عنه انه كان كثير القدح بالخلفاء الفاطميين وقد وزر للخليفة الفاطمي الظافر بالله (٥٤٤-٥٤٩ هـ ١١٤٩-١١٥٤م) واستمرت وزارته سنة وشهرين انظر : المناوي ، الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي ، ٣٠٣ و٣١٢-٣١٣ .

(٣) ابن تغري بردى ، النجوم الزاهرة : ٥٦/٦ .

(٤) المقريزي ، الخطط : ٢٤٣/٢ ؛ العريني ، مصر في عصر الايوبيين ، ٢٢١ .

(٥) بدوي ، الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية ، ٧٢ .

(٦) المأمون البطائحي : عراقي الجنسية ، مسلم شيعي المذهب

السيوفية الذي كان عند بابها • وقد أوقف عليها صلاح الدين اثنين وثلاثين دكانا وقرر على تدريسها القاضي محمد بن محمد الجبتي[1] • كما انشأ صلاح الدين مدارس لتدريس العلوم الفقهية على المذهب المالكي أيضا ، كالمدرسة الصلاحية التي انشأها بالقرب من البيمارستان النوري[2] • وقد نقل صلاح الدين طراز المدارس السلجوقية الذي كان منتشرا في سوريا الى مصر ، وكان ذلك التصميم ينحصر في المبنى المستطيل الذي يتوسطه فناء كبير مربع ، مع وجود ايوان كبير في كل جانب من جوانبه الاربعة ، كما وجد هذا في المدرسة الناصرية مثلا[3] •

ونتيجة لاهتمام صلاح الدين بالمدارس والتعليم ، فقد حذا حذوه ولاته والمقربون اليه ، وتسابقوا في بناء المدارس وحبس الاوقاف عليها • فقد أنشأ الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ـ ابن أخي صلاح الدين ـ المدرسة التقوية ، التي تسمى أيضا بنظامية الشام • وكانت هذه المدرسة من احدى المدارس الست المشهورة في دمشق ، ومن اشهر من درس فيها فخر الدين بن عساكر الذي انتهت اليه رياسة الشافعية بالشام[4] • كما أسس القاضي الفاضل عبدالرحيم بن علي المدرسة الفاضلية بجوار داره بالقاهرة ، وبدا التدريس فيها في أول محرم من سنة ٥٨٠هـ •

على طريقة الامامية وقيل كان اسماعيليا • وقد وزر للخليفة الفاطمي الامر (٤٩٥ـ٥٢٤ هـ/١١٠٢ـ١١٣٠م) من شوال سنة ٥١٥ هـ الى ٤ رمضان سنة ٥١٩ هـ اى كانت مدة وزارته اربع سنوات ، انظر : المناوي ، المصدر السابق ، ٢٠٣ و٣١٢ •

(١) بدوي ، الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية ، ٤٥ •

(٢) ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ؛ ق١ ، جـ١/٢٥٣ •

(٣) علام ، فنون الشرق الاوسط : ١٣٦ـ١٣٧ •

(٤) بدوي ، الحياة العقلية ؛ ٦٣ـ٦٤ •

وكانت تدّرس الفقه على المذهب المالكي والشافعي ، وجعل شرطا لمن يدّرس فيها ان يكون عالما بالمذهبين[1] .

اما الطلبة الغرباء ، وطالبوا العلوم العقلية والشرعية ، فقد احاطتهم عناية صلاح الدين الكبيرة ، فكانوا يفدون على المدن الرئيسة التي كانت تحت سلطنته ، وقد وصف الرحالة المعاصر ابن جبير تلك العناية الكبيرة التي كان يقدمها صلاح الدين لاولئك الطلبة وأوضح بأنه خصص لكل طالب غريب مسكنا يأوى اليه ومدرسا يعلّمه العلم الذي يريد ان يتعلمه ، وراتبا شهريا يسدّ به جميع حاجاته في كل الاحوال ، كما أنشأ حمامات بقرب تلك المدارس ليستحم فيها الطلبة ، ونصب لهم مستشفى قريبا لعلاج من مرض منهم ووكل بهم أطباء يتفقدون أحوالهم . بالاضافة الى انه عيّن في المستشفى خدما برواتب معينة لينظروا في مصالح المرضى وما يشيرون اليه ، كما رتب أيضا رجالا لهم خبرة بالطب كمساعدي أطباء يقومون بزيارة المرضى الذين لا يقدرون على الوصول الى المستشفى لينقلوا للاطباء أحوالهم حتى يقوموا بمعالجتهم . فاندفع ، نتيجة لهذه الخدمات الجليلة ، الكثير من طلبة العلم ، ومن مناطق مختلفة وخاصة من المغرب الاسلامي ، الى المدن الاسلامية وبالذات الاسكندرية والقاهرة ودمشق[2] .

كما شملت رعاية صلاح الدين العلمية أيضا الايتام والمساكين ، الذين اعتبر صلاح الدين نفسه أبا لهم ، لذلك أوجب على نفسه تقدم العون لهم واتاحة فرص العيش أمامهم ، فخصص لهم الاموال الطائلة والوقوف الكثيرة ، بعد ان رتب لكل جماعة منهم معلما خاصا يأخذ من تلك الاوقاف ما يسدّ نفقة اولئك الايتام من الصبيان وما يقوم بهم وبكسوتهم[3] .

---

(١) نفس المصدر السابق ؛ ٤٨ .

(٢) رحلة ابن جبير ، ٤٢ .

(٣) نفس المصدر السابق ، ٢٤٥ .

وتعدت اهتمامات صلاح الدين في بناء المدارس ، الى بناء العديد من المساجد والخوانق[1] والخانات — الفنادق — لايواء المسافرين ، ومنذ ان اسقط صلاح الدين الخلافة الفاطمية سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م • امر بتحويل العديد من السجون الى المساجد[2] • وكان في دمشق خان يسمى بخان ابن الزنجاري ، كان مثارا للشبهات ، فلما بلغ صلاح الدين اخباره ، أمر بهدمه ، فهدم وبني مكانه جامعا أسماه « جامع التوبة »[3] • وعندما دخل صلاح الدين دمشق سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م أمر بتجديد مسجدين فيها ، احدهما بسيوفه الباب الصغير والآخر بالباب الشرقي يعرف بمسجد النخلة[4] •

اما الخوانق ، فقد عني بها صلاح الدين محبة للصوفية وتقربا اليهم • ومنذ ان تولى الامر ، بعد وفاة العاضد سنة ٥٦٧هـ ، حوّل دار سعيد السعداء — أحد خدام القصر الفاطمي — الى خانقاه للمتصوفة ، واوقف عليها بستان الحبانية التي بجوار بركة الفيل بالقاهرة • وكان اذا مات أحد المتصوفة وترك عشرين دينارا فما دونها ، تنفق على الفقراء ولا يتعرض لها الديوان السلطاني • وقد رتب لهؤلاء المتصوفة في كل يوم طعاما ولحما

---

(١) الخوانق : جمع خانقاه ، وهي الاماكن التي يعدها السلطان وذوي اليسار للمتصوفة ، وكانت تحوي على وسائل الراحة كاملة ليتفرغ المتصوف للعبادة فقط بعد ان يتخلص من رق العيش ، انظر : حمزة، عبدالمطلب ، الحركة الفكرية في مصر في العصر الايوبي والمملوكي (القاهرة ١٩٦٨) ، ١٠٤ •

(٢) انظر : ابو شامة ، الروضتين : ١/١٩١ ؛ المقريزي ، الخطط : ١/١٨٧ •

(٣) ابن اياس ، بدائع الزهور : ١/٧١ •

(٤) ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، ق١ ، ج٢/٧٦ •

وخبزا ، وبنى لهم حماما بجوارهم • وكانت هذه أول خانقاه بنيت في مصر[1] •

كما بنى صلاح الدين خانقاه أخرى بدمشق عرفت « بالخانقاه الناصرية » نسبة اليه ، وموقعها خلف قيسارية الصرف ، وكانت داره لما كان واليا بدمشق[2] • ونتيجة لاهتمام صلاح الدين ببناء الخانقاه ، فقد قامت اخته ست الشام ام الامير حسام الدين عمر بن لاجين المتوفى سنة ٥٨٧هـ ببناء « الخانقاه الحسامية » عند جبل كحيل شمالي المدرسة الشبلية[3] •

اما طرق المواصلات المهمة الخالية من العمارة ، فقد عمد صلاح الدين الى انشاء الخانات عليها ليديم حركة المرور فيها • فمثلا الطريق الواصل بين دمشق وحمص انشأ فيه عند قرية النبك ، خانا عرف « بخان السلطان » ، وكان هذا الخان ـ كما وصفه الرحالة ابن جبير ـ في نهاية الوثاقة والحسن ، وله باب من حديد ، وفيه ماء جار يتسرب الى سقاية وسط الخان كأنه صهريج • وله منافس ينصب فيها الماء في سقاية صغيرة مستديرة حول الصهريج ثم يغوص في سرب الارض • كما بنى صلاح الدين أيضا الى جانب هذا الخان ثلاثة خانات أخرى على طول الطريق نفسه بين دمشق وحمص[4] •

ولم يهتم صلاح الدين بانشاء المساجد ودور العلم فحسب ، بل آثر التقرب من العلماء والفقهاء والصوفية ، واغدق عليهم كرمه واحسانه ،

(١) حمزة ، الحركة الفكرية ، ١٠٤ •

(٢) ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة : ق١ ، ج٢/١٩٣ •

(٣) نفس المصدر السابق : ١٩١ •

(٤) رحلة ابن جبير : ٢٥٩ •

وكان اذا سمع بأحدهم زاره في داره ليقتبس من انواره • ففي ذي الحجة سنة **٥٧١**هـ قدم الى دمشق الواعظ أبو الفتوح عبدالسلام يوسف التنوخي ، فحضر عند صلاح‌الدين وجالسه وكان مما أورد له أبياتا من الشعر كان يهواها صلاح‌الدين تدل على تشبعه بروح الصوفية وهي :ـ

يا مالكا مهجتي يا منتهى أملي	يا حاضرا شاهدا في القلب والفكر
خلقتني من تراب أنت خالقه	حتى اذا صرت تمثالا من الصور
اجريت في قالبي روحا منورة	تمرّ فيه كجرى الماء في الشجر
جمعتني من صفا روح منورة	وهيكل صغته من معدن كدر
ان غبت فيك فيا فخري ويا شرفي	وان حضرت فيا سمعي ويا بصري
تبدو فتمحو رسومي ثم تثبتها	وان تغيّب عني عشت بالاثر »[١]

ومما يدل على محبة صلاح‌الدين للصوفية ، انه كان اذا حضر « عنده الفقراء والصوفية يعمل لهم السماع فاذا قام أحدهم لرقص أو سماع يقوم له فلا يقعد حتى يفرغ الفقير »[٢] ، ثم ما أثر عنه انه كان متقشفا في ملبسه ومأكله لا يلبس الا الكتان والصوف ، ولم يعرف منه انه تخطى مكروها[٣]• كما كان يوقف القرى بما تملك من موارد وأرباح خدمة للزوايا ودور الفقراء • ففي صفر من سنة **٥٧٢**هـ مثلا أوقف صلاح‌الدين قرية حزم على الزاوية الغزالية ، ومن يشتغل بها بالعلوم الشرعية بعد ان جعل النظر فيها للشيخ قطب‌الدين النيسابوري[٤] •

ولم يهتم صلاح‌الدين بالصوفية فحسب ، بل بالعلماء والفقهاء أيضا ،

---

(١) ابن كثير ، البداية والنهاية : ١٢/١٩٣ •

(٢) ابن الاثير ، الكامل : ١٢/٩٧ •

(٣) العصامي ، سمط النجوم : ٤/٨ •

(٤) ابن كثير ، المصدر السابق : ١٢/٢٩٥ •

مما دفعهم لزيارته وملازمته • ومن العلماء الذين قدموا الى دمشق محبة به وطمعا في احسانه أبو الحسن علي الهروي صاحب كتاب (الاشارات الى معرفة الزيارات) • وهو من مواليد الموصل تنقل في البلاد الاسلامية • ثم نزل بالاسكندرية سنة ٥٧٠هـ ١١٧٤م ، فأرسله واليها ابو القسم بن حمود الى صلاح الدين بكتاب يطلب فيه منه اعداد حملة لغزو جزيرة صقلية • كما ورد الى صلاح الدين ايضا الرحالة عبداللطيف البغدادي ، الذي رافق صلاح الدين في فتوحاته الاخيرة ودخل القدس معه سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م فاكرمه صلاح الدين ورتب له ولاولاده مائة دينار في الشهر[١] • ولا يخفى بان صلاح الدين قرّب اليه العماد الاصفهاني وابن شداد والقاضي الفاضل وغيرهم ممن كتبوا لديه او تولوا القضاء في عهده ، كما سيتبين ذلك في الصفحات التالية •

ورغم اهتمام صلاح الدين بالعلماء والفقهاء كثيرا ، غير انه لم يقبل منهم من يفسد على الناس عقائدهم بتعليمهم السحر والشعوذة وغيرها من العلوم التي لا يقبلها الاسلام • ومن ذلك انه امر ولده الملك الظاهر بحلب سنة ٥٨٧هـ بقتل الشهاب السهروردي الفيلسوف الذي اتهمه خصمه بأنه كان يدرس علم الاوائل والسحر والمنطق والسيمياء ويعلمها للناس بحلب[٢] • وقد كان الملك الظاهر قد قرّب اليه السهروردي كثيرا ، فلما أمره والده بقتله ، حبسه حتى مات جوعا باختيار السهروردي نفسه[٣] •

---

(١) زيادة ، الجغرافية والرحلات عند العرب ، ١٦٣–١٦٤ و١٨١–١٨٢ •

(٢) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة : ٦/١١٤–١١٥ ؛ بدري، الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية ، ٢٩١ •

(٣) الغساني ، العسجد المسبوك : ٤٩ ، ولمعرفة المزيد عن آراء السهروردي الاستشراقية وسبب قتله انظر : عبداللطيف حمزة ، الحركة

والواقع ان السهروردي لم يكن ممن يتعلمون السحر والشعوذة ويعمونها للناس بل كان رجلا صادقا تعمق في فهم ظاهر الاسلام ، فوصل الى بواطن معانيه ، غير انه لم يستطع السيطرة على نفسه ، فأباح لعوام الناس ما كان يجول فيها ، وما توصل اليه من نتائج ، بعد ان كان قد افنى ذاته في حب الله • الا ان صلاح الدين لم يعلم بهذه الحقيقة وصدق الواشين عليه فامر بقتله كما جاء آنفا •

سادسا ــ ادارة المدن والقلاع :

انتقل التنظيم المالي في عهد صلاح الدين من نظام منح الرواتب والاعطيات النقدية للامراء والمشرفين على ادارة القلاع والحصون ، الذي كان متبعا في العصر العباسي والبويهي ، الى نظام منح المدن والقلاع للامراء عن طريق منحهم الاستقلال الذاتي ، بعد ان يتعهدوا بالولاء والاخلاص للسلطان ، والحفاظ على ما تحت ايديهم وتقديم الامدادات العسكرية من رجال واعتدة عند الطلب ، وقد ذكر المقريزي ان عادة الخلفاء من بني امية وبني العباس والفاطميين ان تجبى أموال الخراج ثم تفرق في الامراء والاجناد بحسب مقاديرهم ورتبهم ، وقد اطلق على هذا النظام في صدر الاسلام اسم « العطاء » وما زال الامر على هذه الصورة حتى جاءت دولة السلاجقة[١] ، فرأى نظام الملك « ان يسلم الى كل مقطع قرية أو أكثر أو أقل على قدر اقطاعه ، لانه رأى في تسليم الاراضي الى المقطعين عمارتها ، لاعتناء مقطعيها بأمرها • بخلاف ما اذا شمل جميع أعمال المملكة ديوان واحد فان الخرق يتسع ويتدخل الخلل في البلاد »[٢] •

الفكرية في مصر في العصرين الايوبي والمملوكي الاول (القاهرة ١٩٦٨) : ١١٥ــ١١٩ •

(١) المقريزي ، الخطط (القاهرة ١٣٢٤ هـ) : ١/١٥٣ •

(٢) نفس المصدر السابق : ١/١٥٤ •

وقد لاحظ الدكتور ابراهيم طرخان عـدة أمور في موضوع النظـم الاقطاعيـة في العصـر الايوبي وأوضح أولا بأن نظام‌الملك ـ الذي وزر لألب ارسلان السلجوقي (٤٥٧ ـ ٤٦٤هـ) ـ لم يكن المبتكر لهذا النظام ، انمـا سبقه في ذلك البويهيون الذين أسـاءوا التصرف في حكومتهم حتى خربوا البلاد ، ممـا دفع بنظام‌الملك ان يختـار هـذا الاسلوب لاصلاح البلاد • ثم ما كان من اتساع رقعة الدولة السلجوقية ثانيا ، حيث تطلب ذلك نوعا من الاستقلال الذاتي تمنحه السلطة العليا للامراء • وثالثا ان هذه الاقطاعات لم تكن تمليكا ، انما كانت استغلالا وكان الجندي اذا ورث أباه ، فانه لا يرث الا حق الاستغلال ، وهذا هو وجه الاختلاف عن الاقطاع في الغرب • ورابعا ان هذا الاقطاع تضمن معنى الحكم والولاية • وقد انتقل هذا النظام عن السلاجقة الى الدولة الزنكية ، فالدولة الايوبية ثم الى دولة المماليك[١] •

ومن بين الذين تولوا ادارة بعض المناطق في الدولة السلجوقية على طريقة منحهم اقطاعا معينا ، قسيم الدولة آق سنقر أبو عمادالدين زنكي ، الذي امتـد اقطاعه من حلب الى الموصل[٢] • وقـد درج على ذلك ابنـه نورالدين محمود فاقطع أسدالدين شيركوه مدينة حمص وأعمالها ، واقطع نجم‌الدين أيوب مدينة دمشق ، كما اشتمل اقطاع صلاح‌الدين على بعض جهات حلب وكفر طاب • كل ذلك مقابل الخدمات العسكرية التي يقدمها اولئك الامراء للدولة النورية[٣] •

---

(١) النظم الاقطاعية في الشرق الاوسط في العصور الوسطى ، ٢١ـ٢٢ •

(٢) النظم الاقطاعية في الشرق الاوسط في العصور الوسطى ،٢٩ •

(٣) ربيع ، النظم المالية ، ٢٦ •

وكانت عادة نورالدين ـ كما ذكر العماد الاصفهاني في البرق الشامي ـ « انه اذا اقطع أميرا اقطاعا وعيّن بعبرته ضياعا قرر عليه رجالا ذوي عدد ، لا ينقصون في خيل وسلاح وعدد • فاذا نقص مغل الاقطاع عن المبلغ أتم له نقدا من خزانته »[1] • مما يدلنا على ان هذا النظام ابتكر لمصلحة السلطة العليا لا لمصلحة الامراء فقط •

من هنا جاء تطبيق صلاح‌الدين لهذا النظام الذي كان من الطبيعي ان يعمل به نظرا لانه شاهده وعاش فيه • ومنذ أن تولى الوزارة في مصر عمد الى استلام كافة الاقطاعات التي كانت بيد الضباط الفاطميين ، ووزعها على امرائه[2] كجزء من المخطط الشامل الذي اعتمده لتقوية مذهب السنة في مصر ، وتستبان سياسة صلاح‌الدين في هذا النظام من موقفه من أخيه الملك العادل سنه ٥٧٩هـ عندما طلب منحه الاستقلال بمدينة حلب وان يمنحه كتابا يتضمن الاعتراف باستقلاله التام بها ، غير ان صلاح‌الدين رفض طلبه وقال : « أظننت ان البلاد تباع ، أو ما علمت ان البلاد لاهلها المرابطين بها ، ونحن خزنة للمسلمين ورعاة للدين وحراس لاموالهم »[3] •

اذن كانت غاية صلاح‌الدين من هذه السياسة ان يتكلف أحد الثقاة من الامراء بادارة المدن والقلاع ، بعد ان يتعهد ذلك الامير بتحمل مسؤولية ادارة تلك المدن ، وان يساند صلاح‌الدين بعساكره في أوقات الحروب • فكان اقتطاع صلاح‌الدين المناطق لولاته معناه استنابتهم في ادارة ذلك البلد وتحملهم عوضا عنه مؤنته • ففي سنة ٥٨٠هـ كتب صلاح‌الدين

---

(١) البنداري ، سنا البرق الشامي : ١٢٢/١ •

(٢) انظر : النوادر السلطانية : ٤١ ؛
Elisseeff, Nur Ad-Din, 111, P. 728.

(٣) ابو شامة ، الروضتين : ٥٢/٢ •

من مدينة دمشق لزين‌الدين يوسف بن زين‌الدين علي كوجك منشورا باربل وما حولها من البلاد والقلاع وذلك لدخوله في طاعته وانفصاله عن عزالدين مسعود ـ اتابك الموصل ـ جاء فيه ما يدل على ان هدف صلاح‌الدين من منح الاقطاعات للامراء انما كان لمصلحة المسلمين وخدمة لقضية الجهاد في سبيل الله ، وان الامير الذي تكون خطته السياسية مفقة مع ذلك الهدف يبقى في الامارة ، ومن اتبع هواه يعزل ومما جاء في نص المنشور ما يلي :

« ان الله لما مكن لنا في الارض ، ووفقنا في اعزاز الحق واظهاره لاداء الفرض ، رأينا ان نقدم فرض الجهاد في سبيل الله فتوضح سبيله ، ونقبل على اعلاء الدين وننصر قبيله ، وندعو أولياء الله من بلاد الاسلام الى غزو أعدائه • ونجمع كلمتهم في رفع كلمته العليا في أرضه على استنزال نصره من سمائه • فمن ساعدنا على اداء هذه الفريضة واقتناء هذه الفضيلة يحظى من عوارفنا الجزيلة بحسن الصنيعة ونجح الوسيلة ، ومن اخلد الى الارض واتبع هواه واعرض عن حق دينه بالاقبال على باطل دنياه ، فان تاب ورجع قبلناه ، وان أصر على غوايته ازلنا يده وعزلناه »[1] •

ورغم منح صلاح‌الدين الحرية التامة لولاته في التصرف في ادارة مقطاتهم ، غير انه كان يكاتبهم ويوضح لهم الطريق الذي يجب ان يسلكوه ، وكيف يجب عليهم ان يعملوا ليكسبوا رضاء رعاياهم • وكان الوالي الظالم لا مكانة له بين امراء صلاح‌الدين • ففي الثاني من رمضان سنة **٥٧٨هـ** بعد ان تسلّم صلاح‌الدين مدينة سنجار عرج الى نصيبين ، وكانت بيد الامير حسام‌الدين أبي الهيجـا السمين ، فشكا أهالي البلد من معاملته ، فعـزله وأخذه معه دارا التي كانت بيد الامير صمصام‌الدين بهرام الارتقي[2] •

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب : ٢/١٦٣ـ١٦٤ •

(٢) الروضتين : ٢/١٢٤ ؛ مفرج الكروب : ٢/٢٢٤ •

ومن الوصية التي كتبها صلاح‌الدين لابنه الملك الظاهر بدمشق سنة **٥٨٨**هـ/**١١٩٢**م نستدل على ان صلاح‌الدين كان يقيس استقامة الوالي بمدى تمسكه بتقوى الله التي هي رأس كل خير ، ثم في عدم استخدامه للقوة وسفك الدماء ثانيا ، وبمداراة الامراء وأرباب الدولة ثالثا • وقد جاء في نص الوصية ما يلي :

« اوصيك بتقوى الله فانها رأس كل خير ، وآمرك بما أمرك الله به فانه سبب نجاتك • واحذرك من الدماء والدخول فيها ، والتقلد لها • فان الدم لا ينام ، واوصيك بحفظ قلوب الرعية والنظر في أحوالهم ، فانت اميني وأمين الله عليهم • واوصيك بحفظ قلوب الامراء وأرباب الدولة والاكابر ، فما بلغت ما بلغت الا بمداراة الناس ولا تحقد على أحد ، فان الموت لا يبقى على أحد ••• »[١] •

كما وجد صلاح‌الدين في الاموال أيضا طريقا آخر يجب ان يسلكه الولاة لكسب الناس • فقد كتب بالانشاء العمادي سنة **٥٧٤**هـ الى أخيه شمس‌الدولة يحثه على البر والاحسان ويعده بأنه لا يحاسبه فيما يعطيه للناس ، لان الانفاق عليهم يقربهم اليه ، بعد ان ضرب له مثلا الخليفة معاوية الذي أجاز عبدالله بن جعفر بعشرة آلاف درهم لينفقها على الناس ، الا انه لم يعد الى بيته الا بعد ان تحمل خمسة ملايين درهم دينا كسب بها بني هاشم وبني أمية وأهل الحرمين[٢] •

وقد وجد صلاح‌الدين في استخدام الوسائل السياسية طريقا آخر من الطرق التي يجب على ولاته ان يستخدموها للقضاء على الاشرار والعصاة

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب : ١٢٣/٣ •

(٢) الاصفهاني ، البرق الشامي ، تلخيص البنداري ، سنا البرق الشامي : ٢٩٨/١ •

من الناس من الذين يملكون القوة والرجال ، حتى يتمكن الوالي من كسب تأييد الرعية ضدهم . ففي سنة ٥٧٤هـ كتب صلاح الدين بالانشاء الفاضلي لاحد ولاته ينصحه في الاحتراز من رجل كثير الشر فقال له : « واما فلان فانه بطل كثير الشر والحيلة والمال والرجلة ، فلا تحتقرنه ، وبعد ان ايقظته فلا تنم عنه . والحيلة في بعض الاوقات ترّجح على القوة ، على ان الباغي مخذول ، ومن سلّ سيف بغى فهو عما قليل به مقتول وواجب ان يظهر العذر ويؤتى به على اعين

فما حسن ان يعذر المرء نفسه وليس له من سائر الناس عاذر »[1]

وقد وجد صلاح الدين في استقالة الولاة والمقطعين ، استقامة الرعية ولذلك كان يحث الامراء على الاستقامة في كل أحوالهم ويدعوهم الى محاربة المنكرات وازالة أسبابها وتحصين كل مهتوكة من النساء الزانيات حتى يقضى على الزنا داخل البلاد ففي سنة ٥٧٤هـ كتب صلاح الدين لاخيه الملك العادل بخصوص ازالة المنكرات التي علم بوجودها ببعض المناطق ، فاستدعى الملك العادل أحد الولاة وسلم اليه ما كتبه صلاح الدين من الانكار العنيف . ولما أشار المخاطب الى جهات تحمي بيوت المنكرات قال له : « لو استقام العود لما اعوّج ظله ، ولو تنتهي أنت لانتهى غيرك ، ولكنك ملجم على انكارها لانك شريك فيه »[2] .

لذلك لم يعتمد صلاح الدين الا على الصالحين والصادقين في تمشية أمور الجهاد من الولاة ، وربما نقل بعض الولاة من مقطعاتهم تمشيا مع

---

(١) نفس المصدر السابق : ٣٠٢/١ـ لم أعثر على اسم البطل الموما اليه اعلاه ، لان الاصفهاني لم يذكر اسمه واكتفى بقوله : « واما فلان » ، كما اني لم اجد في المصادر الاخرى ما يشير الى مثل هذه الرواية.

(٢) سنا البرق الشامي : ٣٠٢/١ .

تلك الخطة • ففي سنة ٥٧٩هـ لما كان صلاح الدين محاصرا لحصن الكرك جاءه من مصر أخوه الملك العادل وطلب منه مدينة حلب ، فاقطعه اياها ، وعوض الملك المظفر عنها بمصر وأعمالها ، وذلك لان الملك العادل كان أكثر مقدرة من المظفر • وقد جاء بنص كتاب صلاح الدين « ••• وفوضنا اليه هذه البلاد وولیناه اياها تولية من قد عرف قيامه بحق الولاية وانتهاءه في مصالح الاسلام الى الغاية ••• وتوفره على الجهاد في سبيل الله بحرا وبرا »[1] •

ومما تتصف به توقيعات صلاح الدين للامراء عند منحهم المقطعات انها كانت تبدأ على الاغلب بذكر البسملة ، ويعقبها عبارات الحمد لله تعالى ثم الصلاة على رسوله محمد (ص) ثم موضوع التوقيع ومن أمثلة تلك التوقيعات ما جاء في منشور صلاح الدين لجمال الدين حجي بن كرامة بن بحتر وهو :

« الحمد لله وبه توفيقي »

بسم الله الرحمن الرحيم

ومن مضمونه بعد الترجمة : (بأجراء الامير جمال الدولة حجي بن كرامة على ما بيده من جبل بيروت من أعمال الدامور لمّا وصل الى الخدمة السلطانية وتحققنا ما جرى عليه من جانب الكفار خذلهم الله ، وهو ملكه ورثه من أبيه وجده وهي :

سرحمور وعين كسور ورمطون والدوير وطرده وعين دارفيل وكفر عميه وذلك حسبا منا عليه واحتسابا بمناصحته وخدمته ونهضه في العدو الثاغر له) والتاريخ كتب بأرض بيروت في العشر الآخر من جمادى

---

(١) ابن شاهنشاه ، مضمار الحقائق ١٥٦ـ١٥٧ •

الاولى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة »[1] •

كان ديوان الجيش هو المسؤول عن توزيع المقطعات وتغييرها بالنسبة لاجناد السلطان واجناد الامراء • وكانت وظيفة هذا الديوان اثبات أسماء المقطعين من الامراء واقطاعاتهم على اختلاف درجاتهم وجميع أفراد الجيش دون استثناء • وكان من واجبه أيضا منح دخول اقطاعات الاجناد ، فكان الجندي اذا انتقل الى اقطاع جديد للمرة الاولى فانه يأخذ دخل اقطاعه من تاريخ تعيينه عليه لا من أول السنة الهلالية أو الخراجية ، وكان على هذا الديوان ان يحصي غيابات الجندي عن الخدمة دون اذن شرعي ، ويقوم بخصم الاموال التي تعادل غيابه[2] •

ولم يخرج صلاح الدين في تعيين الامراء على العادة الجارية في عصره وجيله ، وهي ان يسند الى أبنائه وأقربائه الوظائف المهمة ، واخصها الولايات على البلدان وامارة قطعات الجيش •

فقد ولّى مثلا أخاه توران شاه على اليمن بعد عام من دخوله مصر ، واستخلف أخاه طغتكين على دمشق بعد استخلاصها من أيدي الزنكيين ، وأعطى حماة لابن عمه تقي الدين بعد ثلاثة أعوام ، كما اقطع حمص لمحمد بن شيركوه[3] • وفي سنة ٥٨٢هـ أحضر ابنه الافضل واقطعه مدينة دمشق كما اقطع ابن عمه مدينة حماة ومنبج والمعرة وكفر طاب وميافارقين وجبل جور بجميع أعمالها[4] •

---

(١) ابن يحيى ، تاريخ بيروت واخبار الامراء البحتريين من بني المغرب نشر وتعليق لويس شيخو (بيروت ١٨٩٨) : ٧٥ـ٧٦ •

(٢) ربيع ، النظم المالية : ٣٨ـ٣٩ و٦٢ـ٦٣ •

(٣) انظر : ابن واصل ، مفرج الكروب : ٢/ ٢٠ و٢٣ و٣٥ •

(٤) ابن ايوب ، المنتخبات ، ٢٨٧ـ٢٨٨ •

وفي أواخـر أيام صلاح الدين سنة ٥٨٣هـ/١١٩٣م أعـدّ أولاده ليتولوا الحكم من بعده ، فتولى الافضل ، وهو اكبرهم ، حكم دمشق بعد ان حلفت له العساكر جميعا ، وقد ملك بعد وفاة والده الى جانب دمشـق الساحل وبيت المقدس وبعلبك وصرخد وبصرى وبانياس وهو نين وتبنين وجميع الاعمال الى الداروم ، بينما ملك العزيز عثمان مصر ، اما حـلب وجميع اعمالها مثل تل باشر واعزاز وغير ذلك فكانت من نصيب الظاهـر غازى ، بينما تولى ابناء عمومتهم حكم حماة وحمص وبعلبك . اما الجزيرة وديار بكر فقد ظلت على حالها اقطاعا للعادل[1] .

وكان من الطبيعي عند وفاة صلاح الدين، ان يعمل كل حاكم على توسيع أملاكه لذلك فان الصراع بين حكام المدن والاقاليم كان طبيعيا ، فلم تمض سنة واحدة على وفاة صلاح الدين حتى دب الخلاف بين اولاده وسائر أفـراد أسرته[2] . فحاصر العزيز اخاه الافضل في دمشق وتدخل العادل والظاهر صاحب حلب في وقف النزاع بين الاخوين . غير ان الحرب ثارت بينهما من جديد ، وبعد أن فشلت مساعي السلام ، تدخل الملك العادل واستخدم القوة لحل الازمة وتمكن من كسب جانب العزيز ـ وانتزاع دمشق مـن يـد الافضل . ثم تقدم الى منطقة الجزيرة وتمكن من توطيد حكمه فيهـا بعد ان حكم دمشق نيـابة عن الافضل[3] . وبذلك جمع العـادل شمل دولة صلاح الدين الصغيرة وكان ذلك سنة ٥٨٨هـ/١١٩٨م بعد ان مـدّ

---

(١) ابـن الاثير : الكامل : ١٢/٩٧ـ٩٨ و٩٩ ؛ ابو شـامة ، الروضتين : ٢/٢٢٦ـ٢٢٧ .

(٢) انظر : بروكلمان ، تاريخ الشعوب الاسلامية : ٣٦٠ـ٣٦١ ؛ جب ، صلاح الدين ٢٠٢ـ٢٠٣ ؛ لامب ، شعلة الاسلام ، ٣٠٤ .

(٣) العريني ، المماليك : ٣٥ .

سلطانه على الكثير من شبه الجزيرة العربية وسوريا الجنوبية والقدس وشرق الاردن ونودي به سلطانا في مصر[1] .

سابعا ـ « الجيش والتعبئة »

استمد صلاح الدين قوته ، وفاز بانتصاراته العظيمة ضد الصليبيين ، من الجيش الذي أعدّه ، والذي نما نموا كبيرا بعد توحيد الشام ومصر . ونظرا لكون الجيش هو الاداة الفعالة التي يستطيع بها تحقيق هداافه القاضية بتحرير القدس ، لذلك اولاه عناية كبيرة ، فأنشأ له ديوانا خاصا عرف « بديوان الجيش » خصص له ميزانية كبيرة واعطاه الحرية التامة للصرف على الاجناد ومنحهم المخصصات ، فضلا عن توزيع الاقطاعات لهم، بعد ان يكون المسؤول فيه قد احتفظ بسجل يحوى كافة اسماء الاجناد واقطاعاتهم ورواتبهم ودرجاتهم .

ولما كان صلاح الدين قد قدم بعساكر من الشام الى مصر ، ثم أسس دولته الايوبية فيها ، بعد اسقاط الدولة الفاطمية سنة ٥٦٧هـ/١١٧١ م ، لذلك فمن الطبيعي ان تكون نواة عسكره الاولى متكونة من بعض عساكر الدولة النورية ، وعدد من أجناد الدولة الفاطمية . ذلك انه من المستبعد ان يكون صلاح الدين قد حلّ كافة اجناد الدولة الفاطمية ، او يكون قد استغنى عنهم في المرحلة الاولى ، كما انه من الطبيعي جدا ان ينضم عدد لا بأس به من اجناد الدولة الفاطمية ممن تستهويهم المصلحة ، او ممن يدفعهم حب العمل في الجيش ، بالاضافة الى اولئك الناقمين على الفاطميين من السكان المصريين .

ففي سنة ٥٦٤هـ عندما خرجت الحملة النورية الثالثة الى مصر بقيادة

---

(١) لامب ، شعلة الاسلام : ٣٠٥ .

شيركوه ـ عم صلاح الدين ـ كان برفقتها ثمانية آلاف فارس ، كان نورالدين محمود بن زنكي قد اختار له منها الفي فارس ، بعد ان كان قد جهزه بما يحتاج اليه واعطاه مائتي الف دينار سوى الثياب والدواب والاسلحة • اما بقية العساكر فكان شيركوه قد استأجرها بالمال[١] • ويحتمل ان يكون الستة الاف فارس الذين استأجرهم شيركوه او بعضهم على أقل تقدير من الفرسان التركمان من قبيلة « ياروق » لان قائدهم كان عين الدولة الياروقي[٢] • وكان الى جانب هذه الاعداد من الاجناد ، قوات شيركوه الخاصة البالغ عددها خمسمائة جندي طبقا لما اورده ابن ابي طيء عند حديثه عن تركات اسدالدين شيركوه بعد وفاته في مصر سنة ٥٦٤هـ حيث قال : « وخلف مالا كثيرا ••• وجماعة من الغلمان خمسمائة مملوك وهم الاسدية »[٣] •

وبتولي صلاح الدين للوزارة الفاطمية سنة ٥٦٧هـ ، خلفا لعمه شيركوه ، انسحب جماعة من الاجناد النورية الى الشام ، يقول ابن ابي طيء : « ولما استولى الملك الناصر على الوزارة ••• حسده من كان معه بالديار المصرية من الامراء الشامية كابن ياروق وجرديك وجماعة من غلمان نورالدين ، ثم انهم فارقوه وصاروا الى الشام »[٤] • بينما بقي الى جانبه جماعة الاسدية التي انشأها عمه شيركوه • غير ان صلاح الدين عوض عن ذلك النقص بالفرقة العسكرية الجديدة التي انشأها ، والتي كانت تدعى « بالصلاحية » نسبة اليه • وقد شرع باستبدال الامراء الفاطميين

---

(١) ابن الاثير ، الكامل : ١١/٣٣٦ ؛ ابو شامة ، الروضتين: ١/١٥٥ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية : ١٢/٢٥٥ •

(٢) جب ، صلاح الدين : ١٥٤ •

(٣) ابو شامة ، الروضتين : ١/١٧٢ـ١٧٣ •

(٤) نفس المصدر السابق : ١/١٧٣ •

المقطعين ممن بقي معه من العساكر فازداد حجم جيشه باستمرار خـــلال السنوات الخمس التالية عن طريق التجنيد في الفرق التابعة لـــه وتحت لـــواء امرته[1] ٠

وفي القاهرة يوم الثامن من محرم سنة ٥٦٧هـ/١١ أيلـــول ســـنة ١١٧١م أقيم عرض عسكرى للقوات العسكرية المصرية ، وصلاح الدين لم يزل وزيرا للخليفة الفاطمي ونائبا عن نورالدين ، وقد شهد ذلك العرض رسل البيزنطيين والصليبيين ، واستمر يوما وشطرا من الليل ، وكان عدد الجيش النظامي الذى شهد العرض مائة وسبعة وأربعين طلبا[2] ، والغائب عشرون طلبا ، وبلغ عدد الحاضرين اربعة عشر الف فارس وغالبهم مـــن الطواشية[3] الذي يتقاضى الفارس منهم من ٧٠٠ الى ١٢٠٠ دينار كما له جندي يحمل سلاحه في الحرب بالاضافة الى ان ديوان الجيش كان يصرف لـــه متاع فارس وعدته وما بحوزته من الخيل والجمال وغير ذلك ٠ اما بقية اعداد الجيش فكانوا من القراغلامية[4] ٠ يضـــاف اليهـــم العربـــان

---

(١) جب ، صلاح الدين : ١٥٥ـ١٥٦ ٠

(٢) الطلب : هو في لغة الغز الاتراك وحدة مؤلفة من الامير المقدم الذي له علم معقود وبوق مضروب ، وعدة من مائتي فارس الى مائة فارس الى سبعين فارسا، انظر : جب ، صلاح الدين ، ١٦١ ، وقيل اللفظ كردي٠ انظر ابن شداد ، النوادر ٢٤٠ هامش رقم (٣) ٠

(٣) الطواشية : هو الجندي من الفئة الاولى الذي هو اعلى مرتبة من الجنود النظاميين ٠ العريني ، مصر في عصر لايوبيين : ١٥٤ هامش رقم (١) ؛ جب صلاح الدين : ١٦١ هامش (٣١) ٠

(٤) القراغلاميـــة : وهم الجنود العـــاديون ، الاقل مرتبـــة من الطواشية ، العريني ، نفس المصدر والمكان لسابق ، هامش (٢) ، جب، نفس المصدر والمكان السابق ٠ وكان هؤلاء القراغلامية مكلفين بمراقبة الطرق اثناء سير الجيوش ، ويطلق عليهم اليوم اسم (فرق الاستطلاع) انظر :

الملحقـون بالجيش[1] ٠

وقد لعب هؤلاء العربان دورا مهما في الدفاع عن الاراضي الاسلامية ضد الصليبيين ، وكان لقبائل طي التي لمع اسمها في ايام الفاطميين فضــل كبير في ذلك وقد كافأهم صلاح الدين على مواقفهم الايجابية ، ونقل منهم جرما وثعلبة الى الحوف الشرقي واسكنهم مساحات واسعة من ارض جذام ٠ ومن المحتمل ان المنطقة لم تتسع لجموعهم فاتجهوا الى صحارى مصر خاصة وانهم كانوا متعودين حياة الاطراف[2] ٠

ويرى المستشرق جب ان تلك الاعداد من الاجناد التابعة لصلاح الدين كانت كبيرة ، وكان لابد لها من اجهاد موارد مصر المالية ، ولذلك اتخـذ صلاح الدين بعض الخطوات لتخفيف الاعباء والنفقات « اولا بواسطة ارسال فرقة كبيرة من الجند الى اليمن سنة ١١٧٤ م ٠٠٠ ثم فى اقدامه عــلى قطع اخبار جماعة من الاكراد سنة ١١٧٧ م بحجة مسؤوليتهم عن هزيمــة السلطان وعسكره عند تل الرملة »[3] ٠

المقريزي ، السلوك ، ق ١ ، ج ١/٧٥ هامش رقم (٣) ٠ بينما يعتقد لين بول ان القرغلامية هم فرق المشاة القديمة للدولة الفاطمية ، ذات السلاح الثقيل والمنحدرة من السودان ٠ انظر : Saladia, P. 154 غير ان لين بول واهم فيما ذهب اليه لان الفرق المصرية الفاطمية كانت في سجلات منفصلة عن هذه اللفظـة التي تـدل على الجنود ذوي الرتب الوضيعة ، او على الخيالة من غير المماليك ، انظر : جب، المصدر السابق: ١٦٢هامش رقم (٣٢) ٠

(١) القاضي الفاضل نقلا عن : المقريزي ، السلوك : ١/٧٥ ؛ جب ، المصدر السابق ١٦٠-١٦١ ؛ ربيع ، النظم المالية : ٦٤ ٠

(٢) المقريزي ، البيان والاعراب عما بأرض مصر من الاعراب مع دراسات في تاريخ العروبة في وادي النيل ، تحقيق وتأليف عبدالمجيد عابدين (القاهرة ١٩٦١) ، ١١٧ ٠

(٣) صلاح الدين : ١٦٢ ٠

حقيقة ان اعداد اجناد صلاح الدين كانت كثيرة ، غير ان واردات مصر كانت اكثر مما كان يصرف على تلك الاجناد • ولو لم يكن وارد مصر يفي بنفقات الاجناد ويفيض على ذلك لما تقدم صلاح الدين نحو الشام لتحقيق الوحدة ، ولما ارسل بعضا من قواته نحو اليمين ، وارى ان الاستاذ جب واهم باعتقاده ان صلاح الدين فتح اليمن تخلصا من مصروفات الجند ، لانه لم يفتحا الا للشرور التى كان يقوم بها امير اليمن الشيعى المذهب الذى ادعى لنفسه الامامة ، وسفك الدماء وسبي المسلمين[1] • ولا يخفى بان صلاح الدين أسقط الخلافة الفاطمية الشيعية فى مصر سنة **٥٦٧هـ/١١٧١م** وكان من الطبيعي ان يتتبع اتباعهم في كل مكان للقضاء عليهم ، وهذا هو الذى دفعه لفتح اليمن علما بانه فتحها وهو في غاية القوة ، ولو كانت وارداته لا تفي بمصروفات اجناده لكانت قوته ضعيفة ، لان المركز المالي يعكس ما عليه الدولة من قوة أو ضعف[2] ، ولتحول الاجناد الى الاعمال التى يكسبون منها معيشتهم ، وقد اوضح ابن شداد ما كانت عليه قوة دولة صلاح الدين عند تقدمه لفتح اليمن فقال « ولما كان سنة تسع وستين رأى صلاح الدين قوة عسكره وكثرة عدد اخوته وقوة بأسهم »[3] •

كما اخطأ الاستاذ جب بحق صلاح الدين وناقض نفسه باعتقاده أن صلاح الدين قطع اخباز جماعة من الاكراد بحجة انهم كانوا السبب في الرملة لتخفيف مصروفات دولته • ذلك لان صلاح الدين كان صادقا في عمله ، وانه لم يتجنّ على اولئك الاكراد ، لانهم كانوا فعلا السبب في تلك

---

(١) العماد الاصفهاني في البرق الشامي ، تلخيص ابو شامة ، الروضتين : ٢١٦/١ •

(٢) انظر ما فات من تفسير لاهمية الواردات في الدولة صفحة رقم (٤٠٤) •

(٣) ابو شامة ، نفس المصدر والمكان السابق •

الهزيمة ـ كما ورد تبيان ذلك في الفصل الثالث ـ علماً بان صلاح الدين لم يعرف عنه باعتراف المؤرخين جميعا ، ومنهم جب ، انه كان يستخدم الطرق اللاشرعية ، وخاصة قطع أرزاق الناس ، عندما تعوزه الاموال الكافية للانفاق عليهم[1] .

على اية حال فان اعداد الجيش الايوبي في مصر كانت في ازدياد ، اذ بعد عشر سنوات من العرض الذي شهده صلاح الدين في مصر والذي كانت عدته حوالي ١٤٫٠٠٠ فارس ، بلغت عدة العساكر في مصر في رجب من سنة ٥٧٧هـ/١١٨١م « ثمانية آلاف وستمائة وأربعين وامراء مائة احد عشر وطواشية ستة الاف وتسعمائة وستة وسبعين الف وسبعين الفا وخمسمائة دينار »[2] . هذا بالاضافة الى الجند العاطلين الذين انحلت عنهم رواتبهم او اقطاعاتهم ، وعن العربان والقضاة والفقهاء والصوفية والدواوين ولا يقل ما كان يصرف عليهم عن مليون دينار[3] .

واضافة الى القوات العسكرية التي شكلها صلاح الدين في مصر ، فانه اضاف اليها قوات الشام والجزيرة وديار بكر وغيرها من المناطق التي دخلت تحت سلطانه ففي سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م عندما دخل دمشق كان فيها مايقرب من الف جندي[4] انضموا جميعا الى السبعمائة جندى الذى جاء بهم صلاح الدين من مصر[5] . وبعد دخول حمص وحماة في الوحدة سنة

---

(١) انظر : الدواداري ، كنز الدرر : ٧/١٠٤ـ١٠٥ ؛ جب، صلاح الدين : ١٩٥ .

(٢) المقريزي ، السلوك : ١/٧٥ .

(٣) نفس المصدر والمكان السابق ، انظر : الخطط : ١/٨٦ـ ٨٧ ؛ ربيع ، النظم المالية : ٦٥ـ٦٦ .

(٤) العماد الاصفهاني ، البرق الشامي : ٣ ورقة ١١٧أ نقلا عن: جب ، صلاح الدين : ١٦٦ .

(٥) البنداري ، سنا البرق الشامي : ١/١٦٦ـ١٦٧ ؛

سنة ٥٧١-٥٧٢هـ/١١٧٦م انضمت قواتهما الى صلاح الدين وكان في حمص ما يقرب من خمسمائة جندي على وجه التقريب ، بينما كان في حماة ما يقرب من الف جندي[1] • وفي سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م اضيف ايضا الى قواته حوالي الفا فارس حلبي بعد انضمام حلب اليه[2] •

اما قوات الموصل والجزيرة ، فان ابن الاثير قدرها بحوالي ستة الاف وخمسمائة نقلا عن جريدة العرض وترتيب العسكر التي اطلعه عليها اخوه مجدالدين الذى كان كاتب ديوان الجند لدى النوريين في الموصل ، ورفض قول الأصفهاني الذي ادعى بان عدد اجناد الموصل وتوابعها كان عشرين الفا[3] • وقد اصبحت تلك القوات جميعا تحت تصرف صلاح الدين بعد سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م السنة التي تم فيها عقد الصلح مع الموصليين •

وكان كل امير يتصرف بحرية تامة بالانفاق على جيشه وتعبئته ، الا انه كان عليه ان يدفع بذلك العسكر الى حيث تقدمت قوات صلاح الدين لحرب الصليبيين • وكان اساس كل اتفاق بين صلاح الدين والامراء المسلمين ان تنضم قواتهم العسكرية الى قواته عند اعلان الجهاد ضد الصليبيين وقد ورد في نص كل الاتفاقيات المعقودة بينه وبين الامراء المسلمين ، الوارد ذكرها في الفصل الثاني ، ما يدل على ذلك •

من هذه التجمعات اذن كانت تتكون جيوش صلاح الدين الكبيرة التي كان يعبئها تصديا للغزاة الصليبيين ، وكانت تصل احيانا اربعة عشر الف جندي او اقل او اكثر • ففي سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م وصل عدد الجيوش

---

(١) جب ، صلاح الدين : ١٦٦-١٦٧ •

(٢) نفس المصدر السابق : ١٦٨ •

(٣) الكامل : ١١/٤٢٩ •

الذين اشتركوا في معركة حطين اثني عشر الف جندي[1] .

واضافة الى هذه الاجناد النظامية ، فقد اعتمد صلاح الدين على قبائل التركمان والعرب والاكراد ، وكان كثيرا ما يستدعيهم عند الحاجة فيلبون النداء حبا في الجهاد او طمعا في الغنيمة . ومن بين العشائر الكردية التي ساهمت في تكوين جيش صلاح الدين واشتركت معه في حروبه ضد الصليبيين ، القبائل الهكارية والمهرانية والسهرانية والسورانية والحميدية ثم الزرزارية[2] . بينما ساهمت قبائل بنو منقذ ، اصحاب شيزر[3] ، وقبائل بنو طيء[4] ، وكانا على راس القبائل العربية التي شاركت في الحروب ضد الصليبيين الى جانب صلاح الدين .

ويضيف الاستاذ جب الى ما سبق من العساكر التي كانت تؤلف جيوش صلاح جماعة الاجناد[5] الذين كانوا يقاتلون بالرمح والسيف . اضافة الى جماعة المشاة (الراجلون) الذين يؤلفون الحجارين والنقابين

---

(١) انظر : الروضتين : ٢/٧٦ .

(٢) زكي ، محمد امين ، تاريخ الكرد وكردستان ، ترجمة محمد علي عوني (القاهرة ، ١٩٦١) : ١/١٤٥ .

(٣) جب ، صلاح الدين : ١٧٢ .

(٤) انظر : المقريزي ، البيان والاعراب : ١٧ .

(٥) اجناد : تستخدم هذه اللفظة في المصادر على معاني ثلاثة : فهي تستخدم بصيغة الجمع للفظ جندي (أجناد) . وتطلق على الفرسان في القوات النظامية . وتستعمل في صيغة اسم الجمع للدلالة على القوات العسكرية كلها في منطقة ما . (جب ، صلاح الدين : ١٧٤) وهي الولايات او الاقاليم العسكرية المجاورة لبلاد العدو . فكانت بلاد الشام مثلا قد قسمت الى اربعة اجناد في دمشق وحمص والاردن وفلسطين . العمري وزملائه ، الجيش العربي في صدر الدولة العباسية (بغداد ١٩٦٣) ، ١٢٣ .

والخراسانية الذين يقاتلون في الدبابات[1] ، كما يرد الى جانب هؤلاء ذكر « الجاندرية » الذين ربما كانوا من المولجين بعمليات الحصار[2] . وأرى أن الجماعات من العسكر لايمثلون جماعات مستقلة في جيش صلاح الدين ، انما كانوا أصنافاً فيه ، لذلك فان وجودهم في الجيش الايوبي لا يزيد في عدده ، لانهم جزء منه .

التعبئة والتموين :

اعتبر صلاح الدين من القادة العسكريين الافذاذ الذين لهم القابلية والقدرة على قتال الاعداء قتالا مستمرا دون هوادة ومن غير كلل . فقد خاض حروبا مستمرة على مختلف الجهات ما يقرب من ثلاثين سنة ، حتى انه كان اذا عقد صلحا او مهادنة مع الصليبيين يستمر في مناوشتهم خوفا من غدرهم ، ولم يعرف عنه انه خاض معركة او حاصر مدينة الا وحسب لها حسابها من النصر او الهزيمة ، وخطط لها التخطيط الكافي الذي اعطاه الثقة بالنصر والنفس معا ، وفي حصار القدس وفتحها مثلا دليل على ذلك .

وكان من خطط صلاح الدين انه يعمد الى تقسيم جنده الى عدة اقسام ووجبات ليتولى احدهم بعد الاخر في حصار البلد كي لا يقف القتال لحظة يتقوى بها العدو ، وكي يكون له من عسكره جماعة مستريحة في كل وقت

(١) الدبابة : كانت في اول امرها عبارة عن برج مربع الشكل مصنوع من كتل خشبكة صلبة مثبت على قاعدة خشبية تجلس على اربع عجلات وفي البرج طبقتان من الخشب ثم تطورت في عهد الدولة العباسية حتى صارت ضخمة ومرتفعة تسحب على ست او ثماني عجلات وتتسع لعشرة رجال . بداخلها سلالم مستعرضة تنتهي الى شرفات تقابل شرفات الحصون ليتسلق المقاتلون اليها بواسطتها ، العمري ، المصدر السابق: ١٢٠ .

(٢) جب، المصدر السابق : ١٧٤ــ١٧٦ .

مستعدة لمواصلة القتال[١] . وكان صلاح الدين في كل الاحوال قريبا من العسكر او بين جنوده وسط المعارك وبيده زمام القيادة والتعبئة وترتيب المهمات وحض الاجناد وحثهم على القتال ، ليكون المقاتل اذا كان بمرأى من صلاح الدين قد احتد واشتد[١] .

وكانت لدى صلاح الدين خطة للحرب كاملة ، من التخطيط الى التطبيق ، فقد كان يستخدم التنظيم المتبع في التعبية وهو نفس النظام الذي استخدمه المسلمون من قبل . وكان يتالف من عسكر المقدمة ثم عسكر القلب الذى يكون صلاح الدين وحرسه الشخصي فيه ، ثم عسكر اخر يكون محله عن يمين صلاح الدين يسمى بالميمنه ، وعسكر اخر من ناحية اليسار بالميسرة ، واخيرا العسكر الذى يكون من وراء العسكر كله يسمى بالمؤخرة او الساقة . وكان الى جانب هؤلاء فرق الاستطلاع والكمناء[١] . واحيانا كان صلاح الدين يضع احد الاطراف الى جانب الاخر ليزيد في قوته ، أو يضعه مكان الاخر ، كان يضع الميسرة في القلب او الميمنة في الميسرة ليوهم عدوه حسب مقتضيات المعركة[٤] .

اما ادامة العسكر (التموين) ، فكان الجندي يعتمد بالدرجة الاولى على ما يحمله معه من مواد غذائية بسيطة ، اضافة الى ما كان يستولي عليه من مؤن العدو المهزوم والمؤن المخزونة التي كان يعثر عليها داخل المدن والحصون المفتوحة . ففي سنة ٥٧٣هـ/١١٧٧م عندما توجه صلاح الدين لحرب الصليبيين ابان معركة الرملة نودي بالعسكر ان يتزود بمؤن تكفيه

---

(١) انظر : ابن شداد ، النوادر : ٩٢ .
(٢) البنداري ، سنا البرق الشامي : ١/٢١٠-٢١١ ؛
Champdor, Saladin, P. 277.
(٣) انظر : سعداوي ، التاريخ الحربي المصري : ٢٢٥ .
(٤) انظر : ابن شداد ، النوادر : ٥٣ و٦٢ .

لمدة عشرة ايام اخر زيادة للاستظهار[1] •

اما الحملات الكبيرة المنظمة التي كان يقودها صلاح‌الدين ، فكانت ترافقها قافلة كبيرة للتموين تحوى كل ما يحتاج اليه الجند ، على انه لم ترد تفصيلات كثيرة توضح كيفية توزيع تلك الارزاق والمؤن على الجيش• والظاهر انه كانت هناك جماعة خاصة تقوم بتوزيع تلك المؤن والارزاق على القادة وامراء الجيوش ليقوم كل قائد بتوزيع تلك المؤن على امراء جيشه ، ثم يقوم كل امير بدوره بتوزيعها على الجنود التابعين له •

هذا بالاضافة الى وجود اماكن خاصة كانت تملأ كل واحدة منها بمادة من المواد الحربية بعد ان يعين مواضعها ، ليقصدها الجندي عند الحاجة ، او عند نفاذ مؤنته • كما حدث هذا في معركة حطين سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧ حيث عين صلاح‌الدين سبعين موضعا ملآها بالنشاب ليقصدها من عسكره من خلت جعابه منها[2] •

وقد وصف الرحالة عبداللطيف البغدادي (ت : ٦٢٩هـ) السوق الذى كان يرافق عسكر صلاح‌الدين المحاصر لعكا سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م ، ووصفه ، على ما فيه من مبالغة ، يدل على عظم حجم قوافل التموين التي كانت ترافق العسكر • فقد كان السوق ذا مساحة فسيحة فيه مائة واربعون دكان بيطار • ودكاكين للطباخين يملك الواحد منهم ما يقرب من ثمانية وعشرين قدرا يسع الواحد منها رأس غنم واحد • وقد بلغت عدة الدكاكين سبعة الاف دكان ، كل واحدة منها مثل مائة دكان من دكاكين المدينة ، وكان منها دكاكين تبيع البز العتيق والجديد ، واضافة الى ذلك فقد كان يرافق العسكر اصحاب الحمامات لينشئوا الحمامات البسيطة ليستحم الجند فيها ، ويتطهروا • وكان عدد الحمامات اكثر من الف

---

(١) ابو شامة ، الروضتين : ١/٢٧٠ •

(٢) الروضتين : ٢/٧٦ •

حمام كان اكثر ما يتولاها المغاربة • فقد كان يجتمع منهم اثنان او ثلاثة ويحفرون ذراعين فيطلع الماء ، ثم يأخذون الطين فيعملون منه حوضا وحائطا ، ثم يسترونه بالحطب والحصير ، ويقطعون حطبا من البساتين التي حولهم ويحمون الماء في قدور ، حيث تكون عندها الحمام جاهزة للاستعمال[1] •

ولم يكن هذا العدد من الحمامات مبالغا فيه ، نظرا لبساطة وسهولة عمل الحمام وكثرة الحاجة اليه • ولهذا السبب نفسه انتشرت الحمامات الجماعية بشكل كبير قرب المساجد وفي الاماكن العامة في المدن الرئيسة كحلب ودمشق والقاهرة[2] •

ثامنا :ـ البحرية

كان البحر المتوسط بحرا اسلاميا في القرن العاشر الميلادي ، ولم يكن لاي من الدول الاوربية سلطان عليه ، وكان على تلك الدول اذا ما أرادت ان تمخر عباب ذلك البحر ان تخطب ودّ المسلمين المطلة دولهم عليه[3] •

ولما أخذ البيزنطيون في مناورة المسلمين ، واستولوا على اقريطش (كريت) وهددوا بعض المدن الشامية بعد سنة ٣٥٠هـ/٩٦١م عمد الخليفة الفاطمي المعزالدين الله الى الاهتمام بالاسطول البحري خاصة وانه اراد ان يتابع انتصاراته في شمال افريقيا ، بانتصارات اخرى في الشام للقضاء على الاخطار التي كانت تهدد سلطانه في مصر[4] • فانشأ دارا لصناعة السفن في

---

(١) المقريزي ، السلوك (القاهرة ، ١٩١٤) ، ق١، ج١/٩٤ •

(٢) لمعرفة المزيد عن الحمامات الجماعية المنتشرة في مدن الشام والجزيرة انظر :

Elisseeff, Nur Ad-Din, 111, P.P. 850-851.

(٣) انظر : متز ، الحضارة الاسلامية : ٢/٤٣١ـ٤٣٢ •

(٤) ماهر ، سعاد ، البحرية في مصر الاسلامية (القاهرة ، د:ت):

مصر والاسكندرية ودمياط ، كما انشأ دارا اخرى بالمَقْس[1] بنى فيها ستمائة مركب وصفت بحسن الوثاقة وكبر الحجم[2] .

وقد سار على سياسة المعز لدين‌الله الخلفاء الفاطميون من بعده ، فعمدوا الى‌انشاء أنواع مختلفة من‌السفن الحربية ، وسيروها الى بلاد ساحل الشام مثل صور وعكا وعسقلان . وقد ورد في المصادر التاريخية ما يدل على أن الاسطول المصرى بلغ حدا كبيرا من التقدم والنظام . فقد حبست عليه اقطاعات كبيرة ، ودلت سجلات الاسطول على ان قادة الاسطول كانوا عشرة ، يعيّن احدم رئيسا للاسطول ، ويساعده المقدم والقاوش والباقون ملاحون . وكانت عدة الاسطول ايام المعز تزيد على ستمائة قطة واخر ما صارت اليه في آخر الدولة الفاطمية نحو الثمانين شونة ، وعشر مسطحات وعشر حمالات[3] .

أصبحت هذه القوة البحرية تابعةلصلاح الدين ، بعد توليه الامر في مصر اثر اسقاطه الخلافة الفاطمية سنة ٥٦٧هـ/١١٦٩م . وقد خصها

---

٩٦ ؛ العريني في عصر الايوبيين : ١٦٥ ؛ حسن ، النظم الاسلامية : ٢٢١ .

(١) ترى الدكتورة سعاد ماهر ان الروم حاولوا الاستيلاء على بيت المقدس ففشلوا وكانت تلك المحاولة هي الدافع القوي للخليفة المعز والسبب المباشر لأن ينشيء دارا لصناعة السفن بالمقس ، بالاضافة الى دارين اخريين في كل من الروضة والفسطاط . (البحرية في مصر :٩٧).

(٢) حسن ، النظم الاسلامية : ٢٢١ .

(٣) انظر : المقريزي ، الخطط (طبعة بولاق) : ٢/١٩٣ ؛ ماهر، البحرية في مصر : ٩٧ .

صلاح الدين بكامل عنايته وافرد لها ديوانا خاصا اسماه « ديوان الاسطول »• وكانت الملاحة في عهده قد شملت بحرين منفصلين وهما : بحر القلزم (الاحمر) والبحر المتوسط وذلك لان برزخ السويس كان حائلا دون اتصال هذين البحرين • واذا ما أريد نقل بعض قطعات السفن البحرية الايوبية من البحر الابيض الى البحر الاحمر ، فانه كان يجب حملها على ظهور الجمال عبر الصحراء الى البحر الاحمر[1] •

وقد ادرك صلاح الدين أهمية الاسطول البحري ، وما يسديه من فوائد عظيمة في الدفاع عن المناطق الساحلية ضد العدوان الصليبي ، وخاصة بعد ان هوجمت مدينة الاسكندرية وحوصرت من طريق البحر[2] • كما ان تحقيق الاهداف التي كان يصبو اليها في تحرير القدس وطرد الصليبيين من الشام تتطلب وجود بحرية قوية ومنظمة للقضاء على البحرية الصليبية التي كانت متمركزة في سواحل بعض مدن الشام كصور وعسقلان وعكا • لذلك كله اتجه صلاح الدين في سياسته الى تقوية وتحصين الثغور البحرية المصرية ، الموجودة في دمياط والاسكندرية وتنيس ورشيد وعيذاب[3]

---

(١) حدث هذا الامر سنة ٥٧٨ هـ/١١٨٢م عنوما نقل البرنس ارناط بعض مراكبه الى البحر الاحمر ، وعندما تتبع الملك العادل تلك المراكب والقى القبض عليها عندما حاولت ضرب اراضي الحجاز (انظر صفحة ٤٦٦ من الرسالة) •

(٢) انظر حصار الصليبيين لمدينة الاسكندرية : الفصل الثالث صفحة ٢٥٢ـ٢٥٦ •

(٣) كان ثغر الاسكندرية ـ من بين الثغور البحرية الموجودة في مصر ـ اعظمهما قدرا وافخمها امرا واكثرها واردا فقد كان له زكاة الجوالي ودار الضرب كما اضيفت اليه واردات الضرائب الكمركية • وللاطلاع على تقييم هذه الثغور وارداتها انظر : ابن مماتي ، قوانين الدواوين : ٣٢٥ـ٣٢٧ •

وشحنها بالسفن والمقاتلين ، بالاضافة الى تولية أمورها الى أصحاب الكفاءات من الامراء المقربين • ليأمن جانبهم ، وليكون على ثقة من ان أمير البحر يعمل بصدق على تقدم الاسطول ، وانه يقف الى جانبه عند الازمات •

لذلك كلّه نصب أخاه الملك العادل ابا بكر محمد ابن أيوب على راس ديوان الاسطول[1] ، وخصص له خراج الفيوم بأعمالها ، وخراج مناطق أخرى مهمة في البرين الشرقي والغربي وغيرها من الاقطاعات ، حتى بلغت الاموال التي كانت تجبى لديوان الاسطول من زكاة مصر خمسين ألف دينار ونيفا في السنة الواحدة[2] • كما خصص صلاح الدين لديوان الاسطول مراكب خاصة لجمع الاموال والاخشاب للاسطول عرفت باسم (المراكب الملوّحة)[3] • والارجح ان هذه السفن كانت تجمع الاخشاب وغيرها من المواد المستعملة في بناء المراكب ، لدور صناعة السفن التي كانت منتشرة في بعض الثغور البحرية ، كثغر الاسكندرية ودمياط • وربما استخدمت هذه المراكب لنقل ما تحتاج اليه السفن المعطوبة في المياه ، من أخشاب ومواد أخرى مع الصناع من دور صناعة السفن •

ونتيجة لاهتمام صلاح الدين بأمر الاسطول ، فقد عظمت قوته البحرية ، وازداد عدد قطعاته حتى بلغت سنة **٥٧٥هـ/١٨٧٩م** مثلا ثمانون سفينة بين صغيرة وكبيرة[4] ، عدا القطع التي كانت تابعة للدولة الفاطمية ، دوّخ بها البلاد الرومية ومراكز تجمعيات الصليبيين المنتشرة في حوض البحر الابيض • منها توافق انتصاره البري على تجمعات الصليبيين في معركة مرج العيون ، انتصاره البحري على بعض السفن الصليبية الكبيرة ، فدمرها

---

(١) المقريزي ، السلوك : ١/١٠٨ •
(٢) ماهر ، البحرية في مصر : ٣٠٤ •
(٣) ابن مماتي ، قوانين الدواوين : ٣٤٨ •
(٤) ابو شامة ، الروضتين : ٢/١١ •

وقاد اثنين منها الى ثغر الاسكندرية صحبة ألف أسير[1] • وفي سنة ٥٧٨هـ/ ١١٨١م انتصر الاسطول البحري أيضا على بعض مراكب صليبية كانت قد خرجت من القسطنطينية اثر فتنة وقعت بين الصليبيين والروم ، وتمكن من السيطرة على سفينة كبيرة واغتنام ما كان بها من ذخائر مع أسر أربعمائة صليبي[2] •

ونتيجة لاهتمام صلاح الدين بتحرير القدس • فقد فكّر في الاستيلاء على ميناء بيروت ليكون قاعدة بحرية للاسطول المصري في شرق البحر المتوسط ، يمكن من خلاله ان يتزود بما يحتاج اليه من مؤن بدلا من العودة الى مصر ، اختصاراً للوقت وتعضيدا لقواه في الشام • علما بأن الانفاق على الاسطول في بيروت يساهم في تقوية واردات ديوان الاسطول في مصر ، ويعمل على تخفيض مصروفاته • لذلك أمر صلاح الدين أخاه الملك العادل سنة ٥٧٨هـ/١١٨٢م باعداد حملة بحرية مكونة من ثلاثين سفينة حربية لمباغتة مدينة بيروت من جهة البحر ، بينما يكون هو بقواته البرّية قد حاصرها من جهة البر • وكان صلاح الدين عازما على ملازمة حصار المدينة حتى يفتحها ، غير ان نزول سفينة صليبية ، فيها جمع عظيم منهم على دمياط ، كانوا قد خرجوا لزيارة بيت المقدس ، وأسر المسلمين لالف وستمائة وسبعين أسيرا منهم • ووصول رسالة من صاحب حرّان يطلب فيها سرعة قدومهم الى الفرات ، دفعت بصلاح الدين الى ترك حصار بيروت[3] •

---

(١) نفس المصدر السابق ، ٢/٩ ؛ مفرج الكروب : ٢/٧٧ •

(٢) الروضتين : ٢/٣٢ •

(٣) ابن الاثير ، الكامل : ١١/٤٨٢ ؛ ماهر ، البحرية في مصر : ١٠٥ ، العريني، مصر في عصر الايوبيين : ١٧٧ •

ومن المواقف الحازمة التي قام بها الاسطول البحري في عهد صلاح الدين تصديه للهجمات الصليبية التي كرّسها البرنس ارناط (ريجنالد شايتون) ـ أمير حصن الكرك والشوبك ـ للاستيلاء على أراضي الحجاز والسيطرة على طريق التجارة البحري في البحر الاحمر • ففي شوال من سنة ٥٧٨هـ/١١٨٢م نقل البرنس ارناط أخشاب سفنه على ظهر الجمال الى بحر ايلة ، ثم جمعها وركبها في اسرع وقت وشحنها بالمقاتلة وسيرها في البحر الاحمر ، فسار قسم منها نحو عيذاب لقطع طريق التجارة ثم التوجه الى أرض الحجاز لمضايقة المدينة المنورة • فلما وصل الخبر الى الملك العادل بمصر ، أمر الحاجب حسام الدين لؤلؤ ـ متولي الاسطول بمصر ـ بتجهيز اسطوله وتتبع مراكب الصليبيين • وقد تمكن لؤلؤ هذا من الانتصار على السفن الصليبية وتدميرها وأخذ الصليبيين اسرى الى مصر[1] •

وكان السبب في خسارة الصليبيين وفشل خطتهم في الاستيلاء على البحر الاحمر والاراضي المقدسة ، عدم معرفتهم ان بعض قطع الاسطول الايوبي كانت مرابطة في قواعدها الشتوية[2] • ثم ان بعض المراكب كانت قد خصصت للحفاظ على سلامة سواحل مصر من هجوم الصليبيين عليها

---

(١) لمعرفة تفصيل عملية هجوم ارناط على الحجاز ونزوله البحر الاحمر انظر : ابن الاثير ، الكامل : ١١/٤٩٠ـ٤٩١ ؛ رحلة ابن جبير : ٥٨ـ٦٠ ؛ ابو شامة الروضتين : ٢/٣٥ـ٣٧ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب: ٢/١٢٧ـ١٣١ •

(٢) كانت حركة الاسطول البحري في فصل الشتاء في حالة ركود تقريبا ، فقد كانت غزواته لا تزيد على عشرين ليلة ، ويكون ذلك في آخر شباط ، فيقيم رجال البحرية الى اوائل آذار ثم يرجعون ليربعوا دوابهم ، (ماهر ، البحرية في مسر : ٣٠٥) •

أثنـاء غياب العساكر • لذلك ما ان علم أمير الاسطول البحري بالهجـوم الصليبي ، حتى بادر بالتصدي لها • وبذلك لم يحقق الصليبيون من غزوتهم أية نتيجة في البحـر الاحمر[1] • بل بالعكس وجهوا عنـاية الاسطول الايوبي للحفاظ على سواحل الحجاز من مغبة هجوم صليبي آخر •

وفي السنوات التالية من ٥٨٠هـ/١١٨٤م الى سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م لم يشترك الاسطول البحري بعمليات ناجحة ضد الصليبيين لان صلاحالدين تفرغ لمقاتلة أعدائه على البر بعيدا عن الساحل • غير انه من الطبيعي ان السفن التجارية كانت تقوم برحلاتها الاعتيادية بين الشرق والغرب ، وان طريق المواصلات البحـري بين الشام ومصر كان مفتوحا ، وان المراكب الحربية كانت تراقب عن كثب تحركات السفن الحربية الصليبية •

وبعد معركة حطين سنة ٥٨٢هـ/١١٨٧م نهضت البحرية من جديد ، لتغير الخطط الحربية بالنسبة لصلاحالدين ، وتقدمه نحو ساحل الشـام لاخراج الصليبيين منه ، لذلك كان الاسطول اليد العاملة الثانية الى جانب القـوة العسكرية البرية في تنفيذ تلك المهام • ولما فتحت بعض المـدن الساحلية ، كعكا مثلا ، اتخذت قواعد بحرية للسفن المصرية ، في مساندة صلاحالدين لاكمال فتح المدن الاخرى المطلة على ساحل البحر •

وقـد ذكر العمـاد الاصفهاني ان عكا كانت القاعدة البحرية للسفن المصرية التي ساندت صلاحالدين في حصار مدينة صور بعد فتح القدس سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م • ففي أثناء مسير صلاحالدين لحصار صور براً ، استدعى الاسطول المصري الذي كان راسيا بعكا ، فجاء منه عشر شواني ، تمكن بها صلاحالدين من حصار البلد برا وبحرا[2] •

---

(١) انظر : العريني ، مصري في عصر الايوبيين : ١٧٩ •

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب : ٢/٢٤٣ •

غير ان الغرور الذي أصاب البحارة المسلمين ، الذين كانوا في الشواني السابقة ، وعدم تنفيذهم وصية رئيسهم (عبدالمحسن)[1] في اخذ الحذر واليقظة من اسطول الصليبيين ، الذي كان قد فرّ أمام الاسطول الاسلامي قرب ساحل صور ، أدى بهم الى التهاون ، بعد ان كانوا قد سهروا ثم غلبهم النوم ، فهجم عليهم الاسطول الصليبي عند السحر ، وتمكن من الظفر بخمسة من المراكب الاسلامية مع اسر مقدميها ورئيسها[2] .

وعلى الرغم من القوة والقدرة التي كان يملكها الاسطول البحري في عهد صلاح الدين ، الا انه لم يتمكن من الوقوف بحزم أمام القطعات البحرية الكبيرة والقوية التي وصلت البحر المتوسط برفقة الحملة الصليبية الثالثة ، لذلك لم أجد في المصادر التاريخية ما يدل على نشاط عسكري بحري كبير لصلاح الدين بعد سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م الا قليلا ، منها انه تمكن من الاتصال بعكا عن طريق البحر أثناء محاصرة الصليبيين لها في ١٥ ذي القعدة ٥٨٦هـ/٢٥ ايلول ١١٩٠م وتمكنه من الاستيلاء على سفينتين من سفن الاعداء[3] .

اما معدات السفن الحربية ، فقد كانت جزءاً من معدات العصور الوسطى التي تمثلت بالزرد والخوذ والتراس والرماح والكلاليب ، والسلاسل التي في رؤسها رمانة حديد « الباسليقات » وغيرها . وكان في

---

(١) ذكر ابن شداد ان رئيس البحارة كان رجلا يقال له (عبدالمحسن) النوادر : ٨٤ . بينما ذكر العماد الاصفهاني ان الرئيس كان (عبدالسلام المغربي) وان متوليه كان (بدران الفارسي) مفرج الكروب : ٢/٢٤٤ـ٢٤٥ .

(٢) النوادر السلطانية : ٨٤ ؛ مفرج الكروب : ٢/٢٤٤ـ٢٤٥ .

(٣) النوادر السلطانية : ١٢٢ ؛ مفرج الكروب :٢/٣٠٥ .

السفينة صناديق توضع في أعلى السوارى مفتوحة من أعلاها يسمونها « التوابيت » يصعد اليها الرجال قبل الاقتراب عن سفن الاعداء ، ومعهم أحجار صغيرة ، أو قوارير النفط أو غيرها من المواد الحارقة أو الخارقة لرمي الاعداء بها • كذلك كان في السفينة اللحام ، وهي أداة كالفأس توضع في مقدم السفينة وتتكون من حديدة طويلة كسنان الرمح ، تستخدم لطعن الاعداء وثقبها واذا دنا المسلمون من مراكب العدو القوا عليها الكلاليب لسحبها وشدّها ثم يرمون عليها ألواحا كالجسور ويعبرون اليها ويقاتلون أصحابها[1] •

مما سبق يتبين انه اجتمع لصلاح الدين اسطول بحري ثابت وقوي لا ينقصه شيء من أسلحة القتال ثقيلة وخفيفة ، ولا ينقص قواده المعرفة بأحوال البحر ، وتسيير السفن ، وقيادة المعارك ، والحنكة والدهاء • وان صلاح الدين كان شديد الاعتناء بالاسطول ، كثير انفاق الاموال عليه • وانه اعتمد عليه في ردّ نائبات الزمان وحصار المدن الساحلية وقلاعها • فقد حاصر به عكا وفتحها ، كما استفاد منه في محاصرة الصليبيين الذين حاصروا عكا ، وفي حصار مدينة صور • وكانت له قواعد بحرية في مصر وبيروت ، يستدعي منها السفن الحربية عند الحاجة •

---

(١) ماهر ، البحرية في مصر : ٢٠٣-٢٠٤ ؛ انظر : الصالح ، النظم الاسلامية (بيروت : ١٩٦٥) : ٥١٣ •

قائمة المصادر حسب تاريخ الوفاة

١ ـ القرآن الكريم .

الخوارزمي ، محمد بن أحمد بن يوسف ـ ت : ٣٨٧هـ[1] .

٢ ـ مفاتيح العلوم ، تصحيح ونشر ادارة الطباعة المنيرية ، (القاهرة : ١٣٤٢هـ) .

ابن حوقل ، أبو القاسم محمد بن علي النصراوي ـ من أعيان القرن الرابع الهجري .

٣ ـ صورة الارض (ليدن : ١٩٣٨م) .

مسكويه ، علي أحمد بن محمد ـ ت : ٤٢١هـ .

٤ ـ تجارب الامم وتعاقب الهمم (القاهرة : ١٢٣٤م) .

الكرماني ، أحمد حميدالدين (من مؤرخي ق ٥هـ) .

٥ ـ راحة العقل ، تحقيق مصطفى غالب (بيروت ١٩٦٧م) .

الغزالي ، أبو حامد ـ ت : ٥٠٥هـ .

٦ ـ فضائح الباطنية (القاهرة ، د : ت) .

الشهرستاني ، أبو الفتح محمد بن عبدالكريم ـ ت : ٥٤٨هـ .

٧ ـ الملل والنحل (القاهرة : ١٣٢٠هـ) .

ابن القلانسي ، أبو يعلى حمزة ـ ت : ٥٥٥هـ .

٨ ـ ذيل تاريخ دمشق ، تحقيق آمدروز (القاهرة : ١٩٠٨) .

عمارة اليمني ، نجمالدين أبو محمد ـ ت : ٥٦٩هـ .

---

(١) وقيل متوفى سنة ٣٨٠هـ انظر : (رضا كحالة ، معجم المؤلفين (دمشق : ١٩٦٠) : ٢٩/٩ ، وقيل متوفى سنة ٣٨٣هـ انظر : السامر ، الدولة الحمدانية : ٣٨٤/١ .

٩ ـ كتاب النكت العصرية في أخبار الوزارة المصرية ، تصحيح هرتويغ درنبرغ (شالون : ١٨٩٧) •
بنيامين ، الربي بن يونه التطليلي ـ ت ٥٦٩هـ •

١٠ ـ رحلة بنيامين ، ترجمه عن العبرية عزرا حداد (بغداد : ١٩٤٥) •
ابن الدهان الموصلي ، عبدالله بن أسعد ـ ت : ٥٨١هـ •

١١ ـ ديوان ابن الدهان ، تحقيق عبدالله الجبوري (بغداد : ١٩٦٨) •
ابن منقذ ، اسامة بن مرشد الشيزري ـ ت : ٥٨٤هـ •

١٢ ـ كتاب الاعتبار ، حرره فيليب حتي (برنستون : ١٩٣٠) •
برهان‌الدين ، أبو الحسن عبدالجليل ـ ت : ٥٩٣هـ •

١٣ ـ الهداية (القاهرة ، د : ت) •
الاصفهاني ، عمادالدين ابن عبدالله محمد بن محمد ـ ت : ٥٩٧هـ

١٤ ـ أ ـ خريدة القصر وجريدة العصر ، القسم الاول ، ج ٣ الخاص بالبلاد الشامية والفراتية ، تحقيق د• شكري فيصل (دمشق : ١٩٦٨) •

١٥ ـ ب ـ خريدة القصر وجريدة العصر ، القسم الثالث ، الجزء الثالث الخاص بشعراء الشام ، تحقيق د• شكري فيصل (دمشق : ١٩٥٥) •

١٦ ـ جـ ـ كتاب الفتح القسي في الفتح القدسي (ليدن : ١٨٨٧) •
ابن الجوزي ، أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد ـ ت : ٥٩٧هـ •

١٧ ـ المنتظم في تاريخ الملوك والامم (حيدرآباد الدكن : ١٣٥٨هـ) •
ابن الساعاتي ، بهاءالدين أبو الحسن الخراساني ـ ت : ٦٠٤هـ •

١٨ ـ ديوان ابن الساعاتي ، تحقيق د. انيس المقدسي (بيروت : ١٩٣٨) .

ابن مماني ، الاسعد شرف‌الدين ـ ت : ٦٠٦هـ .

١٩ ـ كتاب قوانين الدواوين ، تحقيق عزيز سوريال عطية (القاهرة ١٩٤٣) .

ابن سناء الملك ، القاضي السعيد عزالدين أبي القلم ـ ت : ٦٠٨هـ .

٢٠ ـ ديوان ابن سناء الملك ، تصحيح وتعليق د. محمد عبدالحق (الهند : ١٩٥٨) .

ابن جبير ، أبو الحسن محمد بن أحمد الكناني ـ ت : ٦١٤هـ .

٢١ ـ رحلة ابن جبير (ليدن : ١٩٠٧ وبيروت : ١٩٦٤) .

ابن شاهنشاه ، الملك المنصور محمد بن عمر الايوبي ـ ت : ٦١٧هـ .

٢٢ ـ مضمار الحقائق وسر الخلائق ، تحقيق د. حسن حبشي (القاهرة : ١٩٦٨) .

ابن الاثير ، عزالدين أبي الحسن علي بن محمد الشيباني ـ ت : ٦٣٠هـ .

٢٣ ـ الكامل في التاريخ ، م ١١ ـ ١٢ (بيروت : ١٩٦٦) .

٢٤ ـ ـــــ ، التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية ، تحقيق : عبدالقادر أحمد طليمات (القاهرة : ١٩٦٣) .

ابن شداد ، بهاءالدين يوسف بن رافع ـ ت : ٦٣٢هـ .

٢٥ ـ النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين) تحقيق د. جمال الدين الشيال (القاهرة : ١٩٦٤) .

البنداري ، قوام الدين أبو الفتح علي بن محمد ـ ت : ٦٤٣هـ .

٢٦ ـ أ ـ تاريخ دولة آل سلجوق وهو مختصر لكتاب « تواريخ آل سلجوق » للعماد الاصفهاني (القاهرة : ١٣١٨هـ) .

٢٧ ـ ب ـ سنا البرق الشامي وهو مختصر لكتاب « البرق الشامي » للعماد الاصفهاني تحقيق د. رمضان ششن (بيروت : ١٩٧١) .

سبط ابن الجوزي ، شمس الدين بن المظفر يوسف ـ ت : ٦٥٤هـ .

٢٨ ـ مرآة الزمان في تاريخ الاعيان ، ق ١ ، ج ٨ (حيدرآباد الدكن : ١٩٥١) .

ابن أبي الاصبع ، أبو محمد زكي الدين ابن محمد المصري ـ ت : ٦٥٤ .

٢٩ ـ تحرير التحبير ، تحقيق د. حفني محمد شرف (القاهرة : ١٣٨٣هـ) .

ابن الابار ، محمد بن عبدالله أبي بكر القضاعي ـ ت : ٦٥٨هـ .

٣٠ ـ اعتبار الكتاب ، تحقيق صالح الاشتر (دمشق : ١٩٦١) .

ابن العديم ، كمال الدين أبو القاسم ـ عمر ـ ت : ٦٦٠هـ .

٣١ ـ زبدة الحلب في تاريخ حلب ، تحقيق سامي الدهان (بيروت : ١٩٦٨) .

أبو شامة ، شهاب الدين أبو محمد بن عبدالرحمن ـ ت : ٦٦٥هـ .

٣٢ ـ الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية (القاهرة : ١٢٨٧ – ١٢٨٨هـ)[1] •

ابن ميسر ، محمد بن علي بن يوسف ـ ت : ٦٧٧هـ •

٣٣ ـ أخبار مصر ، تحقيق هنري ماسيه (القاهرة : ١٩١٩) •

ابن خلكان ، شمس‌الدين أحمد بن محمد ـ ت : ٦٨١هـ •

٣٤ ـ وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان ، تحقيق محمد محي‌الدين عبدالحميد (القاهرة : ١٩٤٩) •

ابن شداد ، عزالدين أبو عبدالله محمد بن علي ـ ت : ٦٨٤هـ •

٣٥ ـ أ ـ الاعلاق الخطيرة بذكر امراء الشام والجزيرة ، قسم لبنان والاردن وفلسطين ق ٢ ، ج ٢ ، تحقيق سامي الدهان (دمشق : ١٩٦٢) •

٣٦ ـ ب ـ الاعلاق الخطيرة بذكر امراء الشام والجزيرة ، قسم مدينة دمشق ، ق ١ ، ج ٢ ، تحقيق سامي الدهان (دمشق : ١٩٥٦) •

ابن سعيد ، أبو الحسن الاندلسي ـ ت : ٦٨٥هـ •

٣٧ ـ الغصون اليانعة ، تحقيق ابراهيم الابياري (القاهرة : ١٩٤٥) •

ابن واصل ، جمال‌الدين محمد بن سالم ـ ت : ٦٩٧هـ •

٣٨ ـ مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، تحقيق جمال‌الدين الشيال (القاهرة ١٩٥٧) •

ابن الكازروني ، علي بن محمد البغدادي ـ ت : ٦٩٧هـ •

---

(١) كذا ورد العنوان على صفحة العنوان في الكتاب المطبوع • والصحيح ما ورد في داخل الكتاب وهو : « كتاب الروضتين ••• الخ » •

٣٩ ـ مختصـر التاريخ من أول الزمان الى منتهى دولة بني العبـاس ، تحقيق د. مصطفى جواد (بغداد ١٩٧٠) .
ابن منظور ، أبو الفضل جمال‌الدين محمد ـ ت : ٧١١هـ .
٤٠ ـ لسان العرب (بيروت : ١٩٥٨م) .
سنبط قنيتو ، عبدالرحمن بن ابراهيم الاربلي ـ ت : ٧١٧هـ .
٤١ ـ خلاصة الذهب المسبوك ، تصحيح مكي السيد جاسم (بغداد : د : ت) .
أبو الفدا ، عمادالدين اسماعيل بن نورالدين ـ ت : ٧٣٢هـ .
٤٢ ـ المختصر في أخبار البشر (بيروت د : ت) .
الدواداري ، أبي بكر بن عبدالله بن أيبك ـ ت : حوالي سنة ٧٣٥هـ .
٤٣ ـ كنز الدرر وجامع الغرر ، تحقيق : سـعيد عبدالفتاح عاشـور (القاهرة : ١٩٧٢م) .
ابن عبدالحق ، صفي‌الدين عبدالمؤمن ـ ت : ٧٣٩هـ .
٤٤ ـ مراصد الاطلاع على أسماء الامكنة والبقاع ، تحقيق : علي محمد البجاوي (القاهرة ١٩٥٤م) .
اليماني ، تاج‌الدين عبدالباقي عبدالمجيد ـ ت : ٧٤٣هـ .
٤٥ ـ تاريخ اليمـن المسمى بهجـة الزمن من تاريخ اليمن ، تحقيق : مصطفى حجازي (اليمن : ١٩٦٥) .
العلوي ، يحيى بن حمزة ـ ت : ٧٤٥هـ .
٤٦ ـ الافحام لافئدة الباطنية الطغام ، تحقيق فيصل بديزعون (شركة الاسكندرية للطباعة ، د : ت) .

ابن الوردي ، أبو حفص زين‌الدين عمر ـ ت : ٧٤٩هـ .

٤٧ ـ تاريخ ابن الوردي (النجف : ١٩٦٩م) .

اليافعي ، أبو محمد عبدالله بن اسعد ـ ت : ٧٦٨هـ .

٤٨ ـ مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان (حيدر آباد الدكن : ١٩٧٠) .

ابن كثير ، عمادالدين ابن أبي الفداء اسماعيل ـ ت : ٧٧٤هـ .

٤٩ ـ أ ـ البداية والنهاية (القاهرة ١٩٣٢م) .

٥٠ ـ ب ـ تفسير القرآن العظيم (القاهرة : ١٩٣٧) .

ابن قاضي شهبة ، بدرالدين ـ ت : ٧٧٤هـ .

٥١ ـ الكواكب الدرية في السيرة النورية ، تحقيق ـ د. محمود زاير (بيروت : ١٩١٨) .

ابن أيوب ، تاج‌الدين شاهنشاه ـ ت : ق ٦هـ .

٥٢ ـ منتخبات من كتاب التاريخ لصاحب حماة ، مطبوع في ذيل كتاب سيرة صلاح‌الدين لابن شداد (القاهرة : ١٣١٧هـ) .

الغساني ، أبو العباس اسماعيل بن العباس ـ ت : ٨٠٣هـ .

٥٣ ـ العسجد المسبوك والجوهر المحبوك في طبقات الخلفاء والملوك ، تحقيق : شاكر محمود عبدالمنعم (بغداد : ١٩٧٠) .

ابن الفرات ، ناصرالدين محمد بن عبدالرحيم ـ ت : ٨٠٧هـ .

٥٤ ـ تاريخ ابن الفرات ، تحقيق : حسن محمد الشماع (بصرة ١٩٦٧م) .

ابن خلدون ، عبدالرحمن ـ ت : ٨٠٨هـ .

٥٥ ـ أ ـ تاريخ ابن خلدون المسمى (العبر وديوان المبتدأ والخبر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر (بيروت : ١٩٦١م)٠

٥٦ ـ ب ـ المقدمة (القاهرة طبعة مصطفى محمد) (د : ت) و (طبعة بيروت ١٩٧١) ٠

القلقشندي ، أبو العباس أحمد بن علي ـ ت : ٨٢١هـ ٠

٥٧ ـ أ ـ صبح الاعشى في صناعة الانشا (القاهرة : ١٩٦٣) ٠

٥٨ ـ ب ـ ضوء الصبح المسفر وجنى الدوح المثمر ، عنى بطبعه وتصحيحه : محمود سلامة (القاهرة ١٣٢٤هـ : ١٩٠٦م) ٠

٥٩ ـ ج ـ مآثر الانافة في معالم الخلافة ، تحقيق عبدالستار أحمد فراج (كويت : ١٩٦٤م) ٠

٦٠ ـ المقريزي ، تقي‌الدين أحمد بن علي ـ ت : ٨٤٥هـ ٠

٦٠ ـ ـــ ، أ ـ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار (القاهرة ١٣٢٤هـ/١٩١١م) ٠

٦١ ـ ـــ ، ب ـ السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق محمد مصطفى زيادة (القاهرة : ١٩٣٩م) ٠

٦٢ ـ ـــ ، ج ـ البيان والاعراب عما بأرض مصر من الاعراب مع دراسات في تاريخ العروبة في وادي النيل ، تحقيق وتأليف عبدالمجيد عابدين (القاهرة ١٩٦١) ٠

الظاهري ، غرس‌الدين خليل بن شاهين ـ ت : ٨٧٣هـ ٠

٦٣ ـ كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك (باريس : ١٨٩٣م) ٠

ابن تغري بردى ، جمال الدين أبو المحاسن يوسف ـ ت : ٨٧٤هـ .

٦٤ ـ النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة (القاهرة : ١٩٣٥م) . (١٣٥٣هـ) .

السخاوي ، شمس الدين ـ ت : ٩٠٢هـ .

٦٥ ـ التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة (القاهرة ١٩٥٧) .

السيوطي ، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر ـ ت : ٩١١هـ .

٦٦ ـ ـــــ ، أ ـ حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة (القاهرة ١٣٢١هـ) .

٦٧ ـ ـــــ ، ب ـ تاريخ الخلفاء امراء المؤمنين (القاهرة ١٣٥١هـ) .

ابن الشحنة ، أبو الوليد محمد الجلبي ـ ت : ٩٢١هـ .

٦٨ ـ روضة المناظر في أخبار الاوائل والاواخر مذكور بهامش الكامل في التاريخ لابن الاثير (القاهرة : ١٢٩٠هـ) .

٨٨ ـ العليمي ، عبدالرحمن الجبري العمري ـ ت : ٩٢٧هـ .

٦٩ ـ الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل (النجف ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م) .

ابن أياس ، محمد بن أحمد ـ ت : ٩٣٠هـ .

٧٠ ـ بدائع الزهور في وقائع الدهور (القاهرة : ١٣١١هـ) .

الديار بكرى ، حسين بن محمد بن الحسن ـ ت ٩٦٦هـ .

٧١ ـ تاريخ الخميس في أحوال انفس نفيس (القاهرة : ١٢٨٣هـ) .

ابن ظهيرة ، جارالله جمال الدين محمد ـ ت : ٩٨٦هـ .

٧٢ ـ الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة ، تحقيق مصطفى السقا (القاهرة : ١٩٦٩) .

ابن يحيى ، صالح ـ من مؤرخي القرن ٩هـ .

٧٣ ـ تاريخ بيروت وأخبار الامراء البحتريين من بني العرب ، نشره وعلق عليه لويس شيخو اليسوعي (بيروت : ١٨٩٨م) .

ابن العماد ، عبدالحي الحنبلي ـ ت : ١٠٨٩هـ .

٧٤ ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب (بيروت د : ت) .

(و ط. مكتبة القدس : ١٣٥٠هـ) .

ابن الحسين ، يحيى بن القاسم بن علي ـ ت : ١١٠٠هـ .

٧٥ ـ غاية الاماني في أخبار القطر اليماني ، تحقيق ـ سعيد عبدالفتاح عاشور (القاهرة : ١٩٦٨) .

العصامي المكي ، عبدالملك بن الحسين ـ ت : ١١١١هـ .

٧٦ ـ سمط النجوم العوالي في أبناء الاوائل والتوالي (القاهرة د : ت) .

الجبرتي ، عبدالرحمن بن الحسن ـ ت : ١٢٤١هـ .

٧٧ ـ مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس ، تحقيق حسن محمد جوهر وزميله (مطبعة الرسالة : ١٩٦٩) .

الدهلوي ، الشيخ أحمد عبدالرحيم ـ من أعيان القرن ١٢هـ .

٧٨ ـ حجة الله البالغة ، تحقيق السيد سابق (مطبعة الاستقلال الكبرى بالقاهرة ، د : ت) .

القنوجي ، أبو الطيب صديق بن حسن ـ ت : ١٣٠٧هـ .

٧٩ ـ التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الاخر والاول ، تصحيح وتعليق عبدالحكيم شرف الدين (القاهرة ١٩٦٣م) .

٨٠ ـ مجهول المؤلف ، ذكر الدولة الايوبية وغيرها ، مخطوط بمكتبة الاوقاف العامة بالموصل ٦/٢١ زيواني) •

برهان الدين ، الشيخ

٨١ ـ منتخب في فضائل بيت المقدس ، مخطوط بمكتبة المتحف في بغداد رقم (١٠٢٣) •

المراجع الحديثة

أبو حديد ، محمد فريد •

٨٢ ـ صلاح الدين الايوبي وعصره (القاهرة : ١٩٢٧م) •

أبو زهرة ، محمد •

٨٣ ـ الشافعي ، حياته وعصره وآرائه وفقهه (القاهرة : ١٩٤٨م) •

ارنولد ، سير توماس

٨٤ ـ الدعوة الى الاسلام ، ترجمة : حسن ابراهيم حسن (القاهرة : ١٩٥٧م) •

أمين ، أحمد

٨٥ ـ يوم الاسلام (القاهرة : ١٩٥٨م) •

أمين ، حسين

٨٦ ـ تاريخ العراق في العصر السلجوقي (بغداد : ١٩٦٥م) •

باركر ، ارنست

٨٧ ـ الحروب الصليبية ، ترجمة السيد الباز العريني (بيروت ، د : ت) •

بدوي ، أحمد

٨٨ ـ أ ـ الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام (القاهرة ، د : ت) •

٨٩ ـ ب ـ الحياة الادبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام (القاهرة ، د : ث) •

٩٠ ـ ج ـ صلاح الدين الايوبي بين شعراء عصره وكتابه (القاهرة : ١٩٦٠ م) •

بروكلمان ، كارل

٩١ ـ تاريخ الشعوب الاسلامية ، ترجمة نبيه امين فارس ومنير البعلبكي (بيروت ، ١٩٦٥) •

بولارد ، سر ريدر

٩٢ ـ بريطانيا والشرق الاوسط منذ اقدم العصور حتى سنة ١٩٥٢ ، ترجمة : حسن احمد السلمان (بغداد : ١٩٥٧م) •

بيومي ، علي

٩٣ ـ قيام الدولة الايوبية في مصر (القاهرة ١٩٥٤ م) •

توفيق ، عمر كمال

٩٤ ـ تاريخ الامبراطورية البيزنطية (القاهرة : ١٩٧٠م) •

جب ، هاملتون آ• ر

٩٥ ـ صلاح الدين الايوبي ، تحرير يوسف أيبش (بيروت : ١٩٧٣م)•

جوزي ، بندلي

٩٦ ـ من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام (الاندلس : ١٩٢٨ م)•

حاطوم ، نورالدين

٩٧ ـ تاريخ العصر الوسيط في اوربا (دمشق ١٩٦٧ م) .
حبشـــي ، حسن
٩٨ ـ نورالدين والصليبيون (القاهرة : ١٩٤٨م) .
حتـــي ، فيليب
٩٩ ـ لبنان في التاريخ ، ترجمة : انيس فريحة (بيروت : ١٩٥٩م) .
حمـــدي ، حافظ احمـد
١٠٠ ـ الشرق الاسلامي قبل الغزو المغولي (القاهرة ١٩٥٠م) .
الحريـــري ، سـيد علي
١٠١ ـ الاخبار السنية في الحروب الصليبية (مصر ١٨٩٩م) .
حسن ، حسن ابراهيم وعلي ابراهيم حسن
١٠٢ ـ أ ـ الفاطميون في مصر (القاهرة ، ١٩٤٢م) .
١٠٣ ـ ب ـ النظم الاسلامية (القاهرة ، ١٩٧٠م) .
حســـن ، علي ابراهيـم
١٠٤ ـ التاريخ الاسلامي العام (القاهرة ، ١٩٥٩) .
حسين ، محمد عواد ورفاقه
١٠٥ ـ تاريخ مدينة الاسكندرية وحضارتها منذ اقدم العصور (القاهرة ، ١٩٦٣) .
حسين ، محمد كامل
١٠٦ ـ أ ـ دراسات في الشعر في العصر الايوبي (القاهرة ، د : ت) .
١٠٧ ـ ب ـ طائفة الاسماعيلية ، تاريخها ، تنظيمها ، عقائدها (القاهرة ، ١٩٥٩) .

١٠٨ ـ ج ـ في ادب مصر الفاطمية (القاهرة ، ١٩٦٣) ٠
الحسيني ، المنوفي
١٠٩ ـ جمهرة الاولياء (القاهرة ، ١٩٦٧) ٠
حمزة ، عبداللطيف
١١٠ ـ أ ـ ادب الحروب الصليبية (القاهرة ، د : ت) ٠
١١١ ـ ب ـ الحركة الفكرية في مصر في العصرين الايوبي والمملوكي الاول (القاهرة ، ١٩٦٨) ٠
خليل ، عمادالدين
١١٢ ـ امارة بني ارتق ، وهي رسالة معدة لنيل درجة الدكتوراه ، اشراف الدكتور حسن حبشي (القارهرة ، ١٩٦٨) ٠
١١٣ ـ دائرة المعارف الاسلامية ، نقلها للعربية احمد الشنتناوي ورفاقه (القاهرة ، ١٩٣٣) ٠
الدويهي ، البطريك اسطفانوس
١١٤ ـ تاريخ الازمنة ١٠٩٥ هـ ـ ١٦٩٩ م نشره على اصوله وعلق عليه الاب فرديناند توتل اليسوعي ، مجلة المشرق (بيروت ، ١٩٥١)٠
الديلمي ، محمد
١١٥ ـ بيان مذهب الباطنية وبطلانه (استانبول ، ١٩٣٨) ٠
ديورانت ، و ٠ ل
١١٦ ـ قصة الحضارة ، ترجمة : زكي محمد نجيب (القاهرة ، ١٩٦٥)٠
الديوهجي ، سعيد
١١٧ ـ الموصل في العهد الاتابكي (بغداد ، ١٩٥٨) ٠
رانسيمان ، ستيفن

١١٨ ـ المدينة البيزنطية ـ الحروب الصليبية ـ ترجمة : د • صالح احمد العلــي (بغداد ، ١٩٥٦) •
ربيـــع ، حسنين محمد
١١٩ ـ النظم المالية في مصر زمن الايوبيين (القاهرة : ١٩٦٤) •
رستم ، أسد
١٢٠ ـ الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب (القاهرة ، ١٩٦٥) •
رضا يحالــة ، عمــر
١٢١ ـ معجم المؤلفين (دمشق ، ١٩٦٠) •
الريس ، محمد ضياءالدين
١٢٢ ـ الخراج والنظم المالية للدولة الاسلامية (القاهرة ، ١٩٦٩) •
رينتز ، جورج وغيره من المستشرقين
١٢٣ ـ دراسات اسلامية ، ترجم باشراف د • نيقولا زيـادة (بيروت ، ١٩٦٠) •
الزركلي ، خيرالدين
١٢٤ ـ الاعــلام (مطبعة كوستاتسوماس ١٩٥٦ م) •
زيـــادة ، محمد مصطفى
١٢٥ ـ حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في المنصورة (القاهــرة ، ١٩٦١ م) •
زيـــادة ، نقــولا
١٢٦ ـ الجغرافية والرحلات عند العرب (بيروت ، ١٩٦٢ م) •
زامبـــاور ، ادواردفــون

١٢٧ ـ مجم الأنساب والاسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي ، ج ١ـ٢
اخرجه الدكتور زكي محمد حسن وحسن احمد محمود
(القاهرة : ١٩٥١) ٠
زيدان ، جرجي

١٢٨ ـ تاريخ التمدن الاسلامي (القاهرة ، ١٩٠٤م) ٠
سالم ، د٠ عبدالعزيز

١٢٩ ـ تاريخ مدينة الاسكندرية وحضارتها في العصر الاسلامي (القاهرة، ١٩٦١م) ٠
سالم ، د٠ عبدالعزيز

١٣٠ ـ دراسة في تاريخ مدينة صيدا في العصر في العصر الاسلامي (بيروت ، ١٩٧٠) ٠
السامر ، فيصل

١٣١ ـ الدولة الحمدانية في الموصل وحلب ج ١ـ٢ (بغداد ، ١٩٧٣م) ٠
سرور ، محمد جمال‌الدين

١٣٢ـ مصر في عصر الدولة الفاطمية (القاهرة ، ١٩٦٠) ٠
سعداوي ، نظير حسان

١٣٣ ـ التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح‌الدين (القاهرة ، ١٩٥٧)٠
سلام ، محمد زغلول

١٣٤ ـ الادب في عصر صلاح‌الدين (القاهرة ، ١٩٥٩) ٠
شرف ، طه أحمد

١٣٥ ـ دولة النزارية (القاهرة ، ١٩٥٠) ٠
شريف ، محمد بديع

١٣٦ ـ مدخل لدراسة مطامع اليهود في فلسطين قديما وحديثا (القاهرة ، ١٩٧٣) •

الشيال ، جمال الدين

١٣٧ ـ تاريخ مصر الاسلامية (العصر الايوبي) (القاهرة ، ١٩٦٧) •

١٣٨ ـ ابن التاريخ مقالة من « اثر العرب والاسلام في النهضة الاوربية » الهيئـة المصرية العامة للتأليف والنشر (القاهرة ، ١٩٧٠) •

طبارة ، عفيف عبدالفتاح

١٣٩ ـ روح الدين الاسلامي (بيروت ، د : ت) •

طرخان ، ابراهيم علي

١٤٠ ـ النظم الاقطاعية في الشرق الاوسط في العصور الوسطى (القاهرة، ١٩٦٨) •

طه ، أبو بكر جلال

١٤١ ـ صلاح الدين الايوبي اسد القارتين (بغداد ، ١٩٦٧) •

العابدي محمود

مأساة بيت المقدس (عمان ، ١٩٦٩) •

عاشور ، سعيد عبدالفتاح

١٤٣ ـ أ ـ الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العـــربي في العصور الوسطى (القاهرة ، ١٩٦٣) •

١٤٤ ـ ب ـ اوربا العصور الوسطى ، التاريخي السياسي (القاهـــرة ، ١٩٦١) •

١٤٥ ـ ج ـ قبرص والحروب الصليبية (القاهرة ، ١٩٥٧) •

١٤٦ ـ د ـ الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب سلسلة أعلام العرب (٤١) (القاهرة ١٩٦٥) •

عبدالباقي ، محمد فؤاد

١٤٧ ـ المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم (القاهرة : ١٣٦٤ هـ) •

عبدالعزيز ، سيد الاهل

١٤٩ ـ أيـام صلاح الدين (القاهرة ، ١٩٦٤) •

عثمان ، فتحي

١٤٩ ـ الحدود الاسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربـي والاتصـال الحضاري الكتاب الاول (القاهرة ، د : ت) •

العريني ، السيد الباز

١٥٠ ـ أ ـ الشرق الادنى في العصور الوسطى، القسم الاول (الايوميين) (بيروت ١٩٦٧) •

١٥١ ـ ب ـ المماليك (بيروت ١٩٦٧) •

١٥٢ ـ جـ ـ مصر في عصر الايوبيين (سلسلة الالف كتاب عدد ٢٦٩) القاهرة لم يذكر السنة •

١٥٣ ـ العقيقـــي ، نجيب

المستشرقون (القاهرة ، ١٩٦٤) •

علام ، نعمت اسماعيل

١٥٤ ـ فنون الشرق الاوسط في العصور الاسلامية (القاهرة ، ١٩٧٤) •

علي ، سيد أمير

١٥٥ ـ مختصر تاريخ العرب ، ترجـمة : عفيف البعلبكي (بيروت ، ١٩٦٧) •

عليان ، محمد عبدالفتاح

١٥٦ ـ قرامطة العراق (القاهرة ، ١٩٧٠) ٠

العمري ، عبدالله ورفقاؤه

١٥٧ ـ الجيش العربي في صدرالدولة العباسية (بغداد : ١٩٦٣) ٠

غالب ، مصطفى

١٥٨ ـ تاريخ الدعوة الاسماعيلية (دمشق ، ١٩٥٣م) ٠

١٥٩ ـ اعـلام الاسماعيلية (بيروت ، ١٩٦٤) ٠

الغزي ، كامل بن حسين بن محمد البالي

١٦٠ ـ نهر الذهب في تاريخ حلب (حلب ، ١٩٢٦ م) ٠

غرايبة ، عبدالكريم

١٦١ ـ العرب والاتراك ، دراسة لتطور العلاقات بين الامتين خلال الف سـنة (دمشق : ١٩٦١ م) ٠

فروخ ، عمر

١٦٢ ـ تاريخ الفكر العربي الى ايام ابن خلدون (بيروت ، ١٩٧٢)٠

فشر ، هـ٠ أ٠ ل

١٦٣ ـ تاريخ اوربا (العصور لاوسطى) ، القسم الاول ، ترجمة : محمد مصطفى زيادة وزميله (القاهرة : ١٩٦٦) ٠

القزاز ، محمد صالح داؤد

١٦٤ ـ الحياة السياسية في العصر العباسي الاخير (النجف ، ١٩٧١) ٠

كلاري ، روبرت

١٦٥ ـ فتح القسطنطينية على يد الصليبية ، ترجمها عن الفرنسية وقـدم لها الدكتور حسن حبشي (القاهرة ، ١٩٦٤) ٠

كويلرينج ، ت٠ وزملائه

١٦٦ ـ الشرق الأدنى مجتمعه وثقافته ، ترجمة الدكتور عبدالرحمن محمد ايوب (القاهرة د : ت) •

لامب ، هارولد

١٦٧ ـ شعلة الاسلام ، ترجمة : محمود عبدالله (بغداد ، ١٩٦٧) •

١٦٨ ـ لين بول ، استانلي طبقات سلاطين الاسلام ، ترجمه من الفارسية مكي طاهر الكعبي (بغداد : ١٩٦٨) •

لانجر ، وليم

١٦٩ ـ موسوعة تاريخ الاسلام ، اشرف على ترجمتها : محمد مصطفى زيادة (القاهرة ١٩٥٩) •

لويس ، برنارد

١٧٠ ـ أ ـ اصول الاسماعيلية ، نقله الى العربية (خليل احمد جلو ورفيقه ، القاهرة ٢ : ت) •

١٧١ ـ ب ـ الدعوة الاسماعيلية الجديدة (الحشيشية) ، نقله الى العربية د • شهيل زكار (بيروت ، ١٩٧١) •

١٧٢ ـ جـ ـ الغرب والشرق الاوسط تعريب نبيل صبحي (لاغوس ، ١٩٦٥) •

ماجد ، عبدالمنعم

١٧٣ ـ أ ـ تاريخ الحضارة الاسلامية في العصور الوسطى (القاهرة ، ١٩٦٣) •

١٧٤ ـ ب ـ ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر (الاسكندرية ، ١٩٦٨) •

١٧٥ ـ جـ ـ نظم الفاطميين ورسومهم في مصر (القاهرة ١٩٥٣-١٩٥٥) •
ماهر ، سعاد
١٧٦ ـ البحرية في مصر الاسلامية وآثارها الباقية (القاهرة ، د : ت) •
مبارك ، علي
١٧٧ ـ الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة (القاهرة ، ١٩٦٩) •
١٧٨ ـ مجاني الادب جمع ونشر لويس شيخو (بيروت ، ١٩٢٣) •
١٧٩ ـ مجلة العلوم ، العدد (٨) ، السنة (١٢) نبذة حول الحركة الاسماعيلية (بيروت ، ١٩٦٧) •
١٨٠ ـ مجموعة الوثائق الفاطمية ، المجلد الاول ، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال (القاهرة ١٩٥٨) •
محمود ، حسن سلمان
١٨١ ـ تاريخ اليمن السياسي في العصر الاسلامي (بغداد ، ١٩٦٩) •
سعد ، مصطفى محمد
١٨٢ ـ الاسلام والنوبة في العصور الوسطى (القاهرة ، ١٩٦٠) •
١٨٣ ـ المشرق ، مجلة كاثوليكية ، السنة (٤٣) الجزء (٢) (بيروت ، ١٩٤٩) •
المطوى محمد العروسي
١٨٤ ـ الحروب الصليبية في المشرق والمغرب (تونس ، ١٩٥٤) •
المصري ، حسين مجيد
١٨٥ ـ عمارة اليمني (القاهرة ١٩٦١) •
مؤنس ، حسين
١٨٦ ـ صلات بين العرب والفرس والترك (القاهرة ، ١٩٧١) •
المناوي ، محمد حمدي

١٨٧ ـ (الوزارة في العصر الفاطمي) (القاهرة ، ١٩٧٠) •
مؤنس ، حسين

١٨٨ ـ نورالدين محمود (القاهرة ، ١٩٥٩) •
النجار ، أحمد

١٨٩ ـ الانتاج الادبي في مدينة الاسكندرية في العصرين الفاطمي والايوبي (القاهرة ، ١٩٦٤) •
النشار ، علي سامي

١٩٠ ـ نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام (القاهرة ، ١٩٦٥) •
هامرتن ، السير جون • أ

١٩١ ـ تاريخ العالم ، نشره بالانكليزية السير هامرتن واشرف على ترجمته ادارة الثقافة بوزارة التربية والتعليم (القاهرة ، د : ت) •
يوسف ، جوزيف نسيم

١٩٢ ـ العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الاولى (القاهرة ، ١٩٦٧) •

المصادر الاجنبية

193 — Archer (T.), Kingsford (c.):
The Crusades, London, 1894.

194 — Atiya (Aziz S.):
Crusade, Commerce and Culture, London, 1962.

195 — Besent (W.) and Palmer (E.H.):
Jerusalem, The City of Herod and Saladin, London, 1899.

196 — Browne (Edward G.):
A literary history of Persia Vol. II, Cambridge, 1951.

197 — Bulletin of the School of Oriental and African Studies University of London, Vol. XV (Part: 2,3), London, 1953.

وفي القسم الثاني مقال للمستشرق برنارد لويس بعنوان :

198 — Saladin and the Assassins.

وفي القسم الثالث مقال طويل باللغة العربية عن تاريخ مدينة صفد مختارة من قبل المستشرق برنارد لويس أيضا .

199 — Cahen (Claude):
La syrie du nord al'epoque des croisadeset la principaute franque dantioche, paris, 1940.

200 — Champdor (Albert):
Saladin le plus purheros de I'islam, Editions Albin Micher, Paris, 1956.

201 — Daniel (Norman):
MIslam on the West the Making of an Image, Edinburgh, 1966.

202 — Dictionnaire du Francais Contemparain
Jean du Bois etdtsqutres Anteurs Paris, 1966.

203 — Dozy (R.):
Supplement Aux Dictionnaires Arabs, II. Paris: 1967.

204 — Eliseeff (Nikita):
Nur Ad-Din 1118-1174, Tome III Damas, 1967.

205 — Enciyclopedia de L'Islam: (Art. Hashishiyya) Vol. III, Paris, 1971.

206 — Encyclopaedia of Islam
Vol, I, (Art: Al-Bathaniyya) London, 1960.

207 — Encyclopaedia Britanica (Art: Assassin), Vol. II U.S.A, 1965.

208 — Encyclopaedia of Arabic Civilization:
The Arab East, London, 1966.

209 — Grousset (Rene):
Histoire des Croisdeset du royaume frame dejerusalem, Tome II, Paris, 1935.

210 — Hodgson (Marshall G.S.):
The Oorder of Assassins the struggle of the early Nizari Ismae-lis Aganist Islamic world, London, 1955.

211 — Journal Asiatique:
Peridique Trimestriel, Pubble Parla Societe M'Asiatique, Fascicule n. 2 and Vol. IX, 1877:

212 — King (E.J):
The Knights Hospitallers in the Holy land, London, 1931.

213 — Kritzeek (James):
Anthology of Islam literature, London, 1964.

214 — Lane Pool (S.):
A History of Egypt in the middle ages London, 1968.

215 — B. Saldin and the fall of the kingdom of Jerusalem, London, 1898.

216 — Laransse Universel, Vol. 2 (Art. Craisades) Paris, 1922.

217 — Lewis (Bernard):
The Assassins, A Radical Section Islam London, 1967.

218 — Minorsky (v.):
Studies in Caucasian history, London, 1953.

219 — Nouveque Petit Larouss
Claude Auge et paul Auge Article, Croisades, Paris, 1939.

220 — Oumara du yeme
Savie et son CEUVRE, Hartwig derenburg, Tom II, Vie de Oumaradu yemen, Paris, 1904.

221 — Rosebault (Charlies J.)

222 — Runciman (Stevan):
A History of the Crusades, Vol. III, London, 1957.

223 — Saint Bernerd,
Etl'esprit Cistercien Dom Jean Le clercq Paris, 1966.

224 — Setton (K.M.):
A History of the Crusades (2 Vols) Pennsylvanis, 1958.

225 — Sivan (Emmanuel):
L'Islam et la Croisade Ideologie et propagande

dans les Reactons Musulmanes aux Cronsades, Paris, 1968.

226 — Stevenson (W.R.):

The Crusaders in the East Cambridge, 1907.

227 — Watt (W. M on togomery)
Muslim Interlectual

MAs a study of Al-Ghazali, Edinburgh, 1963.

المحتويـــــات

المواضيـــــع	الصفحة

المواضيـــــع	الصفحة
١ ـ دوافع فتح القدس	٣٠٦
٢ ـ معاملة صلاح الدين للصليبيين بعد فتح القدس	٣٠٩
٣ ـ صلاح الدين والامبراطور البيزنطي	٣١٠
٤ ـ اول خطبة القيت في المسجد الاقصى بعد فتح القدس	٣١٢
٥ ـ تحرير صلاح الدين لشمال الشام	٣١٣
رابعا ـ موقف صلاح الدين من الحملة الصليبية الثالثة	٣١٩
١ ـ حصار الصليبيين لمدينة عكـــا	٣٢١
٢ ـ فشل الحملة الالمانيـة	٣٢٥
٣ ـ سقوط عكا بيد الصليبيين	٣٢٩
٤ ـ معركة ارسوف سنة ٥٨٧هـ	٣٣٦
٥ ـ تخريب مدينة عسقلان	٣٣٨
٦ ـ العلاقة بين ريتشارد وصلاح الدين	٣٤١
٧ ـ محاولة الصليبيين حصار القدس وفشلهم	٣٤٨
٨ ـ فتح يافـــا	٣٥٢
٩ ـ الهدنة بين الصليبيين والمسلمين وشروطها	٣٥٤
الفصل الرابع : سياسة صلاح الدين نحـو الخلافـة العباسـية والحركة الاسماعيلية	
اولا ـ صلاح الدين والحركة الاسماعيلية	٣٦٣
١ ـ تاريخ الحركة الاسماعيلية	٣٦٣
٢ ـ التسميات التي اطلقت على الاسماعيلية	٣٦٧
٣ ـ اثر راشد الدين سنان في تطوير الحركة الاسماعيلية	٣٧٢
٤ ـ أساليب الحركة الاسماعيلية	٣٧٣
٥ ـ علاقة الاسماعيلية باليهود والنصارى	٣٧٥
٦ ـ محاولة اغتيال صلاح الدين الاولى سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م	٣٧٨
٧ ـ محاولة اغتيال صلاح الدين الثانية سنة ٥٧١هـ/١١٧٥م	٣٧٩

peace was concluded between them.

The fourth chapter was devoted to study Salahuddeen's attitude towards the Isma'ilite movement (The Assassins) as well as his stand towards the Abbassid Caliphate, why he fought the Isma'ilites and finally the real reasons why he reached peace with them.

In the fifth and final chapter I discussed the cultural systems and Salahuddeen internal policy. I talked about correspondence and the writers, about justice, the state incomes and expenses and the interest shown by Salahuddeen towards schools and education. Then I analysed the relationship between him and his princes (province rulers) and how he ran the towns and forts. The chapter ends up with a study about the army and the rules and regulations of army mobilization and on the navy, the types of boats and vessels and their significance.

This thesis consists of five chapters, The first chapter deals with the political conditions of the Muslims in the sixth century of the Hijra, the reasons of the Crusades, the methods and techniques used by the Crusaders to take over the Muslim regions, the policy of Salahul Deen when he became a minister of the Fatimites in 567 A.H./1171 AD to 570 A.H./ 1174 AD. In this way, the first chapter makes the foundation and the cornerstone of the other chapters.

In the second chapter I discussed the attitude of Salahul Deen towards the Muslim rulers, his policy in reunifying Ekypt, Syria and Al-Jazeera in the pernod 570 A.H./582 AD. 1174 AD — 1186 A.D. after showing the turmoil in the political conditions after the death of Nouri Deen. I also discussed the reasons why Salahul Deen marched from Egypt to Syria. Then I analysed the attitude of Salahul Deen towards the people of Mosul, Aleppo, Amid and Sinjar. The third chapter deals with Salahulddin's attitude towards the crusade forces and why he fought them. It also discusses the most important battles between the two sides such as Hitteen battle which paved the way to the recapture of Jerusalem.

A little extra attention has been paid to the conditions in Jerusalem before and after it was recaptured and to the first speech Salahuddeen delivered of Al-Aqsá mosque after it was liberated. This was followed by Salahuddeen's attitude towards the Third Crusade and his efforts in standing against its attacks. Then I discussed the relationship between Salahuddeen and Richard, the Lion-Hearted and why

systems which had a great impact in developing those policies. This is what encouraged me to participate the study of this serious subject.

The Muslim East was at that era living the sequences of literary, religious and intellectual revolution which developed in reaction to the challenge aroused by the Crusaders as a result of their invasion of Syria and taking over of Jerusalem in 492 A.H./1099 A.D. The Muslim masses every now and then staged revolts against their rulers urging them to move fast towards putting an end to that aggression. But the weakness of the Abbassid Caliphate and the differences and feuds among the Muslim rulers especially after the death of the Sultan of Greater Syria Nouril Deen Zeuki in addition to the cooperation between some of those rulers and the Crusaders made it necessary the emergence of efficient leader who could challeuge the existing conditions and occupy the place that became vacant after the death of Nouril Deen and endeavour to unify the nation and liberate Jerusalem.

As a result of the talents which Salahul Deen had, he was able to replace Nouri Deen, unify Syria, Egypt and Al-Jazeera and Lead the armies of the unified countries to fight the Crusaders. He started later he liberated Jerusalem in 583 A.H./1187 AD. his struggle in 570 A.H./1174 AD and thirteen years Five years later he forced his enemies to sign a peace treaty and withdraw from Syria after the failure of the third Crusade.

The Policy of Salahul Deen Al-Ayoubi

in Greater Syria and Al-Jazeera 570-589

A. H./1174 — 1193 AD.

Salahul Deen are constitutes a serviour experience full of events and lessons which require more study and research. What makes a study on Salahul Deen, his holy wars, the problems he encountered, and the solutions he offered useful and inspiring to our Arab nation is the fact that he lived in an era whose conditions, circumstances and events are to a certain extent, similar to those of our present era.

Motivated by my intention to participate with my nation in looking for solutions to its problems and to live our issues.

I have closen the subject of this thesis which shows how Salahul Deen could unify this nation and liberate Jerusalem hoping that it will help in stirring up our people to work for liberation and unity.

Moreover, the Arabic Library is still in need of a book which fully discusses the policy of Salahul Deen since most contemporary Arabic references restrict themselves to the military and political aspects of the life of Salahul Deen. They may make casual mentions as they discuss the relations between the East and the West or the Crusades in general. Still in its early stage is the study on Salahul Deen's internal and foreign policies, his attitude towards the Crusaders, the Abassid Caliphate, the Ismailites and the Atabeks as well as the administrative and economic

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد ٩٠٧ لسنة ١٩٧٦